Maison de la culture arabe
Arab Culturel House
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
رواية
السِّتْ زبيدة
نوال حلاوة

(اليافاوية) للفنان الفلسطيني العالمي د. جمال بَدوان، حصَلت على الجائزةِ الأولى في مهرجانِ الفن لأوروبا الشرقيةِ عن عام 2014، ودَخلت في الموسوعةِ الفنيةِ العالميةِ، وأُعطِيت إسم (تُحفَة) وهو لقب يُطلق عادةً على اللوحاتِ الفائزةِ في المَهرجان السَنوي

شُكر وتقدير للفنان د. جمال بَدوان على إهدائِه لَوحِة (اليافاوية) غلافاً لروايتي

(الست زبيدة)

السِّت زبيدة

رواية

نوال حلاوة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-01-1691-7

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

لوحة الغلاف: هدية من الفنان الفلسطيني العالمي د. جمال بدوان

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

الإهداء

إلى يافا التي تلتحفُ القمرْ... وتُزْهِرُ بأوْراقِ الشجرْ...

وتُعانِقُ البحرَ والسماءَ بقوْسِ قُزَح

وإلى روحِ الشاعرةِ فدوى طُوقان؛ قلتِ لي يومًا:

"أنتِ أديبةٌ يا نوال، تفرَّغي للكتابة".

وكتَبتِ لي على آخر ما وَصَلَني مِنْكِ؛ كِتابِكِ الأخير:

"اللَّحنُ الأخيرُ"

بإهداءٍ رَقيقٍ:

"إلى سيِّدةِ الشَّفافِيَةِ والعُمْقِ...

إلى شَقيقَةِ الرُّوحِ: نوال حلاوة... مَع كُلِّ الحُبِّ".

المحتويات

الست زبيدة........... 11
السّت/المَلِكَة........... 14
البِشَارة 18
وجهُ الخَيْر 28
جبلُ الواويات........... 31
مَسقطُ الرأسِ يافا 35
يافا أم الغريب........... 40
الإضراب الشهير 41
بيارات البرتقال 42
طن طن طن........... 44
شاطئ العجمي........... 47
الزُحليقَة........... 48
الغرق........... 50
أحلامنا 54
أصدقائي الثلاثة........... 56
الميعاد 58
القط والفار 60
أمي أولى الحكايات 63
الملاك........... 65
اللسعة........... 69
عيون قارة........... 70
تغريدات أمي 73
حياة أمي 74
حدوتة أختي 75
جدتي........... 79
عمتي 88
عمّي 93
خالتي 96
أبي آخر الحكايات........... 99
كانون نار 107
العامورة........... 113
القزماط........... 117
الجُدَيْد عامّو والحاملة 120
حواديت الأي باد........... 125
حي النزهة........... 127
الأرض السمراء 133
العريس والعروس........... 134
نوم الغزلان........... 138

الخبيزة 140
شَطْحَة البيارة............ 142
النُّور 142
المشي أداة التنقل.......... 144
المواسم الشعبية 145
الشَّعْبونيَّة............. 147
إخوتي وأنا 150
ليالي رمضان 151
خروف العيد 154
صلاة العيد.............. 157
العيدية وصلة الرحم 160
جواعد الصوف........... 161
النبي روبين 163
نهر اليركون............... 166
النكبة..................... 169
وعد بلفور 173
مأساة فلسطين............. 173
سقوط يافا............... 174
النجادة.................. 177
الرصاص في بيتنا......... 180
الرحيل 182
رعب الطريق............ 185
يافا عالبال 187
مجزرة دير ياسين.......... 188
الشحن تحت القصف 190
نجاة أبي.................. 191
الحياة بعد النكبة............ 195
معاناة النكبة 199
مصنع البلاط........... 200
مخيم بلاطة............. 201
الطفلة الخادمة 205
لاجئ ولاجئة............ 207
مَدَني وقَروي 209
العِرض أم الأرض 211
كارت التموين 212
ثلج وبرد 214
مدفأة الحطب 215
الشيخ الحنبلي............ 218
مديرة المدرسة............. 220
شَرَّفتينا وآنستينا 221
المنشور المحظور 222
من البحر إلى السطح 226
شجرة الصنوبر 229
مشهد درامي 230
فلوكة السطح............. 232
الملك الشاب 234
فرقعة أصوات الدجاج 236
بذرة الخوف............. 238
الكساد ولعبة البرجيس 240
فيلا أم حنانينا............ 243

أخي فسخ الشجرة.......... 246
العَيْبُ.................... 250
حواديت «الست زبيدة»........... 253
المناجاة.................. 258
أول رسالة إعجاب.......... 262
صاحبة العيون الثائرة...... 267
العريس الأمير............. 267
الحب والحرمان........... 270
المراهقة.................. 272
العادة الشهرية............. 274
النبض الأول.............. 277
رسالة وصورة............. 278
النبض الأجمل 281
دبلة الخطوبة............. 286
لبست الأزرق............. 288
ثوب الزفاف.............. 289
شهر العسل 292
ليلة الدخلة 294
أبو الهول والأهرامات 299
الأقصر وأسوان 301
السد العالي............... 302
طفلي الأول............... 306
معاناة الوحم.............. 307
أمي صديقتي..................... 311
قراءة الفاتحة 316
الكنافة النابلسية 320
تهاليل أمي.............. 322
الصوت الرخيم............ 324
الغربة................... 329
عذاب الروح................... 333
مرض أختي 335
الحقيبة الزرقاء 336
الحفرة المظلمة 338
الشفاء من رعب الموت.... 342
وداعًا أبي 345
وداعًا أمي................ 350
فقدانك علقم.............. 352
العودة إلى يافا هدية إلى أمي.... 355
الزجاجة الحمراء........... 359
زيارة يافا................ 361
الجنة 368
شبيك لبيك............... 370
العودة 378
الوصية.................. 382

الست زبيدة

(**الستّ زبيدة**)، اسمٌ أَطْلَقَهُ أبِي عَليٌّ وكنتُ أَسْمَعُهُ يُنادِيني بهِ كاملاً منذُ أنْ بدأتُ أعي الكلامَ، ولمْ يُنادِنِي يومًا باسمِي المُجرَّدِ، وعندما بدأتُ أعي الأشياءَ، أصبحتُ أرى اسمِي المُركَّبَ غريبًا على السمعِ، خاصةً بعدَ أنْ أصبحتُ أُقارِنُه بأسْماءِ بناتِ الجِيرانِ، ورفيقاتِ المَدرسةِ، كانَ مِنَ الصَّعبِ عليهِمْ أنْ يُنادوني (الستّ زبيدة)، لِمَا تَعْنيه كلمةُ الستّ مِن رَسْميّاتٍ، تُطلَقُ على كِبارِ السِّنِّ عادةً، فتَرَكوا (الستّ) وأبقُوا على (زبيدة) فقط، لكنَّ أبي كانَ يُصِرُّ على مُناداتي بهِ كاملاً؛ (الست زبيدة) ليسَ مِنهُ فقط، بل مِنَ جميعِ مَن حَوْلي أيضًا، لَمْ أستَطِعْ استيعابَ إصرارِهِ هذا، بلْ كنتُ أحيانًا كثيرةً أثورُ عليه، وأغضبُ طالبةً مِنْه تغييرَ اسمي، لأنّه يُثيرُ استغرابَ رَفيقاتي ومُعلِّماتي.

استمرَّتْ مُحاولاتُ الطفلةِ اللّحوحةِ في البحثِ عن السرِّ؛ فبدأَ أبي يشرحُ لي بِصَبرٍ جَميلٍ، ماذا يعني له اسمي، فقال:

- "اسمُكِ جاءَ تجسيدًا لازدِهارِ وتَأوُّجِ الإسلامِ في الصَّدارةِ عِلْمًا ونورًا، خاصَّةً في العصرِ العبَّاسيِّ. لقدْ كنتُ في شَبابي مِن المُولَعين بقراءةِ التاريخِ العربيِّ والإسلاميِّ، كنتُ

مُنْبَهِرًا بشكلٍ خاصٍّ بالعصرِ العبَّاسيِّ، وبالذاتِ عصرِ هارونِ الرَّشيدِ، وزوجِهِ (الست زبيدة)."

أرادَ أبي أنْ يزرعَ بُذورَ ذاكَ العصرِ في عَقلي الذي بدأ يتشكَّلُ، ويسألُ ويناقشُ، وكان يردِّدُ دائمًا على مَسامِعي ومَسامِعِ الآخرينَ، بأنَّني ابنتُه الوحيدةُ التي انتظرَها طويلاً، وأنَّني مُدَلَّلَتُه وحبيبتُه، التي أرادَ أنْ يُجسِّدَها مَلِكَةً في حياتِه.

السِّت/المَلِكَة

مَعَ مُرورِ الوقتِ، نَسِيَ الجميعُ اسمِيَ الأوَّلَ، ولَمْ تُنادِني بِهِ مُعلِّماتي، أو رفيقاتُ الدِّراسةِ، ولا صَديقاتِي مِنْ بناتِ الجِيرانِ، واحتفظنَ بالثاني فقط، إلاَّ أنَّ أبي فَرَضَهُ على الجميعِ في البيتِ، وكانَ يُقدِّمُني بِهِ لأَصحابِهِ الذينَ يَزورونَنا بينَ وقتٍ وآخرَ، وأصدِقائِه التُّجَّارِ، أو المُؤسَّساتِ وأصحابِ الأعمالِ التِّجاريةِ الذين يتعامَلُ مَعَهم حيثُ كانَ يَصْطَحِبُني مَعَهُ مُنْذُ نُعومَةِ أظفاري، لأنَّهُ كانَ يتفاعَلُ بي منذُ أنْ وُلِدْتُ.

لَمْ يَكُنْ يَهُمُّني في البدءِ البحثُ عن مَعنَى اسمِي الأوَّلِ، لأنَّني اكتفيتُ بالثاني؛ (زبيدة)، أحببْتُهُ لِنُدْرَتِهِ، أو لأنَّني تعوَّدتُ على رَنينِهِ المُوسيقِيِّ وعذوبَتِهِ وسَلاسَتِهِ في أُذُني، وعندما وَعِيتُ على الدُّنيا أكثرَ أصبحتُ أتعطَّشُ لِمعرفةِ المَزيدِ مِنْ حِكاياتِ أبي عن (السِّت زبيدة) بخاصَّةٍ، وتاريخِنا وتراثِنا العربيِّ بعامَّةٍ.

حدَّثَني يومًا بأنَّهُ اختارَ هذا الاسمَ تيمُّنًا بزوجةِ هارونِ الرَّشيدِ وابنةِ عَمِّهِ التي اشتُهِرَتْ بالبِرِّ والتَّقوى، وأعمالِ الخَيْرِ، والعَطْفِ على

الفُقراءِ، وإصلاحِ شُؤونِ البلادِ التي ازدَهَرَتْ في عَهْدِ زَوْجِها، كانتِ (السِّت زبيدة) شاعرةً تهتَمُّ بالشِّعرِ والأدبِ والعُلماءِ، وكانتْ مَعشوقةَ زوجِها وابنِ عمِّها، ولَها حُضورٌ كبيرٌ في السِّياسةِ العبَّاسيَّةِ، ودورٌ أكبرُ في ازدهارِ الإسلامِ والرفاهيةِ في عَصْرِ زوجِها الذي أحبَّتْه مُنْذُ صِغَرِها وتمَنَّتْهُ زوجًا لها فنالتْ ذلك، واشتُهِرَ يومُ زِفافِها بالبَذْخِ والثَّراءِ حيثُ أُقيمتْ مَأدُبةُ عشاءٍ ضخمةٍ لأهلِ بغدادَ، وَخَتَمَ حَديثَهُ قائلاً:

- مِنْ أهمِّ أَعمالِ (السِّت زبيدة) الخيريَّةِ التي ما زال بعضُها يحملُ اسمَها حتى الآن، سِكَّةُ (الست زبيدة) التي سَهَّلَتْ على الحُجَّاجِ السَّفَرَ إلى مكةَ المُكرَّمةِ، وذلك بِشَقِّ طريقٍ مِنْ بغدادَ إليها، وأقامتْ مَحطاتِ استراحةٍ على طُولِ الطَّريقِ، خاصَّةً وأنَّ صُعوباتِ السَّفرِ كانتْ كثيرةً في ذلك الوقت؛ فقد كانوا يَعتَمِدون الدَّوابَّ في تَنَقُّلاتِهِم، ولا يزالُ حتى الآنَ يُطلَقُ على الطريق (سِكَّةِ السِّت زبيدة).

وأضافَ أبي لِيَزْرعَ حُبَّ الاسمِ في حَواسِّي:

- باختصارٍ يا ابنتي، كانَ للسِّتِ زبيدة حضورٌ ومكانةٌ كبيرةٌ في حياةِ زوجِها بخاصَّةٍ، والعَبَّاسيينَ بِعامَّةٍ، وهي مِنْ سُلالَةِ قريشٍ العربيةِ التي علا شأنُها، لأنَّ نَبِيَّ الإسلامِ قُرَشِيٌّ، وأصبحَ ولدُها الأمينُ بعدَ وفاةِ أبيه هارونِ الرشيدِ، الخليفةَ العباسيَّ الوحيدَ مِنْ أمٍّ وأبٍ قرشِيَّيْنِ، أمَّا باقي الخلفاءِ العبَّاسيينَ فكانتْ أُمَّهاتُهُم جارياتٍ مِنْ أصلٍ فارسيٍّ.

تأثيرُ اسمِي نَمَا مَعي إيجابيًا وتوغَّلَ في أعماقي، ولَمْ أَلْتَفِتْ إلى تَرْكيبَتِه، ليسَ فقط لأنَّ أبي بُشِّرَ بِهِ، بل لأنني رَكَّزْتُ على صاحِبَتِه التي لُقِّبْتُ باسمِها، أحببتُ عِشْقَها للمعرفةِ، وأُعْجِبْتُ بشخصِيَّتِها الجميلةِ، وإنسانيَّتِها الأجملِ كشاعرةٍ ومُثقَّفةٍ، واهتمامِها بمُتابعةِ نُبوغِ الشعراءِ والعلماءِ، وهذا يَدُلُّ على بُعْدِ نَظَرِ (السِّت زبيدةَ) في ذلكَ الوقت؛ لأنَّ الاهتمامَ بالبُنْيَةِ الثَّقافيَّةِ والعِلْميَّةِ والفِكريَّةِ للإنسانِ هو أساسُ حضارةِ بغدادَ وازدِهارِها الاقتصاديِّ والاجتماعيِّ والأدبيِّ في العصرِ العَبّاسيِّ، وَحَوَتْ مكتبَتُها الشهيرةُ على نفائسِ الكتبِ وكنوزِ عُلمائِها في شَتّى المَجالاتِ مِنَ الأدبِ والشِّعرِ والفلسفةِ والطِّبِّ والهندسةِ والصَّيدلةِ.

حتى اجْتاحَهَا هولاكو بِشَرارِ الحقدِ والجهلِ، فأحرقَ مكتبَتَها الغنيةَ بأُمَّهاتِ الكُتبِ، وتَصنيفاتِها التي لا تُحصَى، وأحرقَ نُورَ عُلومِها في ذلكَ العصرِ المُزدهِرِ اقتصاديًا والمُشِعِّ بالحضارةِ الإسلاميَةِ ونُورِ الثَّقافةِ والأدبِ والشِّعرِ بشكلٍ خاصٍّ، لهذا حَمَلَ عصرُها اسمَ (العصرِ الذهبيِّ).

عندما قَرَّرتُ أنْ أكتبَ لكُمْ رِوايتي هذه، أصبحَ يهُمُّني ويَعْنيني معرفةُ أصلِ كلمةِ (الست)، فأخذتُ أبحثُ عنها، وشاهدتُ يومًا المُفكِّرَ المِصريَّ يوسف زيدان في لقاءٍ تلفزيونيٍّ يقولُ:

- كلمةُ (الست) تَعني في اللغةِ العربيّةِ، والمَخطوطاتِ القَديمةِ (الملكة)، وهي أيضًا دِلالةٌ على احترامِ المرأةِ وتقديسِها، وأصلُ الكلمةِ (إيزيس) أيْ إلهةُ الفراعنةِ، وقَبْلَها

عِشتار إلهةُ بابلَ، وحتى الآنَ تُسْتَعْمَلُ كلمةُ (الست) للدّلالةِ على الاحترامِ البالغِ؛ (الستُ المُحترمةُ) أو (السّتُ الفاضلةُ)، ولا نقولُ المرأةُ المُحترمةُ أو المرأةُ الفاضلةُ..

ويُضيفُ د. زيدان قائلاً:

- في تاريخِ الكلمةِ واللغةِ العربيَّةِ، لا يُمكِنُ أنْ يُنسَبَ فِعْلٌ، أو عَمَلٌ ناقصٌ بعدَ كلمةِ (السّت)، لِمكانَتِها المُقدَّسةِ كآلهةٍ في الدياناتِ غيرِ السماويَّةِ في الأزمنةِ القديمةِ. (السِّت) هي الأُنثى، والأُنثى أَصْلُ المعرفةِ منذُ أُمِّنا حَوّاءَ حتى عصورٍ ليستْ بالبعيدةِ؛ فكانَ يُسَلَّمُ لَها قيادةُ أمورِ البلادِ، قبلَ أنْ يتكوَّنَ المُجتمعُ الذكوريُّ.

وبعدَ أنْ قُزِمَ دَوْرُ المرأةِ كمُنْتِجٍ وفاعِلٍ في المُجتمعِ، أصبحتِ الكلمةُ العربيّةُ مُحمَّلةً بدِلالاتِ الإهانةِ للمَرأةِ، وفي كثيرٍ مِنَ البُلدانِ الخَليجيّةِ يُنادُونَ النِّساءَ بكلمةِ: (يا مَرَة).

في القرنِ الماضي، أُطلِقَتْ كلمةُ (الست) على فنّانةٍ عَظيمةٍ، وصلَتْ بصَوْتِها البديعِ إلى مَكانةِ التَّقديسِ فلُقِّبتْ (السّتُ أمّ كلثوم). إنَّ مَكانةَ أمِّ كلثومِ في الغناءِ الأصيلِ، واحترامِ الكلمةِ، ووَضْعِها في مكانِها الصحيحِ، جعلَها إلهةَ الطَّربِ الرّاقي، وتُوِّجَتْ مَلكةَ الغِناءِ العربيِّ، وكوكبِ الشرقِ لتَمَيُّزِها بالإبداعِ في انتقاءِ الكلمةِ واللَّحنِ والأداءِ، ولمْ يتكرَّرْ صوتٌ قويٌّ وساحرٌ يُضاهِي صوتَها حتى الآنَ.

البِشَارة

بعدَ أنْ كَبُرْتُ، أخذَ أبي يُحدِّثُني بجِدِّيَّةٍ أكثرَ وبتفاصيلَ أوسعَ، وبَاحَ لي بحُلُمٍ مُذهِلٍ كانَ السببَ الخَفِيَّ الذي دَفَعَهُ لاختيارِ (الست زبيدة) اسمًا لي؛ حُلُمٌ مُدْهِشٌ وعجيبٌ أخرجَه مِنْ حياتِه ليلةَ مَوْلِدِي، تَحدَّثَ ببُطْءٍ وكأنَّه يَسْتَعيدُ مَشهدَ الحُلُمِ الذي روَّعَني بالقَدْرِ الذي أدْهَشَتْني دِقَّةُ وصْفِهِ له، خاصَّةً بعدَ مُرورِ سنواتٍ عليه، قالَ لي أبي في أُمسيةٍ مِنْ أمسياتِه الصَّافيةِ:

- الليلةَ التي سبقَتْ مَوْلِدَكِ، شَعَرْتُ بقُوَّةٍ جَبَّارةٍ تَسْحَبُني بِرِفْقٍ مِنْ سَريري الدافِئِ، وفي لَمْحِ البَصَرِ كنتُ في مكانٍ آخرَ ودُنيا غارقةٍ في عُمقِ التَاريخِ، وجدتُ نفسِي أَسِيرُ في مدينةٍ مُزدهِرةٍ، يَتنقَّلُ الناسُ فيها بالأَحْصِنةِ والحَميرِ، يَلْبَسونَ العماماتِ والجِبَّاتِ، وينتعلونَ أحذيةً مفتوحةً مِنَ الجِلْدِ ومُضفَّرةِ الإبهامِ بعُقدةٍ تَرْبِطُه مع القِطعةِ العريضةِ وسطَ القدمِ والأصابعِ وخلفيةُ القدمِ مَكشوفةٌ، الناسُ مِنْ حوليَ أحرارٌ، ويتمتَّعونَ بجُرأةِ القولِ والفِعْلِ.
- لَمْ أفهمْ أينَ أنا؟ ولماذا أنا في هذه الدُّنيا الجميلةِ، كانتْ يَدِي ما زالتْ مَمْسوكةً برِفْقٍ بيدِ مَنْ سَحَبَني مِنْ فِراشِي، نَظَرْتُ حَوْلي وشَعَرْتُ بأنَّ الناسَ مُنهَمِكونَ بعَمَلٍ هامٍّ، ويَستعدُّونَ لاحتفالٍ كبيرٍ، يتحرَّكونَ بِسُرعةٍ وبنشاطٍ عجيبٍ، وكُلٌّ في عملِه مُولَعٌ بما يقومُ بهِ وعلى سِيماهُمْ سعادةٌ، امتدَّتْ وتسرَّبتْ إلى أعماقِ فؤادِي،

انشرحَ قلبِي لَهُمْ ولِهذا الابتِهاجِ العظيمِ، وانْتَقَلَتْ سعادتُهم لِي وأنا أُقَلِّبُ نظَرِي بينَهُم هنا وهناك. بَدا لي أنَّ هناكَ احتفالاً ضخمًا يستعِدُّونَ له، وسألتُ مَنْ سَحَبَنِي مِنْ فِراشي:

- إلى أينَ تأخُذُني؟
- سآخُذُكَ إلى قصرِ هارونِ الرشيدِ لأنَّهُ يحتفلُ الليلةَ بعُرْسٍ مَهيبٍ.
- هلْ هذا معقولٌ؟ هارونُ الرشيدُ مَرَّةً واحدةً؟!
- أجلْ، ألاَ تَعرِفُ أنَّ الليلةَ هي ليلةُ عُرسِه على ابنةِ عمِّهِ "زُبيدةَ"؟
- كيفَ أعلمُ؟ أنا كنتُ أَغَطُّ في نوْمِي عندما سَحَبْتَنِي مِنْ فِراشي.
- ألاَ ترى الناسَ على قَدَمٍ وسَاقٍ، يَعْمَلونَ دونَ هَوادَةٍ استعدادًا لِهذا العُرسِ المَجيدِ؟

دخلتُ القصرَ الذي لَمْ أرَ في يَقْظَتي ولا في أحلامي قصرًا بفَخامَتِه، فُرِشَتْ في حديقَتِه الغنّاءِ الكبيرةِ ولائمُ ضخمةٌ لَمْ أرَ مثلَها في حياتي، شاهدْتُ الجَنَّةَ على ضِفافِ نهرِ دِجلةَ، والعامِلينَ كخَلِيَّةِ نَحلٍ يَتَسابقونَ للعملِ بهمّةٍ ونشاطٍ.

سألتُ مُرافِقي مُندهِشًا ومُنبهِرًا بِما أرى:

- لماذا هذا العددُ الضخمُ مِن الولائمِ المَمدودةِ على أرضِ الجِنانِ؟

- لأنَّ هارونَ الرشيدَ دعا أهلَ بغدادَ أنْ يُشارِكوه فَرَحَهُ الليلةَ، لهذا مَدَّ لَهُم ولائمَ العشاءِ الضخمةِ التي تراها، إنَّها ليلةُ زِفافِه على ابنةِ عمِّه التي أحبَّها وأحَبَّتْه وتمنَّاها زوجًا.

لَمْ أعُدْ أعِي ما أسمعُ وما أشاهِدُ، وكأنَّني في حُلُمٍ جميلٍ، الدهشةُ أصابتْ عقلِي ومَسَّتْ روحِي، وجعلَتْني أشعرُ بأنَّ مُخِّي أُصِيبَ بخَلَلٍ، كأنَّ صاعِقًا كهربائيًا أصابَه. تجمَّدْتُ في مكانِي مَسحورًا مذهولاً بالثَّراءِ الفاحشِ، وبِحُورِ العِينِ الحِسانِ اللاتّي يَتَهادَيْنَ بملابِسِهنَّ الحريريَّةِ وسراويلِهنَّ الهَفْهافةِ والمَزمومَةِ مِنْ عندِ القَدَمِ، وشالاتِهنَّ الرقيقةِ التي تتراقصُ بنسماتِ دجلةَ، وانعكاسِ ظلالِ أضواءِ ثُريّاتِ آلافِ الشموعِ المُعلَّقةِ على أعمدةٍ نحاسيَّةٍ لامعةٍ في كلِّ أرجاءِ قصرِ هارونَ، وحديقتِه الغَنَّاءِ بينَ الأشجارِ، والمَمراتِ والمَداخلِ، والمُتدلِيّةِ مِنْ أسْقُفِ القاعاتِ الواسعةِ والمفتوحةِ على جنَّةِ اللهِ في الأرضِ.

ثُريّاتُ الشَّمْعِ الضخمةِ صَهَرَتْ ظلامَ الليلِ وحوَّلَتِ المكانَ إلى لآلِئَ ومَرْجانَ، وقد شاهدَ مُرافِقي، الذي ما زال يُمسِك بيدِي، ضَياعِي وذُهولِي، وشَعَرَ بِهامَةِ روحِي تعلو إلى السماءِ، تَحمَدُه وتشكُرُه بما يُمتِّعُ به عينيَّ مِنْ سِحْرٍ وعَبَقٍ سَرمَدِيٍّ لَمْ أعشْهُ مِنْ قبلُ، فأخذْتُ أقرُصُ ذراعَيَّ بيدِي لأتأكَّدَ بأنَّني الذي أتمتَّعُ بهذا السِّحرِ الرَّبانِي وأخذْتُ أناجِي رَبّي حمدًا آمِلاً أنْ يُديمَ هذا السِّحْرَ وذاك الجَمالَ.

نظرتُ إلى مُرافِقي الذي كانَ لا يزالُ مُمْسِكًا بيدِي برِفْقٍ، وسألتُه:

- كيفَ تهيّأَ لي كلُّ هذا السِّحْرِ؟
- لأنَّ هارونَ الرشيدَ أرسَلَني لأدعُوَك لِهذا العرسِ.

ثُمَّ أخذَني بعيدًا عَنِ الضوضاءِ، وأجْلَسَنِي تحتَ خَميلَةٍ على شاطِئ دجلةَ، تُحيطُ بي أشجارُ الفواكهِ وباسِقاتُ النّخيلِ والبلحِ الحُلْوِ الأصفرِ الذي يَتَدَلى مِنْ عُلُوِّهِ وتتلألأُ عليه أضواءُ الشُّموعِ، وتَعْكِسُ ألوانَ قوسِ قزحٍ، ويفوحُ طِيبُ المِسْكِ ورائحةُ الفُلِّ والياسمينِ، والرياحينُ تحيطُ بي مِنْ كُلِّ جانبٍ مِمّا زادَ مِنْ شعورٍ دفينٍ بالراحةِ والاسترخاءِ، خاصَّةً وأنَّ نسماتٍ مِنْ حريرٍ أخذَتْ تُداعبُ وجهِي وتَرْمِشُ لها جُفونِي. سَرَحْتُ وذابَ كيانِي في المكانِ، وشَعَرْتُ أنَّني في الجنَّةِ، وحتى أتأكَّدَ سألتُ مُرافِقي:

- هل نحنُ في الجنّةِ؟

أجابَنِي ضاحِكًا:

- نعم، أنتَ في جَنّةِ هارونِ الرشيدِ، الذي بِطُموحِه وبأسِه وشجاعَتِه، استطاعَ أنْ يُوسِّعَ مَملكَتَه، ويرفعَ مِنْ شأنِها، فأصبحَتْ في عهدِه مُزدَهِرةً والناسُ تعيشُ فيها بسلامٍ وخيرٍ ووئامٍ..
- قرأتُ الكثيرَ عن عصرِ العباسيّينَ الذي وصلَ إلى قِمّةِ الازدهارِ والرّخاءِ والعِلْمِ والأدبِ، أثناءَ حُكْمِ هارونِ الرشيدِ. ها أنتمْ لا تزالونَ تَعيشُون هذا العصرَ المُشرِقَ، لماذا قالوا إنّه اندثَرَ؟ أنا أراهُ بِوسْعِ عينِي، وأعيشُه بحواسِّي، لقد اختلطَ عليَّ الأمرُ، ولَمْ أعُدْ أفهمُ ما يَجْرِي لِي ولِمَنْ حولِي،

وأشعرُ بصُداعٍ شديدٍ.

- لا تندَهِشْ يا صديقِي، واترُكْ عنْكَ الصُّداعَ، إنَّ هارونَ الرشيدَ يقولُ لكَ: إنَّكَ ستُرزَقُ الليلةَ بطفلةٍ جميلةٍ، ويريدُ مِنْكَ أنْ تُطلِقَ عليْها اسمَ حبيبَتِه التي ستُزَفُّ إليه الليلةَ: (السِّت زبيدة).

هدأتْ روحِي قليلاً، ولَمْ أتمكَّنْ مِنْ طَرحِ المَزيدِ مِنَ الأسئلةِ التي تَغْلي في رأسِي، لأنَّ الموسيقى صَدَحَتْ في أرجاءِ بغدادَ، وبدأتْ الاستعراضاتُ الفُلكلوريّةُ الساحِرةُ، بملابسَ مزركشةٍ تملأُ السماءَ ضياءً، وكأنَّها ألعابٌ ناريّةٌ بألوانِ الحياةِ الجميلةِ والشامخةِ كنخيلِ بغدادَ، وبرتقاليةٌ مُتوهِّجةٌ كبيَّاراتِ برتقالِ يافا.

بدأتُ أطربُ وأرقصُ مع الراقصِين، وذهبَ صُداعِي أدراجَ الرِّياحِ بَعْدَ أنْ غمَرتني سعادةٌ مِنْ نوعٍ خاصٍّ أنعَشَتْ روحي بهجةً سكنتْ فُؤادي.

توقَّفَ أبي قليلاً لِيَبلَّ ريقَه الذي جفَّ مِنِ استعادَتِه للحُلمِ، نظرتُ إليه بشوقٍ وشغفٍ لِمعرفةِ نهايةِ حلمِه العجيبِ، والمُدهشِ ليلةَ مولدي. أكملَ قائلاً:

- فجأةً، تعَالتْ دقَّاتُ الطُّبولِ والمَزاميرِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وحَدَبٍ، تُرافِقُهُم أهازيجُ المِيجنا وزغاريدُ الفرحِ، مِنْ بيتِ العروسِ إلى قصرِ هارونِ الرشيدِ، وفُرِشَتِ الطريقُ بالزهورِ والورودِ ونقاءِ الياسمينِ والفُلِّ مُضفَّرةً مع أقواسِ أغصانِ النخيلِ الخضراءِ، على طولِ الطريقِ مِنْ بيتِ العروسِ،

التـي أصبحَ اسُمها منذُ الليلـةِ (السِّت زبيدة)، حتـى قصـرِ هارونِ الرشيدِ.

- أخذْتُ أُطبِّلُ معَهُم وأصـفِّقُ بـحرارةٍ، وأرقصُ مـع الرَّاقِصينَ، ولَـمْ يَلْحـظْ أحـدٌ أنَّنـي لا أَلْـبس قِلنسـواتِهِمْ ولا مَلابسَـهم المُقصَّبةَ والمُزركشَةَ، ولا هُمْ لاحظُوا اختلافَ هَيْئَتي عنهُم، الكُلُّ كـانَ فـي نَشْوةِ الفَرَحِ ويُمارِسُـها بكُلِّ حواسِّـه، ضِـعْتُ بينَهم وبينَ الألوانِ المُتوهِّجةِ.

- ثمَّ وقفْتُ ألتقطُ أنفاسِي عندما اقتَرَبَ مَوكِبُ العَروسِ، وكُلِّي شوقٌ لرُؤيتِها، ظَلَّلْتُ جَبينِي بكَفِّي ودقَّقْتُ النَّظرَ، شاهدتُ مِنْ بعيدٍ بدرًا تُحيطُه كَوْكبةٌ مِنَ الفَتياتِ الجميلاتِ، يَتَزَيَّنَّ بمَلابـسَ حريريَّـةٍ ذاتِ أكمـامٍ طويلـةٍ تنتهـي بمُقَرنَصـاتٍ أندلسيةٍ مِنَ الحريـرِ، كُنَّ يتهـادَيْنَ ويرقُصْـنَ علـى جـانِبَيْ البدرِ المَهيبِ الذي يُشِعُّ نورَه علـى ثوبِ العرسِ الحريريِّ الأبيضِ والمُطرَّزِ باللؤلؤِ والمَرجانِ.

- اقتَربَ النورُ أكثرَ وأكثرَ، وطـارَ صَـوابِي للجَمـالِ الخـارقِ الذي أخذَ يقتَربُ مَوْكِبُه مِن القصـرِ، كانـت (السِّت زبيدة) أجملَ مِنْ أنْ تُوصَـفَ بكلمـاتٍ، كانـتْ قبسًـا مِنْ نـورِ اللهِ علـى الأرضِ، سـعيْتُ بخطًـى حثيثـةٍ، وكُلِّـي شـوقٌ أنْ أرى البدرَ البهـيَّ الذي سَـحَرَني عن بُعدٍ، أراهُ وجهًا لوجهٍ، لكنَّ شيئًا شدَّنِي، واستمرَّ يشُدُّنِي بإصرارٍ شديدٍ مَنَعَني مِن التَّقَدُّمِ إلـى قُدْسِيَّةِ هذا الجَمـالِ الـذي أراهُ أمـامي، لَمْ أرْضَـخ لِمَـنْ

يشُدُّني خاصَّةً وأنَّني أقتربُ أكثرَ مِنْ بَدْرِ الزَّمانِ التي أعيشُها بكُلِّ حَواسِّي، وامتلأَ قلبي وروحي بسِحْرِ هذا الجَمالِ، وكأنَّه قَبَسٌ مِنْ نُورِ اللهِ، انجذَبْتُ إليهِ بكُلِّي ولا أريدُ مِنْ أحدٍ أنْ يأخُذَني مِنْه.

- حَسَدْتُ هارونَ الرشيدَ الذي سيُزفُّ الليلةَ إليه هذا السِّحرُ، سحرُ المَلكةِ العبّاسيَّةِ الغارقةِ في جمالِها ورِقَّتِها وسعادتِها تُطِلُّ مِنْ عينيْها الساحرتيْنِ الأخَّاذتيْنِ، وشعاعٌ باهرٌ يتألَّقُ مِنْ وجهِها النَّضِرِ، تتوسَّطُ خدَّها الأيمنَ غمَّازةُ عِشقٍ ساحرةٍ تغمِزُ كلَّما ابتسمتْ لحبيبِها عن بُعْدٍ.

لكنَّ الشدَّ اشتدَّ وأصبحَ دَفْشًا، ظننْتُ في البدءِ أنَّ مُرافِقي يريدُ أنْ يُبعِدَني عن موكبِ العروسِ (الست زبيدة)، ولكنَّ الدَّفْشَ القاسِيَ تحوَّلَ إلى قرصٍ في ذِراعي، أزحتُ نفسي بعيدًا عنْه، وإذا بصوتٍ صارخٍ يهزُّني:

- لقد بدأ الطَّلْقُ منذُ زمنٍ، أرجوكَ أنْ تُحْضِرَ لي الدايَةَ.

كانَ صوتُ أمِّكِ يئِنُّ، وجدتُ نفسي مَرميًا على الأرضِ مِنْ شِدةِ ما أبعدتُ نفسي عمَّنْ يَدْفِشُني، وقفتُ أتحسَّسُ ألمًا في ذراعِي، أدْعَكُ رأسِي حتى أفيقَ، وأخذتُ أناجِي نفسِي: "يا إلهي! أين أنا؟ وأينَ قصرُ هارونِ الرشيدِ؟ وموكبِ بدرِ البُدورِ (الست زبيدة)؟ ماذا جَرى لَهُم؟ وماذا جرى لي؟"

وقفتُ مَرعوبًا أنظرُ إلى أمِّكِ التي كانتْ تتأوَّهُ مِنْ شِدَّةِ الألمِ، وتَئِنُّ بصوتٍ ضعيفٍ: "أرجوكَ، الْحَقْنِي بالدَّايةِ، لقد حاولتُ إيقاظَكَ

عِدَّةَ مرَّاتٍ، ولكنَّكَ كنتَ بعيدًا عن الدنيا، هَزَزْتُكَ فلَمْ تَصَحُ، دَفَشْتُكَ ولَمْ تَصْحُ، ثمَّ أخذْتُ أقرُصُ ذِراعَكَ عسى أنْ يُصَحِّيَكَ الألَمَ، لقدْ أرْعَبْتَني، أرجوكَ أَحْضِرْ لِي الدَّايةَ، سأَلِدُ في الحالِ.

- أيقظْتُ خالَتَكِ التي جاءتْ خصيصًا لِولادةِ أُمِّكِ كعادَتِها، وطلبْتُ مِنْها أنْ تُسخِّنَ الماءَ وتَبقى قُرْبَ أُمِّكِ حتى أعود بالدَّايةِ.

نظرَ إليَّ أبي يتَمَلَّى وجهِي مِنْ جديدٍ، وأكملَ حديثَه قائلاً:

- أسرعْتُ أقفِزُ سُلَّمَ بيتِنا وأنا لا أزالُ أعيشُ حُلُمِي الذي بشَّرَني بكِ وباسْمِكِ أيضًا، كنتُ لا أزالُ صَريعَ جمالِ (السِّت زبيدة) والفَرَحِ والاحتفالِ الأُسطوريِّ، أخذْتُ وأنا أجري إلى بيتِ الدَّايةِ أَحْدِسُ وأُسائلُ نفسي: هلْ هذا حلمٌ؟ ولماذا الليلةَ بالذَّاتِ؟ نَفَضْتُ عن نفسِي الأسئلةَ وطرقْتُ بابَ الدَّايةِ، التي والحمْدُ للهِ كانتْ مُستيقظةً لصلاةِ الفجرِ، وفوْرَ أنْ رَأَتنِي وضعَتْ مِلاءَتَها على رأسِها فوقَ لِباسِ النومِ وتَبِعَتْني مُسرعَةً، وهي تقولُ:

- لماذا تأخرْتَ؟ اللهُ يُسترُ! سَتَلِدُ زوجَتُكَ قبلَ أنْ أَصِلَ لَها، وِلادَتُها لا تزيدُ عن عَشْرِ دقائقٍ..

- لَمْ أرُدَّ علَيْها وأسرعْتُ الخُطَى.

مَرَّ الوقتُ دهرًا رَغْمَ أنَّهُ كانَ أقلَّ مِنْ عَشْرِ دقائقٍ، طَلَّتِ الدَّايةُ أخيرًا مِنْ غرفةِ أُمِّكِ، مُهَلِّلةً ومُنشرِحةَ الصدرِ فَارِدَةً يَدَها أمامي لتأخذَ مِنِّي البِشارةَ، وهي تقولُ لي:

- أبَشِّرُكَ بفتاةٍ لَمْ تَقَعْ عَيني على أجملَ مِنْها..

تركتُ يَدَها مَمدودةً، دخلتُ حيثُ أمّكِ تَرقُدُ باسترخاءٍ تامٍّ، وفي حُضنِها بَدْرٌ، نظرتُ إليكِ، وسُحِرتُ بِمَا شاهَدْتُ؛ رأيْتُ ملاكًا ساحرَ الجَمالِ، يَنظرُ إليَّ بِوِسْعِ عينيْه وكأنَّه يريدُ أنْ يتعرَّفَ على مَنْ تَجرَّأَ ودخلَ الغُرفةَ المُقدَّسةَ، غرفةٌ انطلقَتْ مِنها مُنذُ دقائقٍ حياةٌ، سَحَرَني جمالُكِ واسترجعْتُ مَشهدَ العُرسِ وزفَّةَ العروسِ، وصِحْتُ بالدَّايةِ وبأُمِّكِ وخالَتِكِ: هذهِ بِشارةٌ، جاءَتْني الليلةُ مِنْ ربِّ العالَمينَ، بِشارةٌ بأنَّني سأُرزَقُ الليلةَ بطفلةٍ، حتى اسمُها بُشِّرْتُ بهِ (السِّت زبيدة)، سيكونُ اسمُ طِفلَتي.

يُكمِلُ أبي قصَّتَهُ المُذهلةَ وحُلُمَهُ الساحرَ قائلاً:

- أسرعْتُ إلى غُرفتِي بعدَ أنْ أعطيْتُ الدَّايةَ البِشارةَ، وضاعفْتُ لَها أُجْرَتَها، فتَحْتُ دُرْجَ مَكتبِي، وأخذْتُ أبحثُ عن كتابٍ مُعيَّنٍ ولَمْ أَجِدْهُ، وأفرغْتُ كُتُبِي مِنَ الدُّرْجِ الثاني والثالثِ، ولَمْ أَجِدْ ما أَبحثُ عنه، كنتُ واثقًا بأنَّه في الدُّرْجِ الأولِ، أينَ هوَ هذا الكتابُ الذي لَمْ أشبَعْ مِنْ قِراءَتِه مَثنى وثُلاثَ ورُباعَ؟ عُدْتُ إلى غُرفتي مَذهولاً، استلقيْتُ على سَريري لأستعيدَ الحُلُمَ، وإذا بي أشهَقُ بالبكاءِ حمدًا وشكرًا للهِ أنَّه رَزَقني بطفلةٍ، تُزَيِّنُ إخوتَها الصِّبيانَ، زادَ شَهيقِي وأنا استعيدُ الحُلُمَ البِشارةَ، كنتُ أبكي فرحًا بقدومِكِ، ثُمَّ أخذْتُ أستعيدُ الحُلُمَ البِشارةَ، ودونَ أنْ أنتبهَ ارتطمَتْ ذِراعي بشيءٍ صلبٍ وثقيلٍ، حاولْتُ أنْ أُزيحَهُ ولكنَّني لَمْ

أستطِعْ بيدٍ واحدةٍ، فجلسْتُ القرفصاءَ وسطَ السريرِ، ونظرْتُ خَلفي لأرى الشيءَ الصَّلبَ، ولِدَهْشَتي كانَ الكتابُ الذي كنتُ أبحثُ عنه، حَمَلْتُه بيدِي، وضعْتُ مِخدَّةً على رُكبتِي، ألقيتُ الكتابَ الثقيلَ على حضْنِي، كان كتابًا عن الخليفةِ هارونِ الرشيدِ، تأكَّدتُ حِينَها أنَّ هذا الحُلُمَ هو بِشارةُ خيرٍ فأسْمَيْتُكِ (الست زبيدة).

توقَّفَ أبي عندَ ذلكَ، عانَقَني بشدَّةٍ إلى قلبِه، وأخذَ يُقَبِّلُ وَجنتَيَّ قائلاً:

- هلْ فهمْتِ الآنَ قصةَ اسمِكِ؟ اسمكِ يا ابنتي، لَمْ أُسَمِّكِ أنا بِهِ، إنَّهُ بِشارةٌ مِنْ رَبِّ العالَمينَ، لقد بشَّرَني سُبحانَه بأنَّني سأُرزَقُ بابنةٍ جميلةٍ كالبدرِ، بشَّرَني بأنثى تُزيِّنُ إخوتَها الصِّبيانَ هذا ما حلُمْتُ بِهِ وتمنَّيْتُه طويلاً، لقدْ شَعَرْتُ منذُ أنْ رأيْتُ وجهَكِ الصَّبوحَ أنَّكِ بُشرةُ خيرٍ، ونعمةٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ عليَّ، وأنَّكِ ستَجلِبينَ لي الحظَّ والرزقَ الوفيرَ، وأنَّ قدومَكِ هو فالُ خيرٍ على أبيكِ.

يُحكَى أنَّ هنالِكَ طفلةْ...
تَمرَحُ في كلِّ مكانٍ...
وحوالَيْها يُشرِقُ نورٌ
ومكانٌ يمتدُّ ويمتدُّ...
وامتلأَ القلبُ بكُلِّ الحُبِّ
لأمٍّ تُشبِع بالعطاءِ...

وأبٍ يَعملُ بكدِّ القلبِ...

وحواليْها إخوةٌ...

يَجْمَعُهُم فرحُ الأطفالِ

ويُفرِّقُهُم نَزَقُ الأطفالِ.

وجهُ الخَيْر

كانَ أبي مُؤمنًا إيمانًا عميقًا بأنَّني أجلِبُ لَه الحظَّ، وأنَّه مِنْ دُوني لَنْ يحصلَ على الصَّفقاتِ التجاريّةِ، أو المَزاداتِ العلنيّةِ، كنتُ بالنسبةِ لَهُ "وِشّ الخير عليه" وعلى رزقِه وتجارتِه، كنتُ الابنةَ الوحيدةَ لأبي وأمِّي بينَ خمسةِ صبيانٍ، فحُزْتُ على دلالِهم ومَحبَّتِهم، خاصَّةً بعدَ أنْ فقدُوا طفلتَهَم الأولى وهي رضيعةٌ.

كانتْ أمّي ترعَاني وإخوتي بحُبِّها وحنانِها، وكُنَّا كُلَّ شيءٍ في حياتِها، أحببْتُ إخوتي ولكنَّني تمنَّيْتُ أنْ تكونَ لي أختٌ ألعبُ معَها، كنتُ أعيشُ الحُبَّ وأعشقُ الأرضَ والبحرَ والسماءَ وكُلَّ الألوانِ، وكانَ أبي يعتزُّ ويتفاعَلُ بوجودِي معَهُ، لَمْ أكنْ أفهمُ تمامًا غَرَضَهُ مِن اصطحابِي مَعَهُ حتى وَعيتُ على مُحاولاتِ أمِّي لِمَنْعِه، أمّي طيبةُ القلبِ وسلسةُ المعشرِ، وهدوءُ مَنبَتِها وتربيَتُها وخُلُقُها يَطغى على سُلوكِها، فلَمْ تكنْ تَعصي أمرًا لأبي، وترضَخُ له دائمًا، إلاَّ عندَ إلحاحِه باصطحابِ "وِشّ الخير" (الست زبيدة) في صفقاتِه التجاريَّةِ، يشتدُّ الخِلاف بينَهُما، وكانتْ تشدُّني إليها، ويَشدُّني مِنْها إليه.

وفي يومٍ، كانَ أبي فيه مُنهكًا وهو عائدٌ مِن عَمَلِه، ركضْتُ نحوَه أرحِّبُ به كعادَتِي، ضمَّنِي وقبَّلَني، ثمَّ التفَتُّ إلى أمي وأنا ما زلتُ أتمتَّعُ بدفءِ حضنِه وحنانِه، قائلاً:

- لا تنسَيْ أنْ تلبَسِي (السِّت زبيدة) صباحَ الغدِ، أجملَ ما عندَها مِنَ الفساتينِ الثقيلةِ، والحذاءِ الشّتويِّ، ولا تنسَيْ جواربَ الصُّوفِ الطويلةَ، شتاءُ هذا العامِ قارسٌ.
- خيرٌ إنْ شاءَ اللهِ؟
- سوفَ آخذُ (السِّت زبيدة) مَعي صباحَ الغدِ، أمامي صفقةُ عملٍ مُهمّةٍ.

علا صوتُ أمّي الهادئِ:

- إلى أينَ هذهِ المرّةَ؟
- مشوارٌ قصيرٌ، وسنعودُ قبلَ المغربِ.

أربَدَّ وجهُ أمِّي، وشهَقَ قلبُها قائلةً:

- ألَمْ تَعِدْني بالتوقُّفِ عن ذلكَ؟ هل نسيتَ (لبلكة "مَصارينِها")(1) وحالةَ القَيْءِ الحادَّةِ التي ألمَّتْ بها آخرَ مرةٍ؟ هل نسيتَ اصفرارَ وجهِها وتعبِها وبؤسَ منظرِها كلَّما عادتْ مِنَ السفَرِ معكَ؟
- لا تقلقي على (السِّت زبيدة)، لن أشتريَ لها حلوى، ولنْ أطعِمَها كعكةَ جوزِ الهندِ.

---

(1) لبلكة المَصارين: اضطراب الأمعاء، وفي فلسطين يطلق على الأمعاء كلمة المَصارين في الدارجة العامية.

قاطعَتْهُ أمِّي مُتوسِّلةً:

- أرجوكِ، لا أريدُ أنْ تأخُذَها معكَ، كادَتِ ابنتُكَ أنْ تلفظَ أحشاءَها بسببِ كعكةِ جوزِ الهندِ.

أجابَها أبي غاضبًا:

- لكنَّني أخذتُها فورًا إلى الطبيبِ، وبدواءٍ مِنْ عندِه أوقِفُ القيءَ تمامًا.

أجابَتْه بعدَ أنْ نَفَدَ صبرُها:

- أرجوكَ أنْ تَغيِّرَ رأيكَ وتتركَ (الست زبيدة) بحالِها.

أجابَها بإصرارٍ شديدٍ:

- (الست زبيدة) فألِي الحسنَ، ولا غنى لي عنْها في صفقاتِي التجاريةِ.

كنتُ في حيرةٍ مِنْ أمرِي بينَ الاثنينِ، كانتْ أمِّي تقولُ لهُ: حرامٌ عليكَ ابنتُكَ هَلِكَتْ، لا تزالُ صغيرةً على السفرِ وركوبِ السياراتِ.

وافقَ أبي مرةً واحدةً على طَلَبِها، ولكنَّه عادَ غاضبًا مِنْ أمِّي لأنَّه لم يَفُزْ بصفقتِه التجاريَّةِ، وعلَّلَ ذلكَ بأنَّني لَمْ أكنْ مَعَهُ، كانَ أبي مؤمنًا إيمانًا راسخًا بأنَّني أجلبُ لهُ الحظَّ، وأنَّني مُنذُ وُلِدْتُ توسَّعَتْ تجارتُه، وزادَ رزقُه، وفتحَها اللهُ عليهِ، كنتُ أسمعُ، ولا أفهمُ ما مَعنى جَلْبِي الحظَّ لأبي! كُلُّ ما كانَ يهمُّني ويسعِدُني أنَّني مَحبوبتُه، وأنَّه كانَ يتباهى بي وباسمِي أمامَ أصدقائِه، ويقولُ لَهُمْ أنَّه أطلقَ عليَّ اسمَ (الست زبيدة) تيمُّنًا بالست زبيدة زوجةَ الخليفةِ العباسيِّ هارونَ الرشيدَ، التي جلبَتْ لهُ الحظَّ والنعيمَ.

جبلُ الواويات[1]

بعد أنْ وَعيتُ، بدأتُ أستوعبُ الفألَ الحَسَنَ أكثرَ، ولا أدري مِنْ أينَ جاءَتْني الشجاعةُ لأُلْهِمَ والدِي في صفقاتِه بنعمٍ أو لا، هلْ يُعقَلُ أنْ تكونَ الإجابةُ نابعةً مِنْ حِسٍّ داخليٍّ عميقٍ، أمْ أنَّني كنتُ أمارسُ مَع أبِي لعبةً أحبَبْتُها فِيما بعدُ بقولِي لَهُ: نعمْ أو لا على هذا أو ذاكَ، ما زلتُ أذكرُ بوضوحٍ تامٍّ أهمَّ وأكبرَ صفقةٍ تجاريةٍ قامَ بها أبِي في حياتِه، وكنتُ، كَمَا يقولُ، مُلهِمتُه في أخْذِ قرارِه، خاصَّةً وأنَّ أحدَ كبارِ العائلةِ وَبَّخَهُ بشدَّةٍ ونصحَهُ بعدمِ التفكيرِ فيها، قائلاً لهُ:

- هل أنتَ مجنونٌ لترميَ فلوسَكَ في أرضٍ يسكُنُها الواوياتُ؟

الحقيقةُ أنَّها لَمْ تَكُنْ أرضًا يسكُنُها الواوياتُ، بلْ كانَتْ جبلاً أخضرَ ذا تربةٍ خصبةٍ، ومَزروعًا بالقمحِ، ويَسْكُنُه رعاةُ الغنمِ مِنْ البَدْوِ الذينَ يعيشونَ في خيامِ الشَّعْرِ، على الرغمِ مِنْ بعضِ البيوتِ الحجريَّةِ العتيقةِ تحتَ أقدامِ الخيمةِ الكبيرةِ التي استضافُونِي فيها، لا يزالُ يسكُنُ في بالِي المكانُ المُهيبُ بجمالِه الخارقِ، كانتْ سنابلُ قمحِ الجَبَلِ مَفْرودةً ناضِجةً، ذهبيةً سَامِقةً تُضيءُ الجَبَلَ بنورِ أشعةِ الشمسِ على السَّنابلِ، فتَغْمُرُ المكانَ بضياءٍ مُضاعَفٍ، أَنْضَجَ السَّنابلَ المَرفوعةَ رؤوسُها بشُموخٍ.

---

(1) الواويات: جمع كلمة واوي أي إبن آوى يشب إلى حد كبير الثعلب وهو مكّار وذا دهاء، تخرج جماعات في الظلام بحثاً عن الدجاج واللحوم، الناس تخاف منها ولكنها تخشى البشر.

أجْلَسَتْني امرأةٌ عجوزٌ بدويّةٌ على طُرَّاحةٍ[1] داخلَ الخيمةِ المَكشوفةِ على السَّنابلِ الذهبيَّةِ، وأخذَتْ تَمْسَحُ شَعري بيديْها السَّمراويْنِ الخَشنتَيْنِ المَعْرُوقَتَيْنِ، وتقولُ لِمَنْ حولَها:

- شعرُها كالذَّهبِ، مثلُ سنابلِ القمحِ.

ولَمْ تُنَحِّ ناظريْها عنّي، وعادَتْ تُكرِّرُ:

- ذهبٌ، إيْ باللهِ! ذهبٌ مثلُ سنابلِ القمحِ.

خِفْتُ في البِدْءِ مِنْ تِكرارِها تَمسيدِ شَعرِي بيدِها الخَشنةِ، وطارتْ مُخيِّلَتي بعيدًا إلى موقفٍ مُماثِلٍ وحادِثةٍ مُشابِهةٍ خوَّفَتني في البدءِ مِنْ جارَتِنا، التي أوقَفَتْنِي يومًا وأنا أُسابِقُ رفيقاتِي في فضاءِ حديقتِنا الواسعةِ، فأمسكَتْ وجهِي بيدَيْها وأدارَتْه تجاهَ السَّماءِ، ونظرَتْ إلى أوَّلِ شقٍّ مِنَ القمرِ، وتَمتمَتْ بكلماتٍ.

هُرِعْتُ إلى أُمّي خائفةً مِنْ حركةِ جارَتِنا العَجوزِ، ضَحكَتْ وحضَنَتْني قائلةً:

- إنَّ الجارةَ الطيِّبةَ تُريدُ أنْ تَرى أوَّلَ بزوغِ القمرِ على وجهِكِ، لأنَّها تتفاءَلُ بوجهِكِ يا جميلَتي.

أحببْتُ الجَبَلَ، وشعرْتُ براحةٍ عميقةٍ لِوُجودِي في قَلْبِ ألوانِ الحياةِ، بِمَا فيها المَاعزُ والدَّجاجُ وصِغارُهم مِنَ الصِّيصانِ يتنقَّلونَ بخفَّةٍ بينَ سنابلِ القمحِ، يَصُوصُونَ كُلَّما ابتلَعوا حَبَّةً مِنْه نَضِجَتْ

---

(1) الطراحة: فرشة منبسطة للجلوس على الأرض أو في العراء، تفرد ربة البيت الملابس القديمة لديها فوق بعضها، وتُخَيِّطهم طبقات بِسمكٍ وطول فرشةٍ صغيرةٍ، ثم تُحيكُ كيساً من القماش القوي مُقَلما أو مُوَرَدا أو داكنًا، تضع فيه الطُراحةُ للمحافظة عليها وحتى تصبح مقبولة الشكل.

فانسَلَخَتْ عن سُنْبُلَتِها على الأرضِ الخصبةِ، كانتِ الصِّيصانُ والدجاجُ والماعزُ يقفِزونَ بحُرِّيةٍ وأمانٍ تحتَ أشعةِ الشمسِ الدافئةِ، كانَ أبي يُناقِشُ صاحبَ الأرضِ بالسِّعرِ، التفتَ يسألُني كعادَتِه:

- ها يا (الستّ زبيدة)، ما رأيُكِ بهذا الجبلِ، هل أشتريه؟

أجبْتُ بسرعةٍ ودونَ وعْيٍ:

- نعمْ يا أبي، أرجوكَ أنْ تفعلَ.

كنتُ أنظرُ إلى الفضاءِ، وكِدْتُ أَصِلُ السماءَ، كانَ الجبلُ عاليًا وخَصْبًا، تغمرُهُ الزهورُ البريّةُ بألوانِها البديعةِ، وتَنْتَصِبُ شامخةً بينَهُما سنابلُ القمحِ الرشيقةِ التي تَتهادَى مَعَ النَّسيمِ، وهكذا تمَّتْ أسهلُ وأسرعُ وأفضلُ صفقةٍ تجاريَّةٍ نفَّذَها أبي في حياتِه، اشترى الدونُمَ بحَفْنَةٍ مِنَ الجُنيهاتِ، أصبحَ بعدَ عشراتِ السنينِ يُساوي آلافَ الجُنيهاتِ.

يُحكَى أينما التفتَتْ..

لاحَقَها الجَمالُ.. في كُلِّ مكانٍ..

والخِصْبُ والعطاءُ..

يَخرُجُ مِنَ الأرضِ السمراءِ..

فوَّاحًا.. حُلْوَ المَذاقِ..

وخليطٌ مِنَ الألوانِ..

الوَردُ والأُقحوانُ..

وبَرٌّ مِنْ شَقائقِ النُّعمانِ..

مَسقطُ الرأسِ يافا

ولدْتُ في مدينةِ يافا، عروسِ فلسطينَ في أُسرةٍ كثيرةِ العددِ، وكانَ أبي تاجرَ مالٍ قبّانٍ (تاجرَ جُمْلةٍ)، رجلاً مُكافحًا تصدّى لظروفِ حياتِه القاسيةِ منذُ طفولَتِه، وتحمَّلَ مسؤوليةَ العيشِ لأُمِّه وإخوتِه بعدَ أنْ ترَمَّلَتْ أُمُّه صغيرةً، وبعدَ أنْ عادَتْ جثةُ أبيه على ظهرِ حمارِه إلى مدينَتِه نَابُلْسَ أثناءَ الحربِ العالميَّةِ الأُولى التي جَلَبَتِ الفقرَ والقَحطَ، وأُطلِقَ عليها في حينِها: (سَفرْ بَرْلِك)[1]، وهي كلمةٌ تركيةٌ تَصِفُ بكلمتيْنِ، مُعاناةَ البشرِ وجفافَ الأرضِ.

في تلكَ الفترةِ الضَّنْكَةِ مِنْ حَياتِهِم، في أواخِرِ الحُكمِ العُثمانيِّ للأُمَّةِ العربيةِ، تقرَّرَ مصيرُ أبي؛ فأصبحَ وهو طفلٌ في الثالثةَ عشرَةَ مِنْ عُمُرِه أبًا لإخوتِه وابنًا بارًّا لأُمِّه.

انتقلَ أبي إلى يافا، بعدَ أنْ حَصَلَ على وظيفةِ عسكريٍّ في البوليسِ، لخدمةِ الضابطِ البريطانيِّ وتلبيةِ طلباتِ بيتِه. في مرةٍ، طلبَتْ زوجةُ الضابطِ مِنْ أبي أنْ يشتريَ لها لحمًا، فاشترى لَهُمْ

(1) سفر برلك: كلمة تركية تعني "الحرب الأولى" أو النفير العام، وقيل أيضاً أن معناها الترحيل الجماعي، حصلت مجاعة إبان الحرب العالمية الأولى في بلاد الشام خاصة في سوريا ولبنان.

أفضلَ قطعةٍ مِنَ الضَّأْنِ البَلَديِّ، ولَمّا شاهدَتْه نظرتْ إلى الضأنِ باشمئزازٍ وقرفٍ، وقالتْ لأبي:

– هذا ليس لحمًا، هذا زبالة!

وطلبتْ مِنْه أنْ يُعيدَه إلى اللَّحامِ، ضحكَ اللحَّامُ مِلْءَ شدقيْه، وقالَ لأبي:

– كنتُ قلتَ لي يا (زَلَمِة) إنها للضابطِ الإنجليزيِّ، كنتُ أعطيتُكَ فخذَةَ لحمٍ بقريٍّ، الإنجليزُ لا يأكلونَ الضَّأْنَ، وبَدِّلَ بقطعةِ الضأنِ، فَخذةَ لحمِ بقريٍّ.

فرحتْ زوجةُ الضابطِ بها، وأثْنَتْ قائلةً:

– هذا هو اللحمُ الجيِّدُ.

لم تُرْضِ الوظيفةُ طموحَ أبي، فتَرَكَها بعدَ حادثةِ اللحمِ الذي وصفتْهُ زوجةُ الضابطِ بالزِّبالةِ، وكأنَّه شعرَ بأنَّ الضأنَ الذي يأكُلُه الفلسطينيونَ والعربُ بشهيَّةٍ، أُهينَ بقسوةٍ مِنَ الأجنبيِّ الذي يَجْهَلُ قيمةَ الضأنِ.

عادَ أبي إلى العملِ الحُرِّ الذي تعوَّدَ عليهِ منذُ يَفاعَتِهِ، وفتحَ محلاً لبيعِ لحمِ الضأنِ البلديِّ فقطْ، نِكايةً وانتقامًا مِنْ غطرسةِ زوجةِ الضابطِ؛ لأنّها لَمْ تَكُنْ مهنتُه، ولا خبرةَ لَهُ فيها، واضْطُرَّ أنْ يتخلَّصَ مِنْهُ بسرعةٍ، ويعودَ إلى مهنةِ التجارةِ الحُرَّةِ التي بدأها فتًى في مدينةِ نابلسَ لإعالةِ أُسرتِه بعدَ استشهادِ ربِّ العائلةِ، وبعدَ استقرارِ أبي في تجارتِه، تزوَّجَ أُمّي فورَ أنْ نَضَجَتْ، قبلَ أنْ تُكمِلَ الرابعةَ عشرةَ مِنْ عُمْرِها، أحبَّتْه وأنجبتْ له خمسةَ صِبيانٍ وأنا.

كبرَتْ عائلتُه، وسعَى أبي حثيثًا لتوسيعِ رزقِه، وتوسَّع في مجالِ البيعِ بالجُملةِ (مالُ قبَّان)، ونجحَ فيها نجاحًا كبيرًا، بحُكمِ خبرتِه الطويلةِ ويقظتِه، وحُسنِ مُعاملتِه مع الناسِ.

كانَ أبي يقولُ لنا باستمرارٍ:

- إنَّ العملَ التجاريَّ يا أبنائِي، يُعلِّمُ الإنسانَ كيفَ يتعاملُ معَ الناسِ، خاصَّةً إذا ارتكزَ التعامُلُ على القِيَمِ الحميدةِ، وأهمُّها التحلِّي بالصدقِ والأمانةِ والإخلاصِ في خدمةِ الزبونِ. إنَّ حُسْنَ المعاملةِ وطِيبِها يا أحبَّتي، مبدأٌ أساسيٌّ في حياةِ التاجرِ الناجحِ، فمَنْ أرادَ مِنْكُم أنْ ينجحَ في التجارةِ.

ثُمَّ ركَّزَ عينيْه في عينيَّ لدرجةٍ هزَّتْني، وبعدَ صمتٍ ثوانٍ مرَّتْ كأنَّها ساعاتٌ، شعرتُ بأنَّ عينيَّ ذابتْ في عينيْه، أكملَ أبي قائلاً:

- عليه التمسُّكُ بمبدَأيْنِ اثنينِ لا ثالثَ لهما: (الجرأةُ والاستقامةُ).

هلْ كانَ أبي يحلُمُ أنْ أكونَ تاجرةً مثلَهُ؟ لستُ أدري! خاصةً أنني أصبحتُ أعِي وأدركُ دورَ البنتِ في الحياةِ.

ازدهرَتْ مدينةُ يافا، وذاعَ صيتُها في الوطنِ العربيِّ، ونزحَ إليها العديدُ مِنَ التُّجارِ والمزارعينَ والأيدي العاملةِ مِنْ مصرَ ولبنانَ وسوريا.. وغيرِهم، ومِنْ قَبْلِهم مَرَّ بيافا بعضُ الجنودِ المصريينَ مَعْ حَمْلَةِ إبراهيمَ باشا، ضِمْنَ الحَمْلاتِ العسكريَّةِ والتوسعيَّةِ لمحمد علي، أعجبتْهُم مدينةُ يافا، وتزوَّجوا مِنْ بناتِها واستقرُّوا فيها، وسكنَتْ قلوبَهُم محبَّتُها، وأصبحوا فيما بعدُ مِنْ أكثرِ العائلاتِ اليافاويَّةِ شهرةً وحُبًّا

وانتماءً ووفاءً، كانتْ أسماءُ أغلبِ تلكَ العائلاتِ تبدأُ بـ (أبو)، مثلُ عائلةِ أبو الجبين، وأبو اللَّغد، وأبو اللبن، وأبو حصيرة، كانتْ كلمةُ (أبو فلان) هي لقبُ ربِّ الأسرةِ، وقد تسمّى بمثلِ ذلكَ بعض القادةِ الفلسطينيين، كما أنَّ هناكَ عائلاتٍ دونَ (أبو) في يافا، مِنْ أصلٍ مصريٍّ أيضًا مثلَ: عائلة هيكل والشعراوي، وغيرِهم في شتَّى أنحاءِ فلسطينَ.

يافا أم الغريب

استَقبلَتْ مدينةُ يافا بحُبٍّ وبصَدْرٍ رحْبٍ كُلَّ مَنْ جاءَ للعملِ فيها مِنَ البلادِ العربيَّةِ، مِنْ عُمَّالِ الميناءِ إلى صيَّادي السمَكِ، والأيدي العاملةِ في المَصانعِ، والمَحلاَّتِ والمُزارعينَ للعملِ في بيَّاراتِ البرتقالِ، ولفِّ ثمارِه، ووضعِه في صَحَّاراتٍ (صناديقَ خشبيةٍ لتصديرِ البرتقالِ إلى أوروبا).

لقدْ ساهَمَ جَوُّ يافا المُعتدلُ صيفًا وشتاءً في خصوبةِ أرضِها، وزراعةِ الفواكهِ المُثمرَةِ، مثلِ المشمشِ والتينِ البحاريِّ القريبِ مِنْ الشواطئِ، والجوافةِ والتوتِ والجُمّيزِ، كانتْ يافا أرضًا خصبةً لألوانِ وأطيافِ الزُهورِ مثلِ الفتنةِ والقرنفلِ والوردِ والنرجسِ والفلِّ والياسمين. كانَ نسيمُها يَهيمُ في فضاءِ يافا، وعبيرُها يتموَّجُ في سمائِها كَمَوْجِ البحرِ الذي لا يتوقَّفُ على الشاطِئ، مَمزوجًا بعطرٍ لهُ رائحةٌ أخَّاذةٌ وفريدةٌ؛ عطرِ زهورِ البرتقالِ والليمونِ عندما تتفتَّحُ زهورُهُما البيضاءُ يُتيحُ لأصفرِ البرتقالِ والليمونِ في قَلْبِهما أنْ يتوهَّجَ.

الإضراب الشهير

مِمّـا يجـدُرُ ذِكـرُه هنـا، أنَّ عُمَّـالَ المِينـاءِ هُـمْ أوّلُ مَـنْ أشـعَلوا إضـرابَ عـامِ 1936، الـذي انتشـرَ فـي ربـوعِ فلسـطينَ واسـتمرَّ لمُدَّةِ ستةِ أشـهرٍ، وذلـكَ رفضًـا لسَـماحِ الانتـدابِ البريطـانيِّ بتـدَفُّقِ يهـودِ أوروبـا وأمريكـا عبـرَ مينـاءِ يافـا، وأثنـاءَ ذلـكَ دمَّـرَ الإنجليـزُ السـوقَ التجاريَّ التراثيَّ الضـخمَ في قلبِ مدينـةِ يافا القديمـةِ ومبانِيها وبيوتِـها الحجريَّـةِ ذاتِ المِعمـارِ الأصـيلِ، بحُجَّـةِ أنَّ الثُّـوارَ يَسـتعمِلونَـها مَخبـأً لَهُمْ.

توسَّطَ الإنجليزُ لَدَى أصدقائِهِمْ مِنَ الحُكَّامِ العربِ حتـى يُقنِعوا القيـادةَ السياسـيةَ الفلسـطينيةَ بإيقـافِ الإضـرابِ، (الحـاجّ أمـين الحُسينيّ) مُفتـي فلسطينَ في ذلكَ الحينِ وافقَ على طلبِ الوَسَاطةِ، بحُجَّـةِ أنَّ الإضـرابَ أثَّـرَ علـى الوضـعِ الاقتصـاديِّ فـي فلسـطينَ، واعتمـدُوا علـى النوايـا الحسـنةِ للإنجليـزِ، علـى وعْـدٍ مِـنْهُم بتَحقِيـقِ مطالبِ المُضرِبينَ.

أحبَّتْ أمّي مدينـةَ يافا، كَمَا أحبَّتْها يافا ولم تَنْسَـهَا، حتّى آخرِ يومٍ مِنْ عُمُرِها سَكَنَتْ قلبَها أكثرَ مِنْ أيَّةِ مدينةٍ أخرى عاشتْ فيها فِيما بعدُ، فأصبحَتْ هَواها الذي تحبُّ الحديثَ عنهُ باستمرارٍ.

بدأتْ أمّي حياتَها الزوجيَّةَ في يافا، وأصبحَتْ أُمًّا فيها، وعاشَتْ في خيرِ يافا وحُبِّ الناسِ لها، خاصَّـةً الجاراتِ اللواتي عوَّضْنَها عن بُعدِها عن أمِّها، حَنَوْا عَلَيْها وكُنَّ نِعْمَ الجاراتِ لَها، لأنَّها غريبـةٌ أوَّلاً، وصـغيرةٌ ثانيًا وبعيدةٌ عن أمِّها وأهلِها ثالثًا.

اتَّخَذْنَها الكبيراتُ مِنْهِنَّ خاصّةً الجارةُ المُلاصِقُ بيتُها لَنا ابنةً لهنَّ، كُنَّ يُوجِّهْنَها بالنُّصحِ، ويُرشِدْنَها لِمَا فِيه خيرُ أُسرَتِها الصغيرةِ، ويساعِدْنَها في كُلِّ ما تحتاجُ إليه في حياتِها في مدينَتِها الجديدةِ، كانَ أهلُ يافا كرماءُ مع الغرباءِ الذينَ جاءوا من البلادَ العربيَّةَ خاصَّةً مِصرَ، أَتَوْا إليها طلبًا للرِّزقِ، فوفَّرَ لَهُم أهلُ يافا عملاً كُلٌّ حسبَ مهنتِه وخبرتِه، لهذا أُطلِقَ عليها اسمُ: "يافا أمّ الغريبِ" حتى لِمَنْ لجأَ إليها مِنْ المدنِ والقُرى الفلسطينيةِ.

كانتِ الحياةُ الاقتصاديةُ في قمَّةِ انتعاشِها، قابلْتُ بعضَهُم في بياراتِ برتقالِ يافا التي كانَ أبِي التاجرُ يتضمَّنُها لتصديرِها إلى أوروبا، كانَ المُزارِعونَ المِصريّونَ مَعروفينَ بأدَبِهم الجَمِّ وإخلاصِهم في عملِهم، وحبِّهم الشديدِ للزراعةِ والعملِ في مزارعِ البرتقالِ الواسعةِ، كانُوا يَلُفُّونَ ثمرةَ البرتقالِ بالورقِ الناعمِ الشَّفافِ، المَختومِ باسمِ شركةِ أبي التجاريّةِ، ثُمَّ يَصُفُّونَه في الصناديقِ الخشبيّةِ للتصديرِ عبرَ ميناءِ يافا الشهيرِ.

بيارات البرتقال

كانتْ بياراتُ برتقالِ يافا على مَرمَى النظرِ، وكانَتْ أرضُها السمراءُ خصبةً، وساهمَ جوُّهَا المُعتدلُ صيفًا وشتاءً في خُصوبَتِها وازدهارِ ثِمارِها، لهذا أقبلَ عليْها الأشقاءُ العربُ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ، وسمعْتُ مُؤخَّرًا مِنْ صديقةِ طُفولَتي السوريّةِ أنَّ والدَها الطموحَ والتاجرَ المُحنَّكَ أبًا عن جَدٍّ، سمِعَ بازدهارِ يافا، فجاءَ إليها

مِنْ سوريا ودرسَ وضعَها جيدًا، وعرفَ ما ينقصُ المدينةَ، وما تحتاجُ إليه مِنْ أعمالٍ، واستَدْعى إخوتَه وأبناءَ عمومَتِه، وفتَحوا مصنعًا للزجاجِ، ومَتاجِرَ للأحذيةِ والألبسةِ، ومحلاّتٍ لِصناعةِ البوظةِ/الآيس كريم الشاميّةِ البلديّةِ الشهيرةِ بالفستقِ الحَلَبيِّ.

فتحَتِ المدينةُ أبوابَها لهُمْ على مِصراعَيْها، ولكُلِّ المُستثمرينَ العربِ، لَمْ يستمرَّ الازدهارُ طويلاً بسببِ النكبةِ التي حَلَّتْ بفلسطينَ عام 1948.

لَمْ يكُنْ لِي في يافا سِوى أُمّي وأبي وإخوتي وصديقاتِي مِنْ بناتِ الجيرانِ، وعندما بدأتُ أَعِي زياراتِ أقاربِ أُمّي وأَبي تعرَّفتُ على جدَّتي وعمَّاتي وأعمامِي الذينَ كانوا يزورونَنَا في المُناسباتِ، أمَّا خالَتِي فكانَتْ مَشغولةً بأُسرَتِها الكبيرةِ، ولكنَّها كانتْ حريصةً على وجودِها مَعَنا في كُلِّ وِلاداتِ أُمّي لتَعْتَنِيَ بِها وبِنا، خاصَّةً بعدَ أنْ تَوفَّى اللهُ جدَّتِي.

كانتْ أُسرَةُ أَبي أقلَّ عددًا مِنْ أُسرتِه التي أنشأَها، وكنتُ دائمًا في شَوْقٍ لسماعِ أخبارِهم، والمزيدِ مِنْ قِصَصِهِم خاصَّةً وأنَّهم يُقيمُونَ أيضًا في مُدُنٍ تحتاجُ إلى مواصلاتٍ واستعداداتٍ للوصولِ إليْنا، كَمَا كانَ لَهُمْ عائلاتِهم وأعمالِهم، كنتُ ألتهبُ شوقًا عندَما يَزورُونَنا لأيامٍ معدوداتٍ، وكانَ أحدُ أعمامِي يُدلِّلُني كثيرًا، وكذلكَ عمَّتِي الكبيرةُ، كَما كانَ يفعلُ خالِي الذي أحبَبْتُ دَلالَه، وأحبَبْتُ طيبَتَه، وحُبَّهُ لأمّي ولَنا. كنتُ أحِبُّ حكاياتِ عمّي الرائعةَ، التي كانَ يقصُّها عَلَيْنا، وَدَاعُهُم كلَّما رحلُوا عائِدينَ إلى بيوتِهم وأعمالِهم كانَ يُحزِنُني

ويُبكِينِي، حتّى استقرّتْ جدَّتِي لأبي عندنا، فتلوَّنتْ دُنيا طُفولَتي بألوانِ التُّراثِ الجميلِ، وحكاياتِ جدَّتِي التي تناقَلَها الناسُ بالسَّرْدِ الشَّفويِّ.

طن طن طن

كنتُ حبيبةَ أبي ودَلّوعَتَه، كانَ يُغرِقُني بحنانِه خلالَ الفتراتِ القصيرةِ التي يقضِيها مَعَنا فيُنْسِينِي غيابَه المُستمرَّ عنّا، كنتُ أشعرُ بأنَّ لي وضعًا خاصًا عندَ أبي، يُجيبُ عنْ أسئِلَتي، ويُشجِّعُني على طَرْحِها، ولا يَضَعُ حدًّا لَها، كانَ فَوْرَ أنْ يعودَ مِنْ عَمَلِه يُنادِي:

- وين (الست زبيدة)؟

فأركُضُ لاستقبالِه ويَلُفُّنِي بحضنِه، وقُبُلاتِه، ويُبادِرُني بسؤالِه المُعتادِ:

- كيفَ كانَ يومُكِ يا (الست زبيدة)؟

أُجيبُهُ بعِناقِي وما يَنطَلِقُ بِه لِساني بِوَصْفِ يَوْمِي ومُساعدَةِ أُمِّي، خِناقَاتِي مع إخوَتِي، حُبِّي وشَوْقِي لَه.. و.. و..

أَوْقَفَني أبي سائلاً:

- وماذا عَن الواجبِ؟ أَلَمْ أُعلِّمْكِ أُغنيتِي المُحبَّبةَ التي تعلَّمْتُها في المدرسةِ وأنا طفلٌ بعمرِك؟
- واللهِ يا بابا، حفِظْتُها كلَّها مِنَ الصُّبح وأنا أُغنِّيها، واسألْ أمِّي.
- شطورة! يلاّ، غنِّها لَنا.

نـادَى أبــي إخــوَتِي، جَمَعَهُـم مِـنْ حَـوْلي، وطلـبَ مِنّــي أنْ أقِـفَ مُنتصبةَ القامـةِ، وأُغنّـي بصـوتٍ جَهْوَرِيٍّ أغنيتَـه المُحبَّـةَ التـي منـذُ أنْ وَعيـتُ كـانَ يُغنِّيهـا لنـا، ويُصـفِّقُ بيدَيْـه، ويُلحِّـنُ كلماتِهـا ويتوقَّفُ عَن بعضِ مَقاطِعِها، تَهَيَّبْتُ في البدءِ عندَما رأيْتُ العيونَ كلَّها مُسلَّطةً عليَّ، وإخوتي يضحكونَ يتغامزونَ، أَسْكَتَهُم أبي وقالَ لي:

- يلاّ، كُلُّنا آذانٌ صاغيةٌ.

والتفَـتَ إلـى إخـوتِي وطلـبَ مِـنْهُم أنْ يفتَحُـوا آذانَهُـم بأيـدِيهم حتّــى يســمعونِي جيـدًا، حاولْــتُ أنْ أقلِّــدَ حركــاتِ يــدَيْ أبِــي ونبضـاتِ صـوتِه، نظرَ لِي بِحُبٍّ شجَّعَني وبدأتُ أُغنِّـي لَهُم بـأعلى صوتِي:

طن طن طن طن... طن طن طن طن

جَرَس عَم يُضرُب سَامعَه صُوتُه يعمل:

طن طن طن طن

إنْ شاء الله يُوقَع يِنكْسِر ويصِير صوتُه يِعمَل:

خِن خِن خِن خِن

أختي تفَيّقْني... على ضهري تْدُقْني

ودموعي زَيّ المَطَر عَمّالها تِحرِقني

والماما بجنبي قاعدة تملئلي

قومي يا روحي... قومي يا ستّي

دقّ الجرس على صَفَك قومِي رُوحي

محبوبة أمّك حَاجِي تبكي وتنُوحي

ساعة بصرّخ... ساعة بَبْكي...

ساعة بَنْهَقْ... ساعة ببكي... وساعة بنفُخْ

ألبس كَلْساتي... مِن غير تَغويقة

تِسألني معلمتي شو هالتَعويقه؟

تأخرتِ عن صفك سبعين دقيقة؟

لوين درستي؟ لوين وصلتي؟

ألف وياء.... إلى آخرها....

صفقّوا لي بحرارةٍ، حضَنَنِي أبي بقوَّةٍ مُقَبِّلاً ومُردِّدًا:

- كَمْ أنا فخورٌ بكِ!

تكثُرُ الأغاني التي أُغنِّيها وحتى صِيصانِي وأرنَبي يسمعونها، وتكبُرُ الحكاياتُ، ويتبَعْثَرُ الحُبُّ والفرحُ الطفوليُّ الجميلُ، ويتشتَّتُ الودُّ والسلامُ، وتُغْتالُ تلكَ السعادةُ الخاصةُ مِنْ حياتي بشكلٍ صادمٍ ومُفجعٍ وأنا ما زلتُ طفلةً بعد أنْ حَلَّ مَحلَّها النكبةُ والنكسةُ والشتاتُ. ويتراكَمُ عليها العمرُ والزمنُ، ويرحلُ النهرُ وتتساقطُ أوراقُ الشجرِ؛ لهذا قرَّرْتُ أنْ أكتبَ لكُمْ فيضَ قلبِي، وما احتلَّ وِجدانِي وعُمري مِنْ صدماتٍ؛ النكبةُ والنكسةُ والشتاتُ.

يُحكَى أنّها طفلةٌ مُدللةٌ..

بينَ خمسةِ صِبيانٍ..

تنمو رويدًا.. وتكْبرُ في كُلّ صباحٍ..

قوَتُها حُبٌ..

رشفتْهُ قطرةً.. قطرةً

مِنْ ثَدْيِ الأرضِ..

تَعشَقُ البَرارِي..

واللَّعبَ في الحَوارِي..

تجمعُ الأزهارَ..

وتَقطِفُ الرُّمانَ..

بكفِّها الرَّيَّانِ..

لتُطعِمَ الحَمام.

شاطئ العجمي

كنتُ فَوْرَ أنْ أتدَحرَجَ وراءَ إخوتِي على الدَّرَجِ الرُّخاميِّ الأبيضِ، المُطَعَّمِ بالرَّماديِّ الفاتحِ في بَيتِنا الذي يُطِلُّ على شاطئِ البَحْرِ، وعلى بُعْدِ خُطُواتٍ، نُواجَهُ بِدَرَجٍ حَجَرِيٍّ نَتَزَلَقُ مِنْه إلى البحرِ مباشرةً، كانَ يُبْهِرُ طفولَتِي الفضاءُ الأزرقُ الواسعُ، والنورُ الساطعُ، والبحرُ والرملُ مُمتدّانِ على طولِ الشاطئِ، والزَّبَدُ الأبيضُ الناصعُ يتلألأُ، والمَوْجُ الذي يبدأُ مِنْ قلبِ البَحْرِ عاليًا يتكَسَّرُ كُلَّما اقتربَ مِنَ الشاطِئِ ثُمَّ تهدأُ أمواجُه العاليةُ رويدًا رويدًا، ثُمَّ يتحوَّلُ الزَّبَدُ الثلجيُّ كثيرُ الرغوةِ إلى فُقاعاتٍ تَسترخِي على الرملِ الأملسِ والمائلِ إلى الأسمرِ الذهبيِّ، عندَها يبدأُ في التنفُّسِ والاسترخاءِ، بعدَ معركةٍ حاميةٍ مِنْ قلبِ البَحْرِ، حتَّى شاطِئِه.

الزُّحلِيقَةَ

كانـتْ سـعادَتي بالسَّـيْرِ حافيـةً علـى الرمـلِ، والتزحلُـقِ علـى الصخرةِ الواقِعةِ على طرفِ الشاطئِ والقَريبةِ مِنَ السُّورِ لا تُوصَفُ، ومِنْ كثرةِ قَفْزنا وزَحْلَقَتِنا عليْها، أصبحَتْ ملساءَ، كانتِ الصخرةُ تبدُو وكأنَّها نصفُ بيضةٍ ضخمةٍ زُرِعَتْ على الشاطئِ، وكانَ الصُّعودُ عليْها شاقًّا في البدايةِ، ولكنْ مَعْ الوقتِ أصبحَ مِنَ السهلِ الوصولُ إلى قِمَّتِها، والتَّزحلُقُ عليها بنشوةٍ عندَما كنتُ أهبِطُ مِنْ أعلاها، بسرعةٍ على الطرفِ الآخرِ مِنَ الصخرةِ.

كانتِ الصخرةُ كأنَّها هديةٌ لأطفالِ الحيِّ هبطتْ عليْهِم مِنَ السماءِ لِيَلْهوا بِها، كانتْ بلَوْنِها الحجريِّ وصلابَتِها كبيرةً جدًا في مُخيِّلةِ طُفولَتِي، وكُنّا نتسابقُ على التزحلُقِ عليها وكانتْ تَسَعُنا كلَّنا، كانتْ حافَّةُ الصخرةِ ملساءَ ولكنَّها كانتْ تَخْشَوْشِنُ كُلَّما عَلَوْنا.

بيتُ الشاطئِ كانَ ولا يزالُ حُبِّي الأولَ؛ وخوفِي الأولَ؛ حُبِّي الأولَ: لأنَّه كانَ يُطِلُّ على البحرِ المُسترخِي على ضِفافِ الشاطئِ الذي تَهوى أحضانَه، وترعرعْتُ على صوتِ حَفيفِه الهادئِ صيفًا، وهديرِه الذي تَضرِبُ أمواجُه سورَ البحرِ الحجريِّ شتاءً.

كنَّا نقفُ بمحاذاةِ السورِ نستقبلُ غضبَ البحرِ يَرُشُّ ملابسَنا ووجوهَنا، عشقْتُ أصواتَ البحرِ التي تتبدَّلُ على مدارِ العامِ وتتشكَّلُ حسبَ الظروفِ الجوِّيةِ.

وكانَ خوفِي الأولَ: بسببِ رؤيَتِي للغُولةِ الضخمةِ التي شاهدتُها بأمِّ عيني تجلسُ كالأسدِ على قوسِ بئرِ بيتِنا، قصةُ أولِ خوفٍ

تجرَّعتُه في حياتي، ستجدونَها في مكانٍ آخرَ مِن الروايةِ.

كانَ شاطئُ العَجَمي مِن أجملِ شواطئِ فلسطينَ، وعروسِها يافا، الناسُ والسابحون فيه مِن كلِّ الأعمارِ، (لاحِظوا: السابحون فقط، لأنَّه لَمْ يكُنْ هناكَ سابحاتٍ؛ كانَ عيبًا أنْ تنزلَ المرأةُ حتى بثوبِها الطويلِ، وَيانَسِها[1] الذي يغطِّي شعرَها لأنَّ الماءَ سيُجسِّدُ تقاسيمَ جسدِها، كما حُرِّمَ على الفتياتِ ممارسةُ تلكَ الرياضةِ، وعندما كبرْتُ واستَقلَلْتُ بحياتي بعد زواجي، أشبعْتُ روحي قُبَلاً وشوقًا للبحرِ وأمواجِه، فأنا مِن مواليدِ أحد أبراجِ البحرِ المائيةِ، عشتُ تلكَ الرياضةَ لثْمًا وحُبًا وإتقانًا أعادوا إلى روحي العاشقةِ للبحرِ حيويَّتَها وبهجتَها.

كنَّا نعيشُ في قلبِ مدينةِ يافا في بيوتٍ مُنفصلةٍ، ولكنَّها مُتلاصقةٌ على شكلِ حذوةِ حصانٍ، وكنَّا نسمعُ هديرَ الموجِ وصوتَ الرياحِ مِن البحرِ الذي نُطِلُّ عليه مِن شُرفتِنا، ونوافذِ الغُرَفِ.

بحرُ يافا الجميلُ الذي هيَّأَ لي سعادةً لا حَدَّ لها لسنواتِ طفولةٍ قصيرةٍ، ولكنَّها راسخةٌ في عُمقِ الوجدانِ وتموُّجاتِ الذاكرةِ، كنتُ أشمُّ البحرَ الذي كنَّا نعيشُ على بُعْدِ خطواتٍ مِنه، وكانَ إخوتي يُجيدونَ السباحةَ، وأخي الكبيرُ يحمِلُني على كتفيْه ليَصلَ بي إلى الصخرةِ المنبسطةِ الواسعةِ.

نَبني أحلامَنا في مكانِنا الآمنِ، ونَلهو بجَمْعِ قواقعِ البحرِ المنتشرةِ على الصخرةِ المُنبسطةِ، التي غُطِّيَ جزءٌ كبيرٌ مِنها

---

(1) يانس: هو غطاء الرأس الأبيض الخفيف في بلاد الشام.

بالأخضرِ الناعمِ، كنتُ أبحثُ عن القواقعِ وأضعهم في جيبي لأرصّهُم على سورِ بيتِ الرملِ.

كُنّا نصنعُ حكاياتِنا الصغيرةَ، وأقدامُنا الصغيرةُ ترفسُ الماءَ وتُناغِشُهُ بمتعةٍ وسعادةٍ بانتظارِ عودةِ إخوتِنا الكبارِ لنَقْلِنا إلى الشاطئِ.

الغرق

كنتُ أركضُ وراءَ إخوتِي الصبيانِ صيفًا إلى البحرِ، كانَ مرتعَنا وملهانا وحُبَّنا الوحيدَ، كانتْ أمّي تُنبِّهُني دومًا أنْ أبقى قُربَهم، وكانتْ تحذِّرُهم دائمًا مِن ضَياعي أو غَرَقي قائلةً لهم:

- (الست زبيدة) أختُكم الوحيدةُ صغيرةٌ، ولا تعرِفُ العَوْمَ، حافظوا عليها.

كنتُ أتعثَّرُ بفستانِ نَوْمي الطويلِ فأخلعَه وأجري بملابِسي الداخليةِ، وكانَ إخوتي يسبحونَ بها أيضًا، كنتُ أتمتَّعُ برفقَتِهم ورفقةِ بناتِ الجيرانِ، ولكنَّني كنتُ أتمتَّعُ أكثرَ بوجودي على الشاطئِ، والبحرُ الذي عشقْتُ فضاءَه، وهواءَه، ولونَه ورائحتَه، منذُ نعومةِ أظفاري.

كانتْ أمّي تخافُ عليَّ وتحاولُ الإمساكَ بي لِمَنْعي، ولكنَّني كنتُ أفلِتُ مِنها، وأتدحرجُ وراءَهم على الدَّرَجِ الحجريِّ، الذي كانَ بِعَيْنِ الطفلةِ واسعًا عريضًا، أركضُ مِنه إلى البحرِ مُباشرةً.

في إحدى المراتِ، خلالَ عَوْدتي مِن الصخرةِ الحشيشيَّةِ المُنبسطةِ إلى الشاطئِ، مَحمولةً على كتفيْ أخي الكبيرِ الذي كانَ في الثانيةَ عشرةَ مِن عمرِهِ، أَحَبَّ أنْ يُعلِمَني السباحةَ بطريقتِه الخاصّةِ، وذلكَ برميي في البحرِ قبلَ الوصولِ إلى الشاطئِ؛ كانَ يريدُ أنْ يُعلِّمَني كيفَ أُنقِذُ نفسي مِن الغرقِ، فوجئتُ بِما فعلَ أخي بي، وأخذْتُ أرفسُ بيدِيَّ وقدمَيَّ الماءَ لأخرجَ مِن عُمقِه، لكنَّني لَمْ أستطِعِ العوْمَ، فغطسْتُ فيه وفقدْتُ القدرةَ على التنفُّسِ، وعندما استعدْتُ وعيي كانتْ حنجرتِي تؤلِمُني مِن كثرةِ ما سعلتُ ولفظتُ المالحَ مِن فمي.

كنتُ مَرميّةً على الشاطئِ وأخي ومَن مَعه يضرِبونَ على ظَهري لأُخرِجَ الماءَ الذي ابتلعتُه أثناءَ غَرَقي مِن جوفي، لفظتُه عدَّةَ مرَّاتٍ وصحوْتُ على ألمِ ضرباتِ الهلعِ مِن أخي على ظهري، أخذَ يَصيحُ طالبًا النجدةَ، صحوْتُ على توجيهِ اللوْمِ على أخي المسكينِ الذي أرادَ أنْ يُعلِّمَني السباحةَ بطريقتِه؛ فغَرِقْتُ.

لَمْ تؤثِّرْ قصةُ الغرقِ عليَّ بتاتًا، فأنا مِن عشاقِ البحرِ أسكنُه ويسكنُني، ومِنْ يومِها وأنا كالسمكِ الذي لا يستطيعُ العيشَ خارجَ الماءِ، أصبحَ البحرُ عالَمِي الخاصَّ وحُبِّي الكبيرَ، لهذا أُصِبْتُ بحزنٍ شديدٍ لأنَّ أمّي بعدَ حادثةِ الغرقِ حبَسَتْني في البيتِ، وربطَتْ يدي بحبْلٍ بأعمدةِ الحديدِ الرفيعةِ للشُّباكِ، حتى لا أجري خلفَ إخوتي إلى البحرِ، كنتُ أبكي وأستغيثُ بالمارِّينَ المُنادينَ على بضائِعِهم مِن خضارٍ وفواكهَ حتى أتعبَ مِن البكاءِ والعويلِ دونَ أنْ تقتربَ مِنّي أمي.

كانتْ تُطِلُّ عليَّ بينَ الحينِ والآخرِ بنظراتٍ حزينةٍ، وعندَما يُصيبُني اليأسُ، أرتمي على سريرِي تحتَ الشُّباكِ مِن الإعياءِ، وعندَما أصحو تكونُ أمّي قد فكَّتْ وِثاقي وغطَّتْني بحرصٍ وحنانٍ.

لَمْ يفهمْ عقلِي الصغيرُ بأنَّ الخوفَ على حياتي هوَ الذي جعلَ أمّي تحبِسُني في البيتِ، وعندَما شاهدَتْ أمّي تَجَرُّحَ يَديَّ مِن شدَّةِ مقاومتِي للحَبْلِ، توقَّفَتْ فورًا عن القيدِ واستبدلَتْه بغلقِ بابِ الدارِ بالمفتاحِ، وإخفائِه في صدرِها.

تغلغلَ الحُزنُ إلى أعماقِ الطفلةِ، وأثارَ في نفسِها ثورةً، ونَمَا في وجدانِها تساؤلٌ كبيرٌ! خاصّةً عندَما وَعَتْ بأنَّ أخاها الصبيَّ يستطيعُ أنْ يفعلَ ما يشاءُ فلا يُعاقبُ، أمَّا البنتُ فتعيشُ حياتَها محدودةً في حركاتِها، وهي مُراقَبةٌ باستمرارٍ، ونبتَ في أعماقي رفضٌ لهذا التمييزِ بين البنتِ والولدِ، وكنتُ أقولُها لَهُم بصوتٍ عالٍ، وأثورُ عليهم لأنَّني لَمَسْتُ وعِشْتُ تمييزًا غيرَ مُنصِفٍ، انتفضتْ مشاعرِي وجعلتْني أتمنّى لو وُلِدْتُ ذكرًا.

شعورِي العميقُ بفَصْلي العُنصريِّ عن إخوتي، وإحساسِي بأنَّني عُوقِبْتُ عن أخي الذي كادَ يُغرِقَني في البحرِ، أثَّرَ في نفسي خاصةً عندَما كنتُ أستعطِفُ إخوتي أنْ يأخذونِي معَهُم كالعادةِ، أصبحوا يهرُبونَ مِنّي لأنَّ جُلَّ همِّهم كانَ أنْ يتدحرجوا إلى البحرِ بأسرعَ ما يستطيعونَ، ويتركونِي أنتحبُ على مَصْطَبةِ دَرَجِ بيتِنا الرخاميِّ المؤدّي إلى الشارعِ، كنتُ أتمنّى أنْ تُشفِقَ أمّي على حالي وتفتحَ لي البابَ لأنطلقَ وراءَ إخوتي.

بقِيَ عِشقي السرمديُّ للبحرِ واللونِ الأزرقِ والرمالِ المائلةِ للونِ الشمسِ، وما زلتُ أعشقُ هذيْنِ اللونينِ وهُما يُحبانني كَما أُحبُّهما، ورغم حبِّي لبحرِ يافا، ومُتعتِي العميقةُ بقضاءِ جُلِّ وقتِي بدفءِ رمالِه، ورغمَ رعايةِ إخوتِي لِي على شاطئِه بعدَ عودتِهم مِن المدرسةِ، فإنَّ أمّي أصبحتْ تخافُ عليَّ كثيرًا بعدَ حادثةِ الغرقِ، وتتشدَّدُ في مَنْعي، ولا تسمحُ لي بالخروجِ إلى البحرِ، كانَ هذا الحرمانُ يؤلمُني، ولَمْ أَشْكُ أمّي لأبي، ولكنَّني كنتُ أجدُ الوسيلةَ للهروبِ مِن البيتِ مع بناتِ الجيرانِ اللواتي كُنَّ ينتظرنَنِي أمامَ بابِ الدارِ.

كنتُ أنتهزُ فرصةَ انشغالِ أمّي برعايةِ أخي وإرضاعِه، وأتسلَّلُ مِن البابِ معَ بناتِ الجيرانِ ونجري سويًّا إلى البحرِ، هذا إذا نَسِيَ أبي أنْ يُغلقَ البابَ بالمفتاحِ بعدَ خروجِه إلى عملِه، مُصطحبًا إخوتي إلى المدرسةِ، أعتقدُ أنَّه كانَ يفعلُ ذلكَ مِن أجْلِي أغلبَ الأوقاتِ.

كنتُ ورفيقاتِي نتسابقُ باتِّجاهِ البحرِ، نلهو ونعيدُ بناءَ بيوتِ الرملِ، وعادتْ حياتي إلى وضعِها الطبيعيِّ بالتدريجِ ولم تَعُدْ أمّي تمنعُني مِن الذهابِ إلى البحرِ بعدَ أنِ اطمأنَّتْ بأنَّ ابنةَ الجيرانِ الصبيَّةَ كانتْ مُلتزمةً بالحفاظِ علينا، وألْزَمَتْنا ألاّ نلعبَ إلاّ على الزُّحليقةِ/الصخرةِ، ورملِ الشاطئِ فقطْ، إلاَّ أنَّ الحبسَ والقيدَ جعلاني شديدةَ الحساسيةِ؛ أبكي لكُلِّ مَن يَجرحُني، أو أشعرُ أنَّه جَرَحَني مِن فرطِ حساسيتي.

أحلامنا

كنتُ وبناتِ الجيرانِ مِن عمري أو أكبرَ مِنّي نلهو باللعبِ بالرمالِ، ونُقيمُ عليها أحلامَنا، نبني بيوتًا، وصوامعَ وأشكالاً مِن حيواناتٍ بدأتْ أعيها مِن صورِ كُتُبِ إخوتي المدرسيّةِ، كُنّا نحنُ البناتَ نتعاونُ جميعًا في بناءِ بيتِ الأحلامِ، كنَّا نمارسُ دورَنا الذي هُيِّئْنَا له منذُ أنِ انطلقْنا معَ الحياةِ لنحقِّقَ بيتَ أحلامِ الطفولةِ، وكُنّا نُلَمْلِمُ كُلَّ ما نحتاجُه لبناءِ بيتِنا مِن أشياءَ استغنَتْ عنها أُمَّهاتُنا، وكُنّا نجمعُ بواقيَ أخشابِ صحَّاراتِ البرتقالِ الصغيرةِ، وعيدانِ الكبريتِ التي ينتهي آباؤنا مِنَ استعمالِها لإشعالِ سجائرِهم، وأمَّهاتِنا مِن تشغيلِ وابورِ الكازِ بها، كُنّا نتباهى بِمَن يبني بيتًا أكبرَ، أو مئذنةً أعلى، أو سورًا أطولَ، أو قلعةً تُحاكي إحدى قلاعِ يافا المُطلَّةِ على البحرِ، وسورِ مدينتِنا الحَجريِّ الصامدِ أمامَ العواصفِ الهائلةِ شتاءً، خاصةً عندَما يتحوَّلُ موجُ البحرِ إلى قوَّةٍ هادرةٍ تتكسَّرُ على أطرافِ السورِ الصلبِ.

كانتْ خيالاتُنا واسعةً وكُنَّا نُجسِّدُ فيها حكاياتِ جدَّاتِنا التي كانوا يسردُونَها علينا منذُ أنْ وَعينَا الكلامَ والاستماعَ له، نُشَكِّلُ مِن أنفسِنا أفرادَ العائلةِ الواحدةِ، ونضعُ عيدانَ الكبريتِ التي كُنَّا نلوِّنُها بألوانِ شرائطِنا الرفيعةِ، ونجلسُ كأفرادِ العائلةِ كُلٌّ حسبَ دورِه في البيتِ؛ الأمُّ في المطبخِ، أو تُرضِعُ طفلَها في غرفةِ النومِ أو في ساحةِ الدارِ، والأطفالُ الرُّضَّعُ في أَسِرَّتِهِمْ، والجدَّةُ مُتمَددةً على الدُّوْشَكِ(1)/المَصطبةِ تتمتعُ بدفءِ الشمسِ، والأبُ في عملِه.

---

(1) كلمة فارسية الأصل، تعني الكنبة.

كنَّا نختارُ اللونَ البرتقاليَّ للأبِ، نسبةً إلى أنَّه يوفِّرُ لنا البرتقالَ اليافاويَّ بكثرةٍ في بيوتِنا، كانَ عمَّالُ أبي يُحضِرونَه بأكياسِ الخِيشِ مِن بياراتِ البرتقالِ، بكُلِّ أنواعِه ومواسمِه التي اشتُهِرتْ بها مدينةُ يافا.

أمَّا اللونُ الأحمرُ، فكُنَّا نرمِزُ بِه إلى الأمِّ، كنتُ أشعرُ بدفئِه وأنَّه قريبٌ مِن لونِ دمِي الذي نزفَتْه إحدى رفيقاتي مِن إصبعي يومًا، ومزَجْتُه مع أصابعِ رفيقاتي؛ لنصبحَ إخوةً في الدمِ، دونَ أنْ أشعرَ أصبحَ الأحمرُ لونَ الحبِّ والتآخي، وأصبحَ تعبيرُنا عن حُبِّنا العميقِ لأمهاتِنا، فرحتْ به أمّي عندما أخبرتُها بأنَّني اخترتُه لها، رغم أنَّ الزيتونيَّ كانَ لونَها المُفضَّلَ، وكانتْ تقولُ لي إنّه لونُ الخِصْبِ، ولونُ الزيتونِ الأخضرِ الذي لم يكنْ يخلو مِنه أيُّ بيتٍ فلسطينيٍّ.

الورديُّ والأزرقُ اللذان التصقا بي منذُ أنْ وعيتُ: الورديُّ لونُ البناتِ، والأزرقُ لونُ الصِّبيانِ، حتى الآنَ لَمْ أستطِعْ أنْ أجدَ تفسيرًا لهذا الاختيارِ الذي يفرِّقُ منذُ الولادةِ بينَ الولدِ والبنتِ، كنتُ أحبُّ الأزرقَ لأنَّه لونُ البحرِ والسماءِ، أو لأنَّني مِن حيثُ لا أدري شعرْتُ بأنَّه يفرِّقُ بيني وبينَ إخوتي، التصقْتُ بالأزرقِ مِن شدَّةِ حبِّي للبحرِ وهيامِي بأزرقِ السماءِ الصافي الذي كنتُ أشاهدُه مِن ساحةِ الدارِ، كما أشاهدُ الأزرقَ في بحرِ يافا، لكنَّ الوردي فُرِضَ عليَّ لأنَّه لونُ البناتِ.

كانَ أهلونا يأخذونَنا في شطحاتٍ/نزهاتٍ إلى المناطقِ الكُثبانيَةِ البِكْرِ، في ضواحي مدينتِنا الحبيبةِ، كُنّا ننطلقُ بحريَّةٍ تامَّةٍ فوقَ

الكثبانِ الرمليةِ المؤدِّيةِ إلى البحرِ، كانتْ حُبلى بكرومِ العنبِ التي تتوهَّجُ باللونِ الأصفرِ تحتَ أشعةِ الشمسِ ودفئِها، كانَ هذا المكانُ واحتَنا مع أطفالِ الجيرانِ.

الأهلُ مشغولونَ بإعدادِ موادِّ الشواءِ، يُديرونَ الفحمَ في المنقلِ، والنساءُ مشغولاتٌ في حَشْيِ أسياخِ الفحمِ بقطعِ اللحمِ والدجاجِ وتضفيرِ الكفتةِ/الكبابِ، كُنّا مشغولينَ بلهْوِنا، كُنّا نلعبُ (الاستغمايةَ)، ونَتَفنَّنُ في تخبئةِ أجسادِنا الصغيرةِ بينَ كرومِ العنبِ والكثبانِ الرمليةِ البيضاءِ النظيفةِ والدافئةِ، وكنّا نقطفُ بعضَ حبّاتِ العنبِ الناضجةِ، نبلُّ بها ريقَنا كُلَّما تعِبْنا مِن البحثِ عن بعضِنا بعضًا، نبقى في لَهْوِنا البريءِ هذا حتى نشمَّ رائحةَ الشواءِ، نجري نحوَ أهلينا الذينَ صفُّوا البُسطَ والجَنابيَ/الفَرْشَ على أحدِ الكثبانِ العاليةِ حتى تُتاحَ لنا مشاهدةُ البحرِ الأزرقِ الساحرِ، ونحنُ نتناولُ بشهيَّةٍ أصنافَ المشاوي التي يَفْردونَ خبزَ البيتِ الشهيَّ تحتَها حتى تمتصَّ طعمَ الشواءِ.

أصدقائي الثلاثة

كنتُ أحبُّ أرنبي وعصفوري وصِيصَاني، كنتُ أناغِيهِم في حديقةِ منزلِنا، أتحسَّسُ فروَ الأرنبِ ناصعِ البياضِ، كانتْ عيونُه البرَّاقةُ لا تتوقَّفُ عن البحثِ في كُلِّ الاتجاهاتِ، وأصبحَ أرنبي مَعَ الوقتِ أليفًا ولَمْ يَعُدْ يهربُ مِنّي، كنتُ أُطعِمُه بيدِي الخسَّ والجزرَ وكُلَّ ما يتبقَّى مِن خضارِ ذاكَ اليومِ، كانَ يتناولُها بشراهةٍ، أمَّا

صِيصاني الذهبيةُ فقدْ شاهدْتُ بنفسي رُقودَ أُمِّهم على بيضِها أسابيعَ قليلةً، كذلكَ عندَما بدأوا في نقْرِ بيضِهم فورَ أنْ قامتْ أُمُّهم الدجاجةُ عنهم، وخرجوا واحدًا تِلوَ الآخرِ والأمُّ تراقبُهم عن بُعدٍ، باحثين عنها، وفوجئتُ بهم يسيرونَ على أقدامِهِم!!

سألتُ أمِّي:

- لماذا لا يمشي أخي الرَّضيعُ وهو أكبرُ مِن صِيصاني؟

ضحكتْ قائلةً:

- لأنَّ الأطفالَ يا حبيبتي بشرٌ، أمَّا الصِّيصانُ فهُمْ حيواناتٌ صغيرةٌ خلقَهم اللهُ يمشونَ بسرعةٍ حتى يستطيعوا البحثَ عن غذائِهم مِن بُذورِ الأرضِ.

شدَّني هذا المنظرُ المُدهشُ لخمسةِ صِيصانٍ، يَخرجُون مِن بيضاتِهم الدافئةِ، سحرَني زَغَبُ ريشِهم الذهبيِّ وأخذْتُ أُناغِيهم كَما تُناغي أمِّي أطفالَها، وأغنِّي لهُم وأضعُ أمامَهم الماءَ وبذورَ عصفوريَ المسكينِ الذي كانَ محبوسًا في القفصِ. أطلقتُ سراحَ عصفوريَ ليلعبَ مع صِيصانِي الصغارِ في حُوشِ الدارِ، لكنَّه انطلقَ إلى السماءِ وغابَ فيها، ولَمْ أرَهُ ثانيةً لأيامٍ، حزنْتُ لفراقِه ولكنَّني شعرتُ بسعادتِه وامتنانِه وهو يرفرفُ بجناحيْه ويعلو إلى السماءِ، بَدَتْ حركتُه بطيئةً في البدءِ، لكنَّه انطلقَ يعلو بقوَّةٍ حتى غابَ عن ناظِري.

شعرتُ بسعادةٍ غامرةٍ لأنَّني حرَّرْتُه مِن قفصِه، فأصبحَ حُرًّا، أردتُه أنْ يلعبَ مع صِيصاني ولكنَّه اختارَ الفضاءَ، واختارَ الحريَّةَ التي كانَ محرومًا مِنها في القفصِ.

كانَ هذا درسًا سكنَنِي دونَ أنْ أدري؛ الحريةُ عملٌ إنسانيٌّ، وأخذْتُ أفكِّرُ مَن الذي سيطعمُه مِن بعدِي؟ قلتُ لنفسي لنْ أتركَه يموتُ جوعًا، لقدْ تعوَّدَ على أمومَتي ودَلالي، فكَّرتُ بعمقٍ ولَمْ أصِلْ إلى حلٍّ، ثمَّ اهتدى عقلِي الطفلُ أنْ أتركَ له بذورًا في صحنِه، وماءً في صحنٍ آخرَ في ركنِ باحةِ الدارِ.

غمرتْنِي الدهشةُ والحُبُّ عندَما شاهدتُه يومًا في ساحةِ البيتِ، كنتُ في شوقِ طفلةٍ أحبَّتْ عصفورَها، مشيتُ إليه ببطءٍ، أردتُ أنْ أحضنَه بكفِّي ولكنَّني خِفْتُ أنْ أُرعبَه، بقِيَ ينقرُ البذورَ حتى لَمْ يُبْقِ مِنها شيئًا وقفزَ على طرفِ صحنِ الماءِ وأخذَ يَعُبُّ مِنْه عبًّا، أخذتُ أراقبُه بدهشةٍ وحذرٍ، وفتحتُ له يدِي ليرتاحَ على كفِّي المنبسطِ نحوَه، صفَّقَ جناحيْه وهبطَ على باطنِ كفِّي الذي شكَّلْتُه عشًا له، قبَّلْتُ رأسَه الصغيرَ ورفعتُ يدِي إلى السماءِ مُودِّعةً: عُدْ إلى حرِّيتكَ بأمانِ اللهِ يا عصفوري الحبيبَ.

حريةُ عصفوري زرعتْ في داخلي مبدأَ الحريةِ في الحياةِ التي بدأتْ تتشكَّلُ في أعماقِ روحي.

الميعاد

بدأتْ تُطِلُّ علينا بوادرُ الربيعِ الجميلِ بتفتُّحِ أزهارِ الليمونِ والبرتقالِ، بعدَ أنْ تراجعَ البرْدُ إلى مَخبئِه، انتظارًا لشتاءٍ جديدٍ وعامٍ جديدٍ، أيْنَعَ الأخضرُ والأبيضُ والأصفرُ وملأَ الكونَ بهاءً وعطرًا.

كنتُ أخرجُ كلَّ يومٍ في الميعادِ للقاءِ الأترابِ مِن رفيقاتِ الحيّ، كُنّا نلهو ونقفزُ، ونتسابقُ على رمالِ البحرِ، و(نَتَلَسْوَعُ) ببرودةِ مياهِه كلَّما غطَسْنا فيه بأرجُلِنا وأصابعِنا التي بعدَ أنْ نشطُفَها بماءِ البحرِ نرشُّه على وجوهِنا لنغسلَ العَرَقَ الذي تساقَطَ مِن شُعورِنا على جباهِنا وعيونِنا، وبلَّلَتْ خصلاتٍ مِن شَعْرِنا التي كانتْ تلهو معَنا.

ثُمَّ نجري عائدينَ إلى مَرتَعِنا الأخضرِ، نرمي أجسادَنا على الرملِ الدافئِ، بينَ شُجيراتِ الياسمينِ الخضراءِ تُزيِّنُها بلّوراتٌ مغمضةٌ صغيرةٌ ناصعةُ البياض قبلَ أنْ تتفتَّحَ رِقَّةُ وُريقاتِها الصغيرةِ، كُنَّا نسترخي بينَ الأعشابِ البرِّيةِ فارِدينَ أذرُعَنا وسِيقانَنا للشمسِ، كنتُ أشغلُ يومِي في انتظارِ عودةِ أبي مِن عملِه أو مِن إحدى سفراتِه.

يُحكى أنَّها تَخرُج كلَّ يومٍ بالميعادِ..

للقاءِ الأترابِ..

سألتُهم يومًا: ماذا هناك؟

قالوا: نلعبُ لعبةَ المحبَّةِ والسلامِ..

لعبةٌ اسمُها الأخوةُ..

فيها "تَغُزُّ" الأصابعُ الصغيرةُ..

وتمتزجُ الدماءُ النقيةُ..

لتتَّحدَ القلوبُ البريئةُ..

ضدَّ الأيامِ الرديئةِ.

القط والفار

عندَما كبرْنا قليلاً، أصبحْنا نضربُ لبعضِنا مواعيدَ على البحرِ معَ رفاقِ الحيِّ مِنْ بناتٍ وصبيانٍ، نتدحرجُ جميعًا على الدَّرَجِ إلى شاطئِ البحرِ، نتحسَّسُ مياهَه الدافئةَ والمُنعشةَ بأقدامِنا، ولا نتجرَّأُ أنْ نرميَ أنفسَنا فيهِ إذا لَمْ يَكُنْ معَنا أحدٌ مِنْ إخوتِنا الكبارِ الذينَ يُجيدُونَ السباحةَ، وكُنَّا نلتزمُ بهذا الوعدِ مَعَ أنفسِنا ومَعَ أُمَّهاتِنا، حتى يسمحنَ للقاءاتِنا البريئةِ أنْ تستمرَّ.

هَلَّ علينا فصلُ الصيفِ، فأصبحَ النهارُ أطولَ والجوُّ أمتعَ، وأخصَبَتِ الأرضُ بربيعِها وزهورِها، وفي هذا الفصلِ الجميلِ يتوافدُ فيهِ علينَا زوّارُ الصيفِ مِنْ أقاربِ أبي وأمّي ليتمتَّعوا ببحرِ يافا.

وهذا ما شغلَني عن غيابِ أبي عندَما سافرَ للحجِّ إلى بيتِ اللهِ الحرامِ، كنتُ أخرجُ للقاءِ رفيقاتِي، وكُنّا نمسِكُ أيدِي بعضِنا، ونوسِّعُ دائرتَنا كُلَّما زادَ عددُنا، كُنّا ندورُ ونغنِّي، ونصفِّقُ ونُنْشِدُ ما حفِظْناه مِن نَمْنَماتٍ شعبيةٍ مِن أمَّهاتِنا.

نبدأُ بلعبةِ "القطّ والفار" التي كُنّا نتسابقُ، مَنْ يكونُ القطَّ المُفترسَ؟ أو الفارَ الذكيَّ الذي كانَ يعرِفُ كيفَ يهرُبُ مِنَ القطِّ الوديعِ الذي يُصبحُ شرسًا إذا ما جاعَ، أو شاهدَ فأرًا يمرُّ مِن أمامِه. كُنّا نُحَذِّرُ الفارَ مِنه، وعندما يتمكَّنُ أحدٌ مِنّا مِن الإمساكِ بالفارِ الذكيِّ، كانتْ تعلو أصواتُنا إلى السماءِ، نصفِّقُ ونهتفُ، ونحيِّي الفائزَ أو الفائزةَ مِنّا.

وبعدَ أنْ يهدأ هِياجُنا كُنّا نُجَدّلُ لَه أو لَها، تاجًا مِن عروقِ أشجارِ الياسمينِ الخضراءِ، وأزهارِها المُزيَّنةِ بكؤوسِها البيضاءِ، والمُمتدَّةِ على سلاسلِ الشاطئِ، تَهَبُ المكانَ عطرَها ورائحَتَها الفوّاحةَ، ما زلتُ أشمُّها كلَّما تذكَّرتُ تاجَ الياسمينِ الذي جدَّلوه لي ووضعُوه تاجًا زيَّنوا به رأسِي الذي كانَ يتماوجُ فرحًا وزهوًا بالفوزِ.

ما زلتُ أذكرُ تلكَ اللحظةَ، وذاكَ التاجَ الياسمينيَّ، أستَحْضِرُهُما مِن جديدٍ، أجري بينَ أشجارِ الياسمينِ التي اعترشَتْ سلالمَ كلِّ بيتٍ، وامتدَّتْ على النواصِي، وفي الحدائقِ، وأصبحَ يُطلَقُ اسمُها مِن بينِ كُلِّ زهورِ الأرضِ، بِمَا فيها الوردُ الجوريُّ، على كُلِّ حارةٍ مِن الحاراتِ في كلِّ مُدُنِ فلسطينَ، ومِنْها حارةُ الياسمينةِ في حيِّ القصبةِ في مدينةِ نابلسَ، مسقطِ رأسِ أبي، وفي مدينةِ السلطِ مسقطِ رأسِ أمي، وحديثًا، أُطلِقَ اسمُها على ثورةِ الجياعِ في تونسَ الخضراءِ.

يُحكَى أنَّ الصغيرةَ شاركت الرِّفاق..

فسَالَتْ نقطة حمراء..

ونبتَتْ فُلَّةٌ بيضاء...

وشجرةُ ياسمين خضراء..

التصقَ الرفاق..

قَطَفوا الفُلَّ والياسمين.. جدَّلُوه

ووضعوه تاجًا.. على رأسها السُّنبُليّ..

تماسَكت الأيدي وتراقصت الجدائل..

ولَعِبوا "لعبة القط والفار".

أمي أولى الحكايات

الملاك

كانتْ أمّي تبدأُ يومَها منذُ صياحِ الدِّيكِ، تَهُبُّ كُلَّ صباحٍ دونَ إبطاءٍ أو كللٍ، حتى سكونِ الليلِ والأنوارِ، تبدؤه بإعدادِ أكوابِ الحليبِ الدافئِ معَ الفطورِ، وساندويتشاتٍ لِمَنْ يذهبُ إلى المدرسةِ مِنْ إخوتي، الذينَ كانتْ تُعِدُّ لَهُمْ ملابِسَهم وأحذيتَهم وجرابينَهم مساءَ كُلِّ يومٍ، وتضَعُهم قربَ حقائِبِهم المدرسيّةِ بعدَ أنْ يُنْهُوا واجباتِهم اليوميةِ، بعدَ ذلكَ كانتْ أمّي تُسرِعُ لخدمةِ أبي الذي خرجَ مِن الحَمّامِ مرتديًا بدلتَه، تصبُّ له قهوتَه وكوبَ الحليبِ الساخنِ، ويذهبُ إلى عملِه مُصطحبًا أطفالَه إلى المدرسةِ، أمَّا فطورَه فكانَ يتناولُه معَ أصدقائِه التجارِ، بطلباتٍ يبعثُها مع أحدِ عُمّالِ مَتجرِه مِن مطعمِ "أبو العافية" المعروفِ بمعجناتِه الشهيّةِ، أو مطعمِ "الكلحة" الأكثرِ شهرةً، والمتخصّصِ بأطباقِ الفولِ والفلافلِ والحُمُّصِ وفتَّةِ الحُمُّصِ باللحمِ والصنوبرِ[1].

---

(1) أكلات شعبية فلسطينية معروفة منذ القديم، وتنسبها إسرائيل زوراً لها كجزء من خطة سرقة التراث الفلسطيني.

أنجبتْ أمّي في يافا العديدَ مِن الصِّبيانِ، وتحمَّلتْ مسؤوليةً كبيرةً تجاهَهُم بسببِ انشغالِ أبي بتجارتِه وسفراتِه، رغمَ مسؤولياتِها الجمَّةِ، مع ذلكَ لَمْ تكُنْ تملكُ أنْ تقرِّرَ ما يتعلَّقُ بها شخصيًا، كأنْ تقصَّ شعرَها الطويلَ الذي يعيقُها عن عملِها، أو تختارَ ملابسَها، كنتُ أتألَّمُ وأنا أرى أمي تكتمُ شهواتِها، وترضخُ لسيِّدِ الدارِ.

أخذتُ أشجِّعُها أنْ تثورَ وأنْ تُسمعَ صوتَها لأنَّ أمّي ملاكٌ هادئٌ، صبورةٌ كصبرِ أيوبَ، وأبي نيرانيٌّ وعصبيٌّ رغمَ طيبةِ قلبِه وحنانه، كانَ يفورُ بسرعةٍ ويهدأُ بسرعةٍ، يُصالِحُ مَنْ أغضبَه مِنْ أولادِه إذا قسا عليهِم. لا أدري كيفَ تجتمعُ الطيبةُ والحنانُ والحبُّ معَ العصبيَّةِ التي فارتْ بعدَ النكبةِ والنكسةِ والهجرةِ إلى قسوةٍ مُخيفةٍ، لدرجةِ أنَّه كانَ أحيانًا يُعاقِبُ الصبيانَ برَبْطِهم حولَ عامودِ الديوانِ حتى يعودَ مِنْ عملِه.

هل تَحمُّلُه مسؤوليةَ عائلةٍ كبيرةٍ بعدَ النكبةِ التي أدْمَتْ روحَه هي السببُ؟ أمْ تحمُّلُه مسؤوليةَ عائلتِه وهو صغيرٌ بعدَ استشهادِ أبيه، أسهمتْ في خَلْقِ تلكَ الشخصيةِ العصبيةِ التي وَرِثْتُ بعضًا مِنها؟

كُنّا نعشقُ أمَّنا التي ترعانا وتكدُّ مِن أجلِنا وتسهرُ على راحتِنا، وكُنّا نشعرُ بالأمانِ والسلامِ بمجرَّدِ أنَّها ترفرفُ بحنانِها وحُبِّها مِنْ حولِنا، إنَّ حُبَّ الأمِّ لأولادِها أقدسُ معاني الحبِّ، تتجلّى بمشاعرِها الفيَّاضةِ وهي تعتني بالنَّبتةِ التي خرجَتْ مِنْ رَحِمِها، وتنمو بحُبِّها وحنانِها وعطائِها الثريِّ، ومَهما كَبُرِ أطفالُها تبقى تلكَ النبتةُ المُقدَّسةُ

هي حبُّها الأولُ والأخيرُ، تسكبُ فيها روحَها، وترعاها منذُ أنْ كانتْ نطفةً في رحمِها حتى آخرِ يومٍ مِن عمرِها.

كانَ لدينا صبيَّةٌ صغيرةٌ تساعدُ أمِّي في أعمالِ المنزلِ، وعندَما تضطرُّ أمِّي للخروجِ مِنَ البيتِ لأمرٍ ضروريٍّ تتركُنا برعايتِها، وكانتْ هذهِ الصبيَّةُ غريبةَ السلوكِ لأنَّها بعدَ أنْ خرجتْ أمِّي، أخذتْ تُعرِّيني وتعرِّي أخي الصغيرَ وتعبثُ بجسديْنا، ثمَّ حملَتْني بذراعيْها السمراوينِ الطويلينِ عاليًا، ورمَتْني على جسدِها العارِي، وأخذَتْ تُقبِّلُني بجنونٍ قزَّزَ بدَني، وبكيتُ وصرختُ، فتوقَّفتْ في الحالِ، وألبَستْني وأخي ملابسَنا.

رغمَ مرورِ سنواتٍ طويلةٍ فإنَّ شعورَ القرفِ مِن رؤيتِها عاريةً ما زال راسخًا رغمَ أعوامي الأربعةِ، كانَ لونُ شعرِ جسدِها الداكنِ أسودَ فأخافَني، خاصَّةً وأنَّني أرى ولأوَّلِ مرةٍ جسدًا عاريًا، أمِّي لَمْ تظهرْ أمامَنا عاريةً أبدًا وكانتْ وهي تُحَمِّمُنا، وتدعكُ أجسادَنا باللِّيفةِ والصابونِ النابلسيِّ، تلبسُ ثوبًا خاصًّا للحمَّامِ دونَ أكمامٍ كُلَّما أدخلَتْني أولاً لتُحَمِّمَني، وإخوتي الصبيانِ بعدي. حدَّثَتْ أمِّي بما فعلَتْه تلكَ الصَّبيَّةُ بي وبأخي، فطردَتْها في الحالِ ولم تترُكْنا بمفردِنا مع خادمةٍ في البيتِ بعدَ ذاكَ اليومِ.

حياةُ أمِّي كفاحٌ ونضالٌ مِنْ أجلِ تربيةِ أولادِها الأربعةَ عشرَ، يعني أمِّي حملتْ وأنجبتْ أربعةَ عشرَ بطنًا، توقَّفتِ البُطونُ عن الإنجابِ الكثيرِ بعدَ نكبةِ فلسطينَ، وغدرِ الزمانِ، وفي زمني لَمْ نُنجبْ أكثرَ مِن ثلاثةِ أطفالٍ، وإذا حصلَ وزادَ الرقمُ لَمْ يَزِدْ عن أربعةِ أطفالٍ، حتى هذا نادرٌ.

هَلِ النكبةُ والهجرةُ واللجوءُ هيَ التي حدَّتْ مِن الإنجابِ؟ أمْ هلْ لأنَّنا أسرةٌ كبيرةُ العددِ؟ أمْ هل لأنَّني عايشْتُ معاناةَ أمِّي في الحملِ وإنجابِ ثلاثةِ أطفالٍ أصغرَ مِنّي؟ أمْ هل لأنَّ أمِّي فقدتْ ثلاثةً مِن أطفالِها وهُمْ رُضَّعٌ؟ لَمْ أعرفِ الكثيرَ عمَّن هُمْ قَبلي، ولكنني عرفتُ أختي التي لَمْ أنْسَها حتى الآنَ.

كانتْ أمِّي مثاليةً في تربيتِها، وكُنّا نِبراسَ حياتِها، كانتْ تبدأُ بنا كُلَّ صباحٍ لتُعطيَ لكلِّ ذي حقٍّ حقَّه، بعدَ ذلكَ تتفرَّغُ لأعمالِ البيتِ مِن كنْسٍ وتنظيفٍ وغسيلٍ وطبخٍ، وكانتْ تَخيطُ لنا ملابسَنا الداخليةَ وبيجاماتِنا، ومرايلَ المدرسةِ، وبنطلوناتِ إخوتي، وملابسَ لُعبتي وفساتيني أيضًا، وعندَما كبرْتُ وبرزَتْ أنوثتي أصبحتْ أمِّي تُصحَبُني مَعَها إلى خياطةِ ملابسِها، لتَخيطَ لي فساتينَ العيدِ التي كانتْ تبهرُ أناقتُهم كلَّ مَنْ يراني، وكذلكَ عندَما كبرَ إخوتي، أصبحَ أبي يأخذُهم إلى خَيَّاطِه الخاصِّ لخياطةِ بناطيلِهم وبِدَلِهم في الأعيادِ، ومناسباتِ ختمِ القرآنِ.

تُنادي جدَّتي على أمِّي التي كانتْ في حركةٍ دؤوبةٍ بينَ المطبخِ حيثُ تُعِدُّ الطعامَ، وغرفِ النومِ لترتيبِها وتنظيفِها، حتى ساحةِ الدارِ في الطابقِ الثاني وليسَ الأولَ كالعادةِ، لأنَّ بئرَ الماءِ كانَ يُستخدَمُ للطابقيْن.

كانتْ أمِّي تجلبُ الماءَ بالدَّلْوِ المربوطِ بحبلٍ طويلٍ يَصِلُ إلى الدَّوْرِ الأسفلِ مِن البيتِ، يتمَرْجَحُ الدلوُ أثناءَ هبوطِه حتى يصلَ قاعَ البئرِ، تسحبُه ثانيةً مليئًا بماءٍ رائقٍ شفيفٍ يتأرجحُ ويلمعُ بعدَ أنْ

يخرجَ مِن العتمةِ، تكرِّرُ أمِّي حتى تملأ الخزَّانَ المَنصوبَ قربَ البئرِ، ولَه حنَفِيَّةٌ لكافَّةِ استعمالاتِ البيتِ، وإذا لَمْ تَرُدَّ أمِّي نداءَ جدَّتي، تكرِّرُ بصوتٍ أعلى قائلةً:

- ألاَ تتوقَّفينَ قليلاً! أنتِ لا تهدئينَ طولَ النهارِ؟ أشتهي أنْ أراكِ ترتاحينَ قليلاً، تعالَيْ اجلسي قُربِي وخُذي قسطًا مِن الراحةِ.

تُجيبُها أمِّي ضاحكةً:

- إذا توقَّفتُ مَنْ سيقومُ بالأعمالِ المنزليةِ التي لا تنتهي؟ ومَنْ سيقضي حاجاتِ البيتِ؟ ومَن سيقومُ برعايةِ أطفالي؟

اللسعة

كنتُ ملتصقةً بأمِّي أينما اتَّجهَتْ، كنتُ ظلَّها، وما زلتُ أذكرُ تلكَ اللسعةَ الحارقةَ التي انسكبتْ على كفِّ قدمِي، عندما عامَتْ قشدةُ الزبدةِ على وجهِ الطنجرةِ الكبيرةِ مِن الغليانِ، وأخذتْ أمِّي تنزِعُها بمغرفةٍ مُسطَّحةٍ ذاتِ خرومٍ صغيرةٍ، ثُمَّ تَدْلُقُ الزبدَ السائحَ الذي أصبحَ سمنةً بلديَّةً في برطمانٍ كبيرٍ مِن الزجاجِ.

كانتْ أمِّي تخزِّنُها كبقيةِ برطماناتِ المَؤونةِ، وأثناءَ نزعِ القشدةِ عَنْ السَّمنِ، ونَقْلِها إلى وعاءٍ آخرَ اندَلَقَ بعضُها على سطحِ قدمِي اليُمنى، شعرتُ بلسعةٍ حارقةٍ، بكيتُ وأنا أصيحُ مِن الألمِ رافعةً قدمي إلى أعلى، فرَمَتْ أمِّي على كفِّ قدمي بعضَ الدقيقِ ليمتصَّ حرارةَ القشدةِ، وتركتْ زبدَها حتى تداويني بمَرهمٍ للحروقِ، كانَ أسودَ اللونِ،

وبقيَ الشاشُ والمَرهمُ فترةً طويلةً، وعلى الرغمِ مِن مرورِ زمنٍ طويلٍ على تلكَ اللسعةِ التي لَمْ تتركْ أثرًا على سطحِ قدمي، إلاَّ أنني ما زلتُ أستشعرُ حرارةَ اللسعةِ كلَّما رأيتُ زبدًا سائحًا.

عيون قارة

عانَى أحدُ إخوتي مِن الرَّمَدِ الحُبَيْبي، الذي كادَ يقودُه إلى العمى، كانتْ أمِّي تحملُه كلَّ صباحٍ إلى عيادةِ "عيون قَارَة" في كوبانيةِ ريشون ليزيون[1]، وهي مِن أوائلِ المُستوطناتِ اليهوديةِ التي أُقيمتْ في العهدِ العثمانيِّ، بموافقةِ سلطانِها في ذلكَ الوقتِ، وبدأتْ تتوسَّعُ دونَ ضجةٍ.

كانتْ عيون قارة مَعْلَمًا جديدًا في ضواحي يافا، وسُمِّيتْ كذلكَ لأنَّ فيها عيادةً ومستشفًى صغيرًا متخصصًا بأمراضِ العيونِ، أنشأها طبيبٌ ألمانيٌّ كبيرٌ في السنِّ، هاجرَ إلى فلسطينَ أيامَ الحكمِ العثمانيِّ. امتدَّتْ زياراتُ أمِّي مع أخي لفترةٍ، واستطاعَ أنْ يَشفِيَ أخي تمامًا دونَ أعراضٍ جانبيةٍ، كانتْ أمِّي تَصحبُني معَها أحيانًا في الباصِ، نمشي في ممرٍّ مكشوفٍ لعيادةِ الطبيبِ، كانَ طبيبُ العيونِ يَحُكُّ جفنَ عينيْ أخي جيدًا ليُزيلَ عنهُما حبيباتِ الرمدِ، ثمَّ يضعُ القطرةَ والمرهمَ فيهما، وبعدَ أنْ توقَّفَ عن حكِّهما بأدواتِه الطبيةِ المُعقَّمةِ، أصبحتْ أمِّي تقومُ بمهمةِ القطرةِ والمرهمِ في البيتِ، ووفَّرتْ علي نفسِها مشاقَّ تلكَ الرحلةِ إلى عيون قارة.

---

(1) الكلمة تعني بالعربية "قلتُ أولاً لصهيون" وهي مقتبسة من سفر أشعياء الإصحاح الحادي والأربعين، الآية 27، أسست ريشون لتسيون عام 1882، وتوسعت بهدوء بعد أن كان عدد سكانها عشرة من المهاجرين الروس فقط آنذاك.

لكنني حُرِمْتُ مِن التمتُّعِ بركوبِ الباصِ، ومشاهدةِ بياراتِ البرتقالِ، التي تمتدُّ وتمتدُّ على مرمى النظرِ، كما حُرِمْتُ مِن مشاهدةِ الطبيبِ بنظارتِه المكبّرةِ على عينيْه، وشعرِه الأبيضِ، ويديْه الصغيرتينِ وحجمِه الضئيلِ، ورقّتِه في التعاملِ مَعَ أمّي ومَعَ أخي المريضِ، وملاطفتِه لي.

كنتُ أراقبُه بدقّةٍ، وقلتُ له أريدُ أنْ أصبحَ طبيبةً مثلَك، ومِن يومِها أصبحتُ مُساعِدَةَ أمّي في مهمّاتِها الطبيَّةِ في البيتِ، وأعتقدُ أنَّ فرحةَ أمّي وفرحَتي بشفاءِ أخي التامِّ، زادَ مِن حُبّي لأنْ أكونَ طبيبةً، أشفي الأطفالَ المَرضى، وخَلَقْتُ لنفسي لعبةً جديدةً (الدكتور والمريض) مع إخوتي الأصغرِ منّي، كلّما كبرتُ كنتُ أُعْجَبُ بأمّي أكثرَ، سألتُها يومًا:

– كيفَ استطعتِ تربيتَنا والعنايةَ بنا؟ وقدْ أصبحتِ أمًا وأنتِ في الرابعةَ عشرَ مِن عمرِكِ؟

أجابتْني بأنَّ حُبَّها الفِطريِّ للأطفالِ علّمَها الصبرَ، وأنّها كانتْ محظوظةً لوجودِ دارِ رعايةِ الأسرةِ في يافا أثناءَ الانتدابِ البريطانيِّ، كانتْ الممرضةُ الإنجليزيةُ تتكلمُ العربيَّةَ بصعوبةٍ، تؤنّثُ المذكَّرَ وتذكِّرُ المؤنثَ، ولكنّها كانتْ تُتابعُ رعايةَ الأمّهاتِ منذُ بدايةِ الحملِ حتى الولادةِ، وأردفَتْ:

– كانتْ تعلّمُ الأمهاتِ خاصّةً الصغيراتِ منهنَّ، كيفيةَ رعايةِ الطفلِ منذُ ولادتِه؛ كيفَ تُحَمِّمُهُ، وتغيِّرُ حفاضاتِه التي تَخيطُهم أمّي مِن القماشِ القطنيِّ الخفيفِ المَنصوريِّ الذي

يزدادُ بياضًا كلّما عُقِّمَ بالغَلْيِ على النارِ، ونُشِرَ تحتَ أشعةِ الشمسِ الساطعةِ.

- علمتْ أمِّي طريقةَ حملِ الطفلِ بينَ ذراعيْها، ليسمعَ دقاتِ قلبِها وهيَ ترضعُه بحنانٍ، وعلَّمَتْها كيفَ تداعبُ أنفَه إذا نامَ قبلَ أنْ يفرغَ ثدييْها الممتلئيْن بحليبِها الوفيرِ، وعلَّمتْها كيفَ تُكرِعُه، أيْ تُخرِجُ الهواءَ مِن معدتِه، بعدَ كلِّ رضعةٍ حتى لا يُصابَ بالمغصِ.

- كانتْ أمِّي تفرحُ كلَّما شاهدتْني أنظرُ إليها بإعجابٍ وهي ترعى أخي الرضيعَ، وعندَ هجرتِها الأولى مِن يافا إلى مسقطِ رأسِ أبي، وأجدادِي في مدينةِ نابلسَ، أنجبتْ فيها ثلاثةَ أطفالٍ، كانتْ تنظرُ إليَّ وأنا أتابعُها بعينِ فتاةٍ نضجتْ وعشقَتْ أمومةَ أمِّها، وتمنَّتْ أنْ تصبحَ أمًّا مثلَها، وتكملُ حديثَها عن الممرضةِ قائلةً:

- كانَ لها الفضلُ في تعليمي رعايتِكُم مِن الألفِ إلى الياءِ، كنتُ أشعرُ أنَّها تشفقُ عليَّ لصغرِ سنِّي، فقدَّمتْ لِي رعايةً فائقةً وصبورةً، خاصةً لطفليَ الأولِّ، طبَّقتُ كلَّ ما تعلمْتُه عليكُم فيما بعدُ، كانتْ هي وطبيبُ العيونِ الألمانيِّ، مِن الحَسَناتِ الوحيدةِ للانتدابِ البريطانيِّ في فلسطينَ.

تغريدات أمي

كنتُ أتابعُ أمّي بحيويَّتِها التي استعادَتْها، ويقظةِ عقلِها وبدنِها التي تبدأُ بها كلَّ صباحٍ نشاطَها الروتينيَّ بهمَّةٍ عاليةٍ؛ مِن تنظيفٍ وغسيلٍ وطبخٍ، كانتْ تنتهي أمي مِن مهمَّتِها قبلَ أنْ يعودَ أبي مِن عملِه، مُصطحِبًا مَعَه إخوتي مِن مدرستِهم، مدرسةِ "حسن عرفة" العريقةِ التي كانتْ تقعُ في حيِّ العجميِّ، أيْ قريبةً مِن بيتِنا، التي أسسَّتْها عائلةُ عرفة اليافاويَّةِ، وسمِّيَتْ باسمِ مؤسسِّها، وهي لا تزالُ قائمةً حتى الآنَ.

استمرَّتْ الحياةُ برعايةِ أمِّي واستمرَّ الحملُ الجميلُ وولادةُ طفلٍ جديدٍ كلَّ عاميْنِ حتى جئتُ أنا، قالتْ لي أمِّي إنَّها فرحَتْ كثيرًا بقدومِي إلى دُنياها، خاصَّةً بعدَ أنْ فقدَتْ طفلتَها الأولى، كَما فرحَتْ بوصولِ ابنِها الثاني بعدَ أنْ فقدَتْ طفلَها الأولَ الذي عذَّبَها فقدانُه كثيرًا، وسبَّبَ لها أزمةً نفسيَّةً ضاعفَتْ مِن إحساسِها بالذنبِ، ظنًّا مِنها أنَّها السببُ في اختناقِه وعدمِ سماعِ بكائِه وهيَ في نومٍ عميقٍ.

كانتْ أمِّي بعدَ أنْ تُجفِّفَ أخي الرضيعَ، وتُلبِسَه ملابسَه القطنيَّةَ البيضاءَ بعدَ حمَّامِه الصباحيِّ، تضعُه في حضنِها، وتفردُ له ثديَها، وتناغيه بصوتٍ مهموسٍ، وحنانٍ بالغٍ، وعندَما يكتفي مِن الثدييْنِ، يُرخِي فمَه، وأرى حلمةَ أمِّي كحبَّةِ الكرزِ يَنقطُ مِنها بعضُ نقطِ الحليبِ التي فلتَتْ مِن حَلَمتِها بعدَ أنْ تسلَّلَ النعاسُ إلى أجفانِ أخي، تضعُه على صدرِها، وبحركةٍ دائريةٍ حانيةٍ على ظهرِه تُرخيه وتساعدُه على تفريغِ الهواءِ مِن معدتِه، وهي تغرِّدُ له بصوتٍ هامسٍ:

أووه... أبشروا حَبَا حَبَا

فيك أهل المرحبا.. قدُّه طال نما

وجهه بدر السما

أبشروا حَبَا درج.. مِنُّه قد بان الفرج

يا ربنا احفظه لنا.. رافعًا عَنَّا الضَّنَا.

حياة أمي

لا أنكرُ أبدًا أنَّ أمِّي تزيَّنتْ بألوانِ الزينةِ على وجهِها، وبالنادرِ كانتْ تصبغُ شفتيْها بالورديِّ ليتلاءَمَ مَع خدَّيْها الورديَّيْنِ، كانتْ لا تستطيعُ قصَّ شعرِها إذا رغبَتْ لأنَّ أبي كانَ يُحِبُّ الشعرَ الطويلَ، وفي أحد الأيامِ زارَتْها جارتُها، فطلبَتْ مِنها أمِّي أنْ تقصَّ لها شعرَها الطويلَ.

– خْوِيْنْتُه (خسارة)، شعرُك جميلٌ لا أجرؤُ على قصِّه.

قالتْ لها أمِّي إنَّه لَمْ يَعُدْ لديْها الوقتُ الكافي للعنايةِ بهِ بعدَ أنْ زادَ عددُنا، غضبَ أبي مِن أمِّي ولَمْ يُكلِّمْها لعدَّةِ أيامٍ، شعرتُ بظلمِ أبي لأمِّي منذُ نعومةِ أظفاري، ورغمَ حبِّي الشديدِ له، أصبحتُ محاميةَ أمِّي، خاصةً وأنا أراه يتحكَّمُ بلبسِها وشعرِها، وبكُلِّ ما هو خاصٌّ بها، وكأنَّها أصبحتْ مُلكًا له.

هكذا كانَ وضْعُ النساءِ الصغيراتِ في ذلكَ الزمنِ؛ المرأةُ مُلكُ يمينِ الرجلِ، حتى إذا خرجَتْ مَعَه لا تمشي بجانبِه بلْ خلفَه تَتْبَعُ خُطاه، لا أدري كيفَ نبتَتْ قسوةُ هذه التقاليدِ التي نشأ عليها الرجلُ في المجتمعِ الفلسطينيِّ المُحافظِ والتقليديِّ، وفي أغلبِ المُجتمعاتِ

العربيَّةِ أيضًا، نظرةُ الرجلِ إلى المرأةِ نظرةٌ دونيَّةٌ، مَع أنَّها هي التي أنجبَتْه، وربَّتْه، وصلتِ الدُّونيَّةُ إلى درجةِ أنَّه كانَ عيبًا أنْ تمشيَ المرأةُ بجانبِ زوجِها! سألتُ أمِّي يومًا مازحةً:

- ماذا سيحصلُ لو تأبَّطتِ ذراعَ أبي أو حضنتِ كفَّه بيدِكِ كما هوَ الآنَ؟

أجابتْ ضاحكةً:

- لَمْ نكُنْ نتجرَّأُ على ذلكَ، ولَمْ نحاولْ أنْ نغيِّرَ شيئًا مِن وضعِنا، كُنَّا راضياتٍ بحياتِنا، كنتُ أحبُّه دونَ أنْ أُظهِرَ ذلكَ، هوَ زوجي وأبو أولادي، وتاجُ رأسي حتَّى آخرِ يومٍ مِن عمري. (وأضافتْ) ضِعْتُ عنه مرةً وأنا أمشي وراءَه، كنتُ ألبسُ زيًّا عصريًّا لَمْ يُعِقْ حركتي، ولكنَّ غطاءَ الرأسِ والوجهِ بالأسودِ الشفافِ، الذي كنتُ أضعُه على وجهي ورأسي ثمَّ أرميه خلفَ ظهري، أصبحَ مُعتمًا وقتَ الغروبِ طبعًا، عادَ أبوكِ يبحثُ عنِّي فوجدَني مُتجمِّدةً في مَكاني، لَمْ أَعُدْ أخرجُ مَعه إلاَّ في ما نَدَرَ، وإذا حصلَ أمشي قريبةً مِنه، وليس بجانبِه.

حدوتة أختي

كنتُ أتَّهمُ أمِّي بأنَّها مُتحيِّزةٌ للصبيانِ، لأنَّها لا تُنجبُ سِواهُم، وأنَّها لا تحبُّ البناتَ، كنتُ أتضرَّعُ إليها أنْ تنجبَ لي أختًا، أذكرُ أنَّ خالتي التي كانت أُمًّا ثانيةً بالنسبةِ لي كانتْ تأتي لرعايةِ أمِّي عندَ كلِّ ولادةٍ لها، وتمازِحُني قائلةً:

- يا هبلة، أنتِ البنتُ الوحيدةُ المدلَّلةُ في العائلةِ، لماذا تريدين أختًا؟ إذا أنجبتْ لكِ أمُّكِ أختًا، ستأخذُ كلَّ ألعابِكِ وفساتينِكِ، وتقاسِمُكِ الحُبَّ الذي يُحيطلكِ بِهِ الجميعُ مِن كلِّ جانبٍ.

كنتُ أردُّ عليها بإصرارٍ بأنَّني لا أريدُ شيئًا سوى أنْ يكونَ لي أختٌ ألعبُ معَها وأُهَدْهِدُها، أريدُ أختًا حتى لو أخذَتْ مِنّي كلَّ ما أملكُ مِن ألعابٍ وفساتينٍ، كانتْ خالَتي تحاولُ إفسادَ رغبتي وإثارةَ غيْرتي خوفًا ألاّ تُنجبَ أمِّي طفلةً تلكَ الليلةَ حتى لا أُصابَ بصدمةٍ مثلِ المراتِ السابقةِ.

نجحتْ أمِّي أخيرًا بإنجابِ أختي في تلكَ الليلةِ الرَّمضاءِ التي نِمْتُ فيها مُنتحبةً مِن كلامِ خالتي، وفي تلكَ الليلةِ التي كانَ بردُها شديدٌ، أيقظَتْني خالتي فجرًا مِن نومٍ مُتقلِّبٍ لأنَّني كنتُ أعلمُ بأنَّ أمِّي سيأتيها المخاضُ وذلكَ لوجودِ الدَّايةِ/المُولِّدةِ في بيتِنا لأيامٍ مضَتْ، أيقظتْني خالتي لتزُفَّ لي النبأَ السعيدَ، كدْتُ لا أصدِّقُ!

يا سَعدي وهَنائي! أخيرًا أنجبتْ لي أمِّي أختًا كنتُ أحلمُ بها وأتمنّاها منذُ أنْ وَعيتُ وحيدةً دونَ أختٍ، أخذتُ أفركُ عينَيَّ المُحمرَّتينِ مِن أثرِ البكاءِ حتى أستيقظَ مِن نومي القَلِقِ وركضتُ لأتأكَّدَ بنفسي؛ فوجدْتُ طفلةً ورديةً جميلةً تنامُ بهدوءٍ بجانبِ أمِّي، عانقتُ أمِّي بامتنانٍ وشكرتُها بحرارةٍ.

أصبحتْ أختي منذُ ذاكَ اليومِ كلَّ شيءٍ في حياتي، كانتْ رائعةَ الجمالِ شقراءَ مُمتلئةً بعيونٍ بُنِّيَّةٍ ساحرةٍ، أخذْتُ في مُناغاتِها ترحيبًا بها في دُنياي، التصقتُ بأمِّي أكثرَ بعدَ أنْ حققَّتْ لي حُلُمي لأتعلَّمَ

مِنهـا رعايـةَ أختـي؛ تعلَّمـتُ مِنهـا كيـفَ أُدشّـي[1] أختـي بعـدَ كـلِّ رضـاعةٍ، وكيـفَ أضـعُها علـى صـدري دونَ أنْ (أَمْلَعَهـا)[2]، وكيـفَ أُمَسِّحُ ظهرَها برفقٍ بكفّي الصغيرِ حتى يخرجَ الهواءُ مِن مَعدتِها، وماذا أفعلُ إنْ أصابَها مَغصٌ أراه في بكائِها وتقلُّصٍ في معدتِها فأحملَ أختي حيثُ أمي، لتضعَ في فمِها الصغيرِ ملعقةً صغيرةً مِن "ماء الغريب"، تفوحُ مِنه رائحةُ الينسونِ التي أحببتُها لأنَّها كانتْ تُريحُ أختي التي تتلوَّى مِن المَغصِ الذي يُقلِّصُ أمعاءَها.

كانَ لماءِ الغريبِ فعلُ السحرِ، أضعُ أختي على صدري حتى تتكرَّعَ وأشمَّ رائحةَ الينسونِ وهي تتجشأُ وتُخرِجُ الهواءَ مِن معدتِها، ثُمَّ تهدأُ، وتسترخي وتنامُ.

كنتُ مزهوَّةً أمامَ المُهنِّئاتِ بسلامةِ أمِّي، مِن نساءِ العائلةِ والجيرانِ، وأختي في حضنِي، لكنَّ حادثةً مؤلمةً حصلتْ لأمِّي بعدَ خروجِ المُهنِّئاتِ مِن الجاراتِ مباشرةً، خضَّتْني عليها كثيرًا، جرحَتْ كفَّها جرحًا عميقًا عندَما كانتْ تنقُلُ أكوابَ الشرباتِ إلى المطبخِ، نزفتْ يدُ أمِّي بغزارةٍ، ارتعبْتُ مِن منظرِ الدمِ الذي لَمْ يتوقَّفْ، ونقلَها أبي إلى المستشفى الخاصِّ الجديدِ الذي يبعُدُ عن بيتِنا خطواتٍ.

طلبتْ مِنّي أمِّي أنْ أبقى في البيتِ حتى أعتنيَ بأختي عندَما رأتْني أمشي وراءَها إلى المستشفى، غرزَ الطبيبُ في بطنِ كفِّ أمِّي

---

(1) كلمة دارجة في العامية الفلسطينية تعني: يتجشأ، وقد يقال بدل يتدشى كلمة يتكرع.

(2) عامية فلسطينية تعني ألوي ظهرها.

سبعَ غرزٍ أوقفتِ النزيفَ، استاءتِ الدَّايةُ لِمَا جرى لأمِّي لأنَّها نفساءُ، وبعدَ عودتِها أخذَتِ الدايةُ تقرأُ لأمِّي الأدعيةَ، وتُبخِّرُها قائلةً:

- أعوذُ باللهِ مِن العينِ التي لا تُصلِّي على النبي، ولا تُسمِّي باسمِ اللهِ، و.. و..

كانتِ الدايةُ مؤمنةً بأنَّ أمِّي حُسدَتْ لأنَّه لَمْ يكنْ ظاهرًا عليها أنَّها نفساءُ، كانتْ مورَّدةَ الخدَّيْنِ، وبياضُها الصافي مُشرَّبٌ بلونِ الصفاءِ والحياةِ.

أصبحتُ وأنا في الثانيةَ عشرَ مِن عُمري أمارسُ الأمومةَ؛ فتعلَّمتُ تفاصيلَها في هذهِ السِّنِّ المبكرةِ، تعلَّمتُ كيفَ أغيِّرُ لأختي حفاضاتِها، وكيفَ أحملُها دونَ أنْ أملعَها، وأغنِّي لها حتى تنامَ، تعلمتُ كيفَ أخيطُ لها فساتينَها الطويلةَ التي تلبسُ فوقَ الكافولةِ/القماطِ لتدفِّئَها في مطلعِ فصلِ الربيعِ، وتعلَّمتُ كيفَ أكوفِلُها برفقٍ ودقَّةٍ بعدَ كلِّ غيارٍ، وكنتُ أنتبهُ بأنْ أضعَ ذراعيْها الصغيرتَيْنِ على جَنْبَيْها وأربطَ حزامَ بطنِها حتى لا تُصيبَها بلعةٌ عندَ حَمْلِها أو مِن بردِ الشتاءِ.

تعلمتُ أنْ أمسكَ بيدِي اليُمنى عجلةَ الخياطةِ الخاصةِ بأمِّي، وبيدِي اليُسرى القطعةَ التي أريدُ أنْ (أدرزَها) لأختي فستانًا.

كنتُ أعودُ مِن المدرسةِ ملهوفةً على أختي، أنتظرُها أنْ تصحوَ مِن نومِها لأداعبَها. باختصارٍ، أصبحتْ زهرةُ شغلِي الشاغلَ، وتغيَّرتْ عاداتي اليوميةُ بالخروجِ مع إخوتي الصبيانِ إلى حديقةِ بيتِنا الكبيرةِ في المدينةِ التي نزحْنا إليها.

يـا زهـرةً فـي حيـاتي، بعدَ أنْ أصـبحتِ زهـرةَ حيـاتـي، أصـبحتْ أمِّـي تنـاديني فـورَ أنْ تسـتيقظَ مِـن نومِهـا، فـأجريَ ملهوفـةً لأقبِّلَهـا وأحضـنَهـا وأطعمَهـا مـا أعدَّتْـه لهـا أمِّـي مِـن رضـاعةٍ، أحضـنُهـا إلـى قلبـي لتسـمعَ دقـاتِ حبِّـي وتسـترخيَ، وترضـعَ وتسرحَ بأحلامِهـا وتنـامَ ثانيةً.

حتـى إنَّ أمِّـي تعوَّدتْ أنْ أكونَ مع زهرةَ حتى تتفرَّغَ هـي لإعدادِ وجبـةِ طعـامِ الغذاءِ، وإذا خرجتُ مـع إخوتـي إلـى الشـارعِ لنلعبَ كـرةَ القَدمِ، أو لعبـةَ السَبْعَةِ أحْجـارٍ، وغيرِها مِـن الألعـابِ الطفوليَّـةِ التراثيَّـةِ التـي كانـتْ أمِّـي تصـنعُ لَنـا طاباتِهـا مِـن الكَلْسـاتِ/الجواربِ القَديمـةِ، تجمعُها وتلفُّها داخلَ بعضِـها، ثُمَّ تُحكِمُها بفَرْدةٍ مِن كلسـاتِ النـايلون المَنسـولَةِ الخاصَّـةِ بهـا فتصـبحَ كـرةً نلعبُ بهـا، ونرمـي بهـا السَّـبعةَ أحجـارِ المَصـفوفةَ فـوقَ بعضِـها؛ حتـى يـتمكَّنَ الفريـقُ الآخـرُ مِـن صفِّهم، ولعبةُ المضرِبِ والخَشبةِ، وغيرِها الكثيرِ مِن الألعابِ الشعبيةِ الطفوليةِ، كانتْ أمِّي تنادِيني كُلَّما احتاجتْني لرعايةِ زهرةَ.

جدتـي

كانَ مِن عـادةِ جدَّتي الاستيقاظُ فجرًا للصلاةِ، وكانتِ المَسبحةُ لا تفارقُ أصـابعَها، وكنـتُ أسـألُها: "بمـاذا تُهَمْهِمُ"، فتُجيبُنـي: "بـذكرِ اللهِ"، وأخـذَتْ تعدِّدُهم لـي واحـدًا تلْـوَ الآخـرِ، وكانـتْ لا تتخلَّـى عـن مَسبحتِها إلاَّ عندَما تقومُ بمسـاعدةِ أمِّـي بَمـا تحضِّرُه لطبخِ هـذا اليـومِ أو ذاكَ.

وبعدَ كُلِّ صلاةٍ كانتْ تنهمرُ دعواتُها الطيباتُ لَنا كُلِّنا تبدؤها بولدِها، بأبي ولا تنسى أحدًا مِنَّا، كُنَّا مُحاطينَ جميعًا بدعواتِها وبركاتِها، أمَّا تسبيحاتُها فكانتْ تقرُّبًا لربِّ العالمينَ.

وفي المساءِ، كُنَّا نجتمعُ حولَ فِراشِها لتحكيَ لنا حواديتَها وحكاياتِها، كُنَّا نشعرُ بالأُنسِ والأمانِ لوجودِ جدَّتِنا مَعنا وكانَ يحلو لنا الجلوسَ بجانبِها في مكانِها المُفضلِ في ساحةِ الدارِ حيثُ تنعمُ بدفءِ الشمسِ شتاءً، ونسيمِ الهواءِ العليلِ صيفًا، وذلكَ قبلَ أنْ تسطوَ شمسُ الصيفِ الحارَّةِ على السطحِ المكشوفِ مِن ساحةِ الدارِ، عندَ ذلكَ تنتقلُ جدَّتي إلى الجانبِ الغربيِّ حيثُ هواءُ البحرِ العليلُ يهفُّ عليها مِن الشرفةِ، والشبابيكِ المفتوحةِ لاستقبالِه لتنقيةِ جوِّ البيتِ، وكانتْ تُغلَقُ ليلاً خوفًا مِن لسعاتِ البردِ.

مطبخُ بيتِنا كانَ ملتصقًا بغرفةِ الخَزينِ الذي تَخزنُ فيه أمِّي مؤونةَ الشتاءِ، كانتْ أمِّي تطبخُ على موقدٍ نحاسيٍّ/البريموس، أو وابورِ الكازِ وفيه فتحةٌ في أعلى قاعدتِه الدائريةِ الشكلِ، يُعبَّأُ الكازُ مِن خلالِها، ويُبرَمُ حتى يتمَّ إغلاقُ الفتحةِ تمامًا، وعندَ التشغيلِ تفتحُ أمِّي المبرمَ قليلاً حتى يصلَ الكازُ إلى عينِ الوابورِ، كانتْ أمِّي تفركُ عيونَها كلَّما أشعلتْه لتَحسُّسِها مِن رائحةِ الكازِ، وإذا لَمْ يشتعلْ وابورُ الكازِ، تَنكُشُ أمِّي رأسَ الشعلةِ بنكَّاشةٍ رفيعةٍ مثلِ الإبرةِ، لَها يدٌ رفيعةٌ وطويلةٌ حتى يصلَها الكازُ بعدَ ضخِّهِ بمِضخَّةِ الكازِ على يمينِ الوابورِ.

كنتُ أسمعُ صوتَ ضخِّ وابورِ الكازِ عدةَ مراتٍ كلَّما طبختْ أمِّي، أو كلَّما حانَ موعدُ حمَّامِنا الأسبوعيِّ في الشتاءِ.

كانتْ أمِّي تلمِّعُ وابورَ الكازِ النحاسيِّ فيصبحَ بعدَ الانتهاءِ مِنْهُ ذهبيَّ اللونِ وكأنَّه أيقونةٌ وليسَ وابورَ جازٍ، وكانَ هناكَ أيضًا طاولةٌ عليها شرشفٌ بلاستيكيٌّ محدَّدٌ بمربعاتٍ حمراءَ وبيضاءَ، تضعُ عليه المَفرمةَ الخشبيةَ لتقطيعِ اللحومِ والدجاجِ، ومفرمةً أخرى لتقطيعِ الخضارِ والفواكهِ، وكانتْ تصفُّ على طاولةِ المطبخِ صحونَ الفطورِ/كَسْرِ الصُّفرةِ، والعَشاءِ، وتنقلُهم إلى طاولةِ السُّفرةِ في الجزءِ المُغطَّى مِن ساحةِ الدارِ، حيثُ تصطفُّ الدَّواشِكُ/الكنبُ المُزينةُ بالقرنِ/مخداتٍ مستطيلةٍ مَسنودةٍ على خشبِ الدَّواشِكِ في ركنِ الجلسةِ العائليةِ مِن الصالةِ الواسعةِ، كلُّها مطرزةٌ بألوانٍ ودقةِ تصميمِ الطبيعةِ الساحرةِ بالغُرزةِ الفلسطينيةِ (إكس **X**).

تجلسُ عليها العائلةُ بعدَ الوجباتِ الدسمةِ، حيثُ يتناولُ أبي وأمِّي شربَ القهوةِ والشايِ، والحديثِ معنا، أمَّا الجزءُ المكشوفُ مِن ساحةِ الدارِ، فكانَ على طرفِه بئرُ الماءِ، تجلبُ أمِّي أو أحدُ إخوتي الماءَ مِنه بدلوٍ مُعلَّقٍ في حبلٍ سميكٍ وطويلٍ للاستخدامِ اليوميِّ مثلِ، الغسيلِ وشطفِ البلاطِ وجلي المواعينِ.

عندَما يحينُ موسمُ البندورةِ (الطماطمِ) تقطعُها أمِّي وترُشُّ عليها الملحَ وتعصرُها جدَّتي وتُصَفِّيها مِن البذورِ وتضيفُ مزيدًا مِن الملحِ وتَفرِدُها على صواني الألمنيومِ، وتتركُها تجفُّ في ساحةِ الدارِ تحتَ الشمسِ، تراقبُها جدَّتي وفي يدِها مروحتَها القشَّ، تنشُّ بها إذا حاولتْ ذبابةٌ أنْ تَحُطَّ على طرفِ الصينيةِ، ولكنَّها دائمًا كانتْ تهربُ فورَ أنْ تقفَ على طرفِ الصينيةِ مِن رائحةِ البندورةِ الحادَّةِ قبل أنْ تَنُشَّها جدَّتي.

أمّا موسمُ الباميةِ؛ فحدِّثْ ولا حرجَ؛ تَشُكُّها جدَّتي بالإبرةِ والخيطِ عقودًا طويلةً بخيوطٍ بيضاءَ قويةٍ، وتُعَلِّقُهم على مساميرَ مصفوفةٍ باتجاهِ الشمسِ حتى يَجِفُّوا تمامًا، ويصبحوا في غرفةِ تخزينِ مؤونةِ الشتاءِ.

سهراتُ رمضانَ وليالي الصيفِ مَع الجيرانِ في ساحةِ الدارِ أيضًا لها رونقُها، حيثُ يلعبُ نسيمُها في جوانبِ الساحةِ، كما كانَ لجدَّتي دُوشَكٌ كبيرٌ، مُغطًّى بقماشٍ قطنيٍّ مُوَرَّدٍ يجذبُها إلى الاسترخاءِ عليه، لتأخذَ غفوتَها النهاريةَ، وتلتحفَ بدفءِ أشعةِ شمسِ الشتاءِ المَفرودةِ بحنوٍّ على جسدِها النحيفِ، وقوامِها الجميلِ.

أمِّي كانتْ تعشقُ الغناءَ وتسلِّي نفسَها بالغناءِ الذي تعلمَتْه مِن الراديو، وكلَّما أُذيعتْ أغنيةٌ، تردِّدُها مَعه أو مَعها، تقفزُ جدَّتي مِن نومِها وتجلسُ متربِّعةً على دُوشَكِها وتصفِّقُ مع النغمِ، وتغنِّي مع أمِّي بعضَ الأغاني الدارجةِ في ذلكَ الوقتِ، وأغلبُها أغاني فلكلوريةٍ تحاكي الحياةَ السائدةَ.

كانَ الراديو نافذتَهُنَّ المُطلَّةَ على العالَمِ، يستمعنَ إلى أخبارِ الوطنِ العربيِّ وبرامجَه الأُسريَّةَ، وما يجري في فلسطينَ لدرجةِ أنهنَّ كنَّ يناقِشنَ السياسةَ مع رجالِ العائلةِ بمقدرةٍ كبيرةٍ، وهذا يَسري على أغلبِ العائلاتِ الفلسطينيةِ خاصَّةً بعدَ النكبةِ، لِهذا نشأَ أطفالُهم مُسيَّسين. بعدَ ذلكَ تبدأُ الدارُ تصدحُ بأغاني أشهرِ المطربينَ مِن "السّت أمّ كلثوم" إلى أسمهانَ إلى ليلى مراد، ومِن محمد عبد الوهاب إلى فريد الأطرش، يا لَها مِن لحظةٍ ساحرةٍ مزروعةٍ في حنايا القلبِ!

كانَ لأمِّي صوتٌ رخيمٌ حنونٌ جميلٌ، يؤجِّجُ مشاعري نحوَها أكثرَ وأكثرَ، وكانتْ تَطرَبُ لسيدةِ الطربِ الأولى "السِّت أمّ كلثوم"، كانتْ أغاني فريد الأطرش الحزينةُ تُبكيها، لَمْ أرَ أمِّي سعيدةً كما سَمِعْتُها تحدِّثُ جدَّتي وهي تغني أغاني مُغنييها المُفضَّلينَ الذينَ شاهدتْ غناءَهم الحيَّ مع أبي في مسارحِ ومقاهي يافا.

وعندَما كبرتُ وتغرَّبتُ عنها، فضفضتْ لي بمكنوناتِها في زياراتي الأثيرةِ لها، وأعادتْ سردَ قصةِ بهجتِها وذكرياتِها الحميمةِ وهي تقول:

- ذهبتُ مع أبيك، وتمتعتُ بسماعِ ورؤيةِ كلِّ المطربينَ الذي جاءوا إلى يافا، مِن صاحبةِ الطربِ الراقي "السِّت أمّ كلثوم" إلى أسمهان، ومحمد عبد الوهاب، وفريد الأطرش وغيرِهِم، لقدْ أطربوا أهلَ يافا الذينَ كانوا مُولعينَ بالطربِ والثقافةِ، وحبِّ التجارةِ خاصةً تجارةِ البرتقالِ، وكانَ أصحابُ بياراتِ البرتقالِ يعيشونَ البَذَخَ والأرُستقراطَ، ولا يَلتقونَ بعُمَّالِهم إلاَّ يومًا واحدًا ليدفعوا لَهم رواتبَهم الشهريةَ.

كانتْ جدَّتي تَستمعُ إلى أغاني المذياعِ وتردِّدُ وراءَ أمِّي الغناءَ وهي منهمكةٌ بتقميعِ الباميةِ، أو نَقْرِ الكوسا وحَشْوِه الأرزِّ واللحمةَ المفرومةَ، أو اللحمةَ المفرومةَ المُطجَّنةَ بالبصلِ المفرومِ والصنوبرِ المُحمَّرِ لطبخةِ "يخنةِ كوسا باللبنِ"، وعندَما تنتهي مِن لَفِّ ورقِ العنبِ أو ورقِ الملفوفِ، أو نقرِ اللفتِ والجزرِ والفقوسِ وحشيِهم بالثومِ والأرزِّ واللحمِ المفرومِ إذْ كانتْ أمّي تُعِدُّ تَتْبِلَةَ الأرُزِّ مَعَ اللحمِ

وتُبَهِّرُها بالبهاراتِ اللازمةِ، أو تَطحِنُ/تطبخُ اللحمَ مع البصلِ، مِن أجلِ حَشْوِ الكوسا صغيرَةَ الحجمِ لطبْخِها باللّبن/لَبَن أمِّه، كَما كانتْ أمِّي تفرمُ البقدونسَ لتُضيفَه إلى حشوةِ ورقِ العنبِ.

كانَ لا يهدأُ بالُ جدَّتي حتى تُحَضِّرَ لها أمِّي ما تريدُ طبخَه لِهذا اليومِ أو ذاكَ، كانتْ تُسلِّي نفسَها أثناءَ انشغالِ أمِّي في أعمالٍ أخرى؛ كالتنظيفِ والغسيلِ والنَّشْرِ على الحِبالِ الطويلةِ في ساحةِ الدارِ.

وعندَما تنتهي جدَّتي تُنادي على أمِّي لتأخذَ كلَّ شيءٍ إلى المطبخِ، لوضْعِ الطَّبخةِ على وابورِ الكازِ، لأنَّ الأولادَ قَرُبَتْ عودتُهم مِن المدرسةِ، وعلى أمِّي أنْ تستعدَّ لإنجازِ وجبةِ الغداءِ لَهُم وغسلِ الأواني التي استعملَتْها جدَّتي، بعدَ ذلكَ أسمعُ جدَّتي تتأوَّهُ مِن ألمٍ في ساقيْها، فتفردُهما على كَنَبَتِها تحتَ أشعةِ الشمسِ الدافئةِ، وتذهبُ في غفوتِها الصباحيَّةِ.

لا أدري كيفَ استطاعتْ أمِّي أنْ تتعلَّمَ كلَّ ذلكَ بعمرِها الطفوليِّ لولا وجودُ جدَّتي، أو سيداتُ العائلةِ الذينَ يَستضيفُهم أبي باستمرارٍ، كانتْ قِيَمُ الحياةِ أمرًا مقدَّسًا، تتجلَّى روعتُها بالتَوَدُّدِ والتآلفِ الأُسريِّ الذي كانَ يسمو فوقَ كلِّ الاختلافاتِ والخلافاتِ.

كنتُ أعشقُ ألوانَ الحياةِ والطبيعةِ مِن حَوْلي، ولا أدري لِماذا لوَّنوا بعضَ الأقمشةِ بألوانٍ لا تَمُتُّ إلى الحياةِ بِصِلَةٍ، لقدْ ظلمَتْ مجتمعاتُنا نساءَنا، لأنَّني بعدَ أنْ كبرتُ وهاجرتُ إلى بلادِ الغربِ، وجدْتُ عجائزَ في التسعيناتِ ما زلنَ يُمارسْنَ رياضةَ المَشْيِ،

والسباحةِ، وقيادةِ السيارةِ والبسكليتِ ويلبسنَ الألوانَ الزاهيةَ، ويضعْنَ الأحمرَ على شفاهِهنَّ، والأخضرَ والأزرقَ على أجفانِهنَّ، بينما أصبحَتْ جدَّتي عجوزًا وهي في الأربعينَ مِن عمرِها.

لا أدري لماذا ربطُوا اللونَ القاتمَ بالاحترامِ، ولماذا قبضُوا قلبَ جدَّتي بالألوانِ الداكنةِ، وهيَ ما زالتْ يانعةً في عمرِها ومشرقةً في طَلَّةِ وجهِها وبدنِها.

سمعتُ مؤخَّرًا بأنَّه في مدينةِ غزةَ، كانَ الأطفالُ يغنُّون معًا: "يا ربِّ تمطِّر يا ربِّ خلِّي العجايز تنضَبّ/أيْ ينضَبُّوا في البيت! هل هناكَ أقسى مِن ذلكَ؟ لماذا يجبُ أنْ تبقى الجدَّاتُ أسيراتِ الدُّورِ؟

حفِظْنا في يافا تراثًا إيجابيًا كُنَّا نُغنِيه لَسِتِّي/جدَّتي، وما زلتُ متمسكةً به حتى الآن.

يا ربِّ الدنيا تشتي، وأروح عند ستي،

تعملِّي فطيره وحَمام، آكلها وأنام، وصَبِّحْ جوعان.

علَّمتُها لحفيدَتي التي تُشبهُني شكلاً وعقلاً، فهي تحبُّ الكتابةَ والقراءةَ والرسمَ، ونُشِرَ لها قصةٌ قصيرةٌ للأطفالِ مُزيَّنةٌ برسومِ أناملِها الموهوبةِ، وهي في الثامنةِ مِن عمرِها.

لقد حُكِمَ على جدّاتِنا بالعَجْزِ، وبألوانِ ملابسَ داكنةٍ، وحُرِّمَ عليهِنَّ أو حَرَّمْنَ على أنفسهنَّ وضعَ أحمرِ الشفاهِ، أو الزّواقِ، أو ممارسةَ أيِّ نشاطٍ رياضيٍّ، وإنْ فعلَ بعضٌ منهنَّ ذلكَ في بيوتهنَّ اتُّهِمْنَ بأنهنَّ مُتصابياتٌ، وتبدأُ المسخرةُ عليهِنَّ مِن صبيانِ العائلةِ، يرشقوهنَّ بمزاجِهم الثقيلِ، مثلِ: سوفَ نبحثُ لكِ عن عريسٍ شابٍّ وغنيٍّ.

كانـتِ الجـدَّاتُ تأخـذنَ كـلامَ أحفـادِهنَّ بمحمـلِ المُـزاحِ، ولا يتضـايَقْنَ مِنهُم قائلاتٍ لي: "خلِّيهم ياخدوا راحتهم، فما أعزّ مِن الولد إلا ولد الولد".

كانَ يُزعجُنـي أنْ أراهُم يُضـايقونَ جدَّتي، وأهُبُّ للدفاعِ عَنهـا، فتُخفِّفُ عنِّي ضاحكةً: "اتركيهم على راحتهم عَم بيمزحوا معي".

كنتُ واثقةً أنَّها تسكتُ على مَضَضٍ، وعندَما ينْقلونَ، كنتُ أحنقُ وأهَتُّ عليهِم، وأحزنُ على جدَّتي لأنَّها خَتيرَتْ نفسَها قبلَ الأوانِ.

تزوَّجتْ جدَّتي وعمَّتي الكبيرةُ وخالتي الأصـغرُ مِن أمِّي مباشرةً والأقـربَ إليهـا، وأمِّـي وهـنَّ فتيـاتٌ صـغيراتٌ، كنـتُ أتمنَّـى أنْ أرى عمَّتـي مثـلَ خـالتي دائمـةَ الأناقـةِ والمـرحِ، وكأنَّـها ليسـتْ مِـن ذاكَ الـزمنِ، كنـتُ فخـورةً بهـا وباهتمامِهـا بمظهرِهـا، وزينتِهـا البسـيطةِ وتسـريحةِ شـعرِها الأسـودِ الأملـسِ والقصـيرِ، كنـتُ أتصـوَّرُ جـدَّتي وعمَّتي شابَّاتٍ جميلاتٍ مثلَها لو خلعْنَ أثوابَ الحدادِ القاتمـةِ، وزينَّ أنفسهُنَّ قليلاً، وآمَنَّ بأنهُنَّ لا زِلْنَ يعِشْنَ الحياةَ، ولَمْ ينتهِ دورُهُنَّ مِنها بعدُ، وأنهنَّ لا زِلْنَ في مقتبلِ العمرِ، كنتُ أتساءلُ:

يا إلهي، كمْ مِن النساءِ ظُلمْنَ وسكتْنَ على مَضضٍ في بلادي!

كـانَ محكومًـا عليهنَّ أنْ يصـبحْنَ مثـلَ جدَّتي يجلسْنَ علـى سـجادةِ صـلاتِهنَّ، ومَسبحاتِهنَّ لا تغادرُ أصـابعَهنَّ، لقدْ حُدِّدَ دورُهنَّ بالحياةِ الساكنةِ، وهنَّ لا زلْنَ مُفعماتٍ بالحياةِ.

لهذا قررتُ أنْ ألبِسَ العروسـةَ التـي سـتمثِّلُ جدَّتي، فـي بيـتِ أحـلامِ الطفولـةِ لونًـا فاتحًـا ومبهجًـا، فـي بيـتِ الرمـلِ المعجـونِ بمـاءِ

البحرِ الذي بَنَيْتُهُ معَ صديقاتي مِن بناتِ الجيرانِ، وجدْتُ بينَ شرائِطِي اللونَ الفُستقيَّ، استأذنتُ جدَّتي في ذلكَ، وفوجئتُ بدمعةِ فرحٍ في عينيْها، غطَّتْها بيدِها الجميلةِ وقدْ تدلَّتْ مِن بينِ أصابعِها الناعمةِ والرقيقةِ مسبحتُها. أجابَتْ جدَّتي قائلةً:

- لونٌ جميلٌ يا سِتِّي، افعلِي ما بدا لكِ طالما أنَّه يُفرحُكِ.
- أريدُكِ أنْ تفرَحي أنتِ أيضًا يا جدَّتي، أريدُكِ أنْ تخلَعي عنكِ الملابسَ القاتمةَ، أنتِ شابَّةٌ.

ضحكتْ بسعةِ شفتيْها الرقيقتَيْنِ وقالتْ:

- مِن وين يا ستي؟ الكَبرْ عَبرْ.

ثمَّ توقَّفتْ فجأةً وسألتْني بلهفةٍ:

- بس قولي لي، كيف عرفتِ إنّ اللون الفستقي هو لوني المفضل؟

لا أدري لماذا ربطوا اللونَ بالاحترامِ، كانَ كبارُ العائلةِ يَحْظَوْنَ باحترامِنا وتقديرِنا؛ نُقَبِّلُ أياديهِم في الصباحِ وقبلَ النومِ، كما نُقَبِّلُ أيادي أمهاتِنا وآبائِنا كُلَّما زُرناهُم، بعدَ أنْ استقلَّ كُلٌّ واحدٍ مِنَّا في حياتِه، أذكرُ أنني طلبتُ مِن أمِّي بعدَ ذلكَ ألاَّ تلبسَ ألوانًا قاتمةً تُزعِجُ الروحَ والنظرَ، كانتْ أمِّي بنظري عروسًا بألوانِ ملابسِها، وأناقةِ تفصيلِهم، شعرُها الأسودُ الفاحمُ كانَ يزيدُ مِن لمعانِ عينيْها العسليتَيْنِ الواسعتَيْنِ، ومِن بياضِ بشرةِ وجهِها النقيِّ المُزيِّنِ بخدَّينِ ورديينِ، خاصَّةً عندَما ينسدِلُ شعرُها الطويلُ حولَ وجهِها، أو حينما تُجَدِّلُه جديلتَيْنِ تُرخيهِما على صدرِها، أو جديلةً ترميها وراءَ ظهرِها وتصلُ إلى مُنتصفِه.

عمتي

عمَّتي أصبحتْ تُقيمُ معَنا فترةً أطولَ مِن أجلِ جدَّتي التي كانتْ تسعى دائمًا إلى لَمِّ عائلتِها مِن حولِها، وكانَ لها قصةٌ حزينةٌ لا تتغيَّر ولا تَشبعُ مِن قَصِّها، كانتْ قصةً مؤثِّرةً للغايةِ، دمَّرتْ حياتَها عندَما فقدَتْ وحيدَها في حادثٍ مؤلمٍ قبلَ ولادَتِي، أمَّا بناتُها اللواتي وَعَيْتُهُنَّ متزوجاتٍ كنَّ يَزُرْنَنا في المناسباتِ، مأساةُ عمَّتي حفرَتْ في روحي، كانتْ تندُبُ وحيدَها وتقولُ:

- يا حسرةَ قلبي عليه، ماتَ يافعًا وكانَ بهيَّ الطلعةِ، مجتهدًا وذكيًا، ومَرضِيًّا عند أبويْه.

سألتُ عمَّتي بعدَ أنْ شدَّتْني بحزنِها العميقِ:

- كيفَ ماتَ أحمدُ وهو شابٌّ صغيرٌ يا عمَّتي؟
- طارَ به الفرسُ وهشَّمَ رأسَه.

نظرتُ إليها برعبٍ، تنهَّدَتْ بحسرةٍ وقالتْ:

- في يومٍ مِن الأيامِ، زارَ محلَّ أبا أحمدَ أحدُ الفرسانِ ليشتريَ مِنْه بضاعةً، وركنَ فَرَسَه بحلقةِ الحديدِ الموجودةِ على الحائطِ لربطِ لجامِ الحصانِ، كانَ التنقُّلُ مِن القرى إلى المُدُنِ بالأحصنةِ سائدًا في فلسطينَ، وكانَ أحمدُ يذهبُ بعدَ الدوامِ المدرسيِّ لمساعدةِ أبيه، طلبَ الإذنَ مِن صاحبِ الفرسِ بركوبِه، وافقَ ولكنَّ أباه نبَّهَهُ ألاَّ يبتعدَ كثيرًا، وأنْ يأخذَ جولةً حولَ الدكانِ فقطْ.

تتأوَّهُ وهي تُكمِلُ قصَّتَها قائلةً:

- وضعَ قدميْه في الرِّكابِ على جانبيِّ السرجِ، وبدأ يَدْرُجُ بالحصانِ حولَ دكانِ أبيه، كانَ الحصانُ هادئًا ولكنَّه فجأةً وقفَ على ساقيه ورفعَ يديْه عاليًا مع صوتٍ مخيفٍ، وهَبَّ صاحبُ الحصانِ لإنزالِ أحمدَ عن حصانِه ولكنَّه كانَ أسرعَ مِنْه وطارَ إلى السهلِ المؤدِّي إلى الجبلِ.

تتوقَّفُ عمَّتي وتبكي وهي تستعيدُ المشهدَ، ألفُّها بذراعي، وأمسحُ دموعَها بيدَيَّ الصغيرتيْنِ، تُقَبِّلُني وهي تُنَهْنِهُ، ودموعُها تتساقطُ على وجهي، ثُمَّ تُكمِلُ:

- يا وِلْداه! فَقَدَ سيطرتَه على الحصانِ الذي رماه على قَفاه، وبقيتْ قدماه مُعلَّقتيْن بركابِ سرجِ الحصانِ، ركضتْ خلفَه فِرَقُ البوليسِ والناسِ وكلُّ مَنْ عندَه عربةٌ أو حصانٌ في مُحاولَةٍ مِنْهُم لإيقافِ الحصانِ الجامحِ، وعندَما أوقفوه، كانتْ جُمجمةُ أحمدَ مُهشَّمةً، وجسدُه ينزفُ.

أُجهِشَتْ عمَّتي بالبكاءِ، وكأنَّ الحادثَ حصلَ للتوِّ، وبكيتُ معَها على وجعِها. تُعيدُ عمَّتي وتُكرِّرُ وَصْفَ وَحيدِها قائلةً:

- كانَ محبوبًا مِنْ مُدرِّسيه وأصدقائِه وجيرانِه، وكانَ مُحِبًّا لأَخَواتِه ومُطيعًا لوالديْه، مُتعاونًا، مَرْضِيٌّ عنه مِنِّي ومِن أبيه ينالُ الرضا كلَّ صباحٍ ومساءٍ.

لا أدري كيفَ كنتُ أصبِرُ على سماعِ مثلِ هذهِ القصصِ القاسيةِ على روحِ طفلةٍ، هلْ قصةُ ابنِ عمَّتي يا ترى هيَ التي جعلَتْني أخافُ الموتَ؟ كنتُ أُنصِتُ إليها وعلاماتُ الحزنِ باديةٌ على

وجهي، وكانتْ تُعانِقُني وتبكي، شعرتُ أنَّ مُشاركتَها مُصابَها تُخفِّفُ حُزنَها.

تمنَّيتُ لو انسحبتُ، تمنَّيتُ لو سكتتْ عمَّتي، شعرتُ بوجعِها ولَمْ يكنْ أمامي سوى أنْ أحضُنَها وأرَبِّتَ على ظهرِها لأهدِّئَها.

تمسَّكتْ بي وهيَ تَصِفُ كيفَ اصطفَّ سكانُ مدينةِ بيسانَ على جانبيِّ الشارعِ الرئيسيِّ الذي ستَمُرُّ مِنْه جنازةُ أحمدَ، إلى مثواه الأخيرِ، واصطفَّ طلبةُ مدرستِه بكاملِها وراءَ الجثمانِ يحملونَ أكاليلَ الزهورِ ويعزفونَ ألحانًا حزينةً بآلاتِ القِرَبِ الموسيقيةِ التي كانَ عضوًا فيها، تكريمًا لهُ في وداعِه الأخيرِ، بدموعٍ وقلبٍ يئنُّ مِنَ الوجعِ، كما اصطفَّ البوليسُ على جانبيِّ الشارعِ فورَ خروجِ النعشِ مِن بيتِه، وأمُّه وأخواتُه يُوَلْوِلْنَ وراءَه، ويملأنَ المدينةَ الصغيرةَ المُتكاتِفةَ عويلاً جعلَ أهلَها تبكيه لأسابيعَ.

عرفتُ لاحقًا أنَّ قصةَ ابنِ عمَّتي انتشرتْ في ربوعِ فلسطينَ، فقد كانتْ أولَ حادثةِ وفاةٍ مؤلمةٍ لأحدِ أبنائِها، أحمدُ اللهَ أنَّ ابنَ عمَّتي ماتَ قبلَ أنْ أولدَ حتى لا أُفجَعَ أكثرَ.

أصبحتْ عمَّتي تُكرِّرُ قصَّتَها الحزينةَ كلَّ يومٍ وكأنَّ استعادةَ الحزنِ يُريحُ قلبَها المَكلومَ وهي تحكيه كلَّ يومٍ، كنتُ أنسى قصةَ عمَّتي الحزينةَ فورَ أنْ أختفيَ مِن أمامِها، لأعيشَ يومي منذُ الصباحِ الباكرِ، حتى نهايتِه، في حركةٍ دؤوبةٍ، ونشاطٍ أزعجَ نساءَ العائلةِ اللواتي نَمَوْتُ في أحضانِهنَّ، مِنْ عمَّتي وبناتِها، إلى خالتي التي كانتْ حريصةً أنْ تكونَ مع أمِّي في كلِّ حالةِ ولادةٍ، وكانتْ تُحضِرُ

معَها أحيانًا حفيدتَها التي كنتُ ألهو معَها، وآخذُها معي كلّما ذهبتُ مـعَ إخـوتي وبنـاتِ الجيرانِ إلى البحـرِ، كُنّا لا نغادرُ مدينتَنا بحُكْمِ عملِ أبي، ومسؤوليةِ أمّي ورعايتِها لعائلتِها الكبيرةِ.

ولكنَّنـا كُنَّـا نسـتقبلُ أقاربَنـا باسـتمرارٍ، ونفرحُ بهِم، خاصَّـةً بعدَ نُزوحِنا إلى مسقطِ رأسِ أبي مدينةِ نابلسَ، وأصبحتْ عمَّةُ أبي أيضًا تُقيمُ معَنا باستمرارٍ لأنَّها رَحِمهُ، وكذلكَ عمَّتي أصبحتْ مقيمةً عندَنا بشكلٍ دائمٍ، وبناتُها يَزُرْنَها باستمرارٍ، وجَلبتْ معَها آلامَها وحقدَها الـدفينَ علـى المولـودِ الـذَّكَرِ الـذي رُزِقَ بـهِ زوجُها لأنَّـه حـلَّ محـلَّ ولدِها، كنتُ في ضيافتِها يومًا، وزغردَتِ ابنتُها عندَما سمعتِ الدَّايةَ فـي غرفـةِ زوجـةِ أبيها تُعلِـنُ أنَّ المولـودَ صـبيٌّ، (جَحَرَتهـا) عمَّتـي بنظرةٍ، فرَدَّتْ عليْها بصوتٍ منخفضٍ: مِن قهرِي يا أمّي بزَغرد.

أعرفُ أنَّ الزغرودةَ تعبيرٌ عن الفرحِ النـابعِ مِن القلـبِ، لهذا تخرجُ مِن الصـدرِ زغاريدُ الفرحِ، لَمْ أسمعْ يومًا أنَّ الزغرودةَ تعبيرٌ عن قهرٍ.

كانتْ عمَّتي تُحِبُّ كلَّ ما هو مُغذٍ مِن الطعامِ وتَدُسُّه إلى بناتِها قائلةً:

- كُلوا بندورة بتقوّي دمكم.
- كانـتْ تظـنُّ أنَّ لـونَ البنـدورةِ الأحمرَ يزيدُ الدمَ فـي عروقِ الجسمِ.

لَمْ تَعُدْ عمَّتي تروي لنا قصـةَ وحيدِها، بعدَ أنْ أصبحَ لزوجِها عـددٌ وفيـرٌ مِـن الأبنـاءِ والبنـاتِ، كنـتُ أحـبُّ عمَّتـي لطيبـةِ قلبِهـا،

وحكاياتِ شبابِها، وما فعلَه الدهرُ بِها، إقامتُنا سويًّا في نفسِ المدينةِ أنعشَتْ نفسيتَّها، خاصةً بعدَ زواجِ زوجِها، وإنجابِه صبيًا، أعادَ إليها شجونَ فقدانِ وحيدِها.

كمْ كانَ مُهمًا في ذلكَ الوقتِ أنْ يكونَ للرجُلِ ولدٌ يحملُ اسمَه وثروتَه مِنْ بعدِه، سواءٌ أكانَ غنيًا أو متوسطًا أو فقيرَ الحالِ، لأنَّه حسبُ مفاهيمِ ذاكَ الزمنِ، مَنْ خلَّفَ بنتًا لا يعني أنَّه خَلَّفَ ذريةً، لأنَّ الولدَ هو استمرارٌ لاسمِ العائلةِ، أمَّا البنتُ فلا، لأنَّها تتزوَّجُ مِنْ رجلٍ أجنبيٍّ عن العائلةِ، ليسَ هذا فقطْ الجَوْرَ الذي يقعُ على المرأةِ، هي ترثُ نصفَ الولدِ حسبَ الشرعِ.

في المناطقِ القرويَّةِ في فلسطينَ، وأعتقدُ في الكثيرِ مِن القُرى العربيةِ، لا يَحِقُّ للبنتِ أنْ تُطالِبَ بإرثِها لأنَّه عيبٌ، حتى لو كانَ زوجُها فقيرًا ومعدِمًا، تَحْرِمُ نفسَها مِن حقِّها لأنَّه عيبٌ عليها أنْ تُطالبَ إخوتَها به.

سألتُ يومًا إحدى النساءِ القروياتِ اللاتي كنَّ يخدمنَ في البيوتِ، رقَّ لها قلبي للمجهودِ الهائلِ الذي تبذلُه كلَّ يومٍ مِن بيتٍ إلى بيتٍ مِن أجلِ لقمةِ العيشِ:

- هلْ طالبْتِ بإرثِكِ؟
- عندَما تُوُفِّيَ والدي لَمْ أستطعْ المطالبةَ بحقِّي "النصفِ" لأنَّه كانَ مِن العيبِ والخارجِ على الأصولِ والتقاليدِ أنْ تُطالبَ المرأةُ القرويَّةُ بحقِّها حتى لو كانَ زوجُها فقيرًا.

عمّي

كنتُ أعشقُ تلكَ الليالي المَحكيَّةَ، ولا أَمَلُّ مِن الاستماعِ إليها مِن جدَّتي لأمِّي أو عمِّي عندَما كانوا يزوروننا، وكنتُ كلَّما أردْتُ شيئًا لا يُوافقُني عليه أبي أتوسَّطُ لديْهِ عندَ عمِّي الذي كانَ لا يرفضُ لي طلبًا، كانَ مرحًا وسيمًا طويلَ القامةِ أنيقَ الملبسِ، وكانَ مُغامرًا يحبُّ الحياةَ والمرحَ والسفرَ، لَمْ أرَه جادًّا في حياتي لذلكَ عندَما اختارَه اللهُ إلى جوارِه بشكلٍ مفاجئٍ، كانَ لا يزالُ مفعمًا بالحياةِ وحبِّ الناسِ مِن حولِه، وهو يخترقُ قلوبَهم بخيالِ حكاياتِه وأرواحِهم، بالرهبةِ التي يرسمُها بإتقانٍ على وجهِه، ونبراتِ السردِ ورجفاتِه، وحركاتِ الوجهِ والعينيْن واليديْن.

خلَّفَ عمِّي الكثيرَ مِن الأولادِ والبناتِ، وكانَ نضرًا ومنشرحَ الصدرِ باستمرارٍ، كانَ عمِّي صاحبَ نكتةٍ وأصدقاؤه كثرٌ، أعتقدُ أنَّه كانَ يعيشُ حياةَ الصعلكةِ لأنَّه لَمْ يثبتْ في عملٍ، وكانَ مبدؤه "عِشْ ليومِكَ كأنَّكَ تعيشُ أبدًا"، لا طُموحَ لديْهِ أكثرَ مِنْ أنْ يكونَ طيبَ القلبِ مُحبًا ومحبوبًا مِن كلِّ مَنْ حولَه، كانَ يَرضى بالقليلِ في سبيلِ أنْ يقضيَ الوقتَ في إمتاعِ نفسِه وإمتاعِ الآخرينَ.

كنتُ أنتظرُ زيارتَه لنا بفارغِ الصبرِ، وأُهلِّلُ لقدومِه منذُ أولِ ليلةٍ، وكانتْ حكاياتُه لا تنتهي وكأنَّها كُتِبَتْ على حلقاتٍ وكلُّها مِن مَحْضِ خيالِه، تمتدُّ بنا حتى ما بعدَ موعدِ نومِنا، كنتُ أرجوه أنْ يستمرَّ، لكنَّه كانَ يتوقَّفُ فورًا بإشارةٍ مِن أبي أو أمِّي.

للأسفِ، لا أتذكَّرُ أيًّا مِنْها رغمَ أنَّني كنتُ لا زلتُ أحنُّ لأتذكَّرَ أيًّا مِنْها، كنتُ أنصتُ بعمقٍ لحكاياتِ عمِّي التي كانتْ تشدُّ روحي

وكياني نحوَه، فقدْ كانَ يخصُّني بحبٍّ خاصٍّ، ودلالٍ وحنانٍ كبيريْنِ، فأنا الابنةُ الوحيدةُ المدلَّلةُ بينَ خمسةِ صبيانٍ، كنتُ أجلسُ أمامَ عمِّي خاشعةً، لدرجةِ أنَّني كنتُ أحبسُ أنفاسِي لفترةٍ طويلةٍ ليمتصَّ خيالي ما يسردُه علينا مِن حكاياتٍ مُشتعلةٍ فاقتْ حكاياتِ ألفِ ليلةٍ وليلةٍ، حسبَ قولِ مُستمعيه مِن الكبارِ.

كُنّا جميعًا وضيوفُنا نلتفُّ مِن حولِه، وأكثرُ ما كانَ يُزعجُني هو حركةٌ مِن هنا أو مِن هناكَ، بما فيها مواءُ قطةٍ شاردةٍ، أو نباحُ كلبٍ جائعٍ، أو نقيقُ ضفادعِ البحرِ الذي نُجاوِرُه لأنَّهم كانوا يسبِّبونَ قطْعَ وصالِ انسجامي ورُعْبِ نفسِي وهِياجِ رُوحِي بمشاهدِ الهلعِ في حكاياتِ عمِّي، أصبحتُ قادرةً معَ التركيزِ والضغطِ الشديدِ على نفسي بعدمِ السماحِ لأيِّ كانَ أنْ يَنتَشِلني مِنْ نشوتي واستغراقي وخُلوَتي الروحيَّةِ والنفسيَّةِ والحسيَّةِ معَ حكاياتِ عمِّي الخياليَّةِ.

أصبحتُ أشعرُ بعدَ أنْ كبرْتُ بأنَّها تفوَّقتْ على الخيالِ نفسِه، لا أدري كيفَ كانتْ تُزاحِمُ بعضَها الآخرَ وتَندلِقُ مِنْ فِيهِ رَجراجةً حينًا، وهامسةً أحيانًا أخرى، حكاياتُ عمِّي أشعرَتْني دائمًا بأنَّها مِن غرائبِ الدُّنيا، والزمنِ القديمِ لأنَّ كلَّ ما فيها كانَ خلقًا وإبداعًا، خيالُه كانَ دائمَ التأجُّجِ والتوهُّجِ.

كانَ عمِّي يتمتعُ بصوتٍ قويٍّ، يعلو ويهبطُ ويتلوَّنُ حسبَ مشاهدِ حكاياتِه الطويلةِ التي تنتهي الليلةَ ولَمْ يُكمِلْ واحدةً مِنها، لا أدري مِن أينَ جاءَه كلُّ هذا الخصبِ المَحكيِّ، لَمْ يكنْ طالبًا مجتهدًا أو محبًا للمدرسةِ ولا قارئًا للكتبِ والرواياتِ، كانتْ حركاتُ عينيْه

وفمِه ويديْـه عـاملاً مُهمًـا ومُسـاعِدًا لشدّ انتباهِـنـا وإثـارةِ إعجابِنـا، لا أدري كيفَ كانَ يخترعُ تلكَ الصورَ الباهرةَ، والسردَ المُمتِعَ والمُشوّقَ في آنٍ واحدٍ.

وعندَما كانَ يَغلبُنـي النعـاسُ مِنْ طولِ وهولِ حكاياتِ عمِّي، كنتُ أفيقُ مُنتفضـةً عندَما يُحاوِلونَ حَمْلي إلى السريرِ، كنتُ أتَثَـأبُ وأُصِرُّ علـى متابعـةِ حكايـةِ عمّي التـي لا تنتهي، ولكنّـه كانَ يتوقّفُ عندَما يتأخرُ بنا الوقتُ، واعدًا بأنّه سيُكملُ حدُّوتتَه مساءَ الغدِ، وهكذا كنتُ أنتظرُ حكاياتِه كلَّ مساءٍ بفارغِ الصبرِ بعدَ العشاءِ.

كانَ يحبُّ البطاطا الحلوةَ، يشتريها في طريقِ عودتِه إلى البيتِ ويشويها على نارِ الفحمِ الهادئةِ التي يُعِدُّ قهوتَه عليها في ليالي شتاءِ يافا الدافئةِ.

كانـتِ العائلـةُ كلُّهـا تجتمـعُ حـولَ عمّـي لأنَّ حكاياتِـه الطويلـةَ تشدُّنا جميعًا، يبدؤها مبكرًا ولكنَّها كانتْ تستمرُّ على حلقاتٍ ليليةٍ، كنتُ أحزنُ كثيرًا عندَما يغادرُنا عمِّي إلى مدينةِ نابلسَ حيثُ يقيمُ مـعَ عائلتِه دونَ أنْ يُنهي حَدُّوتَتَه التي كانتْ تُثيرُ طاقةً هائلةً في أعماقي تُحفّزُنـي علـى الاستزادةِ مِنْهـا، أتمنّـى لـو أتـذكّرُ تفاصيلَها الخياليّـةَ الدقيقةَ، لا أدري لماذا لا أتذكّرُ أيًّا مِنها!! رغمَ أنّي أتذكّرُ حكاياتِ أبـي بكلّ تفاصيلِها الصغيرةِ، لعل السببَ أنَّ حكاياتِ عمّي مثلُ الأفلامِ الخياليّةِ، أمّا حكاياتُ أبي فكانتْ مِن صلبِ الواقعِ المَعيشِ الذي أثّرَ فيَّ جينيًا، وإلاّ كيفَ عاشَتْ معي طوالَ هذا الوقتِ، وكيفَ أتذكّرُ تفاصيلَها الدقيقةَ وكأنّها حصلتْ أمسِ؟

أتساءلُ الآنَ بدهشةٍ: كيفَ تمكّنَ عمّي مِن تجسيدِ حكاياتِه حيّةً؟ هذا هو ما انطبعَ في عمقِ وجداني، مقدرةُ عمّي الهائلةُ بطريقةِ تجسيدِه الحكاياتِ وتمثيلِها بشكلٍ مبدعٍ يفوقُ الخيالَ، كانَ يصوِّرُها لنا وكأنَّها حقيقةٌ، رغمَ أنَّها كلَّها مِن خيالِه المُمتدِّ، أعتقدُ لأنَّها كانتْ طويلةً جدًا، تُحكَى لنا على حلقاتٍ، كلَّ ليلةٍ حلقةٌ جديدةٌ، لهذا لَمْ أستطعْ تجميعَ أيٍّ مِنها.

آهٍ، لو أتذكَّرُ واحدةً مِنها فقطْ لأقصَّها على أحفادي!!

خالتي

عندَما كنتُ طفلةً، كنتُ أخافُ الظلامَ، سألتُه يومًا:

- لماذا أخافُكَ؟

قالَ لي وهو يتثاءبُ:

- لأنَّكِ كنتِ تُجبرينَ على النومِ إجبارًا عندَما كنتُ أهلُ عليكُم كلَّ مساءٍ حتى يتخلَّصوا مِن شقاوتِكِ، أو إذا أرادُوا السهرَ في المساءِ.

كنتُ أتساءلُ: لماذا لا أنامُ في باحةِ الدارِ؟ السقفُ يقبضُ صدرِي ويَحُدُّ مِن جموحِ خيالِي، طلبتُ مِن خالتي التي كانتْ تنامُ معي على نفسِ السريرِ، كلَّما جاءتْ لزيارتِنا، أنْ ننامَ في النصفِ المُغطَّى مِن ساحةِ الدارِ عسى أنْ تخفِّفَ النجومُ الساطعةُ مِن ظلامِ الليلِ وتدفعَ السكينةَ إلى روحي المُرتعشةِ مِن الظلامِ. شهقتْ خالتي:

- هل تريدينَ أنْ تأكلَكِ الغولةُ التي تتجوّلُ في ساحةِ البيتِ أثناءَ الليلِ؟

نظرتُ إلى خالتي وقدْ أصابني هلعٌ شديدٌ وسألتُها:

- ما هي الغولةُ؟ وأينَ تعيشُ؟

- الغولةُ وحشٌ أسودُ ضخمٌ يأكلُ الأطفالَ، ثمَّ يرمي عظامَهم في بئرِ الماءِ، انظري إلى البئرِ في وسطِ الدارِ، إنَّه هناكَ ينتظرُ أحدَكُم أنْ يخرجَ مِنْ غرفتِه، ليلتَهِمَه لأنَّها دائمًا شرهةٌ وجوعانةٌ.

اهتزَّ جسدي الصغيرُ ونظرتُ بطرفِ عيني إلى ساحةِ الدارِ المظلمةِ، وسكنَنِي الرعبُ عندَما شاهدْتُ خيالاً أسودَ ضخمًا يجثُمُ على بئرِ الدارِ في المنطقةِ المَكشوفةِ مِن ساحتِه، أغلقْتُ عينَيَّ والتصقْتُ بخالتي، حبسْتُ دموعِي، ولكنَّني لَمْ أستطِعْ أنْ أحبسَ إحساسي بأنَّني في أمسِّ الحاجةِ إلى التبوُّلِ، ضغطتُ ساقيَّ وفخذَيَّ حتى لا ينسابَ مِن بينِهما البولُ.

حاولتْ خالتِي أنْ تهدّئَ مِن روْعِي، ولكنَّ ذُعرِي اشتدَّ وأنا أنظرُ بطرفٍ خفيٍّ إلى الهيكلِ الذي صوَّرَهُ خيالي شيئًا ضخمًا أسودَ جاثمًا فوقَ البئرِ، تصوَّرتُ أنَّه ينظرُ إليَّ ويدعوني أنْ أكونَ وليمتَه لتلكَ الليلةِ، ارتعدَتْ فرائِصي وأنا أتصوَّرُ أنَّ الغولةَ ستُقطِّعُني إربًا وتأكلُني قطعةً قطعةً، استغثْتُ بخالتي التي كادَتْ تختنقُ مِن انقباضِ ذراعي حولَ عنقِها، وتعجَّبَتْ مِنِّي ومِن أينَ جاءَتْني تلكَ القوةُ التي لَمْ تستطِعِ الفكاكَ مِنْها، كنتُ أنتفضُ بقوَّةٍ وأشدُّ الخناقَ

حولَ رقبتِها كلّما حاولتْ أنْ تُبعِدَ ذراعِي عن عنقِها.

أعتقدُ أنَّ الندمَ أصابَ الخالةَ بِما فعلتْه بي، وحاولتْ أنْ تهدِّئَ مِن روعي قائلةً إنَّ الغيلانَ لا يأكلونَ الأطفالَ، إنَّهمْ يأكلونَ الأشرارَ فقطْ، لَمْ أسمعْ شيئًا لأنَّ الرعبَ امتلكَ خيالِي، وأصبحَ يصوِّرُ لي أنَّ الغولةَ نزلَتْ عن البئرِ وأخذَتْ تطرُقُ بأقدامِها الضخمةِ أرضَ الدارِ، ثمَّ هُيِّئَ لي أنَّها تطرقُ بابَ غرفَتِي، واشتدَّ التصاقِي بخالتي، كانَ النومُ قدْ غلَبَها فأمرَتْني بغضبٍ أنْ أنامَ، وإلاَّ فستَرمِينِي إلى الغولةِ، ولكنَّها وَعَتْ ما قالَتْه وهي غاضبةٌ، فربَّتَتْ على ظهرِي بحنانٍ، قبَّلَتْني وضمَّتْني إلى صدرِها قائلةً:

- نامِي يا صغيرَتِي، لأنَّ الغولةَ لا تأكلُ النيامَ.

عندَ ذلكَ أغمضْتُ عينَيَّ أجبرُهما على النومِ، لَمْ يهدأْ خيالِي، شَدَدْتُ رموشَ جفنيَّ حتى أُبعِدَ عنهُما صورَ الغولةِ، ودفنتُ رأسي في صدرِ خالتي التي غلبَها النعاسُ فأيقظْتُها وأخذَتْ تقرأُ آياتٍ مِن القرآنِ الكريمِ حتى غفوتُ في نومٍ قلقٍ كنتُ أرتعشُ بينَ الحينِ والآخرِ.

أبي آخر الحكايات

وفَّرَ لي أبي حريةَ اللهوِ معَ إخوتِي الصبيانِ، وكانَ يعاملُني مثلَهم، وكانَ يقولُ لأصحابِه بأنَّه لا يخافُ على (السِّت زبيدة) لأنَّها قادرةٌ على الدفاعِ عن نفسِها حتى ولو كانتْ بينَ "مِيْةْ رِجَّالْ"، كانَ يريدُني أنْ أكونَ قويةً وصلبةً مثلَ الرجالِ، لأدافِعَ عنْ مدينتي يافا، مسقطِ رأسي ومركزِ عملِه التجاريِّ الحرِّ، ولكنَّني كنتُ بعكسِ ما أرادَ أبي، كنتُ قويةً وصلبةً مِن الخارجِ فقطْ، ومُفرطةَ الحساسيةِ وضعيفةً مِن الداخلِ، أبكي وأحزنُ وأشفقُ على كلِّ مَنْ حولِي لأتفهِ الأسبابِ، لكنَّني حافظتُ على صلابتي وقوةِ شخصيتي مِن الخارجِ.

تجاربُ الحياةِ بكلِّ ما فيها مِن حلاوةٍ ومرارةٍ خلالَ تنقُّلي بعدَ الشتاتِ في بقاعِ الأرضِ، وبعدَ أنْ أصبحَ لي أُسرتي الصغيرةُ، كنتُ حنونةً ورقيقةً جدًا مع أطفالي، الذينَ نَمَوْا بحضنِ حبِّي وزهرةِ قلبي وعشقِ فؤادي، ولكنني كنتُ كاللبؤةِ إذا ما تعرَّضَ أحدٌ مِنْهم لخطرٍ ما، كنتُ أشمُّه مِن بعيدٍ فيذوبَ الخوفُ مِن أعماقي، وأستعيدُ قوّةً كامنةً في أعماقي، حتى أحمّيهم بمجرَّدِ أنْ أستشعرَ خطرًا يحاولُ أنْ يقتربَ مِنْهم، مِن أيِّ كانَ، أو مِنْ أيِّ جهةٍ.

كنّا نلتمُ حولَ أبي كلّ مساءٍ، ونفتقدُ أمّي لأنّها ما زالتْ منهمكةً في رعايةِ الصغارِ لتُهيِّئَهُم للنومِ، كانتْ تغرِّدُ لهمْ بصوتِها الحنونِ تهاليلَها حتى ينامُوا، ثُمَّ تُعِدُّ لنا العشاءَ لنتناولَه جميعًا، ونحنُ لا نزالُ نستمعُ إلى حواديتِ أبي، وذكرياتِ طفولتِه وكفاحِه البطوليِّ، أخبرَنا أبي تلكَ الليلةَ بأنَّه سيُكمِلُ ما بدأه بالأمسِ، قصةَ كفاحِه منذُ أنْ كانَ طفلاً بدأها قائلاً:

- أصبحتُ معَ الوقتِ أقفزُ سلالمَ الزقاقِ بجِملِي، مُرتديًا بيجامَتي المُقلَّمةَ بالأزرقِ والأبيضِ، التي صغَّرَتْها لي أمّي مِن بيجامةِ أبي، وكانتْ تضعُ فوقِي بالطو أبي الثقيلَ، وكنتُ أرجوها ألاَّ تفعلَ ذلكَ حتى أستطيعَ أنْ أتحرَّكَ بِمَا أحملُ على رأسِي بسرعةٍ، إلاَّ أنَّها كانتْ تُصِرُّ لتَحميني مِن لفحاتِ هواءِ الفجرِ اللاسعِ حتى لا يتسلَّلَ إلى عِظامي التي كانتْ في طورِ النُّموِّ.

كانتْ تجربةُ أمّي بالخياطةِ حديثةَ العهدِ، فلَمْ تستطعْ أنْ تُصغِّرَ ملابسَ أبي لِحَجْمي، لِهذا أخذَ الهواءُ يُطَيِّرُ بالطو أبي في غَسَقِ الصباحِ الباكرِ، كنتُ أطيرُ مَعَه وبِجِملِي إلى الفرنِ لألتصقَ به وأدفِّئَ عِظامِي وأطرافي فيه، حتّى يتمَّ شواءُ الكعكِ ونضجُ الخبزِ.

أصبحَتْ معَ الوقتِ خبيرةً بالخياطةِ، وأخذَتْ تَخيطُ لَنا بيجاماتِنا وبنطلوناتِنا، وقمصانِنا وملابسِنا الداخليّةِ، وذلكَ بعدَ أنْ اكتشفَتْ، أنّني كنتُ أتركُ بالطو أبي لِثِقْلِه على آخرِ دَرَجَةٍ مِن الدَّرَجِ المؤدِّي إلى البابِ الخارجيِّ، كنتُ أكتفي بشالِ أبي الصُّوفيِّ ألفُّه حولَ رقبتي

وأُرخيه على أكتافي، حتى أستطيعَ الانطلاقَ بحِمْلي الثقيلِ على رأسي، وعلى الرغمِ مِن ثِقَلِه فإنَّني كنتُ سريعَ الحركةِ أقفزُ بخفَّةٍ بعدَ أنْ تعوَّدتُ عليه.

كنتُ أجلبُ الماءَ لأمِّي مِن سبيلِ الماءِ المُلاصِقِ للجامعِ القريبِ مِن بيتِنا، في البلدةِ القديمةِ ذاتِ الأزقَّةِ الكثيرةِ، والمآذنِ المُتعدِّدةِ، والروائحِ العتيقةِ.

أصبحتُ رجُلاً قبلَ الأوانِ وأنا في الثالثةَ عشرةَ مِن عُمُري، قالوا لي إنَّ أبي عادَ إلينا مَحمولاً على ظهرِ الدَّابةِ، التي نقلَتْه لمسافةٍ طويلةٍ مِن قلْبِ المعركةِ التي قُتِلَ فيها إبَّانَ الحكمِ العُثمانيِّ فترةَ السُّخرةِ "سَفرْ بَرْلِك".

لَمْ أستطعْ أنْ أفهمَ لماذا يُقتَلُ أبي؟ ولماذا يُحارِبُ؟ ومِنْ أجلِ مَنْ؟ ولِماذا أصبحْنا أيتامًا ونحنُ أطفالٌ؟

يتوقَّفُ أبي قليلاً، يأخذُ نَفَسًا مِن سيجارتِه ويكملُ:

- أسئلةٌ كثيرةٌ كانتْ تُراودُني، ولَمْ أَجِدْ لها جوابًا، لأنَّني انهمكْتُ تمامًا بالعملِ الشاقِّ لإعالةِ أسرتي.

شعرتُ مِن خلالِ حكاياتِ أبي، أنَّه وجدَ نفسَه العائلَ الوحيدَ لأسرتِه المكوَّنةِ مِن خمسةِ أشخاصٍ، قالتْ له أمُّه، إنَّه أصبحَ رجلَ البيتِ، ولا تريدُ صدقةً مِن أحدٍ، أخذَتْ تُعِدُّ لهُ كلَّ فجرٍ كعكًا وقُرماطًا ليبيعَه إلى المُصلِّين، بعدَ أدائِهم صلاةَ الفجرِ، وقالتْ لهُ أيضًا: "إنَّ عليهِ منذُ الآنِ أنْ يتحمَّلَ شظفَ العيشِ وإعالةَ أسرتِه".

هزَّ أبي رأسَه مُوافِقًا وانهارَ في حضنِ أمِّه باكيًا، لأنَّه يُحِبُّ مدرستَه ويريدُ أنْ يبقى مع إخوتِه وأترابِه وأساتذتِه.

(يكمل أبي):

ولكنَّ أمِّي أجابتْني بقسوةٍ: "لا أريدُ أنْ أرى دموعَكَ مرةً أُخرى، لا وقتَ للدموعِ، ولا وقتَ للحزنِ، في رقبتِي ورقبتِكَ أمانةٌ تَرَكَها لنا أبوكَ، الذي استُشهِدَ ظلمًا وبهتانًا".

كنتُ أستمعُ إلى أبي وحواسِّي مُتيقِّظةٌ، وروحي تتعذَّبُ عليه، صمتَ أبي عندما سمعَ نَهنهاتي الخافتةَ، نظرَ إليَّ وشاهدَ دموعي تَملأُ وجهي، وتنقُطُ على عباءتِه، وبعضُها ينزلِقُ على الجاعِدِ الأبيضِ، شدَّني بقوَّةٍ لدفءِ عواطفِه، وجفَّفَ دُموعي بِكُمِّ عباءتِه، ولكنَّني استحلفْتُه أنْ يزيدَنا مِن حكاياتِه، فقالَ:

- استدركَتْ أمِّي قسوَتَها، وأخذتْ تشجِّعُني وتقولُ:
- تستطيعُ أنْ تبقى في المدرسةِ، ولكنَّكَ ستقومُ بعملِكَ فجرَ كلِّ يومٍ أمَامَ الجامِعِ، ومِنْ ثَمَّ تذهبُ مَعَ إخوتِكَ إلى المدرسةِ، وبعدَ الظهرِ تبيعُ "جْدَيِّدْ عامّو" أو "الحَامْلَة"، وعليكَ أنْ تُوفِّقَ بينَ الاثنينِ معًا وإذا وجبتِ التضحيةُ، ستُضحِّي بالمدرسةِ لأنني لا أستطيعُ أنْ أضحيَ برزقِ العائلةِ، بعدَ أنْ أصبحْتَ أنتَ مسؤولاً عنهُم منذُ اليومِ.

كانَ أبي يسرُدُ علينا حكاياتِه بعدَ أنْ يغتسلَ، ويلبسَ ملابسَ النومِ الصوفيَّةِ، بِما فيها غطاءَ رأسِه الصوفيِّ العِنَّابيِّ المُبطَّنِ بقطعةِ قماشٍ مِن القطنِ، وأحيانًا يلبسُ الكُحليَّةَ المُبطَّنةَ بالصوفِ، وهي أشدُّ

دفئًا مِن العِنابيةِ، يدفِّئُ بها رأسَه الصغيرَ المُزيَّنَ بهالةٍ مِن الشعرِ الأسودِ الأملسِ، يضعُ روبَه الصوفيَّ الواسعَ، والمُخطَّطَ بلونِ الكُحلِ العربيِّ ولونِ السماءِ، ومسبحتِه الكهرمانيةِ التي جلبَها معَه مِن الحجِّ لا تفارقُ يديْه.

وقبلَ أنْ يبدأَ أبي حكاياتِه، كانَ يحضنُ أخي الرضيعَ بذراعيْه القويَّتيْن، ويشدُّه إلى قلبِه ويقرأُ له آياتٍ مِن القرآنِ الكريمِ، لتحفظَه وتُبْعِدَ عنْه الحسدَ والمرضَ، وكانَ يُناغيه فيبتسمُ أخي لحنانِه، ثُمَّ تأخذُه أمِّي في حضنِها لِترضعَه، وتغنِّيَ له تغريداتِ المَساءِ حتى يسترخيَ وينامَ، ويلمعَ الدمعُ مِن عينِي تأثُّرًا بنغماتِ ترنيماتِها، تتفتَّحُ الدنيا أمامي، وأعشقُ عُمري وأمِّي وأبي وإخوتي، واستمرَّ هذا العشقُ حتى يومِنا هذا، لأنَّ القلبَ إذا تعوَّدَ مِن صغرِه على حُبِّ مَنْ حولَه، ينمو الحُبُّ معَه، بلْ يتوالدُ ويلفُّ كُلَّ مَنْ حولَه.

كُنَّا نجتمعُ حولَ أبي كُلَّ مساءٍ، وأمِّي مُنهمكةٌ في رعايةِ أخي الرضيعِ ومَنْ يكبرُه بعاميْن، ثُمَّ يحضنُني أبي بحرارةٍ ويُقبِّلُني بشوقٍ، ينادي على المُختبئِ مِن إخوتي في غرفتِه للمُذاكرةِ، أو لأفعالِ المراهقةِ مُنزلقًا في دفءِ اللحافِ الصوفيِّ ومتخفِّيًا به.

كنا نلتف حول أبي، يتوسطنا كانون الفحم، المعمر بجمره الأحمر،، كنت أعشق الحملقة فيه، وأسرح في دفئه وأتعجب كيف يتحول الأسود القبيح إلى أحمر دافئ لذيذ، يجلب الراحة لفؤادي بمجرد التحديق فيه، ومن ثم يشطح بي الخيال، وأتجاوب مع قصص أبي. كان إخوتي يجلسون كتفا بكتف وينعمون بدفء

الجواعد الصوفية من خرفان أضحية العيد المذبوحة. بدأت أنصت لأبي بجوارحي فتأثرت شجنا على معاناة طفولته.

أصبحَتْ حكاياتُ أبي كَنزِي، كنتُ أنتظرُ عودتَه بفارغِ الصبرِ، وكانَ يُسعدُه كثيرًا أنْ يرى شَوْقي يتَّقدُ لسماعِ حكاياتِه، شعرْتُ بالحزنِ على ما وقعَ له مِنْ مشقَّةٍ وإجحافٍ منذُ طفولتِه المُبكِّرةِ، كانَ يؤكِّدُ لنا دائمًا بأنَّه مُمتَنٌّ لتلكَ المرحلةِ الشاقَّةِ مِن عمرِه، لأنَّها جعلَتْ مِنه رجلاً صلبًا، وساعدَتْه تَجربتُه وخبرتُه الطويلةُ، خاصَّةً بعدَ أنْ امتهنَ التّجارةَ التي أصبحَتْ في دمِه والتي جعلَتْ مِنه أكثرَ التّجارِ جرأةً وشجاعةً.

بدأْتُ أدركُ أنَّ حكاياتِ أبي، كانتْ تُخفِّفُ عنه ضغطَ يومِه، وأصبحَ مدمنًا عليها مثلَنا، كانتْ جلساتِ استرخاءٍ عائليةً ننعمُ فيها بقُربِه، كما يفرحُ بنا مِنْ حولِه، هذا بالإضافةِ إلى أنَّه كانَ هذا هو الوقتُ الوحيدُ الذي نقضيه مَعه، أو نراه فيه، بعدَ عناءِ يومِ عملٍ شاقٍّ وطويلٍ.

كانَ أبي عصبيَّ المِزاجِ، ولكنَّه طيبُ القلبِ وحنونٌ، حواديتُه وحكاياتُه التي باحَ بها لعائلتِه بعدَ سنواتٍ طوالٍ، أزاحَتْ عن كاهلِه بعضًا مِن عبئِها، وكأنَّه أرادَ أنْ يمهِّدَ لنا ويعلِّمَنا بأنَّ الحياةَ فيها الحلوُ وفيها المُرُّ، وأنَّ لكلِّ مجتهدٍ نصيبٌ فيها، يتنهَّدُ أبي بحرارةٍ، ويأخذُ نَفَسًا مِن سيجارتِه ويضيفُ:

- كانَ كبرياءُ أمِّي يمنعُها حتى مِن التفكيرِ بطلبِ المعونةِ مِن الأقاربِ.

وبعدَ أنْ يرتشفَ قليلاً مِن كوبِ شايِهِ المُعطَّرِ بالنعناعِ، كانَ ينظرُ إلينا بحُبٍّ قائلاً:

- أصبحْتُ ربَّ الأسرةِ بلا منازعٍ.

وهنا وقفتْ أمّي بطولِها تُعلنُ انتهاءَ السَّهَرِ قائلةً:

- يلاّ يا حبايبي، لازم تناموا، بكرا في مدرسة.

ثم ينهضُ أبي قبلَنا، ويقبِّلُنا قائلاً:

- تصبحوا على خيرٍ يا أبنائي، سأقصُّ عليكُم، في الليالي القادمةِ، قصةَ القزماط الذي كنتُ أبيعُه كلَّ يومٍ خاصةً يومَ الجمعةِ.

كانون نار

كانتْ أمّي تحرصُ على إشعالِ الكانونِ في الشتاءِ، قبلَ عودةِ أبي مِن عملِه، تضعُه في ساحةِ الدارِ، تملؤه بالفحمِ الأسودِ، فوقَ رمادِ الليلةِ الفائتةِ، ثمَّ ترشُّ عليهِ الكازَ، وتضعُ الداخونَ الذي تُعِدُّه مِن عُلَبِ الحليبِ الجافِّ لأخي الرضيعِ على كومِ الفحمِ، فيصبحَ أسطوانيَّ الشكلِ، مُهمَّتُه تنظيمُ عمليةِ الاحتراقِ، وعندَما يصبحُ الفحمُ جمرًا لاهبًا، تحمِلُ أمّي الكانونَ إلى غرفةِ العائلةِ، وتضعُه وسطَ الجواعدِ الصوفيةِ الدافئةِ.

شدَّتْني حكاياتُ أبي، منذُ أنْ بدأ يجمعُنا حولَها، في فصلِ الشتاءِ الذي كانَ يجمّدُ أطرافَ أصابعِي، وترتعدُ له فرائِصِي، يلفُّني بدفءِ حنانِه داخلَ عباءتِه الصوفيةِ الواسعةِ، نجلسُ جميعًا كتفًا

بكتفِ على فرواتِ الخرفانِ التي تجمعُهم أمّي مِن أضحيةِ العيدِ، تصُفُّهم حولَ الكانونِ المعدنيِّ المستطيلِ، أذكرُ حجمَه وشكلَه ولونَه وجمرُه الأحمرُ يطلُّ مِنه لهبٌ أزرقُ.

جلسْنا القرفصاءَ على جواعدِنا التي توسَّطتْها الطبليَّةُ الخشبيةُ الدائريةُ، بعدَ أنْ رفعتْ أمِّي الكانونَ الذي لا يزالُ جمرُه مشتعلاً، ووضعتْه جانبًا، ووضعَتْ إبريقَ الشاي عليه ليبقى دافئًا، ونحنُ نرشفُ مِن أكوابِنا رشفاتٍ بينَ كُلِّ لقمةٍ وأخرى، تُنعشُنا وتساعدُنا على مضغِ خبزِنا المغموسِ بالزيتِ والزعترِ، واللبنةِ أو الجبنةِ النابلسيةِ، باختصارٍ؛ بكُلِّ ما لذَّ وطابَ مِن أكلٍ خفيفٍ.

استعادَ أبي حيويتَه وأخذَ يحدِّثُنا بِتَرَوٍّ بينَ لقمةٍ وأخرى قائلاً:

- كانَ المُصلونَ في البدءِ، يُشفقونَ على طفولتي ويشترونَ منِّي الكعكَ والقزماطَ، ومعَ الوقتِ أصبحوا يكسِرونَ ريقَهم في ضوءِ الفجرِ الخافتِ بكعكِ وقزماطِ أمِّي لذيذِ الطعمِ شهيِّ الرائحةِ، مع كوبٍ مِن الحليبِ الساخنِ الدَّسمِ أو الإينرِ/السحلبِ الذي كانوا يشترونَه مِن دكانِ بائعِ الحليبِ والسحلبِ والقشدةِ المقابلِ للجامعِ، والسحلبُ هو أحدُ أفضلِ مشروباتِ الشتاءِ، لَمْ يكنْ يعنيهم كسْرُ ريقِهم الصباحيِّ بالشاي أو القهوةِ كما حالُنا اليومَ، وكانتْ مشروباتُ الشتاءِ الصحيةِ والموسميةِ كالسحلبِ الأبيضِ والقرفةِ المغليةِ والمُزينةِ بالجوزِ المدقوقِ، والزهوراتِ الساخنةِ متعددةِ

الاستعمالاتِ كالميراميةِ[1] للمغصِ، والبابونجِ للبردِ.

كانتْ لمَّتُنا العائليةُ كلَّ مساءٍ تقريبًا، قد منحتْ عمري سنواتٍ مضاعفةً، لَمْ يَعُدْ يَستَهويني اللعبُ مع رفيقاتي، أصبحَ كلُّ همِّي أنْ أساعدَ أمي في تربيةِ إخوتي، لأخففَ عنها عبءَ مسؤولياتِها، وأساعدَها في تحضيرِ طبليةِ العشاءِ حتى يتوفرَ لها الوقتُ للجلوسِ معَنا، والاستمتاعِ بقصصِ أبي الغنيةِ والحبلى بالدهشةِ والألمِ، ومشاعرِ الحبِّ والحزنِ، والتضحيةِ والعطاءِ، والمعاناةِ والكفاحِ مِن أجلِ لقمةِ العيشِ.

حدثَنا في تلكَ الليلةِ عن حكاياتِ كفاحِه، وكنتُ في استغراقٍ تامٍّ معَه، وفجأةً توقَّفَ، فسألتُه: "وبعدين يا بابا، شو صار؟".

لَمْ يُجِبْ، وشاهدْتُ غيمةً على مُحيَّاه أنقذَتْه أمِّي مِنها، وهي تطلبُ مِنَّا أنْ نُكمِلَ عشاءَنا حتى نستعدَّ للنومِ، فقدْ أذَّنَ المغربُ وهذا يعني أنَّ وقتَ غروبِنا إلى أسِرَّتِنا قدْ حانَ.

كنتُ كُلِّي آذانٌ صاغيةٌ لحكاياتِ أبي، وشعرتُ بحزنِه عندَما اضطرَّ أنْ يضحِّيَ بمدرستِه، لأنَّه لَمْ يَعُدْ قادرًا على الجمعِ بينَ تجارتِه الصغيرةِ التي أخذَتْ تكبرُ وأصبحَتْ كُلَّ حياتِه، وبينَ مدرستِه

---

(1) نبتة عطرية تنبت شتاء، اسمها العلمي (Salvia officnalis) واسمها بالفرنسية (sauge) وبالإنجليزية (sage) وتسمى كذلك ناعمة مخزنية، بعضهم يلفظ اسمها (مريمية) نسبة إلى السيدة مريم التي يقال إنها سقتها لابنها المسيح حين أصابه مغص مرة، وأكثر استخدامها في فلسطين لتعطير لشاي شتاء، وللمغص، وفي دول المتوسط الأوروبية تستخدم كنكهة مضافة للطعام بعد تجفيفها.

التي يُحِبُّ، ولكنَّه بقيَ حريصًا على توصيلِ إخوتِه إلى المدرسةِ، والاهتمامِ بتعليمِهم، عَوَّضَ روحَه المتشوقةَ للعلمِ والمعرفةِ، بقراءةِ القرآنِ الكريمِ، وكتبِ التاريخِ بشغفٍ كبيرٍ، وذلكَ كُلَّما توفَّرَ له الوقتُ والكتابُ ليُمتِّعَ روحَه ويغذيَ عقلَه.

كنتُ كما كانَ شهريارُ ينتظرُ حكاياتِ شهرزادِ ألفِ ليلةٍ وليلةٍ، التي فاقتِ الخيالَ كحكاياتِ عمِّي، واستطاعتْ شهرزادُ بحكاياتِها أنْ تحميَ نساءَ بلدِها مِن بطشِ شهريارَ، وأزالتْ شهوةَ القتلِ الآثمِ مِن قلبِه، وعاشَ مَعَها في ثباتٍ وسلامٍ، كنتُ أنتظرُ حلولَ الليلِ، ونحنُ ما زلنا في عزِّ شهرِ شباطَ، (شباط الخَبَّاط اللي ما له رباط)، كنَّا نَلْتَمُّ في عزِّ البردِ حولَ الكانونِ في انتظارِ إهلالِ أبي علينا، وفورَ أنْ يصلَ نعرفُ مِن طريقةِ استقبالِه لي، إذا كانَ سيجلسُ معنا الليلةَ ويحدِّثُنا أمْ لا، وذلكَ إذا لَمْ ينادِ عليَّ "وينك يا الست زبيدة؟"، يحضُنني ويقبِّلُني كعادتِه، نعرفُ بأنَّه غيرُ مُقبلٍ علينا تلكَ الليلةَ، لأسبابٍ تتعلقُ بعملِه الشاقِّ وتعبِه مِنه ذاكَ اليومِ، خاصةً عندَما بدأَ يُعاني هو ورفاقُه التجارُ مِمّا يجري في البلادِ مِن توتُّرٍ.

وفي إحدى الليالي المقمرةِ، سألَ أبي إخوتي الكبارَ عن سَيْرِ دروسِهم في المدرسةِ الابتدائيةِ، ونبَّهَهُم إلى أهميةِ العلمِ الذي حُرِمَ مِنه، وأكَّدَ عليهم الثباتَ فيه حتى الدراساتِ العليا، وختمَ كلامَه قائلاً:

- كلُّ ما حُرِمْتُ مِنه سأعوِّضُه فيكم يا أبنائي، كلُّ ما أطلبُه مِنكم هو الثباتُ والتركيزُ والاجتهادُ.

حدثَّنا أبي عن سعادتِه الغامرةِ ونجاحِه الباهرِ بعدَما اشتدَّ عودُه، وامتدَّتْ تجارتُه الصغيرةُ إلى خارجِ الزقاقِ والحيِّ، وما صادفَه مِنْ مُلاحقةِ فتيانٍ مثلِه ليحتلّوا ركنَه الخاصَّ، ومعالجةِ الأمرِ معَهم بالحُسنى، وما كانَ يُلاقيه مِن تشجيعٍ ومحبَّةِ الناسِ له.

يتناولُ أبي الكستناءَ المشويّةَ مع رشفةٍ مِن كوبِ شايِه الذي يخمِّرُه بهدوءٍ، على بواقي جمرِ الكانونِ الهادئِ، الذي أخذَ يذوي تحتَ رمادِه، وتحوَّلَ إلى لونٍ باهتٍ خفَّفَ مِن لهيبِ حكاياتِ أبي، التي كنتُ أتفاعلُ معَها إلى درجةٍ كبيرةٍ، توقَّفَ أبي بعدَ آخرِ حبَّةِ كستناءٍ وضعَها في فمي، ثُمَّ قبَّلَنا جميعًا قائلاً:

- تُصبحونَ على خيرٍ يا أولادي.

حلَّفْتُه أنْ يُحدِّثَنا أكثرَ، ولكنَّه كانَ حاسمًا في ردِّه كالعادةِ:

- لقدْ حانَ موعدُ نومِكم، وسأكملُ حكاياتِي بعدَ عودَتي مِنْ رحلةِ عملٍ خارجَ البلادِ، سأغيبُ أسبوعيْن وسأشتاقُ لكمْ كثيرًا.

- ولكنَّ هذا غيابٌ طويلٌ يا أبي، سأشتاقُ لكَ أكثرَ.

فقالَ مازحًا:

- هلْ ستشتاقينَ لي أنا؟ أمْ ستشتاقينَ لحكاياتي؟ (ويقهقهُ مضيفًا):

- حكاياتي تُتابعينَها بعمقٍ وتُنصتينَ إليها بجوارحِكِ، أكثرَ مِن إخوتِكِ الصبيانِ، وهذا يَجعلُني أفتخرُ وأُعجبُ بكِ أكثرَ، هُمْ بالنسبةِ لي كَوْمٌ وأنتِ أربعةٌ وعشرونَ كومًا.

بعدَ عودةِ أبي مِن سَفرتِه الطويلةِ التي أنهكَني عدُّ أيامِها على أصابعي يومًا بعدَ يومٍ ودَوَشْتُ أمِّي وأنا أسألُها عن أبي، تدلَّلْتُ عليه وهو يُعانقُني ألاَّ يترُكَنا ثانيةً، قلتُ له:

- اشتقتُ لكَ كثيرًا يا أبي.

عانَقَني بحنانٍ وأجابَ مازحًا:

- ساروي لكِ حكايةً مُرعبةً حتى لا تَبْقَيْ مُتعلِّقةً بحكاياتي إلى هذا الحدِّ.

أجبتُه بقوةٍ وثقةٍ:

- حكاياتُك يا أبي، لن تُرعِبَني طالما أنتَ الراوي، سوفَ تحميني مِن رُعْبِها.

- سأرى كيف ستتحملينَها لأنَّها حصلتْ مَعي وأنا صغيرٌ، وهزَّتْني وأمرضَتْني، وكانتْ أشدَّ تجاربِ حياتي ضراوةً على عقلي الصغيرِ، وقلبي الذي خفقَ هلعًا، ولساني الذي تلعثمَ، وأُصيبَ بالبُكمِ المُطبقِ شعرتُ بالخوفِ لكنَّه لَمْ يقلِّلْ مِن شوقي، رجوتُه أنْ يحكيَها لنا الليلةَ.

- لنْ أحكيَها هذا المساءَ، حتى لا أُقلِقَ نومَكُم، خاصةً وأنَّ هدوءَ الليلِ وظلامَه يزيدُ مِن رعبِها.

وبعدَ إلحاحٍ شديدٍ مِنّي، قال:

- سأقصُّها عليكُمْ صباحَ يومِ الجمعةِ، بعدَ الإفطارِ مباشرةً.

هذهِ الحكايةُ علَّمتْني ألاَّ أخافَ مِن شيءٍ، خاصةً الخزعبلاتُ التي يتناولُها الناسُ وينقلونَها بعدَ أنْ يُبهِّروها، ويُضيفوا الكثيرَ مِن

الملحِ والفلفلِ الحارقِ عليها، ليُرعِبوا أطفالَهم بها، دونَ تفكيرٍ منهم كيفَ سيكونُ وَقْعُها على براءتِهم الغضَّةِ. وهكذا مهَّدَ لنا أبي قبلَ أنْ يبدأَ حكايتَه مع "العامورةِ" المُرعبةِ، التي كانتْ تُخيفُ الأطفالَ وحتى الرجالَ!

العامورة

في صباحِ يومِ جمعةٍ منعشٍ بصفاءِ سمائِه، وسكونِ هوائِه، جلسْنا نتدفَّأُ بدفءِ الشمسِ في ساحةِ الدارِ، بعدَ أنْ تناولْنا إفطارًا دسمًا ككلِّ يومِ جمعةٍ، إذْ يحرصُ أبي أنْ يكونَ فطورُنا غنيًّا، ومتعددَ الأطباقِ، خاصةً طبقَه المُفضَّلَ قرصَ الثومِ، الذي كانَ يُعِدُّه بنفسِه، وهو عبارةٌ عنْ كميةٍ مِن الثومِ تُدَقُّ ناعمًا، وتُضافُ إلى عجينةِ البيضِ، والدقيقِ الرخوةِ، ثُمَّ تُصبُّ على زيتِ الزيتونِ الساخنِ، على شكلِ قرصٍ دائريٍّ، ويُحَمَّرُ مِن الجهتينِ في آنٍ واحدٍ، ثُمَّ يوضعُ في مصفاةٍ دائريةٍ مِن الشبكِ الملفوفِ حولَها خشبٌ رقيقٌ، ويضعَ تحتَه وعاءً ليمتصَّ ما تبقَّى مِن الزيتِ.

يتوسَّطُ قرصُ الثومِ المائدةَ ويؤكلُ ساخنًا، كانَ يُحيطُ بهذا الطبقِ الشهيرِ أطباقُ الفولِ والحمصِ والفلافلِ، والجبنةِ النابلسيةِ البيضاءِ الشهيرةِ، وهي التي تفتحُ شهيتي خاصةً إذا كانتْ مشويَّةً بما تبقَّى مِن جمرِ الكانونِ، حيثُ تلفُّ بالورقِ وتُدْحَشُ داخلَ الجَمْرِ الذي اعتلاه رمادٌ، وتُزيَّنُ السُّفرةُ بالخيارِ، والبندورةِ المُقطَّعةِ وعليها رشةُ ملحٍ وعَصْرَةُ ليمونٍ، آه! نسيتُ الزيتونَ ومناقيشَ الزعترِ الشهيةِ.

كانَ فطورًا ملوكيًا كَما يسمِّيه أبي، وكانَ يهتمُّ بالفطورِ بشكلٍ خاصٍّ لهذا سمَّاه ملوكيًا؛ لأنَّنا نكونُ بحاجةٍ إلى الطاقةِ والتغذيةِ الجيدةِ في الصباحِ، أمَّا الغداءُ فأطلقَ عليه أبي اسمَ غداءِ الأغنياءِ، والعشاءُ فكانَ يسمِّيه عشاءَ الفقراءِ؛ لأنَّ الأكلَ الغليظَ قُبيلَ النومِ، يَصْعُبُ هضمُه، ويتراكمُ في المعدةِ، ويسبِّبُ لها عسرَ هضمٍ، وأمراضًا كثيرةً نحنُ في غنًى عنها.

بعدَ الفطورِ المُلوكيِّ، أُصِبْنا بارتخاءٍ وجلسْنا حولَ أبي استعدادًا لقصةِ العامورةِ التي بدأَها قائلاً:

- ذهبْتُ إلى ساقيةِ الجامعِ المزخرفِ بحروفِ ماءِ السبيلِ لأُحضِرَ الماءَ لأمِّي، سحبْتُ نفسي مِن عزِّ نومي فجرًا، ونزلْتُ درجَ بيتِنا لتستقبلَني رائحةُ الحياةِ، التي تبدأُ فجرَ كلِّ يومٍ في البلدةِ القديمةِ ذاتِ الأزقَّةِ الكثيرةِ، والأقواسِ الحجريَّةِ بمِعمارِها الرائعِ، والتي يَرْكَبُها غرفٌ وشبابيكُ تطلُّ على الأزقَّةِ مِن الجانبينِ ومتصلةً ببيوتِها. كانَ بلاطُ الأزقَّةِ مِن الحجرِ الكبيرِ المُربَّعِ والسميكِ، والمصفوفِ بعنايةٍ على أرضِ أزقةِ البلدةِ القديمةِ الذي أصبحَ أملسَ مِن كثرةِ الاستعمالِ، والسيرِ عليه بالأقدامِ، وعرباتِ نقلِ بائعي الخضارِ والفواكهِ وغيرِها.

كانتِ الروائحُ العتيقةُ تنبعثُ مِن محلاتِ العطارينَ، وبائعي الجبنةِ والحليبِ والقشدةِ والمكسَّراتِ، وصلْتُ الساقيةَ، ووضعْتُ الوعاءَ تحتَ الحنفيَّةِ المُتصلةِ بنبعِ الماءِ، وبعدَ أنِ امتلأَ الوعاءُ، زِحْتُه ووضعتُ

مكانَه الوعاءَ الآخرَ وامتلأ حتى حافّتِه، حملتُهما بيديَّ الاثنتيْنِ، وأخذَ الماءُ يُطَرْطِشُ أثناءَ سَيْري على بلاطِ الزقاقِ الحجريِّ القديمِ. سرْتُ بهما في الزقاقِ المؤدِّي إلى بيتِنا. فجأةً، شاهدْتُ خيالاً مُخيفًا يَسُدُّ الزقاقَ، ارتبكْتُ فوقعَ دَلْوُ الماءِ مِن يَدِي، وتدحرجَ الماءُ مِنه على طولِ الزقاقِ حتى وصلَ إلى العامورةِ المرعبةِ التي سدَّتِ الزقاقَ.

كانتْ عيونُ العامورةِ الواسعةُ تبحلقُ فيَّ، وفمُها الكبيرُ مفتوحٌ على وسعِه، كانَ ينقطُ مِنه اللُّعابُ وكأنَّها ستأكلُني، كانتْ طويلةً وضخمةً، ضخامتُها سدَّتْ الزقاقَ المؤدِّي إلى بيتي وطولُها كانَ يعلو سقفَ الزقاقِ، فأحْنَتْ رأسَها ناظرةً إليَّ بلهبِ عيونِها الحمراءِ، وهديرِ صوتِها الذي ارتعدَتْ له عظامي، بدأتُ دونَ وعيٍ أُبسْمِلُ وأكرِّرُ: "اللهُ أكبرُ.. اللهُ أكبرُ"، حتى يطردَها سبحانَه وتعالى مِن أمامي، تكوَّمْتُ على الأرضِ، وأنا أسمعُ دبَّاتِ رجليْها المُخيفتيْن، طاخ.. طيخ.. طاخ.. طيخ، وفجأةً، بدأ يضغطُ على عينِي المغلقةِ بشدَّةٍ، بصيصٌ مِن شعاعِ نورِ الشمسِ القويِّ اخترقَ أجفاني وأخذَتْ رموشي ترجفُ وعينيَّ. وفجأةً، هدأ كلُّ شيءٍ مِن حولي، واختفى شبحُ العامورةِ الضخمِ، خرجَ رجلٌ مِن الجامعِ، ساعدَني على الوقوفِ، وملأَ لي الماءَ ثانيةً في الدلوِ، وقالَ لي بوركْتَ يا ولدي، اذهبْ إلى أمِّكَ إنَّها تنتظرُكَ، لَمْ يلاحظْ بسببِ العتمةِ أنَّني كنتُ أرتجفُ، جررْتُ نفسي إلى بيتي وصعدْتُ درجاتِه وكانَ الوعاءانِ فارغيْنِ.

هزَّتني حكايةُ أبي مع العامورةِ، وأخذْتُ أتصوَّرُها قد سدَّتْ عليه الزقاقَ فجرًا، عندَما ذهبَ لجلبِ الماءِ إلى أمِّه، وكيفَ انخلعَ قلبُه مِن

منظرِها وعيونِها وفمِها المتوحشِ، وطولِها الذي يعلو سقفَ الزقاقِ، وهديرِ صوتِها الذي ارتعدَتْ له عظامُه، ثمَّ بسملتُه حتى طردَها مِن خيالِه، واختفتْ بعدَ بزوغِ أولِ شعاعٍ مِن نورِ الشمسِ، يا إلهي! كيفَ تحمَّلَ أبي الطفلُ آنذاكَ هذا الرعبَ؟ أهي الرجولةُ المبكرةُ التي فُرِضَتْ عليه؟ أمْ ماذا؟

أكملَ أبي حديثَه قائلاً:

- علَّمَتْني هذه التجربةُ الشجاعةَ، ورحلَ عنِّي الخوفُ إلى الأبدِ، رغمَ أنَّ العامورةَ رمتْني طريحَ الفراشِ عدَّةَ أيامٍ بعدَ أنْ أُصِبْتُ بحمَّى الرعبِ، وزادَ صراخُ جسدِي وانتفاضاتِه، وأنا أَصِفُ لأمِّي العامورةَ، شكلَها المرعبَ، عيونَها الحمراءَ، وضخامتَها التي سَدَّتْ بابَ الزقاقِ.

حضنتْني أمِّي وهدأَتْ مِن رَوْعي قائلةً: "لا شيءَ اسمُه العامورةُ يا ولدي، ما شاهدتَه هو ظلالُ الأضواءِ الخافتةِ على عتمةِ الزقاقِ، "العامورةُ" مِن بناتِ أفكارِ الناسِ حتى يُخمِدُوا حركةَ الأطفالِ ويخوِّفُوهم بها حتى يناموا." هدأْتُ واسترخيْتُ في حضنِ أمِّي وسقَتْني مِن "طَاسةِ الرَّجَّةِ" وهي طَاسَةٌ نُحاسيةٌ أو فضيةٌ منحوتٌ عليها آياتٌ قرآنيةٌ، يَصُبُّون فيها بعضَ الماءِ، ويلفُّون الماءَ فيها عدَّةَ مرَّاتٍ حتى يتحسَّسَ الماءُ الآياتِ القرآنيةَ التي تُزيلُ الحسدَ والرعبَ والمرضَ، وهي مِن تراثٍ مُتأصِّلٍ في الذاكرةِ الشفويةِ.

أغدقتْني أمِّي بحُبِّها وحنانِها ورعايتِها الفائقةِ، فكانوا أروعَ علاجٍ لي، وأخذَتْ تُطَبِّبُني وتراجعَتْ حرارتي لبراعةِ أمِّي في طبِّ الأعشابِ؛

فقد كانتْ أمّي تعرفُ أنواعَه بمهارةٍ، وتعرفُ بأنَّ كلَّ عشبةٍ دواءٌ مِن داءٍ. ساهمتْ تلكَ الأعشابُ في شفائي السريعِ، واستعادَتِي لعافيَتي، كانتْ تضعُ على بعضِها الماءَ المغليَّ وعندَما يصبحُ دافئًا تَسقيني مِنه، كما كانتْ تنقعُ عشبًا آخرَ، ثمَّ تغمسُ فيه فوطةً قطنيةً، تعصرُها وتستعملُها مثلَ كمَّادةٍ باردةٍ للتخلُّصِ مِن الحرارةِ العاليةِ.

كانتْ تُعِدُّ لي أعشابًا برِّيةً مُغذيةً وفاتحةً للشهيةِ، وأخرى مُهدِّئةً تُزيلُ رجفةَ الجسدِ وغضبِه، كما غذَّتْني بدجاجِها البلديِّ.

القزماط

أقبلَ أبي علينا مُنشرحًا يُنادِيني، ولَمْ أكنْ بحاجةٍ لذلكَ، لأنَّني فورَ أنْ أسمعَ دورانَ قفلِ مفتاحِ بابِ الدارِ أهبُّ لعناقِه، وبعدَ أنْ يغتسلَ ويلبسَ عباءتَه وطاقيتَه الصوفيةَ، يُجلِسُني في حضنِه ويغمرُني بحُبِّه وحنانِه ويسألُني:

- هه يا "الست زبيدة"، أينَ وصلْنا ليلةَ أمسِ؟

أجيبُه بلهفةٍ:

- إلى قصةِ القُزماطِ الذي كانتْ تُعِدُّه لكَ جدَّتي، الله يرحمها.

يترحَّمُ أبي على أمِّه، ويقرأُ على روحِها الفاتحةَ، ينصتُ قليلاً، يستجمعُ أفكارَه ثمَّ يقولُ:

- كانتْ أمِّي تُعِدُّ لي منذُ الفجرِ لُقَمَ "القزماط"، وهو عبارةٌ عن طحينٍ وسُكَّرٍ وينسونَ وبذورِ القزحةِ/حبةِ البركةِ وسمسمٍ بلديٍّ، وسُكَّرِ البنجرِ، كانتْ أمِّي تَعجِنُهم بزيتِ الزيتونِ

وقليلٍ مِن الماءِ والخميرةِ، ثُمَّ تبدأُ بمدٍّ ولفٍّ كلِّ قطعةٍ بشكلٍ دائريٍّ على المَفرمةِ/لوحِ خشبٍ له قاعدتَيْنِ عاليتَيْنِ، تستمرُّ أمِّي في لفِّ العجينةِ حتى تصبحَ حبلاً على طولِ المَفرمةِ، ثُمَّ تَرشُّه بالسمسمِ وتتركُه يرتاحُ قليلاً على الطبليةِ قبلَ أنْ تبدأَ في تقطيعِه قطعًا صغيرةً بشكلِ مُوارِبٍ، تُعطي للقزماطِ منظرًا وشكلاً أجملَ، ثُمَّ تَرصُّه في الصينيةِ، وهكذا معَ كلِّ حبلِ قزماطٍ. ثُمَّ أذهبُ بالصينيةِ إلى الفرنِ، مع طبليةِ خبزِ أمي، قوتِنا اليوميِّ.

تنهَّدَ أبي بعمقٍ ورشفَ مِن كوبِ شايِه، ثُمَّ واصلَ حديثَه المُشوِّقَ عن طفولتِه الصعبةِ فقالَ:

- بعدَ عودَتي مِن الفرنِ، كانتْ أمِّي تصُفُّ القزماطَ أو الكعكَ بالعجوةِ، أو النمورةِ، أو كعكةِ الحِلبةِ، كانتْ أمِّي تشكِّلُ كلَّ يومٍ نوعًا جديدًا تضعُهم على الطبليةِ، أرفعُ ذراعِي وأقبضُ بكفِّي على حِفَّتِها، وبالأُخرى أُمسكُ القاعدةَ الخشبيَّةَ الخفيفةَ لأُسندَ عليه الطبليَّةَ عندَ بيعِ القزماطِ، كانتْ أمِّي تصنعُ لي كعكةً مِن القماشِ، تضعُها تحتَ الطبليةِ حتى تَحمي رأسي مِن ثقلِها، ثُمَّ أذهبُ بحِمْلِي إلى الجامعِ القريبِ مِن الفرنِ تَسبِقُني رائحةُ القزماط الشهيةِ، وأقفُ بانتظارِ خروجِ المُصلِّينَ.

- كانتْ رائحةُ قزماطِ أمِّي الطازجةُ والساخنةُ، تملأُ الزقاقَ وتصلُ إلى المُصلِّينَ قبلَ أنْ يُنهوا صلاةَ الفجرِ، وربَّما

شغَلَتْهم الرائحةُ الشهيةُ عن الصلاةِ، أو تَعجَّلُوا إنهاءَها حتى يتذوَّقوها بعدَ أنْ انفتحتْ شهيَّتُهم على رائحةِ السمسمِ، والحِلْبَةِ، واليَنسونِ والشومرِ والقرفةِ، كانوا يُقبِلونَ على طَبليَّتِي فورَ أنْ يُغادِروا الجامعَ مُهلِّلينَ ومُبَسْمِلينَ بذكرِ اللهِ، ويتلقَّفونَ القرماطَ الساخنَ مِن الطبليةِ التي على رأسِي مباشرةً.

- سحرَتْني حكاياتُ أبي، وأطلَقَتْ خيالِي، وجعلَتْني أفتخرُ بهِ كُلَّ يومٍ أكثرَ لأنَّها أعادَتْ له هذا الشريطَ المدفونَ في أعماقِه، كانَ أبي يقصُّ علينا مشاهدَ رائعةً وشجاعةً، مِن طفولَتِه وكفاحِه في الحياةِ، وذلكَ بعدَ أنْ أصبحَ مسؤولاً عن أمِّه وإخوتِه، وهو لا زالَ طفلاً.

كانتْ قصصًا حقيقيةً مُشبعةً بالحُبِّ، والعطاءِ والتضحيةِ وإنكارِ الذاتِ، كانتْ تُثيرُ خيالِي، فأصبحَ أبي بَطَلي المُتوَّجَ، كنتُ أنتظرُ سماعَ قصصَه بشغفِ الأطفالِ، وإدراكِ ووعيِ الكبارِ، كنتُ أعيشُها معَه، بكاملِ قوايَ وعواطفِي ووجدانِي، وأحاسيسِي المُتَّقدةِ، لمعرفةِ المزيدِ مِنها، علَّمَتْني حكاياتُ أبي حسنَ الإنصاتِ، والجرأةِ في طَرْحِ الأسئلةِ إذا خَفِيَ عنِّي شيءٌ ما، كَمَا أنَّ شجاعةَ أبي تَقَمَّصَتْني وشَحَنَتْني بِطاقَةٍ مُلتهبةٍ في عَقلِي ووجدانِي.

الجَدَيِّد عامّو والحاملة

جمعَنا أبي مِن حولِه في الليلةِ التاليةِ، أجلسَني بقُرْبِه أستمتعُ بدفئِه وسخونةِ قصصِه، وقالَ:

- كنتُ بعدَ أنْ أعودَ إلى أمّي بصينيَّتي الخشبيةِ الفارغةِ، وجيْبي المَلآنِ بالمصاري، أقدِّمُهم لأمّي لتشتريَ بهم مؤونةَ ما ستُعدُّه وأبيعُه فترةَ بعدِ الظهرِ، وما تحتاجُه لغدائِنا ذاكَ اليومِ أيضًا، ثمَّ أصطحبُ إخوتي بعدَ تناولِ الفطورِ معَهم إلى المدرسةِ، وأعودُ بهِم إلى البيتِ، كنتُ أتناولُ الغداءَ معَهم على عجلٍ، لأحملَ الصينيةَ التي أعدَّتْها أمّي بالفولِ الأخضرِ والحاملةِ الخضراءِ الذين قلعَتْهم أمّي مِن رحمِ الأرضِ في حاكورةِ بيتِنا، كانتْ تغسلُهم بالماءِ وترشُّهم بالملحِ وتَصُفُّهم بجانبِ بعضِهم بعضًا على صينيةِ الشواءِ.
- أصبحتْ أمّي تزرعُ الخضارَ الذي تحتاجُه في عملِها، بعدَ أنْ تخلطَ ترابَ الأرضِ بالسمادِ الطبيعيِّ مِن مُخلّفاتِ الدجاجِ والزغاليلِ والمَعْزِ سمادًا طبيعيًا يقوّي مناعتَنا، وكانتِ الأرضُ الخصبةُ تُنتِجُ خضارًا بعليةً تعيشُ على ماءِ المطرِ، مثلِ البندورةِ والباميةِ والبقلةِ والباذنجانِ والكوسا والخيارِ والفقوسِ والبقدونسِ والكزبرةِ والنعناعِ والفولِ الأخضرِ، الذي يصبحُ "جديد عامو"، والحمصِ الأخضرِ يصبحُ اسمُه "الحاملة" بعدَ الشواءِ.

يضيفُ أبي وهو ينظرُ إليْنا بتمكُّنٍ وتركيزٍ، وكأنَّه غيرُ مصدِّقٍ بأنَّ أطفالَه مأخوذونَ بحواديتِه، التي أثَّرتْ فينا إيجابًا، فأصبحْنا أكثرَ هدوءًا بعدَ أنْ خفَّتْ خناقاتُ إخوتِي، وأصبحْنا نُحبُّ بعضَنا أكثرَ، وأصبحَ إخوتي الكبارُ فورَ أنْ يأتوا مِن المدرسةِ، يتغدّونَ ثمَّ يجلسونَ على طاولةِ السفرةِ لأداءِ واجباتِهم المدرسيةِ، وذلكَ قبلَ عودةِ أبي مِن عملِه، ثمَّ نتحلَّقُ مِن حولِه وكلُّنا شوقٌ للمزيدِ مِن الحكاياتِ، أكملَ أبي حديثَه قائلاً:

- كانتْ أمِّي حريصةً على وضعِ كعكتِها القُماشيةِ لحمايةِ رأسِي مِن ثقلِ الطبليةِ كلَّ صباحٍ، كنتُ أشويهم بالفرنِ، وأعودُ بهِم إلى البيتِ، ثمَّ ترشُّ أمِّي على الجديد عامو الكزبرةَ المفرومةَ، التي تفوحُ رائحتُها الطازجةُ، معَ قليلٍ مِن الماءِ والملحِ الخشنِ، تضعُ الطبليةَ على رأسي، وأحملُ بيدي الأخرى قاعدةً خشبيةً ذاتَ أرجلٍ عاليةٍ، أقفُ بها في ركنِ الشارعِ الذي اتَّخذْتُه مقرًّا لي، وأصبحَ معَ مرورِ الوقتِ يُعرَفُ باسمي ولا يتجرأُ أيُّ بائعٍ صغيرٍ مِثلي أنْ يستوليَ عليه، لأننا أصحابُ مهنةٍ واحدةٍ وهدفُنا دعمُ أُسَرِنا وحمايتِهم مِن الجوعِ ومِن أجلِ ألاَّ يحتاجوا الصدقةَ مِن أحدٍ.
- كانَ هناكَ عهدٌ غيرُ مكتوبٍ بينَنا، ولكنَّه منقوشٌ في أعماقِنا، كنتُ أضعُ حِمْلِي على حاملِ الطبليةِ ذاتِ الأرجلِ الأربعِ العاليةِ، حتى يراني الناسُ ويَرَوْا رأسي وراءَ الطبليةِ، وصوتِي يُكبِّرُ ويُهلِّلُ بكنزِي الثمينِ مِن المشاوي الخضراءِ

الطازجةِ، التي اخترتُ لها ركنًا يراه العابرونَ والمشاةُ مِن الاتجاهاتِ الأربعةِ حتى يسمعوني وأنا أنادي عاليًا "جديد عامو مشوي ومكزبر" أو "حاملة طرية زي الفستق واللية، قربوا وذوقوا ساخنة وشهية". كانتْ أمّي تختارُ كلَّ يومٍ الطازجَ مِن البقولِ الخضراءِ.

وفي إحدى ليالي الشتاءِ المقمرةِ، قالَ لنا أبي:

- سنتمتعُ سويًا هذهِ الليلةَ التي يتربعُ فيها القمرُ كاملاً في كبدِ السماءِ، سنكتفي بنورِهِ، ونتدفأُ بجمرِ الكانونِ.

جلسْنا على جواعِدِنا وجمرُ الكانونِ يُضيفُ سحرًا بضوئِه الخافتِ الذي يزيدُه البدرُ نورًا، كنَّا رغمَ الشتاءِ نجلسُ في ساحةِ الدارِ الشتويةِ، التي تدفّئُها شمسُ النهارِ ويحتفظُ البلاطُ بصهدِه الساخنِ يشعُّه علينا في المساءِ.

أصبحَ أبي يتقنُ فنَّ القَصِّ، ويجذبُنا به وإليه حتى النهايةِ.

بدأَ حديثَه قائلاً:

- كانتْ أمّي تُعِدُّ مأكولاتِها حسبَ محصولِ الموسمِ ونضجِه، مثلاً؛ كانتْ تشوي الحاملةَ وهي عبارةٌ عن ضُمَمٍ يانعةٍ مِن الحمّصِ الأخضرِ الممتلئِ والناضجِ بالأخضرِ، كنتُ أشويه بالفرنِ القريبِ، وأبيعُه ساخنًا يتهافتُ على شرائِه الأهلُ لأطفالِهم، لأنَّهم يعرفونَ فوائدَه الصحيَّةَ المُغذِّيةَ التي تعوّضُهم عن اللحمِ، كانوا يقطفونَ حبَّاتِ الحمصِ الخضراءِ المشويَّةِ بشهيَّةٍ، حتى يأتوا على آخرِ حبةٍ مِن

الضُّمَّةِ التي أبيعُها لهم، كانتْ حبّاتُ الحمُّصِ الساخنةِ والناضجةِ تنزلقُ في أفواهِهم طريةً ولذيذةً حتى نهايةِ آخرِ حبةٍ في الضُّمَّةِ، كانوا يشعرونَ بالرضا والشبعِ والحيويةِ، هلْ هو البروتينُ الذي تحوَّلَ إلى طاقةٍ؟ أمْ هو الشبعُ؟ أمْ رائحةُ الشواءِ في بردِ الشتاءِ؟

ثمَّ يحدِّثُنا أبي عن أكوازِ الذرةِ الصفراءِ، قائلاً:

- كانتْ أمِّي تُعِدُّ لي أكوازَها الصفراءَ مشويةً أو مسلوقةً، وكانتْ ذكيةً في اختيارِ الناضجِ مِنها والممتلئِ بحَبَّاتِه الطازجةِ، كما كانتْ ذكيةً باختيارِ الخضارِ والبقولِ الطازجةِ في كلِّ المواسمِ، لهذا أقبلَ الناسُ عليها بشوقٍ وشهيةٍ، لأنَّ طعامَ أمِّي كانَ نظيفًا وشهيًا ولها نَفَسٌ طيِّبٌ.

توقَّفَ أبي عن الحديثِ، وأخذْتُ أرجوه أنْ يُكمِلَ حكايةَ جدَّتي، لكنَّه كانَ حازمًا كعادتِه، قبَّلني ووعدَني بأنْ يقصَّ علينا بقيةَ الحكاياتِ في الليالي القادمةِ، وأنَّ أمسياتِ كانونِ الثاني لا تزالُ في أوَّلِها، وأنَّه سيقضيه معنا حولَ الكانونِ، ليزيدَنا مِن قصصِ طفولتِه التي انصهرْتُ بها إعجابًا ومفخرةً بأبي، كانَ يقشِّرُ لنا الكستناءَ على الجمرِ الهادئِ، ويضعُها في فمِنا بعدَ العشاءِ.

هكذا كُنَّا نقضي ليالِيَ الشتاءِ معَ أحاديثِ أبي وذكرياتِه العصاميَّةِ المتميِّزةِ، التي جعلتْ مِنه تاجرًا ناجحًا فيما بعدُ، حيثُ أكسبَه اجتهادُه في حياتِه العمليَّةِ منذُ طفولتِه استقلاليةً مبكِّرةً، ونُضجًا وحنكةً عظيمينِ.

وفي ليلةِ الغدِ، كنتُ بانتظارِ أبي على أحرٍّ مِن الجمرِ، وفورَ أنْ نادى على (الست زبيدة)، كنتُ في أحضانِه أتوسَّلُ إليه أنْ يُكْمِلَ حكاياتِه وقصةَ كفاحِه وما بها مِن نوادرَ وقصصٍ شيقةٍ لَمْ نَمَلَّ أو نتوقفْ عن سماعِها لأنَّها كانتْ حُبلى بالدهشةِ والألمِ، والحبِّ والحزنِ، واتَّسمتْ بالتضحيةِ والعطاءِ، نمطٌ متأرجحٌ بينَ العلوِّ والهبوطِ وبينَ المعاناةِ والأملِ، وبينَ الكفاحِ والجهادِ مِن أجلِ لقمةِ العيشِ، كانتْ كلُّها مِن الواقعِ المَعيشِ، حتى يأتيَ عمِّي لزيارتِنا ويقصَّ علينا قصصَ خيالِه الخصبِ.

كانَ يسرحُ بنا بعيدًا، بعيدًا جدًا، يسيطرُ علينا خلالَها الرعبُ، ويشدُّنا بخيالِه الواسعِ إلى أماكنَ غامضةٍ، وأزقَّةٍ يعيشُ بها الجنُّ الذينَ يُخاوُونَ بعضَ الناسِ، ويلبُّونَ لَهم طلباتِهم، ويحقِّقونَ أمانيهم بالثراءِ، أو بالنصرِ على غريمِهم في العملِ، أو بالفوزِ بأجملِ البناتِ.

كانتْ حواديتُ عمِّي مِن نبضِ خيالِه الجامحِ، يطيرُ بنا معَها، نتسلَّقُ الجبالَ، ونرتمي في نارِ أحداثِها المُشوِّقةِ والمُرعبةِ في آنٍ واحدٍ.

أمَّا حكاياتُ أبي فكانتْ مِن واقعِ الحياةِ، لا أدري هلْ يعودُ ذلكَ أيضًا إلى تأثيرِ البيئةِ التي نما فيها بعدَ أنْ عادَ إلى تلكَ البيئةِ بعدَ النكبةِ؟ أعتقدُ أنَّ الطاقةَ الجبَّارةَ التي تمتَّعَ بها أبي بخاصَّةٍ والإنسانُ العصبيُّ بعامةٍ، وتحمُّلَهم العملَ الشاقَّ الذي فُرضَ عليهم، أو تحمَّلَه وفَرَضَه على نفسِه، ومِن ثَمَّ اعتناقَه لدرجةِ الإبداعِ التي تحرقُ معَ مسارِها أرواحَ المُبدعينَ سواءٌ في العملِ الإبداعيِّ الخلَّاقِ على الصعيدِ الإنسانيِّ عندَما يزدادُ إصرارًا على أنْ يكونَ قمةً في الإتقانِ والأداءِ.

عذابٌ يتحمَّلُه الإنسانُ منذُ صباه المبكرِ، خاصةً إذا فَرَضَتْ عليه الظروفُ مسؤولياتٍ كبيرةً، أو اختارها لنفسِه كحاملِ همِّ الجميعِ، والراعي لأمورِهم، حتى لو أرسلَ له مُخُّه نداءاتِ تنبيهٍ مِن خلالِ أعصابِ شبكاتِه الكهربائيةِ بأنْ ينصتَ لنداءِ جسدِه المنهكِ، يهملُها ولا ينصتُ لها ويستمرُّ في تجاهلِها، فتكونُ نهايتُه مرضًا عضالاً يفقدُ فيه روحَه ونفسَه قبلَ جسدِه.

هلْ هذا كافٍ أمْ أنَّ للجيناتِ الوراثيةِ ذنبٌ تتحملُه أيضًا؟ إنَّ القولَ السائدَ منذُ الأزلِ أنَّ الإنسانَ العصبيَّ طيبُ القلبِ صحيحٌ جدًا، كانَ أبي نبيلاً وطيبَ القلبِ؛ يثورُ لأتفهِ الأسبابِ ولكنَّه يهدأُ بسرعةِ الصاروخِ، وبعدَ أنْ يُنفِّسَ عنْ روحِه بعضَ عذاباتِها التي تراكمتْ عليها الأزمنةُ والأمكنةُ، يندمُ بحرقةٍ، يعتذرُ ويصالحُ خاصةً إذا آذى أحدًا مِنَّا بغضبِه، يصالحُنا بقُبُلاتِه الهائمةِ على وجوهِنا، ويعتذرُ لنا بغمغماتِ لسانِه، ويتحوَّلُ إلى حَمَلٍ هادئٍ، ينبضُ قلبُه الأبيضُ كالحليبِ الصافي عناقًا وحبًا وولعًا بنا.

حواديت الآي باد

كانَ بعضُ الأقاربِ يقيمونَ معَنا لأسابيعَ، مِن عمَّةٍ وعَمٍّ إلى خالٍ وخالةٍ، وكُنَّا نحبُّهم جميعًا لأنَّنا كُنَّا ننتظرُ كلَّ ليلةٍ حواديتَهم وحكاياتِهم الشيِّقةَ لنا قبلَ النومِ بشوقٍ.

انقرضتْ هذهِ العادةُ المتوارَثةُ للأسفِ، وحلَّتْ محلَّها قصصُ الأطفالِ المترجمةُ، التلفزيونُ والآي باد وأفلامُ الميكي ماوس وغيرُها

المدبلجةُ للعربيةِ، أصبحتْ كلُّها رفيقةَ أطفالِنا خاصةً الآي باد الذي ينامُ في حضنِهم، وكذلكَ عندَما يَصحونَ يتصبَّحونَ به، ويُوضعُ أمامَهم وهمْ يتناولونَ وجباتِهم، ظاهرةٌ خطيرةٌ جدًا جعلتِ الأطفالَ يعيشونَ في عالمٍ خاصٍّ بهِم، لا يريدونَ لثالثٍ أنْ يشاركَهم عالمَهم، حتى لو كانَ أبويْهم.

أصبحَ أطفالُ اليومِ كثيري السَّرَحانِ، ويصعُبُ عليهمُ التركيزُ، أكثَرَ انطواءً وعصبيةً، لا يريدونَ لثالثٍ أنْ يشاركَهم متعتَهم التي تمتدُّ لساعاتٍ، أعني بكلامي هذا كلَّ مَنْ أصبحَ مِنْهم، وهو لتَوِّهِ بدأ ينطقُ الكلامَ، مَن امتلكَ الآي باد الخاصَّ به وهو ما زال طفلاً همْ قلةٌ والحمدُ للهِ، ولكنهمْ في ازديادٍ، خاصةً إذا كانَ الطفلُ كثيرَ الحركةِ لا يهدأُ، فأصبحَ إلهاؤه بالآي باد ليتخلصَ أهلُه مِن شيطَنَتِه بما يفيدُ مِن وجهةِ نظرِ أبويْه هو الحلُّ الأفضلُ.

حي النزهة

انتقلْنا إلى بيتٍ جديدٍ، وحيٍّ جديدٍ غيرِ حيِّ العجميِّ، حيثُ بيتُ الشاطئِ، وذلكَ بعدَ أنْ ضاقَ بِنا وزادَ عددُ زوَّارِنا، صَمَّمَ حيَّ النزهةِ الجديدَ مهندسٌ ومخطِّطُ مدنٍ مصريٌّ، وذلكَ بطلبٍ مِن رئيسِ بلديةِ يافا آنذاكَ الدكتور يوسف هيكل، الذي كانَ في زيارةِ عملٍ إلى القاهرةِ أيامَ النحاس باشا.

كانتِ الأشجارُ مُصطفَّةً على جانبيِّ الشارعِ، ويتوسطُ الحيَّ جزيرةٌ خضراءَ للتنزُّهِ، كانَ تصميمُ الحيِّ جذابًا ذا تنظيمٍ حديثٍ جميلٍ وأنيقٍ، مِمَّا شجعَ والدِي على الانتقالِ إلى هذا الحيِّ الواسعِ، لأنَّه كانَ مختلفًا عن الأحياءِ القديمةِ، مِن حيثُ اتساعُ شوارعِه وبيوتِه وحدائقِه، وشرفاتِها العريضةِ للسهرِ والسمرِ ليالي الصيفِ، والواسعةِ لتفسحَ المجالَ لرؤيةِ الحديقةِ الواسعةِ في مقدمةِ بيتِنا الذي يعلوه طابقٌ آخرُ للجيرانِ.

كانتْ شوارعُ الحيِّ مزروعةً بالأشجارِ الخضراءِ على الجانبيْنِ، مِمَّا أعطى للحيِّ روحًا جديدةً ورونقًا وجمالاً متميزًا، وقدْ امتدَّتْ على جانبيْ شوارعِه العماراتُ الجديدةُ، والمحلاتُ المزدهرةُ.

كنتُ أمرُّ بالقربِ مِن مستشفى الدجاني الذي كانَ متميزًا في ذلكَ الوقتِ والذي كانَ قريبًا مِن مدرستِي، في غُدُوِّي وعودَتي تعرَّفتُ

على تَوأمَين صارتا صديقتين ولدتهما أمهما لأنهما كانتا حدثًا نادرًا بل غريبًا في ذلكَ الوقتِ، كنَّ ثلاثًا في بطنِ أمهنَّ، ماتَ الطفلُ، وعاشتْ صديقتِي معَ توأمِها.

أصبحَ لديْنا بيتٌ واسعٌ وأثاثٌ جميلٌ وجيرانٌ جددٌ وحيٌّ حديثٌ كبيرٌ اسمُه حيُّ النزهةِ، وهيَّأ أبي لَنا في بيتِنا الجديدِ أَسرَّةَ نومٍ جديدةً، مكتوبةٌ أسماؤُنا على واجهةِ كلٍّ مِنها بخطِ الرقعةِ الجميلِ، لا أدري لماذا؟ هل كنَّا سنتوهُ عنهُم؟ أم أنَّها كانتْ لتحديدِ أماكنِ نومِنا، وعدمِ الخلطِ بين الأسِرَّةِ، خاصةً أنني البنتُ الوحيدةُ بينَهم؟!

وعيتُ بيتَنا الجديدَ الفسيحَ الذي يُطِلُّ على حديقةٍ أخَّاذةٍ، لها سورٌ وبابٌ حديديٌّ أخضرُ اللونِ يزدهرُ بأشجارِ الليمونِ الذي كان حينَ يحينُ موعدُ تنويرِ زهورِهِ، ترتدي أشجارُه البياضَ المطعَّمَ بالأصفرِ، وتنتشرُ رائحةٌ قويةٌ وجذابةٌ تنعشُني وتنعشُ الجوَّ المحيطَ بها، رائحةٌ أخَّاذةٌ ورقيقةٌ لَمْ أشمَّ مثلَها في حياتي.

كانَ أمامَ بيتِنا مباشرةً بيارةٌ مهجورةٌ، أصبحتْ مرتعًا خصبًا لِلَهْوِنا، كانَ الأخضرَ وألوانَ الحَنُّونِ/الدحنونِ ممتدةً أمامي في الفضاءِ الشاسعِ بدءًا مِن حديقةِ البيتِ وحتى نهايةِ بيارةِ البرتقالِ المهجورةِ، التي كانتْ مرتعَ طفولَتي معَ صديقاتي الجُدُدِ مِن بناتِ الجيرانِ، كُنَّا نلعبُ بينَ أشجارِها لعبةَ الاستغمايةِ، وكانَ إخوتي وأولادُ الجيرانِ يلعبونَ كرةَ القدمِ.

فيما بعدُ أصبحْنا نلعبُ لعبةَ الحربِ بينَ الحراميِّ وصاحبِ الدارِ التي اختلقَها عقلُ الصبيانِ متأثِّرينَ بما يجري حولَهم مِن

أحداثٍ وتفجيراتٍ ورصاصٍ مسكوبٍ على نوافذِ البيوتِ، كانوا يُراقبونَ ويسمعونَ ما يدورُ في الغرفِ المُغلقةِ مِن استعداداتٍ، والحزنُ مخيِّمٌ على الجميعِ.

كانوا يقسِّموننا إلى فريقيْن: عربٍ ويهودٍ، كنتُ أرفضُ أنْ أكونَ معَ النصفِ الآخرِ، وتدورُ الحربُ بينَنا، أعتقدُ أنّنا كُنّا نمثِّلُ ما كُنّا نسمعُه مِن أهلِينا ونشاهدُ ونَعي خوفَهم على وطنِهم، ومدينتِهم التي ازدادَ توتُّرُها مِن شدَّةِ قصفِ العصاباتِ الصهيونيةِ، وتوقُّفِ الأعمالِ وانتشارِ السلبِ والدمارِ.

كانَ إخوتِي وصبيانُ الحيِّ يغلقونَ الشارعَ الترابيَّ الطويلَ ما بينَ البيارةِ المهجورةِ وبابِ حديقةِ بيتِنا الحديديِّ الجديدِ الذي انتقلْنا إليه قبلَ هجرتِنا النهائيةِ المؤلمةِ مِن المدينةِ التي عشقتُها، كما أحبّتْها أمِّي، وكانتْ تُردِّدُ ذلكَ على مسامعي عندَما أقولُ لها إنِّي أحنُّ إلى يافا، كانتْ تَرُدُّ عليَّ قائلةً:

- لقدْ عشتُ في يافا أجملَ أيامِ حياتي، وكلُّ مَنْ عاشَ فيها لنْ ينساها، ولكنَّكِ كنتِ صغيرةً جدًا، فكيفَ تتذكرينَ كلَّ هذهِ التفاصيلِ التي تسألينني عنها؟

قبلَ النكبةِ بشهرٍ، بدأتُ أُداومُ في المدرسةِ القريبةِ مِن بيتِنا، أذكرُ أنَّ معلمَتي طلبتْ مِنّا تلوينَ كلِّ دائرةٍ بلونٍ مختلفٍ عن الآخرِ، لفتَ نظرَها دقةُ تلويني للدوائرِ وعدمُ الخروجِ عن خطوطِ الدائرةِ، بعدَ أنْ أنهيتُ تلوينَها أخذتْ معلمتَي ورقتِي، وعلَّقتْها على السبورةِ السوداءِ الكبيرةِ لتراها بقيةُ البناتِ في الفصلِ، تتلاحقُ صورةُ الدوائرِ

أمامَ ناظِري وتُغطّي صفحةَ حاسوبِي، أراها بعدسةِ عيني، أرى الدوائرَ الاثنتيْ عشرةَ على ورقةٍ سوداءَ معلّقةٍ بوضوحٍ أمامِي على شاشةِ الحاسوبِ.

وفي طريقِ عودَتي إلى البيتِ، كانتْ تَصِلُني رائحةُ تفتُّحِ أزهارِ الليمونِ، والوردِ البلديِّ الأصفرِ الفاقعِ، والياسمينِ الذي يلُفُّ سورَ الحديقةِ بأوراقِه الخضراءِ، وبياضِ زهورِه المُنتشرةِ كحبّاتِ اللؤلؤِ.

كانَ النسيمُ يستنشقُ تلكَ الرائحةَ الخاصَّةَ ويبثُّها في الجوِّ، تُرطِّبُه وتُنعشُه، ونَنتعشُ بهذا النسيمِ الهادئِ الحاضنِ لروائحِ زهورِ الربيعِ وأشجارِ الليمونِ.

كنتُ أشعرُ بنقاءٍ ذهنيٍّ مريحٍ، وصفاءٍ في النفسِ، بعدَ أنْ أُصْبِحَ في قلبِ دائرةِ النسيمِ هذهِ، كنتُ أتوقّفُ عندَ سورِ البيتِ أستنشقُ المزيدَ مِنه، وكُلّما خرجْتُ إلى المدرسةِ، أو عدْتُ مِنها أفعلُ الشيءَ نفسَه، أصبحَتْ حديقةُ بيتِنا وَنيسِي الجديدَ ومكانِي المفضّلَ.

كنتُ أعشقُ تسلُّقَ الأشجارِ مثلِ الصبيانِ، وأسابقُهم في الصعودِ إلى أعلى الشجرةِ، والشاطرُ فينا مَنْ يعملُ له مكانًا يضعُ عليه مخدةً للجلوسِ أو الاسترخاءِ.

كانَ إخوتي قد نصبوا لي أرجوحةً أخذَتْ تكبرُ مع الأيامِ لتصبحَ سريرًا لأخي الجديدِ الذي كنتُ أهدهدُه فيه حتى يغفوَ. كانتْ أمّي تطلُّ عليَّ بينَ الحينِ والآخرِ لتتأكدَ أنّه بأمانٍ وينعمُ بقيلولةٍ مريحةٍ قبلَ أنْ تنقلَه إلى سريرِه داخلَ البيتِ، وكانَ يبتسمُ في نومِه، وأحيانًا كثيرةً تتّسعُ الابتسامةُ فترمِشُ عيناه، وكنتُ أسألُ أمّي كيفَ

يتبسَّمُ أخـي وهـو نـائمٌ، فتجيـبُ بأنَّـه يحلـمُ وأحـلامُ الأطفـالِ أحـلامٌ ملائكيـةٌ، وفهمـتُ فيمـا بعـدُ أنَّهـا أحـلامٌ سـعيدةٌ تظهـرُ واضـحةً علـى مُحيَّاه البريءِ.

لقدْ عوَّضَتْني حديقتُنا الجميلةُ عن البحرِ، وبيوتِ الرملِ التـي كنـتُ أبنيهـا مـع أطفـالِ بيـتِ الشـاطئِ، والصـخرةِ التـي كُنَّـا نتزحلـقُ عليها طوالَ أيامِ الصيفِ.

الأرض السمراء

أحببـتُ خصـوبةَ الأرضِ السـمراءِ وثمارَهـا الـوفيرةَ والمتعـددةَ، خاصـةً برتقالَها وليمونَها وياسمينَها، وأشجارَ فِتنتِها وشجيراتِ فُلِّها، وهَيَّأَ لَهُم جوٌّ يافا المعتدلُ نموًا رائعًا، كنتُ أتنفَّسُها وأشمُّ رائحةَ ثمارِها الوفيرةِ بالشكلِ واللونِ والطعمِ والرائحةِ، كنتُ أفتِّشُ في الأخضرِ عن أعشابٍ تتراقصُ بفعلِ النسيمِ العليلِ، زهورٌ بريـةٌ مِن كلِّ الألوانِ في ربيعِ يافا الذي يستحضرُ كلَّ الألوانِ، وكنتُ أقطفُ ضُمَّةً مِن زهورِها البريـةِ لأقدِّمَها هديـةً إلى أمِّي، لأنَّها لا تخرجُ مِن المنزلِ إلا لِمَامًا، فكنتُ أُحضِرُ لها طبيعةَ بلادِها، أضعُها بينَ يديْها مع قُبلةِ حُبٍّ وامتنانٍ، لأنَّها أمِّي.

عشقتُ كلَّ ما هو طبيعيٌّ في الحياةِ؛ سواءٌ طبيعةَ الخالقِ أو طبيعةَ النفسِ البشريَّةِ التي أكثرُ ما كانَ يجذبُني إليها حُبُّ الأرضِ، وحُبُّ كلِّ مَن حولي، وحُبُّ الآخرينَ لي، كانتْ أكبرَ نعمةٍ أنعمَ اللهُ بها عليَّ، هي قدرتي على التعبيرِ عن هذا الحُبِّ الذي يملأُ قلبي،

كنتُ وما زلتُ أعتبرُها نعمةَ اللهِ عليَّ، وكانتْ أجملَ هديةٍ أتلقَّاها مِن أمِّي عندَما تضمُّني إلى صدرِها بقوةٍ وحنانٍ، فتَسْكُنُني ضماتُ الحُبِّ التي لا غنى لي عنها، وتصبحُ تعبيرًا تقمَّصَني طولَ حياتي، ووجدْتُ أنَّه أرقُّ وأصدقُ تعبيرٍ عن حبِّي للجميعِ مِن حولي.

يُحكى أنها أينما التفتت..

لاحقَها الجَمالُ.. في كلِّ مكان

والخصبُ والعطاءُ.. يخرجُ مِن الأرضِ السمراء

فواحًا.. حلوَ المذاق..

وخليطٌ مِن الألوان.. الوردِ والأقحوان

وبَرٌّ مِن شقائقِ النعمان.

العريس والعروس

أكثرُ ألعابِ أطفالِ الجيرانِ الجددِ جرأةً، هي لعبةٌ يمارِسونَها على سطحِ العمارةِ، واسمُها (عريس وعروس)، اختاروني يومًا لدورِ العروسِ، ولَمْ أكنْ أفهمُ أنْ يكونَ لي عريسٌ يريدُ أنْ ينامَ بجانِبي، دهشْتُ لقدرةِ أطفالِ هذا الحيِّ على التقليدِ، كانتْ جرأتُهم مُخيفةً مُقارنةً ببراءةِ أطفالِ حَيِّنا القديمِ، حيِّ العجمي مِن اللهوِ على شاطئِ البحرِ، وسباقِ الجَزْيِ على رملِه، والتزلُّجِ على صخرتِه.

كيفَ أجادُوا في هذا العمرِ الطفوليِّ جَلْوَةَ العروسِ وهي تُزَفُّ إلى عريسِها؟ لا أدري، ولكنَّني شعرتُ بأنَّ البناتِ يُهيَّأنَ لذلكَ منذُ نعومةِ أظفارهنَّ، كما أنهنَّ أجدْنَ ليلةَ الدُّخلةِ لدرجةِ أنَّ مَن اختارتْني

لدورِ العروسِ جرحَتْ أعلى فخذي الأيسرِ بالشَّفرةِ، وبعدَ أنْ نزفَتْ نقطةُ دمٍ جفَّفَتْها بمنديلٍ أبيضَ، ولوَّحَتْ بها وهي تهتفُ وترقصُ والجميعُ يردِّدُ وراءَها: عذراء.. عذراء!

جَرَيْتُ مرعوبةً أبكي مِنَ الجرحِ، وأخبرْتُ أمِّي بما حدثَ، غضبتْ مِنِّي في البدءِ ثم التفتَتْ إلى الجرحِ، وبعدَ أنْ طهَّرَتْه وغطَّتْه بكمَّادةٍ، صعدَتْ إلى جارتِها لتُخبرَها بِما فعلتْه ابنتُها بي، كنتُ معَها وسمعتُها تقولُ لها يجبُ أنْ تُراقبوا أبناءَكم، وما يمارسونَ مِن أفعالٍ لا تليقُ على سطحِ العمارةِ.

هذا الفراغُ الذي عِشتُه في الحيِّ الجديدِ وابتعادِي عن مرتعِ طفولتِي السابقِ؛ البحرِ والشطِّ والرملِ صدمَني في البدءِ، كانتْ ألعابُنا بريئةً وجميلةً، وانتقلْنا إلى حيٍّ جديدٍ وبيئةٍ جديدةٍ، بيئةٍ مختلفةٍ في ممارساتِ أبنائِها، خيالُهم الواسعُ وتقليدُهم للكبارِ استمدّوه بالطبعِ مِن حياتِهم الاجتماعيةِ، ومِن يومِها مُنِعْتُ منعًا باتًّا مِن الصعودِ إلى السطحِ، أحمدُ اللهَ أنني كنتُ قريبةً مِن أمِّي، أُحدِّثُها عن كلِّ ما يمرُّ بي مِن أحداثٍ، كانتْ تُوجِّهُني وتنيرُ الطريقَ أمامِي.

قبلَ لعبةِ العريسِ والعروسِ، دُعيتُ وصديقتي للصعودِ إلى السطحِ لمشاهدةِ تمثيليةٍ، مِن إعدادِ وتمثيلِ بناتِ وأبناءِ الجيرانِ، لَمْ يتجاوزْ أحدُهم أكثرَ مِن عشرِ سنواتٍ مِن عمرِه، جلسْتُ قربَ صديقتي على الكراسي الأماميَّةِ التي اصطفَّتْ لنُشاهدَ التمثيليةَ، فتحوا الستارةَ وهي عبارةٌ عن شَرْشَفٍ كبيرٍ منشورٍ على الحَبْلِ، رأيْنا البنتَ الكُبرى مِن بناتِ الجيرانِ تُعرِّي طفلةً مِن لِباسِها الداخليِّ،

وتَرمي عليها غطاءً، وتطلبُ مِنها أنْ تُثني رُكبتيْها إلى بَطنِها، وتتأوَّهَ وتَشُدَّ وجعَ بطنِها إلى أسفلَ حتى يخرجَ الجنينُ، وتُعيدُ وتطلبُ مِنها تمثيلَ صراخِ آلامِ أمِّها وهي تصرخُ أثناءَ الولادةِ، ثُمَّ شاهدْتُها تغمسُ يديْها بزيتِ الزيتونِ وتدلِّكُ بطنَها، وهي تقولُ لها:

- لستِ جاهزةً للولادةِ بعدُ، اصرخي مِن الألمِ، ولكنْ لا تضغطي إلى أسفلَ حتى أقولَ لكِ.

أدهشَني تقليدُ دورِ الدايةِ بدقَّةٍ، وبعدَ طَلْقةٍ قويَّةٍ لقَّنَتْها للطفلةِ البنتُ الكبيرةُ، فجأةً شاهدْنا البنتَ الدايةَ تُخرِجُ لُعْبةً صغيرةً مِن بينِ فخذَيْ الطفلةِ، لفَّتْها على عجلٍ في أحدِ البشاكيرِ/الفُوطِ المُعلَّقةِ على حبلِ الغسيلِ لتجفَّ، صاحتْ وهلَّلتْ بولادةِ طفلٍ ذكرٍ، أخذَتْ بقيةُ الفتياتِ يُهنِّئنَ الطفلةَ بوليدِها بعدَ أنْ أجلسُوها ووضعوا طفلَها/لُعبتَها في حضنِها، وجلسَ الأبُ قربَها، وهو مِن نفسِ عمرِ الطفلةِ يتبادلانِ حَمْلَ الطفلِ/اللعبةِ، تعجَّبْتُ مِن فكرةِ تقليدِ الدايةِ والوالدةِ، وكيفَ تعرَّفوا على كلِّ هذهِ التفاصيلِ الدقيقةِ؟

مِن حُسْنِ حظِّي أنَّ أمِّي كانتْ مُعلِّمَتي، وأحمدُ ربِّي أنَّني كنتُ أخبرُها بكلِّ ما يزعجُني أو يثيرُ اشمئزازِي، كانتْ أمِّي رغمَ خجلِها ودهشتِها مِمَّا تفعلُه بناتُ الحيِّ الجديدِ تُحذِّرُني دائمًا مِن اللعبِ مَعَهنَّ.

لَمْ أصعدْ مَعَ صديقَتِي إلى السطحِ، أو نُشارِكِ البناتَ ألعابَهنَّ الرذيلةَ، لأنَّهنَّ كنَّ يُمارسْنَ العيبَ فيها، لَمْ أرَ في حياتي أمِّي وهي تَلِدُ، ولَمْ أسمعْ صُراخَها رغمَ أنَّها تَلِدُ في البيتِ، كانَ مُحرَّمًا علينا

دخولُ غرفةِ أمِّي وهي تلدُ مولودًا، لا نحملُه ولا نقبّلُه ولكننا نُمتّعُ أنظارَنا بهذا التكوينِ البديعِ واللحمِ الورديِّ الطريِّ، والعيونِ التي بدأتْ تتعرَّفُ علينا وهو في حضنِ أمِّي يرضعُ لأولِ مرةٍ، لَمْ نَرَ دمًا أو خَلاصًا.

كانَ كلُّ شيءٍ مِن حولِنا لامعًا ونظيفًا بفضلِ دايةِ أمِّي التي أصبحتْ صديقتَها لأنَّها لَمْ تُغيِّرْها منذُ أولِ طفلٍ حتى آخرِ رضيعٍ حملَتْه أمِّي عندَما نَزَحْنا، وعمرُه أربعونَ يومًا فقطْ.

كانتْ أمِّي سعيدةً في بيتِها الواسعِ الجديدِ، حديثِ البناءِ، خاصةً وأنَّه أصبحَ لديْها مطبخٌ حديثٌ واسعٌ فيه نَمْلِيَّةٌ لحفظِ الطعامِ، ومُسطحٌ بعرضِ 60 سم مِن الرخامِ الرماديِّ اللونِ، يَلفُّ المطبخَ على شكلِ حرفِ يو (U)، وتحتَه أرففٌ مِن الرخامِ للأواني والطناجرِ، أخفَتْهمْ أمِّي بستارةٍ زاهيةِ الألوانِ مَنقوشةٍ بالرماديِّ والأحمرِ، خاطَتْها وخاطَتْ على جانبِها الأعلى حلقاتٍ صغيرةً أدخلَتْها في سيخٍ / أنبوبٍ معدنيٍّ، نصبَه أبي تحتَ المُسطَّحِ مِن جميعِ جوانبِه، وطاولةٌ رخاميةٌ مستديرةٌ في الوسطِ حولَها كراسيُّ رخاميةٌ أيضًا، تقعُ كلُّها في وسطِ المطبخِ المُربَّعِ وفيه نافذةٌ واسعةٌ تضيفُ ضياءً، خاصةً أنَّنا أصبحْنا نتناولُ وجباتِنا العائليةَ فيه.

في سقفِ المطبخِ علاَّقةٌ فولاذيةٌ ذاتُ سلسةٍ معدنيةٍ مربوطةٍ بسلةٍ مربعةِ الشكلِ، يلتفُّ مِن كلِّ جهاتِها شَبَكُ ألمنيومَ لحفظِ الطعامِ وتهويتِه، ولها نافذةٌ تفتحُها أمِّي لتضعَ فيها بواقيَ طعامِ ذاكَ اليومِ والحلوى والتمرِ، وبعدَ إغلاقِها جيدًا، تشدُّ أمِّي السلسلةَ إلى أعلى،

حيثُ التهويةُ المناسبةُ لحفظِ الطعامِ، كانتْ تلكَ السلةُ البديلَ الطبيعيَّ لثلاجةِ هذا الزمنِ. كنتُ أراقبُ دورانَها في سقفِ المطبخِ عندَما يشتدُّ نسيمُ الريحِ في فصلِ الشتاءِ عبرَ نافذةِ المطبخِ.

نوم الغزلان

كنتُ أراقبُ أخي وأهشُّ الذبابةَ بمروحةِ القشِّ عنه إنْ تجرَّأَتْ وتواجدَتْ قربَه أو حطَّتْ على وجهِه البريءِ فجأةً، كانَ وجهُ أخي الملائكيِّ يجلبُ الهدوءَ إلى نفسي، خاصةً عندَما أرى عينيْه تَتَفَرجانِ قليلاً وهو ما زال نائمًا، وسألتُ أمِّي يومًا عن عيونِ أخي التي لا تغلقُ تمامًا عندَما ينامُ، فقالتْ لي إنَّ أخي ينامُ نومَ الغزلانِ، لأنَّه ينامُ وعيناه مفتوحتانِ قليلاً.

لا أدري ما هي علاقةُ الغزالِ، هذا الحيوانِ الأنيقِ والوسيمِ، صاحبِ العيونِ الواسعةِ والجذَّابةِ بمَيَلانِها وحورِ نظرتِها، بنومِ أخي؟ وهلْ ينامُ الغزالُ مفتوحَ العينيْنِ مثلاً؟ لستُ أدري، أذكرُ أنَّني رأيتُ غزالاً يقفزُ أمامي على طريقٍ جبليٍّ مرتفعٍ، يطِلُّ على الشارعِ، كنتُ أطعمُه بما يتيسرُ، وهو يهبطُ مِن الجبلِ قاطعًا الشارعَ إلى المُنحدَرِ على الطرفِ الآخرِ مِن الجبلِ بسرعةٍ مَهولةٍ، وعندَما أهزُّ له ما بيدي يتوقَّفُ ويخطفُه مِنِّي ويجري بلا مبالاةٍ، لكنني لَمْ أرَ غزالاً نائمًا.

هكذا ترعرعتُ وفي داخلِي عشقٌ خاصٌ للأطفالِ، وعندَما كبرْتُ وأصبحَ لا بُدَّ لي مِن الزواجِ وأنا في الثامنةَ عشرَ مِن

عمرِي وإلاَّ سأُلَقَّبُ بالعانسِ، كنتُ أكرهُ هذهِ الكلمةَ، بلْ أعتبرُها كلمةً جارحةً وغيرَ أخلاقيةٍ، لأنَّ هناكَ الكثيرَ مِن الرجالِ لم يتزوَّجُوا، ويلقِّبُونَهُم بالعُزَّابِ، فلماذا لا يقولونَ عن المرأةِ أيضًا إنَّها عزباءُ!! عَجَبي على ظُلمِ مجتمعِنا الذكوريِّ للمرأةِ، الذي وَعَيْتُه منذُ أنْ كنتُ طفلةً.

كانتِ الشُّرفةُ الطويلةُ والواسعةُ في بيتِنا الجديدِ هي مكانُ العائلةِ المُفضَّلِ حتى إنَّ أمِّي كانتْ تستقبلُ جاراتِها فيها صباحًا لتناولِ القهوةِ صيفًا وشتاءً، لأنَّ شتاءَ يافا دافئٌ وشمسُها مُغذِّيةٌ للروحِ والجسدِ ونسيمُها عليلٌ، وتصبحُ القهوةُ في المطبخِ إذا كانتِ السماءُ تهطُلُ بنعمةِ المطرِ، وذلكَ قبلَ انغماسِ الجاراتِ الجُدُدِ بأعمالِ البيتِ اليوميةِ الرتيبةِ.

كانتْ شُرفةُ الدارِ الطويلةُ للقاءاتِ العائليةِ، وأغلبُ الأحيانِ نتناولُ عشاءَنا فيها، خاصةً عندَما يكونُ في بيتِنا أقاربُ أو ضيوفٌ يزورونَنا في الشتاءِ ليتمتَّعوا بدفءِ شتاءِ يافا، كُنَّا نتمتَّعُ وإيَّاهم بتلكَ الجلساتِ العائليةِ الحميميةِ، ونسيمِ الياسمينِ والنَّارنْج[1] وزهورِ الليمونِ والبرتقالِ التي كانتْ أمِّي تضعُ بعضَ لبابيبِه الخضراءِ في الشايِ فيعطيَه نكهةً مُميَّزةً.

وفي المساءِ، كانتِ الشُّرفةُ لقاءَ أفرادِ الأسرةِ وضيوفِ العائلةِ مِن الأقاربِ المُقرَّبينَ خاصةً في الليالي القمريةِ، يتسامَرونَ فيها

(1) النارنج ويسمى خُشخاشْ: شجرة مثمرة من فصيلة البرتقال دائم الخضرة، ثمرته لُبيَة ذات عصارة حمضية مرة يستخدم عادة لإعداد مربي النارنج.

ويتنسَّمونَ رحيقَ أشجارِ الليمونِ، وتعكسُ ضوءَها على نجومِه فتصبحُ مُشِعَّةً كالألماسِ.

كانتِ العائلةُ في ظلالِ ذلكَ الهدوءِ الساحرِ للقمرِ والنجومِ يتحدَّثونَ بأمورِهم، وكانَ والدي يسألُ إخوتي عنْ أمورِهم الدراسيةِ أولاً، ثُمَّ يبدأُ الحديثُ عنْ تجارتِه معَ أخي الكبيرِ الذي كانَ يَحِلُّ محلَّ أبي عندَما يسافرُ، هلْ وصلَتْ بضائعُه أمْ لا؟ ماذا استوردَ هذا الشهرَ؟ وهلْ باعَ بضاعتَه القديمةَ مِن أكياسِ السكرِ والأرزِّ وتَنَكاتِ السَّمْنِ؟ وهلْ وصلَتْ تنكاتُ الجبنةِ النابلسيةِ التي أخذَ أبي وكالتَها مِن مدينتِه نابلسَ؟ وماذا عنْ قَصْعاتِ التمرِ الضخمةِ مِن العراقِ؟

كلُّ ما كُنَّا فيه مِن بهجةِ الحياةِ الآمنةِ المستقرةِ انكسرَ فجأةً، وذلكَ عندَما أُجبرَتِ الظروفُ القاسيةُ أهلي وشعبي على النزوحِ مِن مسقطِ رأسي يافا عروسِ فلسطينَ ونورِها ومرفئِها، وذلكَ بعدَ أنْ حلَّ الغرباءُ فيها محلَّ أصحابِ الدارِ، وبقرارٍ عشوائيٍّ نُفِّذَ دونَ تدبُّرٍ تَبِعَتْه مجازرُ سوداءُ في حقِّ الأبرياءِ، فكانَ التشرُّدُ واللجوءُ والعيشُ البائسُ في المخيماتِ.

الخبيزة

رغمَ سَلْخِي عن حبيبتي يافا، منذُ النكبةِ الفلسطينيةِ، فإنَّني ما زلتُ أحنُّ إلى بحرِها، وسمائِها، وياسمينِها، وليمونِها، وبرتقالِها الشهيرِ. ورغمَ تراكمِ السنواتِ على ذاكرتي، وابتعادي الساحقِ عن مرتعِ طفولتي، ورغمَ تنقُّلي الدائمِ بعيدًا عن مُحيطِها وهوائِها

وفضـائِها، فـإنَّني مـا زلـتُ أتـذكَّرُ بـأدَقِّ التفاصـيلِ بَيَّـارةَ البرتقـالِ المهجورةِ التي كانتْ تقعُ أمامَ بيتِنا الجديدِ في حيِّ النزهةِ.

كانتْ تلكَ البَيَّارةُ المهجورةُ مرتعًا خصبًا لِلَهْوِنا، كانَ يحلو لي معَ صديقاتي أنْ نتجوَّلَ فيها، ونقطفَ ثمارَ الخُبَّيزَةِ التي كانتْ على شكلِ ورودٍ خضراءَ وصغيرةٍ، داخلُها فصوصٌ صغيرةٌ جدًا فُسْتُقِيَّةُ اللونِ وذاتُ شكلٍ دائريٍّ يُشبِهُ الزهرةَ، كُنَّا نقطفُها بأصابعِنا الصغيرةِ، نجمعُها في أكُفِّنا، ثُمَّ نرميها في فمِنا مرةً واحدةً، لَمْ يكُنْ طعمُها يجذبُ طفولَتَنا، ولكنَّنا كُنَّا نتبارى، مَنْ يَجْمَعُ أكثرَ، كانَ لها طعمٌ غريبٌ كطعمِ الفَقّوسِ تقريبًا، ولَمْ تكنْ حلوةَ المذاقِ، رغمَ ذلكَ كانتْ تُسبِّبُ لنا متعةً كبيرةً مِن صوتِ قَرْقَشَتِها بأسنانِنا.

لَهْوٌ بريءٌ أينعَ طفولتَنا، وأتعجَّبُ مِن عمقِ مذاقِها الذي لا زلتُ أستعيدُه بينَ وقتٍ وآخرَ: هلْ هو الخِصبُ الأخضرُ يملأُ فضاءَ العينِ؟

هلْ هي طبيعةُ البيَّاراتِ الساحرةِ بأشجارِها الكثيرةِ، وسَعَةِ أرضِها؟ هلْ هو لقاءُ الأترابِ؟ هلْ هو تجمُّعُ أطفالِ الحيِّ ولهوِهِم؟

لقدْ وجدْتُ كلَّ ذلكَ في بيتِنا الجديدِ في حيِّ النزهةِ الذي عوَّضَني البيارةَ المهجورةَ، التي أصبحَتْ مُلْكَ أطفالِ الحيِّ بدلَ بيتِ الشاطئِ، الذي ما زلتُ أحنُّ إليه، كما أحنُّ إلى البحرِ، وبيوتِ الرملِ التي كنتُ أبنيها معَ رفيقاتِ حيِّ العجميِّ، والصخرةِ التي كُنَّا نتزحلقُ عليها سويًّا، طوالَ أيامِ الصيفِ والربيعِ وحتى أيامِ الشتاءِ المُشمسةِ.

شَطْحَةُ البيارة

أخـذَنا أبـي فـي نزهـةٍ إلـى إحـدى بيـاراتِ البرتقـالِ التـي كـانَ يَتَضَمَّنُها لتصديرِهِ إلى أوروبا، هلَّلْتُ مِن الحبورِ، ورقصَ قلبي مِن الفرحِ، كنتُ أعشقُ البرتقاليَّ المضيءَ بينَ الأخضرِ كضياءِ الشمسِ عندَ الغروبِ، تأخَّرْنا في لَهْوِنا وجَرْيِنا بينَ أشجارِ البرتقالِ المنتشرةِ على مدِّ البصرِ، نادتْنا أمِّي لتناولِ الغداءِ مِن الذي أعدَّتْه الليلةَ الماضيةَ.

وقبلَ أنْ نغادرَ البيَّارةَ، أعدَّ لنا أبي وليمةً ضخمةً مِن البرتقالِ المُقطَّعِ إلى أربعِ شرائحَ، مدَّها على صينيةٍ كبيرةٍ مِن الألمنيومِ، جلسْنا حولَها على كراسي عُمَّالِ البياراتِ ذاتِ الأرجُلِ الخشبيةِ القصيرةِ وقَعْدَتُها مِن جدائلِ سعفِ النخيلِ الجافِّ، وفجأةً أمسكَ أبي برأسي ووجهُه نحوَ الشمسِ الغاربةِ وإذا بها برتقالةٌ ضخمةٌ في كبدِ السماءِ، لقدْ هيَّأَ جوُّ يافا المعتدلُ لحمضياتِها مِن كلِّ نوعٍ ولونٍ نموًا رائعًا.

النَّور

في يومٍ مشمسٍ جميلٍ، ذهبْتُ مع صديقتي وجارتي بعيدًا في البيارةِ المهجورةِ، وقابَلْنا امرأتيْن مِن النَّوَرِ[1] تسيرانِ معَ حمارِهما المُحمَّلِ بأشياءَ يلتقطونَها، ويرمونَها في خُرْجٍ كبيرٍ يتدلَّى على

---

(1) فئة من الغجر تسكن فلسطين، تعيش في الخيام في مناطق مفتوحة، بعيدة عن المدن والتجمعات السكنية.

الجانبيْنِ فوقَ ظهرهما، طلبتا مِنّا أنْ نساعدَهما في البحث عنْ كلّ شيءٍ معدنيٍّ نراه، لأنّهم يأخذونَه ويصنعونَ مِنه قنابل لمحاربة اليهودِ.

أخذتْنا الحَمِيَّةُ وصدَّقْنا ما قالتاه لنا، وأخذْتُ وصديقتي نجمعُ كلَّ ما نستطيعُ ونضعُه فوقَ حمارِهما المُثْقلِ أصلاً، جرحْتُ يديَّ، ولَمْ أبالِ لأنَّ كلَّ همّي كانَ هو أنَّهم سيخلصونَنا مِن اليهودِ الذينَ يضربونَ مدينتَنا بالرصاصِ والمدافعِ ونحنُ نيامٌ حتى نَطفشَ مِن بيتِنا، تأخرَ الوقتُ بنا دونَ أنْ نشعرَ، وإذا بإخوتي يبحثونَ عنّي صارخينَ في وجهي بعنفٍ وعصبيةٍ:

- أمُّكِ قلقةٌ وتبكي عليكِ، لقدْ تجاوزْتِ حدودَكِ بابتعادِكِ عن مدخلِ البيارةِ كعادتِكِ؟

شدَّني أخي بقسوةٍ وضربَني، فركضْتُ باكيةً إلى أمّي، شعرْتُ بالظلمِ الذي حاقَ بي خاصةً بعدَ أنْ صرخَتْ أمّي بوجهي تؤنّبُني أيضًا، أخذْتُ أبكي وأنا أصرخُ بصوتٍ عالٍ:

- كنّا نساعِدُ النَّوَرَ بجمعِ الحديدِ الذي أخبرونا بأنَّهمْ سيصنعونَ مِنْه قنابلَ حتى نحاربَ بها اليهودَ الذينَ يقتلونَنا بقنابلِهم.

بعدَ أنْ هدأ بالُ أمّي ضحكَتْ مِن قلبِها هي وإخوتي مِن جهلي، ثمَّ احتضنَتْني بقوةٍ وهي تحمدُ ربَّها على سلامتي، كانتْ أمّي تبكي مِن خوفِها ورعبِها أنَّ النَّوَرَ خطفوني، عرفْتُ ذلكَ مِنها فيما بعدُ خلالَ جلساتِنا الاستثنائيةِ الخاصةِ، كُلَّما زرتُها بعدَ أنْ تغرَّبْنا

عن بعضِنا، قالتْ لي إنَّها فقدَتِ الأملَ في أنْ تَجِدَني بعدَ أنْ تركَتْ رضيعَها في سريرِهِ وخرجَتْ إلى البيارةِ تبحثُ عنِّي ولَمْ تجِدْني، كانتْ خائفةً مِن النَّوَرِ، كانَ مِن عادتِهِم أنْ يسرِقوا الأطفالَ في ذلكَ الوقتِ.

المشي أداة التنقل

في ذلكَ الزمنِ السعيدِ، كانَ الجميعُ في مدينتِنا وفي المدنِ والقرى الفلسطينيةِ يستخدمونَ الأقدامَ رجالاً ونساءً وأطفالاً للتنقُّلِ، لَمْ يكنْ هناكَ سياراتٌ في الحيِّ وكانَ عددُ سياراتِ المدينةِ محدودًا أيضًا، كانَ المشيُ هو أداةُ التنقُّلِ مَهما بعدَتِ المسافاتُ، كانَ بعضُ الناسِ يتنقَّلونَ بينَ القُرى سيرًا على الأقدامِ، الأمنُ كانَ مُستَتِبًا وترحيبُ الناسِ ووفادتِهم لبعضِهم بعضًا أينما تلاقَوا كانَ مِن العاداتِ المُحبَّبةِ، والمتوارثةِ عبرَ الأجيالِ.

أصبحَ في يافا شركةُ باصاتِ "باميه" للنقلِ الداخليِّ في فلسطينَ والدولِ العربيةِ المجاورةِ، تقلَّصَ استعمالُ الحنطورِ بوصولِ الحافلاتِ والسياراتِ، وبدأتْ عادةُ المشيِ الصحيةِ في الزوالِ.

المواسم الشعبية

الشَّعْبونيَّة

نسبةً إلى شهرِ شعبانَ، وهي مِن العاداتِ التراثيةِ الجميلةِ التي تعكسُ المودةَ والحُبَّ والتقارُبَ العائليَّ الذي كانَ قبلَ شهرِ رمضانَ، والحياةَ الاجتماعيةَ الودودةَ معَ الأهلِ والجيرانِ والناسِ والاهتمامِ بِما يُسمَّى بصلةِ الرَّحِمِ التي كانَتْ مُقدَّسةً بالنسبةِ لأبي وتعلَّمتُها مِنه ودَرَجْتُ عليها، وأصبحْتُ معروفةً بينَ العائلةِ بأنني أبحثُ مثلُ أبي عن كلِّ شُرْشٍ مِن عائلَتي، وكَمْ كانَ يُسعِدُني "لَمُّهُمْ على بعضٍ"، وإصلاحُ ما أفسدَه الدهرُ بينَ بعضِهم، انقرضَتْ هذهِ العادةُ الجميلةُ معَ الزمنِ، بما فيها عادةٌ جميلةٌ جدًا كُنَّا نفرحُ لها ونحنُ صغارًا.

كانَ أبي يستضيفُ أواخرَ شهرِ شعبانَ ولعدَّةِ أيامٍ نساءَ العائلةِ مَعَ أطفالِهنَّ احتفالاً بقُرْبِ استهلالِ شهرِ رمضانَ المباركِ. كانتِ النساءُ تتفنَّنُ في إحياءِ تلكَ الأيامِ الجميلةِ وأمسياتِها بالتهليلِ للشهرِ الكريمِ وإعدادِ الأكلاتِ والحلوياتِ الشهيَّةِ والتمتُّعِ بالغناءِ والعزفِ والرقصِ، كُنَّ يتمازحْنَ ويُنَكِّتْنَ على بعضِهِنَّ بعضًا، ويستمِعْنَ للعزفِ البديعِ على العودِ الذي اشتُهِرَتْ به سيِّداتُ نابلسَ، ويُطْلِقْنَ حناجرَهُنَّ بأغاني أفلامِ ذاكَ الزمنِ، لفنانينَ كبارٍ أمثالِ عبد الوهاب،

وفريد الأطرش وعبده الحامولي، وكارم محمود، والست العظيمة أم كلثوم وأسمهان الرائعة، وليلى مراد الحنونة.

أثناءَ النهارِ كُنَّ يتعاوَنَّ بالتنظيفِ والطبخِ والأكلِ حتى تمتلئَ بطونهُنَّ يتخلَّلُ ذلكَ نكاتٍ وقفشاتٍ وقهقهاتٍ عاليةٌ ومتبادلةٌ، وكانتْ أمِّي تتطلَّعُ لتلكَ الأيامِ بلهفةٍ رغمَ العبءِ الزائدِ عليها، كانَ تغييرًا جذريًا مِن نمطِ حياتِها وروتينِها، ولَمْ تكنْ تشعرُ بالتعبِ لأنهُنَّ كُنَّ يدًا بيدٍ.

كانتْ غرفةُ العائلةِ عبارةً عن صالونٍ واسعٍ وكبيرٍ تُحيطُه أربعُ غرفِ نومٍ، وصالونٍ للزوارِ الرسميينَ مغلقٍ دائمًا ببابٍ كبيرٍ مِن الزجاجِ، وفي الجهةِ المُتطرِّفةِ إلى الشمالِ كانَ هناكَ مطبخٌ كبيرٌ وتوابعُه وفوقَه سدَّةٌ كبيرةٌ لها شبابيكُ عريضةٌ وقصيرةٌ، ولها شِيشٌ خشبٌ بلونِ الزيتونِ، كُنَّا نصعدُ إليه على دَرَجٍ مِن الخشبِ القويِّ المدهونِ بنفسِ لونِ الشيشِ.

كانتْ أمِّي تستعملُه للتخزينِ، وكانتْ تعجنُ فيه، وتخمِّرُ عجينَها بعدَ أنْ تقطِّعَه قطعًا متساويةً تلفُّه بيديْها ليصبحَ دائرةً وتتركُه يرتاحُ قليلاً ثُمَّ تبدأُ في رَقِّه بمرقاقٍ إسطواني مِن الخشبِ ليخرجَ مِن بينِ يديْها أرغفةً متساويةَ الحجمِ والشكلِ، تضعُهم على شَرشَفٍ وتغطيهم بشرشفٍ آخرَ، خاطَتْهم أمِّي مِن القماشِ المنصوريِّ القطنيِّ ثُمَّ غطاءِ صوفٍ خفيفٍ خصيصًا لتخميرِ أرغفةِ الكماجِ، كانَ أخي الكبيرُ يأخذُهم إلى الفرنِ القريبِ مِن بيتِنا فجرَ كلِّ يومٍ، حيثُ يبدأُ الفرَّانُ في الخبْزِ عادةً.

كانتْ رائحةُ الخبزِ الطازجِ تملأُ خياشيمَنا، وتفتحُ شهيَّتَنا، نحنُ أطفالَ الشعبونيةِ، الذينَ تجمَّعوا معَ بعضِهم بعضًا وأصبحتْ لهم مشاريعُهم ومغامراتُهم الخاصةُ، تُسرِعُ إحدى الأمَّهاتِ بقَطْعِ الأرغفةِ الشهيةِ والساخنةِ والمنفوخةِ إلى نصفينِ، وتدهَنُهم بالزبدِ أو زيتِ الزيتونِ، ثُمَّ ترشُّ عليهم السكرَ، كُنَّا نتسابقُ عليهم ونأكلُهم بشهيَّةٍ غيرِ عاديةٍ سببها.

بعدَ العشاءِ الدَّسِمِ تبدأُ سهراتُ الفرفشةِ مِن رقصٍ وغناءٍ وعزفٍ على العودِ، كانتْ إحدى بناتِ عمَّتي صاحبةَ صوتٍ رخيمٍ وتتقنُ العزفَ على العودِ الذي كانَ يتناغمُ بِرِقَّةٍ مع حُلْوِ الصوتِ وترديدِ الجَمْعِ مِن حولِها، كانتْ تخرُجُ مِن بينِ أصابعِها نغماتُ ألحانٍ شجيَّةٍ، كما كانتْ تُدرِّبُنا معَ بقيةِ الصبايا على إخراجِ مسرحياتِ فرفشةٍ تُعْرَضُ في السهرةِ، وذلكَ بعدَ أنْ ينصُبوا مسرحًا في صدرِ الصالونِ.

كانَ أبي الرجلَ الوحيدَ بينَنا، هلْ كانَ يرى نفسَه هارونَ الرشيدَ الفلسطينيَّ الذي يميلُ بطبعِه للنساءِ مِن أقاربِه ويسعدُه إدخالُ البهجةِ إلى نفوسِهنَّ؟ وتحضنُه بناتُ العمِّ بودِّهنَّ ويتجمَّعْنَ مِن حولِه، يدلِّلْنَه ويمدحْنَه بأغانيهنَّ المعروفةِ في تلكَ المناسبةِ لرعايتِه لنساءِ العائلةِ وتمسُّكِه بتقاليدِها الجميلةِ التي تجمعُهنَّ وتقرِّبُهنَّ مِن بعضِهنَّ بعضًا.

كانَ أبي يطربُ لهنَّ ويمازحُهنَّ خاصةً السميناتِ منهنَّ، ثُمَّ يقومُ بحلقةٍ مِن حلقاتِه الرياضيةِ التي كانَ يحثُّهنَّ عليها كلَّ صباحٍ بالسيرِ السريعِ في طوابيرَ في الصالونِ الكبيرِ الذي أُزيحَ عفشُه، كنَّ

يقلدْنَ حركاتِه الرياضيةَ، كالقفزِ في أماكنِهنَّ وذلكَ بعدَ أنْ كوَّنَ دائرةً كبيرةً مِنهنَّ ووقفَ بوسطِهنَّ.

وفي الصباحِ، يبدأُ مَعَهنَّ عمليةَ الشهيقِ والزفيرِ بعدَ أنْ يفتحْنَ كلَّ شبابيكِ البيتِ مِن جوانبِه الأربعِ، حتى يدخلَ الأوكسجينُ الذي امتصَّه هذا العددُ الكبيرُ مِن النائمينَ والنائماتِ وخلالَ ليالي الشعبانية.

وفي وقتٍ متأخرٍ مِن الليلِ، كانَ يتسلَّلُ النعاسُ إلى العيونِ، وتُفْرَشُ الفُرُشُ والمَخدَّاتُ والشراشفُ والأغطيةُ على أرضِ الصالونِ، طبعًا بعدَ القيامِ بتنظيفِه بهمَّةٍ عاليةٍ فيصبحَ مكانًا لنومِ هذا العددِ الكبيرِ مِن النساءِ مَعَ أولادِهنَّ.

إخوتي وأنا

كُنَّا نستضيفُ بعضَ الأطفالِ للنومِ مَعَنا على أَسِرَّتِنا، كانتْ -ويا للعجبِ- تستوعبُ أربعةً مِنَّا نومًا بعَرْضِ السريرِ، وكأنَّ المرحَ والفرحَ الذي يجمعُنا كلَّ ليلةٍ في غرفةِ العائلةِ يجعلُ أَسِرَّتَنا رحبةً تتسعُ لأطفالِ ضيوفِ الشعبانية، أيامٌ لا تُنسى مِن الفرحِ والمرحِ، تتمتَّعُ بها نساءُ العائلةِ استعدادًا لشهرِ رمضانَ الذي يحلُّ بعدَ شعبانَ، لهذا أُطلِقَ عليها الشعبانيةُ؛ لأنَّ النساءَ يتشعَّبْنَ عندَ أحدِ تجارِ العائلةِ ميسوري الحالِ، ويدعون له ولعائلتِه بالصحةِ، وبمزيدٍ مِن الرزقِ حتى تستمرَّ عادةُ الشعبانيةِ والاهتمامِ برَحِمِه مِن نساءِ العائلةِ.

الذكرياتُ تشقُّ طريقَها إلى ذاكرتي بقوةٍ، تفتحُ الطريقَ أمامَ نورٍ ساطعٍ، يبحثُ عن خَلاصِه مِن جُحْرِه، تجمَعُها في باقةٍ بيديْها، وفجأةً تعبثُ بها ريحٌ قويةٌ، تبعثرُها، وتتبعثرُ روحي وراءَها مُحاوِلَةً مِنها لملمةَ فُتاتِ ما تطايرَ مِنها، كنتُ أحيانًا أتعبُ مِن ملاحقتِها.

لهذا لا أستطيعُ أنْ أرصدَ تاريخَها المُحدَّدَ، ولكنَّني أذكرُ مكانَها جيدًا، وخلالَ كتابةِ روايتي هذهِ أصبحْتُ قادرةً -مع التدريبِ- على أنْ أهزَّ روحي التي تتغلغلُ إلى فسيفساتِ عَقلِيَ الباطِنِ وتلتقطُ مِبضعَ الذاكرةِ فيه تشقُّه بحنانٍ، ويخرجُ مِنه نورُ أفكاري، أُمسكُها بقوةٍ بقبضتيَّ الاثنتيْنِ، وأرويها على صفحاتِ حاسوبي كلَّما هزَّ ذاكرتي قبسٌ مِنها.

ليالي رمضان

أذكرُ ليالي رمضانَ وكيفَ كانَ إخوتي ينامونَ على الشرفةِ بعضَ الأحيانِ، في انتظارِ المسحَّراتي الذي كانَ يحملُ طَبْلَتَه، ويطرقُ عليها بيديْه القويتيْنِ ويصيحُ بأعلى صوتِه: وحِّدوا اللهَ، الطبلةُ: تم تتم تم تم. الطبلة: تم تتم تم تم، المسحراتي: اصحى يا نايم وحّد الدايم، الطبلة: تم تتم تم تم، المسحراتي: قوم يا نايم.. قوم وتسحّر، وحِّدوا الله، ويستمرُّ في طَرْقِه على الطبلةِ وتسبيحِه، ومناداتِه، وطرقِه على أبوابِ البيوتِ التي لا يرى مِنها ضوءًا، ولا يبتعدُ عنها حتى يرى بصيصًا مِن النورِ.

كانَ المسحَّراتي حريصًا على إيقاظِ أهلِ الحيّ بكاملِه، بصوتِه الحادِّ، ودقاتِ طبلتِه القويةِ والرتيبةِ، ونورِ كشّافِه الساطعِ المحمولِ بيدِه الأخرى يسلّطُه على النوافذِ الزجاجيةِ لتقتحمَ الظلامَ وتقشعَ عيونَ النيامِ مِن وراءِ الستارِ.

أذكرُ أنّنا قرَّرْنا أنْ نرى هذا المسحَّراتي الذي يوقظُنا مِن دفءِ أحلامِنا، فَرَشَ أخي فرشةً بحجمِ الشرفةِ، وغطَسْنا قربَ بعضِنا بعضًا نترقّبُ قدومَ المسحَّراتي.

تَعبَتْ عيوني مِن تركيزِها مِن علوٍّ على مدخلِ الحارةِ، حتى أرى المسحَّراتي لأولِ مرةٍ، وذلكَ بعدَ أنْ وافقَ إخوتي أنْ يعطوني مكانًا بينهم، أرخيْتُ رأسي على قضبانِ سورِ شرفتِنا، سهوْتُ وغفوْتُ، وفجأةً اقتحمَ بؤبؤَ عيني ضوءٌ شديدٌ، ثُمَّ صوتٌ عالٍ أرعبَني، فالتصقْتُ بأخي الأقربِ، لفَّني بذراعيْه وأخذَ يُهدِّئُني بحنانِه.

وفي أواخرِ شهرِ رمضانَ المباركِ، كُنَّا نخرجُ بشكلٍ جماعيٍّ نطرقُ أبوابَ الجيرانِ، نهلِّلُ بالمديحِ أسماءَ أولادِهم، وكلٌّ مِنّا يحملُ كيسًا مِن القماشِ، خاطَتْه لنا أمّهاتُنا مُعلَّقًا في رقبتِنا أو محمولاً على أكتافِنا وتزدادُ فيه الحلوى كُلّما علا مديحُنا لأولادِ كلِّ بابٍ نطرقُه في الحيِّ.

وإذا لَمْ يفتحوا البابَ أو لَمْ يقدِّموا لنا الحلوى (التوفي والقضامة وقطعَ عرقِ السوسِ المطاطيةِ السوداءِ والملبَّساتِ بألوانِها وأشكالِها)، تنقلبُ أغاني المديحِ التراثيةِ إلى أغاني ذمٍّ وقذعٍ، وهذا نادرًا ما يحصلُ لأنَّ أهلَ الحيِّ كانوا كتلةً مُتحابةً ومتلاحمةً، يعشقونَ حبَّ الحياةِ ويُمارسون طقوسَها في ذلكَ الزمنِ الجميلِ، يركِّزونَ على القِيمِ

الحميدةِ، والعاداتِ التراثيةِ الحميمةِ لتهليلاتِ رمضانَ الثريَّةِ الجميلةِ، وكانَ يسعدُنا المديحُ:

فلان راكب على فرسه.. بيقولها قومي

يا مَخرَمِة مِن ذهب.. والشاب غَندوري

يا ريتني دودة.. على الحيط ممدودة

عروستك يا فلان.. مغنْدَرَة ومَصمودِة"

أمَّا للبناتِ فكُنَّا ننشدُ:

فلانة قاعدة على ماكينتها.. عَمْ بتخيِّط بَدْلِتها... و... و...

في ليالي رمضانَ، تمتَّعْتُ بالسيرِ مَعَ إخوتي وأبناءِ الجيرانِ في حَواري نابلسَ وأزقَّتِها الضيِّقةِ والمُبَلَّطَةِ بحَجَرٍ ذابَتْ طبقتُه الخشنةُ مِن كثرةِ المرورِ عليها فزادَتْ مِن لمعانِها، وأصبحَتْ أجملَ مِن الرخامِ القاسي، بلاطُ حَواري نابلسَ كانَ أملسَ بعدَ أنْ حُفَّتْ حوافُّ بلاطِه وهذا جعلَها أكثرَ سهولةً للمشْيِ أو الجَرْيِ عليها، لأنَّ المادةَ التي تجمعُ بلاطَها الجميلَ ببعضِه كانتْ غاطِسةً قليلاً بينَ البلاطِ وهذا كانَ يحمينا مِن الزَّحلقةِ.

كانَ البلاطُ يُقطَعُ يدويًا، قطعًا غيرَ متساويةٍ، لكنَّهم تفنَّنوا في صَفِّهِ، فشكَّلَ تراثًا معماريًا متألقًا، تتوارثُه الأجيالُ ويتمتَّعُ به الباحثونَ عن التراثِ القديمِ، كنتُ أسيرُ معَ إخوتي في الأزقَّةِ في ليالي رمضانَ، خاصةً في الأيامِ الأخيرةِ مِنه، أذكرُ أنَّ أخي الكبيرَ كانَ يُبدِعُ في رسمِ أقواسٍ على بطيخة صغيرة على شكلِ قنديلٍ رمضانيٍّ ثمَّ يفرِّغُها مِن البطيخِ الأحمرِ.

ويضعُ أخي شمعةً غليظةً في قمعٍ معدنيٍّ في قعرِ البطيخةِ، ويضيءُ الشمعةَ، كانتِ البطيخةُ أجملَ قنديلٍ رمضانيٍّ شاهدْتُه في حياتي، لونُه الأخضرُ مع طرطشاتٍ مِن الأحمرِ الذي أضاءَها نورُ الشمعةِ، ورسوماتٌ على الأخضرِ لآياتٍ مِن القرآنِ الكريمِ وعبارةُ: رمضان كريم.

يمسكُ أخي بيدِي كي لا أضيعَ مِنهم – حسبَ توصيةِ أمّي – ومعَنا بقيةُ إخوتي، وبعضُ أولادِ الجيرانِ، يبدأُ أخي بهزِّ القنديلِ، ونغني سويًا وهو يرددُ تهاليلَ أواخرِ رمضانَ:

نزلت على السوق نازل

لقيت لي تفاحة.. حمرا حمرا لفّاحة

حلفت ما باكلها.. ليجي خيي وبَيي

إجا خيي وبيي.. طلعني عالعلية

لقيت شاب نايم.. غازيته غازيته

وشربت من زيته.. زيته تمر حنة

معلق باب الجنة.. يا جنة ما أحلاك

ربي السما هناكِ، هناكِ بمحمد.

خروف العيد

قبلَ العيدِ الكبيرِ بأيامٍ، كانَ أبي يحضّرُ لنا خروفَ العيدِ، يربطُه بأولِ شجرةٍ في حديقةِ الدارِ، حتى يصيحَ الديكُ في حديقتِنا معلنًا يومًا جديدًا، وتبدأُ تسابيحُ المآذنِ تُباركُ بحلولِ العيدِ الكبيرِ،

شـاهدْتُ يومًـا أحـدَ مجـازرِ أضـحيةِ العيـدِ فـي حديقـةِ بيتِنـا؛ أخـذَ اللحامُ/الجزارُ يجلخُ سكينتَه الضخمةَ على مجلخٍ (مَسَنٍّ) السكاكينِ المُعلَّقِ على جذعِ شجرةِ اللوزِ السامقةِ، علَّقَ طرفَها الآخرَ في رقبتِه، وأخذَ يشحذُ سكينَه فوقَ.. تحتَ.. يمينَ.. شمالَ، عدةَ مراتٍ، حتى تأكَّدَ مِن لمعانِ حافَّةِ سكينِه الحادةِ.

أمسكَ الخروفَ المسكينَ مِن رقبتِه، وبطحَه أرضًا ووضعَ رأسَه على حَجَرٍ كبيرٍ وجلسَ بثِقَلِهِ عليه، ثمَّ رفعَ رأسَه وصاحَ: اللهُ أكبرُ، وهوى بها على عنقِ الخروفِ ونَحَرَه، بقيَ جسدُ الخروفِ ينتفضُ بقوةٍ، وهزَّ كياني ألمُه الحادُّ، أدرْتُ وجهي وولَّيْتُ عيني بعيدًا عن المنظرِ، منظرِ الخروفِ وهو يتعذبُ وينتفضُ مِن حلاوةِ الروحِ حتى سكنَ جسدُه وهمدَ.

علَّقَ اللحامُ الخروفَ بحلقةٍ مِن الحديدِ شبكَها برقبةِ الخروفِ، ثمَّ غرزَ سكِّينَه في قدمِ الخروفِ، وفتحَ فتحتيْنِ، وبدأَ في النفخِ حتى فصلَ جلدَ الخروفِ عن جسمِه، ثمَّ بدأَ في سلْخِه ويداه ملوَّثتانِ بدمِ الخروفِ الضحيةِ.

هربْتُ إلى البيتِ أبكي لأمِّي قائلةً:

- تعالي انظري ماذا فعلوا بالخروفِ؟

لَمْ أتناولْ لحمًا ذاكَ العيدَ وكلَّ عيدٍ ذبحوا فيه الخروفَ في حديقةِ البيتِ، كلَّما أتذكَّرُ خروفَ العيدِ الآنَ وما فعلوه به، أتذكَّرُ قولاً مأثورًا للسيدةِ أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ، عندَما جاءَها ولدُها عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ، الذي كانَ يحاربُ جيشَ الأمويينَ بقيادةِ الحجاجِ قائلاً لها:

- أخافُ يا أمَّاه أنْ يمثِّلوا بي بعدَ قتْلِي؟
- وهلْ يضرُّ الشاةَ سلخُها بعدَ ذبحِها يا ولدي؟

أغوصُ معَ وهجِ الذاكرةِ لأستعيدَ الفرحَ الغامرَ الذي كانَ يغمرُني عندَ اقترابِ العيديْنِ الصغيرِ والكبيرِ اللذين كنَّا ننتظرُهما بوَلَهٍ شديدٍ لممارسةِ طقوسِ هذهِ الأعيادِ الجميلةِ والمميزةِ أيامَ زمانٍ، أذكرُ بوضوحٍ الملابسَ الجديدةَ وتوابعَها مِن ملابسَ داخليةٍ وحذاءٍ وشَرابٍ، وشرائطَ لامعةٍ تُزيِّنُ بها أمِّي جدائلَ شَعري، كلُّه جديدٌ في جديدٍ، هذا كانَ أهمَّ طقوسِ العيديْنِ الصغيرِ والكبيرِ.

كنتُ أضعُ ملابسي الجديدةَ التي اخترتُها بنفسي على كرسيٍّ قربَ سريري المكتوبِ عليه اسمي بخطِّ الرقعةِ الكبيرِ، الذي شحنَه أبي مِن يافا كما شحنَ بقيةَ عفشِ البيتِ، كنتُ أنتظرُ بروزَ فجرِ صباحِ العيدِ لألبسَها والشوقُ يسبقُني إليها.

كانتْ أمِّي تحمِّمُني وتحمِّمُ إخوتي ليلةَ العيدِ، وفورَ أنْ أستيقظَ، وكنتُ دائمًا أُولاهُم لأنَّ نومي منذُ طفولتِي كانَ قليلاً، كنتُ أصبِّحُ على أمِّي أو أوقظُها بقُبُلاتي إذا كانتْ لا تزالُ نائمةً مِن سهرِ الليلةِ الماضيةِ لإعدادِ طعامِ العيدِ.

كنتُ أعيِّدُ عليها وأقبِّلُ يديْها ووجنتيْها، ثمَّ أذهبُ إلى الحَمَّامِ وأغسلُ وجهي وأمشطُ شَعري الطويلَ حتى تضفِّرَه لي أمِّي وتزيِّنَه بالشرائطِ الملوَّنةِ التي تُناسِبُ لونَ فستاني الجديدِ، ألبسُ ملابسي وحذائي الجديدَ، وأستعدُّ لاستقبالِ العيدِ، بانتظارِ بقيةِ أفرادِ العائلةِ.

وفورَ أنْ يصحوَ أبي، يستحمُّ ويستعدُّ لصلاةِ العيدِ ولكنَّه كانَ قبلَ أيِّ شيءٍ يُقبِّلُنا بعدَ أنْ نُقبِّلَ يدَه، يُقبِلُ علينا بابتسامةٍ عريضةٍ، يضمُّنا إلى صدرِه بقوةٍ، ويغمرُنا بحُبِّه، ويقرأُ علينا بركاتِه ودعائه ورضاه.

صلاة العيد

درجَتِ العادةُ أنْ يأخذَ أبي إخوتي لصلاةِ العيدِ في الجامعِ الكبيرِ، وفي أحدِ الأعيادِ فاجَأني أبي عندَما قدَّمَ لي بدلةً خاطَها لي خيَّاطُه مثلَ إخوتي تمامًا، نفسَ اللونِ الرماديِّ المقلَّمِ برماديٍّ أفتحَ مِنه، وطلبَ مِنّي أنْ أخلعَ فستانَ العيدِ، وألبسَ البدلةَ قائلاً:

- سآخذُكِ معَ إخوتِك لصلاةِ العيدِ يا السِّت زبيدة.

ما زلتُ أتذكَّرُ تلكَ اللحظةَ بوضوحٍ كأنَّها حصلَتْ للتوِّ؛ كانَ نسيمُ فجرِ ذاكَ اليومِ منعشًا، ومعطَّرًا برائحةِ الفلِّ والياسمينِ التي تحيطُ شجيراتِه الخضراءَ وزهورَه البيضاءَ بدارِنا الواسعةِ والجميلةِ بحديقتِها الكبيرةِ.

سِرْتُ ملتصقةً بأبي، سمعْتُ عنْ بُعْدٍ تهليلَ المُصلِّينَ يهزُّ منطقةَ الجامعِ الكبيرِ، بُهِرَتْ عيني بعددِ المُصلِّينَ فيه، وقفْتُ إلى جانبِ أبي، وعندَما كبَّرَ أبي كبَّرتُ وراءَه، وفورَ أنْ ركعَ ركعْتُ مثلَه، ثُمَّ سجدَ بكاملِ جسدِه مرتكِزًا على ركبتَيْه، سجدْتُ مثلَه، وإخوتي مِن ورائي يتهامسونَ ويضحكونَ على تقليدِي لأبي.

لَمْ أكنْ أعرفُ الصلاةَ بعدُ، لكنَّني شعرْتُ برجفةٍ تجتاحُ جسدِي وتهزُّني مِن أعماقي وأنا أسمعُ صوتَ ترنيمِ المصلينِ يرددُّون بصوتٍ واحدٍ وراءَ الإمامِ:

الله أكبر كبيرا، الحمد لله كثيرا...

الله أكبر بكرة وأصيلا...

الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. ولله الحمد...

كانوا يهلِّلُونَ للعيدِ قبلَ الصلاةِ، وكانَ جَمْعُ المصلِّينَ يردِّدُونَ وراءَه الدعواتِ، كانتْ كلُّها مركَّزةٌ حولَ العيدِ؛ عيدِ الفطرِ السعيدِ، يَدعونَ اللهَ سبحانَه أنْ يحمِلَ لهمْ هذا العيدُ بركاتِه، ويجلبَ لهمْ السعادةَ والأمنَ والرخاءَ والصِّحةَ، وأنْ يطهِّرَ بلادَهم مِن رجسِ الأعداءِ والطامعينَ الغرباءِ.

تعجَّبَ أبي مِن صَبري وإنصاتي، وأنَّني لَمْ أستعجِلْه بشدِّ قميصِه عندَما كانَ يأخذُني مَعَه إلى صَفقاتِه التجاريةِ عندَما يُطيلُ، على الرغمِ مِن أنَّني كنتُ أحلمُ بلبسِ فستانِ العيدِ، أبي اختارَ لي أفضلَ لبسٍ لدخولِ الجامعِ، حتى لا ألفتَ الانتباهَ، كنتُ البنتَ الوحيدةَ في الجامعِ ولكنَّ الزيَّ غطَّى على طفولَتي الغضةِ، ولَمْ تُثِرْ حنقَ أحدِ المُصلِّينَ.

كَما دُهِشْتُ مِن نفسي التي كانتْ تتلهَّفُ وهي في طريقِها إلى الجامعِ بالعودةِ إلى البيتِ ولبسِ فستانِ العيدِ واللهوِ معَ ابنةِ الجيرانِ وإخوتي، والذهابِ إلى الأراجيحِ خاصةً "الدوّارة" التي كانتِ الأحبَّ إلى قلبي.

كنتُ أحبُّ لعبةَ "الدوّارة"، وهي عبارةٌ عنْ صناديقَ خشبيةٍ ملوَّنةٍ بألوانِ العيدِ وبهجتِه، ومعلَّقةٍ إلى عمودٍ عالٍ في الوسطِ، يحملُ كلَّ الصناديقِ التي لا أذكرُ عددَها، كنتُ أتجلَّى بهجةً وسعادةً وشَعري يطيرُ وفستاني يطيرُ مِن بينِ فتحاتِ الصناديقِ المُعلَّقةِ التي كانتْ تدورُ بي دورةً واسعةً.

أشاهدُ مِن علوٍّ السماءَ والجبلَ وأرضَ ساحةِ العيدِ، والأطفالُ يَبدونَ أصغرَ حجمًا، وهمْ مُصطفُّونَ وراءَ بعضِهم حتى يحينَ دورُهم، وعندَما يصلُ صندوقي إلى قمَّةِ الدائرةِ يتوقَّفُ لفترةٍ قصيرةٍ حتى يتمكَّنَ راكبُه مِن مشاهدةِ المدينةِ بشكلٍ أفضلَ.

كنتُ أشعرُ أني في السماءِ حرةً طليقةً، رغمَ كلِّ ذلكَ الشوقِ العارمِ إلى اللهوِ بأرجوحةِ العيدِ، فإنَّني ولِدَهْشَتي لَمْ أستعجلْ أبي، وبقيتُ خاشعةً صامتةً بجانبِه حتى أنهى أدعيتَه وابتهالاتِه وصلواتِه الأخرى.

كانتْ كلماتُه الهامسةُ والقريبةُ مِن أذني تُطرِبُني، ألتصقُ بأبي أكثرَ وأكثرَ وأنا أتملَّى وجهَه السمحَ الخاشعَ، وتتساقطُ مِن عينيْه دموعٌ تسيلُ على وجهِه، أمسحُها بكفِّي الصغيرِ، يقبِّلُه وأنا أوشوشُه سائلةً:

- لماذا تبكي يا بابا؟

يحضُنُني بدفءِ كلماتِه عندَما أجابَ قائلاً:

- لأنني كنتُ معَ اللهِ.

العيدية وصلة الرحم

بعدَ صلاةِ العيدِ نَلْتَمُّ جميعًا حولَ سُفْرَةٍ حافلةٍ بفطورٍ شهيٍّ ودسمٍ، ثمَّ يُعَيِّدُنا أبي كلَّ واحدٍ حسبَ سنواتِ عمرِه، عن كلِّ سنةٍ مِن عمرِنا جنيهٌ، كانَ مُنصفًا بذلكَ ويرضِينا جميعًا، وكُنَّا نَصْرِفُها كما نشاءُ، وكانَ كلُّ واحدٍ فينا يتعجَّلُ أنْ يكبرَ بسرعةٍ، كانَ أبي يقولُ لَنا:

- كُلَّما أكلْتُم أكثرَ كبرْتُم أسرعَ.

وكنتُ أردُّ عليه قائلةً:

- أنا آكلُ كثيرًا يا أبي، ولكنني ما زلتُ صغيرةً.

يجيبُني ضاحكًا:

- أنتِ لا تشربينَ الحليبَ، لذا لا تزالينَ صغيرةً.

كانَ مِن عادةِ أبي التي درجَ عليْها أنْ يَعْرُجَ بعدَ الصلاةِ، على بيوتِ السيداتِ مِن العائلةِ/رَحِمِهِ، عمَّتي وبناتِها وبناتِ عمِّه وكلِّ بناتِ عمومتِه، وكلِّ امرأةٍ مِن العائلةِ، خاصَّةً المتزوجةِ مِن رجلٍ غريبٍ عن العائلةِ، مَهما كانتْ صلةُ القرابةِ قريبةً أو بعيدةً، كنَّ كلهُنَّ بناتِ عمومتِه وكانَ يحرصُ على هذهِ اللفتةِ الكريمةِ مِنه يهنِّئُهنَّ بالعيدِ ويقدِّمُ لهنَّ عيدياتِهِنَّ بما تجودُ به نفسُه مِن الجنيهاتِ، كانَ واجبُ التواصلِ معَ رحمِه مِن نساءِ العائلةِ مُهِمًّا جدًا بالنسبةِ له حتى عندَما مرضِ، واشتدَّ عليه المرضُ.

ذهبْتُ معَه مرةً لزيارةِ ابنةِ أختِه المقيمةِ في منطقةٍ جديدةٍ في أعلى الجبلِ، لَمْ يستطعْ التاكسي الوصولَ إلى البيتِ لأنَّ المنطقةَ لَمْ تُمَدَّ الشوارعُ فيها بعدُ.

تركْنَا التاكسي وتأبطْتُ ذراعَ أبي وسِرْنا ببطءٍ، ولكنَّه بدأ يلهثُ بشدَّةٍ بعدَ عدَّةِ خطواتٍ، تركْتُه يرتاحُ على صخرةٍ، وركضْتُ باتجاهِ بيتِ ابنةِ عمَّتي أطلبُ مساعدَتَهم، فجاءَتْ معَ زوجِها وأسندُوا أبي حتى وصلْنا بيتَهم الصغيرَ.

بعدَ أنِ ارتاحَ وشربَ بعضَ الماءِ، وعصيرَ الليمونادةِ الطازجةِ الذي أعدَّتْه لهُ على عَجَلٍ ابنةُ عمَّتي، حتى يستردَّ خالُها عافيتَه كما قالتْ، أخذَ أبي ينكِّتُ معَهم كعادتِه، ويسألُ عنْ أولادِها وهلْ هُمْ مجتهدونَ في الدراسةِ؟

بعدَ أنْ شربْنا القهوةَ مع معمولِ العيدِ، وقامَ أبي بواجبِ التعييدِ لها ولأطفالِها، استأذنَ أبي، وخرجَ زوجُ ابنةِ عمَّتي ليُحضِرَ لَنا سيارةَ أجرةٍ مِن الشارعِ العامِّ، وساعدُوا أبي حتى وصلْنا إليها وأجلسُوه في المقعدِ الأماميِّ فارِدًا رجليْه أمامَه، ثمَّ ودَّعْنَاهُم، وبدأَتْ تهبطُ بنا سيارةُ الأجرةِ ببطءٍ الطريقَ الوعرَ حتى وصلْنا إلى الشارعِ العامِّ، استدارَ أبي قائلاً:

- أشعرُ براحةٍ عميقةٍ لأنني أدَّيْتُ واجِبي نحوَ رحِمِي مِن نساءِ العائلةِ، ولا أدري إذا كنتُ سأراها مرةً أخرى أمْ لا؟

وفعلاً لَمْ يرَها فقدْ توفَّاها اللهُ.

جواعد الصوف

بعدَ أنْ يَسلخِ اللحامُ الجَاعِدَ/الفروةَ عنْ جسدِ الخروفِ، يغسلُه جيدًا برشَّاشِ صنبورِ ماءِ الحديقةِ القويِّ ليزيلَ عنه بقايا دماءٍ عالقةٍ، بعدَ ذلكَ تأخذُه أمِّي وتفرِدُه على مكانٍ نظيفٍ في ساحةِ الدارِ

الخلفيَّةِ، وترشُّه بالكثيرِ مِن الملحِ الخشنِ، وتتركُه تحتَ أشعةِ الشمسِ الساطعةِ حتى يجفَّ تمامًا، ثمَّ تغسلُه جيدًا بالماءِ والصابونِ عدَّةَ مراتٍ حتى يصبحَ لامعًا ويُشعَّ بنقاءِ صوفِه المائلِ إلى اللونِ الأصفرِ، ورائحةُ صابونِ زيتِ الزيتونِ العطرةِ تفوحُ مِن صوفِه النظيفِ، الذي عندَما يُفرَدُ يأخذُ شكلَ الخروفِ مُنبطحًا بيديْه وقدميْه على الأرضِ.

وفي كلِّ عيدِ أضحى، كانتْ أمِّي تصنعُ مِن كلِّ أضحيةٍ جاعدًا، ازدادَ عددُ جواعِدِنا، تصفُّهم أمِّي في الشتاءِ حولَ جَمْرِ الكانونِ الذي يزدادُ دفئُه بدفءِ جواعدِ أمِّي، وتوزِّعُ الباقي بينَ أسِرَّتِنا، كُنَّا نجلسُ عليها بانتظارِ هَلَّةِ أبي، وكنتُ أتلذَّذُ بتمشيطِ وتمسيدِ شَعرِ الخروفِ المُجعَّدِ بأصابعي الرفيعةِ، فينتقلُ الدفءُ إلى أصابعي وكَفَّيَّ المتورِّميْنِ مِن البردِ، كانتْ أمِّي تدهنُهم بزيتِ الزيتونِ بعدَ كلِّ حَمَّامٍ، وقبلَ أنْ أنامَ تدهَنُهم ثانيةً وتلفُّهم بفوطةٍ قطنيةٍ حتى يزولَ الأَشَبُ[1] والجفافُ مِنهم.

أخذْتُ أحضنُ ذيلَ الجاعدِ الذي أجلسُ عليه، أقرِّبُه مِن وجهي، أتحسَّسُ دِفئَه، حتى تحينَ هَلَّةُ أبي عَلَيْنا، كُنَّا ننتظرُه بشوقٍ وهدوءٍ، ونختلي بأبي ويصبحُ لي معَ إخوتي وتستغرقُني حكاياتُه، وتأخذُني بعيدًا صورُ تلكَ الحكاياتِ التي يسجِّلُها دماغي بالصورةِ والصوتِ،

---

(1) وهو القشب أي جفاف اليدين وتقشرهما، وهي كلمة فصيحة أصلها: قشب السيف إذا علاه الصدأ، ثم تطورت الدلالة لتعني الجلد الجاف إذا غطى اليدين.

بعدَ ذلكَ أكتبُ لكُمْ الحكايةَ مِن جديدٍ، تصلُكم مقروءةً مِن نبضِ حياتي وتجربَتِي وآهاتِي التي أقضيها معَ حاسوبي، ساعاتٌ طِوالٌ بالليلِ والنهارِ، أدعوه أنْ يكونَ رفيقًا بي وبما أكتبُ.

النبي روبين

هو مَصيفٌ يقعُ على الضفةِ الجنوبيةِ لنهرِ روبينَ، الذي يُسمَّى أيضًا وادي الصرصارِ، والذي لا يبعدُ عن شاطئِ البحرِ سوى ثلاثةِ كيلومتراتٍ، وهو عبارةٌ عن كثبانٍ رمليةٍ مساحتُها حوالي 31 ألفَ دونمٍ، وفيها مقامُ النبيِّ روبينَ ابنِ سيدِنا يعقوبَ عليْهما السلامُ.

لا أذكرُ الكثيرَ مِن معالمَ ومواسمَ مدينةِ يافا الكثيرةِ إلاَّ أنَّ لمعانَ ونبضَ حُبِ أُمي لهذهِ المُناسَباتِ وحديثِها عنها كُلَّما سنحتْ لها الفرصةُ، أحداثٌ عالقةٌ في الروحِ، وبدأَتْ تلمعُ في الجزءِ المُتعلِّقِ بالذاكرةِ في مُخِّي الذي فاضَ به الوجدانُ، وأخذَ يُشِعُّ في روحي نبضاتٍ خفيةٍ يُغدقُها عليَّ بكرمٍ.

ما زالتْ لمعاتُ وومضاتُ الروحِ لبعضِ الأماكنِ والأحداثِ، تتدفَّقُ في حواسِّي كنبعِ الماءِ يشقُّ طريقًا له بينَ صخورِ الزمنِ والأمكنةِ، كانتْ الطريقُ إلى روبينَ وعرةً خاصةً عندَما تقطعُ عرباتِ الحناطيرِ/الكروساتِ، نهرًا صغيرًا فتتلوَّى عجلاتُها وتصدرُ صوتًا مزعجًا كُلَّما ثقلتْ الأمتعةُ التي تقودُها الأحصنةُ أو الحميرُ، وفي كلِّ حركةٍ كنتُ أشعرُ بألمٍ ما في جسدِي إذا كنَّا نركبُ الحنطورَ، ولَمْ

نجدْ مكانًا في باصاتِ باميه الشهيرةِ التي كانتْ تنقلُ الركابَ في ساعاتٍ محدَّدةٍ ذهابًا وإيابًا.

تضيفُ أمّي إنَّ أجملَ ما في الطريقِ هو الصفُّ الطويلُ مِن الحناطيرِ لنقلِ البشرِ وعرباتِ الكارّو لنقلِ ما يحضرُه المُصطافونَ مِن بيوتِهم مِن أوانٍ منزليةٍ وفراشٍ، لَمْ يكنْ هناكَ بيوتٌ أو فنادقُ، كانَ الناسُ يجلبونَ مَعَهم البُسُطَ والخِيَمَ، يغرِزونَها في الرملِ جنبًا إلى جنبٍ.

كانَ موسمُ "النبيِّ روبينَ"، ملتقى العائلاتِ والأصدقاءِ والجيرانِ، وكانَ فرصةً للقاءِ رجالِ الأعمالِ، والترفيهِ عن أنفسِهم، وأغلبُ الظنِّ، لتسويقِ وترويجِ بضائعِهم أيضًا؛ فقدْ كانَ الرجالُ يذهبونَ إلى متاجرِهم أو وظائفِهم في الصباحِ، ويعودونَ بعدَ الظهرِ للتمتُّعِ معَ عائلاتِهم بمصيفِ روبينَ الساحرِ وأنشطتِه الكثيرةِ.

عندَما سألْتُ أمّي المزيدَ مِن تفاصيلِ موسمِ النبيِّ روبينَ الذي يقدّسُه أهلُ يافا، ضحكتْ قائلةً:

- كانتِ المرأةُ اليافاويةُ تحبُّ الفسحةَ والتنزُّهَ، وتغارُ مِن جاراتِها إذا سمعتْ بأنهنَّ سيذهبْنَ معَ عوائلِهنَّ لقضاءِ إجازةٍ في موسمِ النبيِّ روبينَ، وتبدأُ بالغليانِ والزنِّ على زوجِها حتى يستجيبَ لها، وهنا خرجتْ مقولةُ الزوجةِ اليافاويةِ الشهيرةِ لزوجِها مهدِّدةً إيَّاه: "يا بتروِّبِني يا بتطلِّقني"، وذلكَ بعدَ أنْ فاضَ بها الكيلُ وأكلَتِ الغيرةُ قلبَها، هذهِ المقولةُ الشهيرةُ التي عمَّتْ ربوعَ فلسطينَ،

وزادَتْ مِن شهرةِ هذا الموسمِ الذي أصبحَ يؤمُّه كلُّ من استطاعَ إليه سبيلاً. كانَ مِن الشطحاتِ المكلفةِ لربِّ الأسرةِ، خاصةً أنَّ الإقامةَ فيه تمتدُّ شهرًا كاملاً.

زوَّدَتْني أمِّي بالمزيدِ عن موسمِ النبيِّ روبينَ، قائلةً:

- لَمْ نكنْ نشبعُ مِن ربيعِ روبينَ الساحرِ بهوائِه النقيِّ وجمالِ طبيعتِه البِكْرِ الساحرةِ، وكانتْ تُقامُ فوقَ الكثبانِ الرمليةِ ملاهٍ وألعابُ الأطفالِ والمراجيحُ، والحكواتي كلَّ يومِ جمعةٍ، وكذلكَ مطاعمُ المُقبِّلاتِ اليافاويةِ الشهيرةِ مثلِ الفلافلِ والفولِ والحمصِ والمعجناتِ والسلطاتِ، و...، كانتْ تُنصبُ فيهِ الخِيامُ والمُعرَّشاتُ (العِشَشُ) المصنوعةُ مِن سعفِ النخيلِ والبوصِ الذي كانَ ينبتُ في الوديانِ بكثرةٍ.

كانتْ وزارةُ الأوقافِ في مدينةِ يافا تقومُ بتأمينِ الماءِ مِن خلالِ السقَّائينَ يبيعونَه للزائرينَ، كانتْ تُقامُ سباقاتُ الخيلِ وحلقاتُ المصارعةِ؛ حيثُ كانَ يتقدَّمُ أحدُ المصارعينَ مِن إحدى القرى متحديًا مصارعًا مِن قريةٍ أخرى، ويُراهِنُ الحاضرونَ على الفائزِ.

كانتْ تُقامُ فيه أيضًا نشاطاتٌ أدبيةٌ وفنيةٌ ويَحضرُ الموسمَ أحيانًا شخصياتٌ سياسيةٌ وفنيةٌ وإعلاميةٌ، كما كانَ فرصةً للزفافِ والطُّهورِ وحلاقةِ شَعرِ الأولادِ لأولِ مرةٍ، وكانَ الباعةُ يقومونَ ببيعِ حلاوةٍ بيضاءَ صلبةٍ لكنَّها ذاتُ طعمٍ خاصٍّ وطيبةٌ تُعَدُّ خصيصًا لهذا الموسمِ الهامِّ.

كانَ موسمُ النبيِّ روبينَ مِن أعظمِ المواسمِ الشعبيةِ الفلسطينيةِ والأكثرِ حشدًا، وزوَّارُه كانوا أكثرَ مِن زوَّارِ النبيِّ موسى في الطريقِ

بينَ القدسِ وأريحا؛ إذْ يصلُ عددُ زوّارِ النبيِّ روبينَ إلى ثلاثينَ ألفِ نسمةٍ، ولكنَّ هذا الكرنفالَ السنويَّ أقلقَ الإنجليزَ، فمنعُوه وفرَضُوا حظرًا على مثلِ هذهِ التجمُّعاتِ، خوفاً مِن أنْ تتحوَّلَ إلى نشاطاتِ مقاومةٍ للانتدابِ.

وكانَ له صدًى شعبيٌّ كبيرٌ لأنَّه كانَ مكانًا يتمتَّعُ فيه الناسُ بكلِّ ما يَجري في ذلكَ الموسمِ مِن ألعابٍ ومهرجاناتٍ وأضواءٍ وصفقاتِ تُجَّارٍ، وحلقاتِ مصارعةٍ، وشعرٍ وقصٍّ، وصندوقِ العجبِ الذي كانَ يتهافتُ عليه الأطفالُ والكبارُ!

نهر اليركون

مِن مظاهرِ الحياةِ اليافاويَّةِ حُبُّهم للحياةِ الاجتماعيَّةِ، والرحلاتِ الجماعيَّةِ إلى مُنتَزَه نهرِ اليركون/جريشَه، وشتَّى المناطقِ السياحيَّةِ في فلسطينَ.

كانوا يتناقلونَ المرحَ والفرحَ وغناءَ الموشَّحاتِ فيما بينَهم، باختصارٍ؛ كانَ تعايُشُهم السِّلميَّ وحُبُّهم لمدينتِهم والسلامُ النابعُ مِن قلوبِهم مثلاً يُحتذى بهِ، وكانَ حُبُّهم لأكلِ السمكِ المَشهورِ كاللُّقَّسِ، البَرْدَويلِ والسردينِ، الذي كانَ يتوفَّرُ بكثرةٍ، وكانتِ المرأةُ اليافاويَّةُ تتفنَّنُ بطبخِه صوانيَ في الفرنِ معَ الطحينةِ والثومِ والليمونِ، وتَعْجِنُ ما تبقَّى مِنه بالبطاطا المسلوقةِ لتصنعَ مِنه كُبَّةَ السمكِ، وكانَ السردينُ متوفرًا بشكلٍ غنيٍّ، والناسُ تُقْبِلُ عليه بشهيَّةٍ، تأكلُه مقليًا أو تطحنُ الصغيرَ مِنه بعدَ تنظيفِه من شَوْكِهِ وتعملُ مِنه كُبَّةَ السردينِ أيضًا.

وكـانَ هنـاكَ أيضًـا طبـقُ السـمكةِ الكبيـرةِ الحـارَّةِ المَحشـوَّةِ بـالثومِ والفلفلِ الحارِّ وتُشوَى في فرنِ الحيِّ، كانوا يَقضـونَ يومًا كاملاً علـى شطِّ نهرِ يافا/العوجا، وهو شَطْحَةٌ مِن شطحاتِ أهلِ يافا الكثيرةِ، حيثُ كانوا يَمخُرونَ عبابَ النهرِ بمراكبَ كبيرةٍ اشتُهِرَ أهلُ يافا بصنعِها، كانوا يُغنّـونَ الأهـازيجَ الشـعبيةَ تُحيطُهم أشـجارُ الكينيـا وأشـجارُ الصـنوبرِ والبلوطِ الباسقةِ، وكانتِ الطيورُ البريَّةُ متوفِّرةً بكثرةٍ خاصـةً البطُّ الذي كانَ مصدرَ متعةٍ ورزقٍ لهواةِ صيدِ البطِّ بالبنادقِ/الخرطوشِ.

كانوا يتغنُّونَ بقلوبٍ عذبةٍ بجمالِ مدينتِهم ومزاياها وفخرِهم بها، وتَردَّدتْ الكثيرُ مِن النكتِ التي تناقلَها الناسُ عن اليافاويينَ بعدَ الهجرةِ، مِنها مثلاً أنَّ أهلَ حيِّ المنشيَّةِ في يافا كانوا يتفاخرونَ بأنَّهم "قَبضاياتُ" أهلِ المنشيَّةِ حمَّالين الشِّبْرِيِّةَ (الخنجرِ الصغيرِ)، فيردُّ عليهم الطرفُ الآخرُ مفاخرًا: "لاحنّي ولِحتُه ومِن شدَّة عزمي جيتْ تحته، وبخفة ورشاقة خزَقت له الزكيت/الجاكيت".

يقالُ أيضًا إنَّ اليافاويينَ مِن شدَّةِ شوقِهم وفَخارِهم بمدينتِهم كانوا يتباهونَ قائلينَ: "ساقَ اللهَ على هديك الأيام، كان إلنا بيارة على السابع" فيردُّ الآخرُ: "إحنا كان عندنا بِرْكِة وسط البحر".

وأصلُ كلمةِ نهرِ اليركونِ كنعانيٌّ وليسَ عبرانيًا كَما يقالُ، ويسمَّى أيضًا نهرَ الطواحينِ لكثرةِ الطواحينِ المنصوبةِ حولَه في الماضي، وله اسمٌ ثالثٌ؛ نهرُ جريشة، الذي كانَ يُعَدُّ متنزهًا لأهلِ مدينةِ يافا، لِمَا كانَ يُحيطُ به مِن المناظرِ الجميلةِ الخلاَّبةِ، وسُمِّيَ أيضًا بنهرِ العوجا نسبةً إلى تعرُّجاتِ النهرِ الكثيرةِ، أخيرًا أُطلِقَ عليه نهرُ يافا.

النكبة

لَمْ يبرحْ فؤادي وشعوري العميقُ بالبكاءِ على مأساتِنا، مأساةِ شعبٍ طُرِدَ مِن أرضِه بقرارٍ دوليٍّ ظالمٍ، قاسٍ، ومتحيزٍ مِمَّن صنعَ القرارَ، وحَاكَهُ وأجَّجَ أعضاءَه بالموافقةِ عليه، الصهيونيةُ العالميةُ رفضتْ كلَّ البدائلِ التي طُرِحَتْ عليها لتأسيسِ وطنٍ لهم، وأصرُّوا على فلسطينَ، قُدِّمَ قرارُ بلفور المشؤومِ إلى عصبةِ الأممِ آنذاكَ، وتمّتِ الموافقةُ عليه فورًا.

كيفَ قبلَتْ عصبةُ الأممِ ذلكَ دونَ دراسةِ هذا القرارِ الجائرِ، ودونَ التأكُّدِ مِن أنَّه يعيشُ على هذهِ الأرضِ المقدسةِ الطيبةِ شعبٌ يعيشُ على أرضِها منذُ آلافِ السنينَ؟! مؤامرةٌ كُبرى مرَّروها بخداعِهم المعروفِ منذُ مهْدِ التاريخِ، وعهدِ الرسولِ محمدٍ، مرَّروا قرارًا بأنْ يُقامَ وطنٌ قوميٌّ لليهودِ في فلسطينَ، (لاحِظوا هنا: القرارُ وطنٌ قوميٌّ لليهودِ، وليسَ الدولةَ اليهوديةَ التي يطالبونَ بها الآنَ بعدَ 65 عامًا مِن إقامةِ دولتِهم التي اغتصبوها مِن شعبٍ طيبٍ، استعملوا فيها كلَّ خُدَعِهم ومؤامراتِهم، وأعدُّوا لها ماديًّا وعسكريًّا).

هذا القرارُ الظالمُ تسبَّبَ في تشريدِ شعبٍ بكاملِه، لَمْ يبقَ مِنه إلاَّ مَن لَمْ يستطعِ الخروجَ لأسبابٍ عديدةٍ أهمُّها عدمُ توفرِ المالِ الكافي

للخروجِ، وهذا مِن حظِّهم لأنَّها وفَّرتْ عليهم معاناةَ الهجرةِ وآلامَ الغربةِ، هم عانوا مِن تنكيلِ المحتلِّ بهم، وممارستِه أبشعَ أنواعِ العنصريةِ عليهم، لكنهم بقوا مَرفوعي الرأسِ أشداءَ ولَمْ تتزحزحْ قناعتُهم بأنهم أصحابُ الأرضِ الأصليين، وأنَّ هؤلاءِ المُحتلّين هم الدخلاءُ والغرباءُ، وأنَّ لهم يومًا، وأنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى يُمهلُ ولا يُهملُ.

هناكَ الكثيرُ مِن القصصَ التي تستحقُّ الكتابةَ، عن هلعِ نزوحِ شعبٍ بكاملِه تقريبًا؛ عمّن نسي طعامَه على النارِ، أو بعضُ الأمهاتِ التي حملَتْ مخدَّةَ طفلِها، وتَرَكَتْ طفلها نائمًا في سريرِه، وبعضُهم عجزَ عن حَمْلِ عجائزِهم فتركوهم وولّوا هاربينَ.

أمَّا مَن هربَ عبرَ البحرَ فقاسى الأمَرَّيْنِ مِن غرقٍ مُحقَّقٍ كما سمعتُها مِن صديقةٍ لي، ومِنهم مَن سارَ على الأقدامِ لأيامٍ وليالٍ، تقرَّحتْ فيها أرجُلُهم ونزفتْ، وماتَ كِبارُهم في الطريقِ مِن العطشِ والتعبِ.

قصصٌ مأساويةٌ سمعتُها مِن الكثيرِ خاصةً مِن مخيماتِ الشتاتِ، بعدَ أنْ مارسْتُ العملَ الاجتماعيَّ والتطوعيَّ منذُ طفولتي، أعني هنا؛ منذُ حربِ الجزائرِ ومشاهدَتِي لفيلمِ "جميلة بوحيرد" الذي أثَّرَ بي تأثيرًا عميقًا فسجَّلْتُ نفسي متطوعةً لمعالجةِ الجرحى مِنهم وأنا ما زلتُ في المدرسةِ الابتدائيةِ، وبدأتُ فعلاً أتعلَّمُ فنَّ التمريضِ وضربَ/غزَّ الإبرِ، على يدِ مُدَرِّسَةِ العلومِ في المدرسةِ الابتدائيةِ.

لماذا تركْنا البحرَ والشمسَ والدفءَ وبياراتِ البرتقالِ والليمونِ

الذي يزيِّنُ الحياةَ بألوانٍ وروائحِ الطبيعةِ الخلاَّبةِ، مِن زهورِ الليمونِ والبرتقالِ وأشجارِ الياسمينِ والزنبقِ، وَتِمِّ السمكة، والقرنفل العنابي والأبيض والأصفر المُنَقَّطِ بألوانٍ تُشِعُّ مِن قلبِه، ألوانِ الفرحِ! لماذا؟ لماذا؟

وعد بلفور

أصبحَ وعدُ بلفورَ مِن أهمِّ المواضيعِ الساخنةِ التي تدورُ بينَ زملاءِ أبي التُّجارِ وهمْ يتناولونَ فطورَهم على عجلٍ، لَمْ يَعُدْ لمعجناتِ أبي العافيةِ، التي تشمُّ رائحتَها عن بُعْدٍ فتَشْتَهيها ولا لفولِ الكلحةِ الشهيرِ، طعمُهما اللذيذُ ومذاقُهما الشهيُّ؛ حلَّ الرعبُ محلَّ الحُبِّ في قلوبِ الناسِ ولَمْ يعودوا يُعِدُّونَ الوجباتِ الشهيةِ بالحُبِّ الذي كانَ، جلبَ هذا الوعدُ المشؤومُ غضبًا عارمًا، وخوفًا على الوطنِ، وأصبحَ الحديثُ فيه مصدرَ ألمٍ وأسًى لقلوبِ الرجالِ وانعكسَ على بيوتِهم، وأُسَرِهم وأطفالِهم، يتباحثونَ ويتناقشونَ كيفَ يُدافِعونَ عن وطنِهم، وأصابَهم الإحباطُ واليأسُ وهمْ يَرَوْنَ أنفسَهم عُزَّلاً إلاَّ مِن وعودِ الحكوماتِ العربيةِ التي لَمْ تفِ بها.

مأساة فلسطين

بعدَ أنْ وعيتُ حجمَ المأساةِ التي عاشَها الشعبُ الفلسطينيُّ تمنَّيْتُ لو بقيَ الفلسطينيونَ في مُدُنِهم وقُراهم، لَوْ بقُوا لَمَا استطاعَتْ إسرائيلُ أنْ تتوسَّع، لكنَّ الصهاينةَ أرادُوها أرضًا دون شعبٍ، وحققَوا

مـا أرادُوا بهجمـاتِ العصـاباتِ الصـهيونيةِ الشرسـةِ التـي اقتلعَـتِ الفلاَّحـينَ البُسـطاءَ مِـن قُراهُم بـالقوَّةِ بعـدَ أنْ رشَّـتْهم بمـدافعِ الهـاونِ لتَخـويفِهم وقتلِ كلِّ مَن يُحـاولُ الدفاعَ عن قُراهُم كقريـةِ الطنطوريـةِ وغيرِها (مِن القرى الفلسطينيةِ التي تمَّ حَشْرُ مَن بقيَ مِن أهلِها على قيدِ الحياةِ فـي الشاحناتِ)، كـانَ أهلُ القُرى يَنتحِبُونَ وهُمْ يشـاهدونَ أشلاءَ مَوْتاهُم، لَمْ يأخذوا معَهم شيئًا سِوى مفاتيحِ بيوتِهم.

منذُ أنْ وَعيتُ مأساةَ فلسطينَ، واكبْتُ انطلاقةَ ثورتِها، شاركْتُ فيهـا بكيـاني وروحـي وحُبِّـي لِـوطني، ولكـنَّ انحرافَهـا عـن مسـارِها الصـحيحِ أعادَنـا إلـى مرحلـةِ التقسيمِ التـي رُفِضَتْ سـابقًا مِن الحُكَّامِ العربِ والسياسـيينَ الفلسـطينيينَ الـذينَ أضـاعوا فلسـطينَ، وأصـبحوا الآنَ يِشْحَذونَ دولةً مَمسوخةً مِن خلالِ مفاوضـاتٍ بائسـةٍ أدَّتْ لسلبِ المزيدِ مِمَّا تبقَّى مِن الأرضِ الفلسطينيةِ.

سقوط يافا

اسـتدعَى مسـاعدُ الحـاكمِ البريطـانيِّ مجموعـةً مِـن الشـبابِ الفلسـطينيِّ المثقـفِ فـي يافـا، وقـالَ لَهُـم: الحـاكمُ البريطـانيُّ مسـتر "فوللر" تركَ منصبَه، والتحقَ بعملٍ جديدٍ بشركةِ نفطِ العراقِ بمدينةِ طرابلسَ بلبنانَ، وأنا الآنَ المسؤولُ عن مدينةِ يافا، ولكنَّ مسؤوليَّتي ستنتهي بعدَ عشرينَ يومًا فقطْ، أيْ عندَما ينتهي الانتدابُ البريطانيُّ، وتخرجُ بريطانيا نهائيًا مِن أرضِ فلسطينَ، لقد استدعَيْتُكم لكي أطلبَ مِنكم تشكيلَ مجلسٍ عربيٍّ محليٍّ لكي يتولَّى شؤونَ النـاسِ الذين بَقوا

في المدينةِ، ويتسلَّمَ مِنَّا الدفاترَ الرسميةَ والسجلاتِ ومفاتيحَ الجمركِ وتسجيلَ الأراضي.

أنا أنصحُكم بضرورةِ تشكيلِ المجلسِ المحليِّ بأسرعِ وقتٍ. معلوماتي أنَّ جيشَ الهاجانا سيدخلُ مدينةَ يافا في أيَّةِ لحظةٍ، وعليكم مسؤوليةُ مفاوضةِ الهاجانا قبلَ دخولِها لكي لا تقعَ جرائمُ أو أعمالُ نهبٍ أو انتقامٌ.

إنَّ عملَكم الآنَ ينحصرُ في إنقاذِ الأرواحِ بعدَ أنْ فشِلْتم في إنقاذِ مدينتِكم، كانَ ذلكَ قبلَ إعلانِ قيامِ دولةِ إسرائيلَ بأسابيعَ قليلةٍ.

منذُ أنْ قرأْتُ تلكَ المعلومةَ، أصبحَ لديَّ الكثيرُ مِن الأسئلةِ التي فرضَتْ نفسَها وبقوةٍ: لماذا حلَّ الانتدابُ البريطانيُّ نفسَه عن فلسطينَ بعدَ أنْ أمَّنَ هجراتِ اليهودِ إليها بكثافةٍ؟ لماذا قدَّمَ لهم مساعداتٍ هائلةً وأعطاهم الأراضي والسلاحَ، وسمحَ لهم بتكوينِ جيوشٍ مدرَّبةٍ على شكلِ عصاباتٍ مثلِ الهاجانا وشتيرن؟ لماذا حرَّمُوا على أهلِ فلسطينَ حملَ السلاحِ، أليسَ هذا تواطؤًا مع الصهاينةِ؟ هل مهمَّةُ الانتدابِ كانتْ فقطْ لتأمينِ وصولِ اليهودِ وتقويتِهم؟ وما معنى الشفقةِ التي أبداها مساعدُ الحاكمِ البريطانيِّ على مَن بقيَ مِن أهلِ يافا؟ وكيفَ يوجِّهُ مثقَّفيها للتفاوضِ معَ الهاجانا بحُجَّةِ حمايةِ الأرواحِ؟ أليسَ هذا واجبُ الانتدابِ البريطانيِّ الأخلاقيِّ والقانونيِّ، لحمايةِ المدنيينَ العُزَّلِ؟

إنَّ اقتراحَ إعلانِ يافا مدينةً مفتوحةً كانَ مِن أجلِ تسليمِها إلى عصابةِ الهاجانا، وليسَ مِن أجلِ إنقاذِ مَن تبقَّى مِن أهلِها الذينَ لا

يزيدُ عددُهم عن الخمسةِ آلافٍ، كيفَ يمكنُ تفسيرُ موقفِ الانتدابِ البريطانيِّ الذي حرَمَ الناسَ مِن أبسطِ حقوقِهم؛ حيازةِ السلاحِ للدفاعِ عن أنفسِهم ووطنِهم، ولَمْ يَكْتَفوا بسجنِهم بلْ كانوا يشنُقون كلَّ مُقاومٍ وكلَّ مَن اكتشفوا أنَّه يملكُ سلاحًا، بينَما الطرفُ الآخرُ سهّلَ له الأمرَ تمامًا وعلانيةً!

الاستعمارُ هُوَ هُوَ لَمْ يتغيَّرْ، يكيلُ بمكيالَيْنِ عندَما يتعلقُ الأمرُ بإسرائيلَ، حمَّلوا أهلَ يافا الذنبَ أنَّهم فشلوا في الدفاعِ عن مدينتِهم.

أليسَ مِن واجبِ الحاكمِ البريطانيِّ الدفاعُ عن البلدِ التي حكمَها عشراتِ السنواتِ؟ ولماذا قرَّروا الانسحابَ وهُمْ يعرفونَ أنَّ المافيا الصهيونيةَ تعملُ ليلَ نهارَ، لتحقيقِ وعدِ بلفورَ البريطانيِّ بتأسيسِ وطنٍ قوميٍّ لليهودِ في فلسطينَ.

كانتْ يافا ستبقى معَ العربِ في قرارِ التقسيمِ الصادرِ عن الأممِ المتحدةِ آنذاكَ، لأنَّها أكبرُ المدنِ الفلسطينيةِ تعدادًا، لقدْ قدَّمَ لهم الانتدابُ البريطانيُّ خدماتٍ لا تقدَّرُ بثمنٍ آخرُها تسليمُ يافا وإعلانُ رئيسِ بلديتِها آنذاكَ أنها مدينةٌ مفتوحةٌ، هكذا سقطتْ يافا؛ لَمْ يكنْ أمامَ الشبابِ خيارٌ آخرُ، لا جيوشَ عربيةً هبَّتْ للدفاعِ عن فلسطينَ، ولا سلاحًا مقابلَ ما يمتلكُه العدوُّ مِن مدافعِ الهاونِ والمورترِ التي ضَربوا فيها أحياءَ المدينةِ ونسَفوا سرايا يافا وَهجَروا أهلَها.

رغمَ ذلكَ ما زالتْ قناعَتي الشخصيةُ بأنَّ أهلَ فلسطينَ يتحمَّلونَ بالدرجةِ الأولى ضياعَها، اعتمدوا على أنَّ الجيوشَ العربيةَ ستدكُّ تلَ أبيب، كانتْ ثقتُهم بأنَّهم مُغادِرونَ لأسبوعينِ فقطْ وسيعودونَ إليها،

ومِنهم مَن قالَ لي إنَّهم نَسوا نورَ الكهرباءِ وأخذوا يحسِبونَ كمْ سيكلِّفُهم ذلكَ عندَما يعودونَ.

كانَ مِن واجبِهم البقاءُ في وطنِهم!! صحيحٌ أنَّهم لا يملكونَ وسائلَ الدفاعِ عنه، ولكنَّ مجرَّدَ بقائِهم على أرضِهم هو حمايةٌ لها بحدِّ ذاتِه، خاصةً للمثقفينَ مِنهم في تلكَ الفترةِ العصيبةِ، تجارُ يافا كانوا أغنياءَ بلْ مِن أغنى الشعوبِ العربيةِ في ذلكَ الوقتِ، ونسبةُ المثقفينَ فيها كانَ لا يُستهانُ بها، تخرَّجوا مِن جامعاتِ مصرَ وسوريا، والجامعاتِ الغربيةِ مثلِ إنجلترا وفرنسا وأمريكا.

النجادة

كانَ أبي وغيرُه مِن مجاهدي النجادةِ في يافا، يُدافِعونَ عن مدينتِهم، رغمَ ندرةِ السلاحِ الذي كانَ مُحرَّمًا عليهم اقتناؤه في عهدِ الانتدابِ البريطانيِّ الذي أكملَ مهمَّتَه، ورحلَ عامَ 48 (عامَ النكبةِ) وبعدَ صدورِ قرارِ التقسيمِ، كانَ لدى أبي مسدسٌ يُخفيه عن أنظارِ أمِّي التي هلعَتْ عندَما رأتْه مرةً بالصدفةِ، فطلبَ مِنها ألاَّ تُخبرَ أحدًا لأنَّه لو سمعَ الإنجليزُ بذلكَ لأَوْدَعُوه السجنَ وشنقوه، قالَ لها ذلكَ وأنا انتفضُ رعبًا مِمَّا سمعْتُ. أكملَ أبي حديثَه لأمِّي قائلاً:

- حرَّموا علينا حيازةَ السلاحِ الذي ندفعُ ثمنَه أضعافًا مُهرَّبًا.

كُنَّا نستجدي السلاحَ مِن البلادِ العربيةِ الذي جاءَ مِنه القليلُ وثبتَ أنَّه غيرُ صالحٍ للاستعمالِ، الأمرُ الذي أدَّى إلى قناعةِ لجنةِ

الدفاعِ عن يافا بعدمِ قَدرتِهم على الدفاعِ عن مدينتِهم أمامَ جبروتِ العصاباتِ الصهيونيةِ المزوَّدةِ بالأسلحةِ الفتاكةِ الحديثةِ، ووافقوا على نصيحةِ الحاكمِ البريطانيِّ للمدينةِ بإعلانِ يافا مدينةً مفتوحةً، للأسفِ نتيجةً لإعلانِ يافا مدينةً مفتوحةً تمَّ تفريغُها مِن سكانِها بسرعةٍ برًّا وبحرًا، ولو كانَ هناكَ إرادةٌ للبقاءِ في يافا وفلسطينَ لتغيَّرَ مَجرى التاريخِ.

كانَ النزوحُ مِن مسقطِ رأسي ومدينتي يافا حزنًا لنْ أنساه ما حَييتُ، أذكرُ ذلكَ اليومَ المشؤومَ بمرارةٍ؛ لأنني أصبحتُ مِن بعدِه أخافُ مِن المجهولِ، كانَ أبي قد انضمَّ إلى مُقاتلي النجادةِ للدفاعِ عن مدينتِه المحبوبةِ، شاهدَ الأحداثَ وسمعَ بالمذابحِ الصهيونيةِ وأنصتَ إلى نصيحةِ شريكِه اليهوديِّ العربيِّ بترحيلِ عائلتِه؛ لأنَّ يافا ستحتلُّها العصاباتُ الصهيونيةُ بالقوةِ، لا يضمنُ أحدٌ ماذا ستفعلُه بمَن بقيَ مِن أهلِها، خاصةً مَن شاركوا في الدفاعِ عنها.

آهٍ يا شعبي ويا ناسي! لو كانَ لديكُم في عقولِكم وقلوبِكم إرادةَ البقاءِ في مدينتِكم ووطنِكم! لو كانَ لديكم وعيٌ أكبرُ بقيمةِ الصمودِ والبقاءِ في يافا وكلِّ المدنِ والقرى الفلسطينيةِ! لو تحمَّلْتُم مسؤوليتَكم بعدمِ الخروجِ مِن وطنِكم وساندْتُم بعضَكم بعضًا في ذلكَ! لو صمدْتُم يا أهلي ويا شعبي، لكنتُم كصخرتِكم المجيدةِ، تُحطِّمُ العدوَّ الدخيلَ والمعتدي! لو كانتْ إرادتُكم، إرادةُ التحدي والصمودِ والبقاءِ، لكنتُم تعيشونَ الوطنَ وتغرِّدونَ في رحابِه، وكنتُم رحمتمونا والأجيالَ مِن

بعدِنا مِن عذابِ التشرُّدِ وألمِ الفقدانِ، إنَّ إرادةَ البقاءِ على أرضِ الوطنِ أقوى مِن كلِّ الضغوطِ والمؤامراتِ.

بقيتُ أبكي ملتصقةً بأمِّي في السيارةِ التي تقبضُ على الروحِ لإطباقِ سقفِها على رُكَّابِها، أذكرُ أنَّ صديقَ أبي كانَ لطيفًا ومهذبًا معنا، وكانَ أبي مطمئنًا علينا معه لأنَّه طبيبُ العائلةِ، كانَ ربعةَ القامةِ وممتلئًا قليلاً وعويناتُه المدوَّرةُ على عينيْه التي كانتْ تطلُّ مِن المرآةِ المعلَّقةِ أمامَه، أخذَتِ السيارةُ تسيرُ بثِقلِها ببطءٍ شديدٍ ولا أذكرُ شيئًا بعدَ ذلكَ.

هلْ أنهكَني البكاءُ والنحيبُ على أبي الذي تركْناه وحيدًا؟.. أمْ على لعبتِي الصغيرةِ صديقة أحلامي التي نزعت مني بقسوة لأنه لم يكن لها مكان بيننا؟ أمْ على صديقاتي اللواتي فقدتُهنَّ فجأةً؟ أمْ على مدينتي والحيِّ والبحرِ؟ أمْ على البيارةِ المهجورةِ التي لا أدري لماذا كانتْ مهجورةً! هلْ رحلَ أصحابُها قبلَنا؟ أمْ لأنني افتقدْتُ بعدَ حَشْري في السيارةِ الصغيرةِ أرجوحَتي التي بناها لي أخي فوقَ الشجرةِ؟ أمْ على بيتي وسريري وحديقتي وأشجارِ البرتقالِ والليمونِ التي حملْتُ معي رائحةَ زهورِها العطرةِ؟

كنتُ أتسلَّقُ أشجارَ حديقتِنا التي تركناها مُعَمَّرةً بزهورِ ليمونِها وبرتقالِها، وروائحِ ورودِها وياسمينِها إلى رُكني الذي كنتُ أستعملُه ككرسيٍّ وأرجوحةٍ في آنٍ واحدٍ، هذا الركنُ الهادئُ والخاصُّ بي، الذي كانَ يَسَعُني معَ لعبتي التي كنتُ أناغِيها وأُهدهِدُ لها حتى تنامَ، وكنتُ أغفو معها وهي في حضني.

الرصاص في بيتنا

أذكرُ مرةً أننا كُنَّا وحْدَنا معَ أمِّي دونَ أبي، وفجأةً أخذَ الرصاصُ يصيبُ زجاجَ غُرَفِنا فضمَّتْنا إليها وأخذتْنا إلى الحَمَّامِ، وضعتْنا في البانيو وخيَّمتْ بجسدِها علينا خوفًا مِن أنْ يصيبَنا الرصاصُ.

لَمْ تَعُدْ تُرسِلُنا إلى المدرسةِ، وبقيتْ بانتظارِ أبي الغائبِ معَ رفاقِه في الجهادِ ضمنَ مجاهدي النجادةِ في يافا، لقدْ بكَتْ أمِّي في غيابي وأنا تائهةٌ أبحثُ عن أبي حتى عادَ أخي مِن المدرسةِ وطلبَتْ مِنه البحثَ عني، كانتْ تشعرُ أنَّ مسؤوليتَها تضاعفَتْ بغيابِ أبي الذي كانَ يسبِّبُ لها قلقًا عنيفًا لأنَّها لا تعرفُ إذا كانَ حيًّا يُرزَقُ أمْ استشهدَ ضمنَ المجاهدينَ.

كانَ أبي يتغيَّبُ عنَّا بالأيامِ، وأمِّي لا تنامُ الليلَ خوفًا علينا وعليه، وتبقى ساهرةً في انتظارِ عودتِه، كانتْ تغفو على شباكِ الصالونِ المُطِلِّ على مدخلِ الدارِ والحديقةِ حتى الصباحِ، عادَ أبي بعدَ أنْ فقدوا الأملَ بإنقاذِ مدينةِ يافا، عادَ قبلَ سقوطِها وموافقةِ رئيسِ بَلَدِيَّتِها آنذاكَ مِن خلالِ برقيةٍ أرسلَها مِن عَمَّانَ، بإعلانِ مدينةِ يافا مدينةً مفتوحةً، وذلكَ تلبيةً لنصيحةِ مساعدِ الحاكمِ العسكريِّ البريطانيِّ.

مَن بقيَ في يافا لَمْ يزِدْ عددُهم عن الخمسةِ آلافِ نسمةٍ، لأنَّه لَمْ يتوفرْ لهم المالُ اللازمُ للرحيلِ، هذا ما سمعتُه بأذني مِن إحدى سيداتِ يافا عندَ زيارتي لمدينتي المحبوبةِ بعدَ أكثرِ مِن أربعينَ عامًا

للبحثِ عن بيتِ الشاطئِ في حيِّ العجميّ وبيتِ النزهةِ في حيِّ النزهةِ.

أعدَّ أبي العُدةَ لترحيلِنا، خاصةً بعدَ تفجيرِ مبنى السرايا الضخمِ، الذي سقطَ ضحيتَه العشراتُ مِن الأبرياءِ، مِمَّا أثارَ الرعبَ في قلوبِ اليافاويين.

كانَ عددُ رجالِ العصاباتِ قليلاً، لكنَّهم كانوا مُدجَّجينَ بالسلاحِ، ومدافعِ المورترِ وغيرِها مِن الأسلحةِ الفتاكةِ، مقارنةً بمسدسٍ أو بندقيةٍ مِن هنا وهناكَ بالنسبةِ للسكانِ. فرَّ أهلُ يافا للنجاةِ بالنفسِ والعيالِ بشكلٍ هستيريٍّ كما حصلَ مع بقيةِ المدنِ والقرى الفلسطينيةِ المنكوبةِ. يا ترى، لو بقيَ الناسُ هناكَ، هل سيصبحُ المحتلُّ المتغطرسُ على ما هو عليه الآنَ؟ هلْ ستصبحُ دولتُه قويةً وسطَ دولٍ عربيةٍ ضعيفةٍ ومفككةٍ؟

لو بقيَ الشعبُ الفلسطينيُّ على أرضِه لَما استطاعَتِ العصاباتُ الصهيونيةُ قتلَ شعبٍ بأكملِه!! لَما كانَ هناكَ مخيماتُ لاجئينَ، ولا لجوءٌ ولا شتاتٌ!! ولَما أُهينَ الفلسطينيُّ بعدَ أنْ أصبحَ لاجئًا!! ولَما استطاعَ مَن استضافتْهم فلسطينُ مِن التجارِ العربِ أنْ يبيعوا أراضيهم التي وهبَها لهم العثمانيونَ والانتدابُ البريطانيُّ الذي استولى على أراضي الميري/أراضي الحكومةِ، ولَما استطاعَ مَن اشترى أراضي الهلالِ الخصيبِ مِن بعضِ العائلاتِ العربيةِ المجاورةِ أنْ يبيعوها لليهودِ مِن خلالِ سماسرةٍ عربٍ، ولَما كبرَتْ هذهِ الدولةُ المغتصبةُ! ولَما جَلَبَتْ كلَّ يهودِ العالمِ لأرضِنا!

يُحكى أنها كبرتْ..
وكبرتْ معها الأحلام
وعشقت الوئام... وتعوَّدت الأمان
وفجأةً... فاجأها الزمان
بظلم الإنسان..
تحطَّمت الأحلام..
تكسَّرت الشمس وغاب القمر..
رحل النهر وانحبست دموع المطر..
ناحَتِ الريح فمالت الأغصان...
وتساقطتْ أوراق الشجر..
وسُحِقَتْ تيجان الفل والياسمين..
وذابت رائحة البساتين!

الرحيل

لَمْ نهنأْ في بيتِنا الجديدِ في حيِّ النزهةِ، حديثِ البناءِ أكثرَ مِن عامٍ، افتقدْتُ بيتَ الشاطئِ في حيِّ العجميِّ، وافتقدْتُ البحرَ والرملَ وأحلامَنا هناكَ، وعندَما بدأْتُ التعودَ عليه والتمتعَ بحديقَتِه، وبيارةِ البرتقالِ المهجورةِ مقابلَ بيتِنا الجديدِ التي أصبحَتْ ملكًا لنا نجولُ فيها ونصولُ كما نشاءُ، ونبني قصصًا ونصنعُ حكاياتٍ، عوَّضتْني عن بيتِ الشاطئِ وصديقي البحرِ.

ازدادَتِ الهجماتُ على مدينتِنا التي أصبحتْ مدينةً مفتوحةً،

وبمعنًى آخرَ أعلنوا سقوطَها بعدَ أنْ تواترتِ الأنباءُ عن وقوعِ مجازرَ متعددةٍ أثارتْ الرعبَ والخوفَ في نفوسِ هذا الشعبِ الآمنِ، لَمْ يكنْ في فلسطينَ جيشٌ يحميها ولا سلاحٌ ولا عصاباتٌ مدرَّبةٌ.

أصبحَ أبي جادًّا بترحيلِنا، وإبعادِنا عن مدينةِ يافا خوفًا مِن مجازرَ أخرى قد تَصِلُنا في أيةِ لحظةٍ، قرَّرَ ترحيلَنا إلى مسقطِ رأسِه، مدينةِ نابلسَ التي لَمْ أرَها مِن قبلُ، ولَمْ يكنْ لي فيها صديقاتٌ، وبقيَ هو في يافا، بعدَ أنْ وصلَ رصاصُهم إلى بيتِنا وكسرَ زجاجَ نوافذِنا.

يومَ رحيلِنا، نزعوا مِنّي لُعبتي، التي كانتْ بحجمِ طفلةٍ حديثةِ الولادةِ، لأنَّه لَمْ يكنْ لها مكانٌ في السيارةِ الصغيرةِ جدًا التي حُشِرْنا فيها بمنْ فيهم أخي الرضيعُ، فوقَ بعضِنا بعضًا حولَ أمِّي التي كانتْ تجلسُ في الوسطِ وفي حضنِها صغيرُها، لا أدري مَن جلسَ فوقي، ولكنَّ إخوتي الاثنينِ الكبارَ كانوا أكثرَ حظًّا مِنّا لأنَّهم حُشِروا بجانبِ صاحبِ السيارةِ الصغيرةِ.

كانَ صديقُ أبي يقودُنا في رحلةٍ إلى المجهولِ، لأنَّه لَمْ يكنْ واثقًا بأننا سنصلُ سالمينَ، كنّا جميعًا في حالةِ صدمةٍ شَلَّتْ تفكيرَنا، وكانَ أبي قويًّا صلبًا لَمْ يبكِ لفراقِنا، هلْ هذا لأنَّه كانَ واثقًا بأننا في أيدٍ أمينةٍ؟ أمْ هلْ لأنَّه ارتاحَ لأنَّه أخرجَنا مِن ثوبِ المعركةِ حتى يتفرغَ مع المجاهدينَ؟

نُزِعْتُ مِن بيتي الذي تعوَّدتُ عليه وأحببتُه، كنتُ أريدُ البقاءَ مع أبي، تعجَّبتُ كيفَ وافقَتْ أمِّي أنْ نتركَ أبي وحدَه؟ أخذْتُ أبكي وأنا أقولُ:

- حرامٌ علينا أنْ نتركَه يا أمّي.

لكنَّني حُشِرْتُ مع كتلِ اللحمِ في سيارةٍ صغيرةٍ، ولَمْ يشعرْ أحدٌ بنياطِ قلبي تتقطَّعُ مِن فكرةِ الرحيلِ عن مدينتي التي وُلدْتُ فيها، ورَعَتْ نورَ العينِ وبهجةَ القلبِ وأحلامَ طفولتي.

يُحكى أنَّ الصغيرة..

دارت ثم استدارت..

وتشبَّثت بالأرض الحمراء

التي غمرتها الدماء

بعد أنْ تكالب الأعداء..

من شرقٍ إلى غربٍ

ومن شمالٍ إلى جنوبٍ..

واشتدَّ الخناق..

وتساقط الشهداء..

واغتصبوا الجنةَ الخضراء

واغتصبوا الفرح.. مِن وجوه الأطفال الأبرياء..

ولكنَّ.. جذور القوم بقيت هناك..

امتدَّت إلى الأعماق..

وتشابكت الأيدي.. مُعلِنة الالتحام..

ورفض القتلة الغرباءِ.. ورَفْضَ القتلة الغرباء.

رعب الطريق

عندَما صحوْتُ مِن غفوةٍ أرخَتْني لساعاتٍ، وجدْتُ نفسي أجلسُ قربَ أمّي كالعادةِ مُستلقيةً برأسي على ذراعِها التي حضنَتْني، وحضنَتْ ذراعُها الأخرى أخي الرضيعَ، وجدْتُ نفسي في مكانٍ آخرَ غيرِ السيارةِ الصغيرةِ، كنتُ في باصٍ كبيرٍ مع أمّي وإخوتي على مقعدٍ مفتوحٍ بينَ المقعديْنِ، كنّا نجلسُ عليه نلتصقُ ببعضِنا بعضًا وأخي الرضيعُ في حضنِها، أمَّا إخوتي الكبارُ فكانوا يجلسونَ في مقعدٍ آخرَ.

عرفْتُ فيما بعدُ، أنَّ صديقَ والدي لَمْ يستطعْ تكملةَ المشوارِ إلى نابلسَ بسببِ القصفِ العشوائيِّ الشديدِ، وكانَ سائقُ الباصِ يسيرُ ثمَّ يتوقَّفُ داخلَ دغلٍ مِن الأشجارِ حتى يهدأَ القصفُ.

لقدْ كانَ القصفُ مِن الطرفيْنِ، ولكنَّهم كانوا الأقوى بأسلحتِهم الفتاكةِ وتدريبِهم المتمرِّسِ على القتالِ وعقيدتِهم العدوانيةِ والعنصريةِ بأنَّه يجبُ طردُنا مِن الأرضِ أو القضاءِ علينا، حتى يؤكِّدوا ادِّعاءَهم بأنَّهم أخذوا أرضًا بلا شعبٍ لشعبٍ بلا أرضٍ.

كانتْ أمّي تدفَعُنا إلى الانبطاحِ على أرضِ الباصِ المكتظِّ بمَن فيه، كلَّما سمعَتْ طلقًا ناريًّا، حسبَ طلبِ سائقِ الباصِ المسكينِ الذي كانَ يسوقُ ورأسُه محنيٌّ إلى تحتَ، لا أدري، كمْ مرَّ بنا مِن الوقتِ؟ وكمْ قتيلاً أُعلِنَ عن قتلِه؟

كانتْ أمّي تغمضُ عيونَنا بأيدينا، مِن منظرِ رأسٍ مقطوعٍ والدمُ ينزفُ منه على الأرضِ، كنّا نرتجفُ مِن الرعبِ مِن منظرِ الدمِ، ولَمْ تتوقفْ دموعُ أمّي طوالَ الرحلةِ التي لا أدري، كَمْ طالَتْ.

غادرْنا مدينتَنا الحبيبةَ، وبيتَنا الجميلَ والأليفَ، وأشجارَ حديقتنا المشرقة، وبرتقالها وليمونها اللامع والثقيل بعصيره اللذيذ، غادرْنا عِزَّنا ونبضَ قلوبِنا في الصباحِ الباكرِ، ووصلْنا ليلاً إلى محطةِ الباصاتِ التي كانتْ تكتظُّ بالناسِ، وكنَّا آخرَ حافلةٍ تصلُ إلى مدينةِ نابلسَ، كانَ أبناءُ عمومةِ أبي في انتظارِنا، كانوا فرحينَ لرؤيتِنا بعدَ أنْ مادَتْ بهم الظنونُ عندَما سمعوا بأنَّ حافلتَنا ضُرِبَتْ مِن الصهاينةِ، ولكنَّ أملَهم لَمْ ينقطعْ بنجاتِنا، وبقوا حتى منتصفِ الليلِ في انتظارِ أوْبَتِنا.

استقبلونا استقبالاً ودودًا كريمًا، وحملُونا على أكتافِهم، وساروا بنا إلى البلدةِ القديمةِ، إلى إحدى قلاعِها في حارةِ الياسمينِ، التي لَمْ يتبقَّ مِنها بعدَ الزلزالِ الشهيرِ، سوى طابقٍ ونصفٍ، وفَرَدُوا لنا غرفةً فيها وفرشوا على الأرضِ فراشًا نِمْنَا عليه دونَ حراكٍ، حتى صباحِ اليومِ التالي.

غادرْنا مدينتَنا المحبوبةَ يافا إلى الأبدِ بعدَ نكبةِ 1948، كانتْ الهجرةُ قاسيةً علينا جميعًا والطريقُ مرعبةً ومدافعُ المورترِ والرصاصُ الذي يقذِفونَ الفارِّينَ به حتى لا يفكِّروا بالعودةِ إلى بيوتِهم، كانوا يتكلَّمون بعربيةٍ مكسورةٍ:

- يلاّ روحوا عند الملك عبد الله، لا مكان لكم هنا.

كانتْ مدينةُ يافا لا تبعدُ عن مدينةِ نابلسَ، مسقطِ رأسِ أبي، أكثرَ مِن ساعةٍ ونصفٍ بالباصِ، وأصبحَتْ تسمَّى بالضفةِ الغربيةِ بعدَ ضمِّها إلى شرقِ الأردنِ.

يافا عالبال

يافـا مـا زالـتْ تلتحـفُ القمـرَ، وتزهـرُ بـأوراقِ الشـجرِ، برتقالُهـا وليمونُها، مَنْدَلينُها ويوسُفُها، وألوانُها تغرِّدُ بشمسٍ تخترقُ بياراتِها، وتفردُ الأصـفرَ والبرتقـاليَّ والأخضـرَ والأحمـرَ والبنفسـجيَّ، بضـياءٍ سـرمديٍّ، تتعانقُ الأغصـانُ والألوانُ فيها، ويرسـمونَ ما بينَ سمائِها وبحرِها قوسَ قزحٍ، صورةً تنبثقُ مِن عمقِ الوجدانِ، أتلمَّسُها بحنانٍ، تزهرُ فـي روحـي شـجرةَ ياسمينَ بيضـاءَ، تُـناغِشُ أختَهـا الغزاويـةَ الصـفراءَ، مِن بحـرٍ إلـى بحرٍ، ويزغردُ فؤادي، ويتعالى الفرحُ فيه، وتهيمُ روحي متعلِّقةً بأهدابِ الحياةِ، وبحنينِ قلبي ونبتةِ عمري، وبأعلى صوتي أنادي يافا:

"والله أنتِ يا يافا.. أنت والله.. عَالبال"

وداعًـا يـا يافـا، كنـتِ شـعلةَ قلبـي، وسـعادةً خاصـةً سـتبقي دائمًـا علـى البـالِ، وستبقى ذكراكِ نورًا سـاطعًا فـي حيـاتي، ونبراسًـا مضـيئًا فـي فؤادي، وسـتبقينَ معـي لأنكِ تسـكُنين روحـي، التـي عندَما ترحلُ ستحمِلُكِ معها إلى السمواتِ العليا.

وعلى شواطئ فلسطين البيضاء..

كان العويل وكان البكاء..

مِن قوم أُخرِجوا عنوة إلى العراء..

لأن غرباء الدار والوطن..

أصرُّوا على إخلاء الديار.. من أصحاب الدار..

وبقي الرجال يستبسلون.. بالعصي والكاز

بانتظار النجدة التي خيبت الآمال.

مجزرة دير ياسين

في 8 إبريل عام 1948، وقعتْ معركةُ القَسْطَلِ التي استُشْهِدَ فيها القائدُ المناضلُ الشهيدُ عبدُ القادرِ الحسيني دفاعًا عن مدينةِ القدسِ، وفي اليومِ التالي 9 إبريل 1948، قامتِ العصاباتُ الصهيونيةُ بأبشعِ المجازرِ الإنسانيةِ في قريةٍ جميلةٍ اسمِها دير ياسين، إحدى قرى القدسِ الوادعةِ، والمسترخيةِ بأمانٍ وسلامٍ على سفحِ أحدِ الجبالِ المحيطةِ بمدينةِ القدسِ الشريفِ عاصمةِ فلسطينَ في ذلكَ الوقتِ.

اسْتَفْرَدوا بأهلِ قريةِ دير ياسين القريبةِ مِن القسطل، وقامَتْ العصاباتُ بالتعذيبِ وبترِ الأعضاءِ وشقِّ بطونِ الحواملِ وقتلِ الأطفالِ والنساءِ والرجالِ، وألقوا بهم في بئرِ القريةِ، ووراءَ سورِ المدينةِ القديمِ.

إنَّ مذبحةَ دير ياسين التي قامتْ بها العصاباتُ الصهيونيةُ في 9 إبريل عام 1948، أسفرَتْ عن حالةِ رعبٍ في القرى المجاورةِ أسهمَتْ في تفريغِ البلادِ مِن أكثرَ مِن 650 ألفِ عربيٍّ، قالَ حينئذٍ رئيسُ عصابةِ شْتيرن، مناحيم بيغن الذي أصبحَ رئيسَ وزراءِ إسرائيلَ: "**لولا دير ياسين، ما قامتْ إسرائيل**"..

مناحيم بيغن الذي وقَّعَ "كامب ديفيد" المشؤومةَ بصفتِه رئيسُ وزراءِ إسرائيل، هو نفسُه بيغن وشارون وغيرُهم الذينَ تلطَّختْ أيديهم بدماءِ الفلسطينيينَ، ونفَّذوا جرائمَ أدانتْها معظمُ دولِ العالمِ، وقراراتٍ أوقفَتْها أمريكا بالفيتو المُنحازِ منذُ أنْ خَلَقوا دولةَ الغرباءِ في قلبِ

الأمَّةِ العربيةِ حتى يومِنا هذا، أصبحوا رؤساءَ دولِهم.

لقدْ أنزلَتْ هذه المجزرةُ المخيفةُ، الرعبَ في قلوبِ أهلِ القريةِ الوادعةِ، وكانتِ السببَ في نزوحِ السكانِ العُزَّلِ وأهلِ القريةِ المسالمين الذين استبسلوا بالدفاعِ عن قريتِهم، وأفنَوْا أغلبَ سكانِ القريةِ ورموهم في بئرِ القريةِ.

زرْتُ القريةَ المهجورةَ التي ما زالتْ بيوتُها شاهدةً على أشلاءِ أهلِها، قابلْتُ أحدَ الناجين مِن المذبحةِ الرهيبةِ الذين استقرُّوا في قريةِ بتّين مِن ضواحي مدينةِ رام الله.

أُعجِبْتُ ودُهِشْتُ مِن جمالِ القريةِ المهجورةِ منذُ مذبحةِ دير ياسين، شاهدْتُ بيوتَها الجميلةَ ذاتَ الأسقفِ العاليةِ والمبْنيَّةِ مِن الحجرِ الطبيعيِّ وجدرانِها السميكة، كانتِ الأسْقُفُ عُقودًا في منتهى الجمالِ تحميهم مِن برودةِ الشتاءِ وحرارةِ الصيفِ، التي اشتُهرتْ بها فلسطينُ.

يحكى أينما التفتت..
لاحقها الدمار في كل مكان..
وهام القوم على غير هدى..
يلتمسون الأمان..
فمروا بقرية وديعة اسمها "دير ياسين"
كانت تحتفل قبل ساعات بعرس جميل..
ولكن.. حثالة من القتلة الغرباء..
سبقوهم إليها.. فأغضبهم الفرح.. وأهازيج الميجانا
وأصبح العرس مأتمًا.. ومسرحًا لمجزرة رهيبة.

الشحن تحت القصف

استضافتْنا العائلةُ لعدَّةِ أيامٍ، الدارُ الكبيرةُ مسجَّلةٌ في بلديَّةِ نابلسَ باسمِ القلعةِ، لا أدري لماذا؟ هلْ لأنَّها تقعُ في ركنِ مدخلِ الحارةِ الرئيسيِّ، وتطلُّ على شارعيْنِ؟ أمْ بسببِ أقواسِ حواصِلِها/متاجِرِها الضخمةِ المصفوفةِ بأحجارٍ كبيرةٍ على شكلِ قلعةٍ، هي التي أوحَتْ بالاسمِ؟ كانَ للدارِ قبلَ الزلزالِ الشهيرِ في العشريناتِ مِن القرنِ الماضي ثلاثةُ طوابقَ، تهدَّمَ الثالثُ وبقيَ نصفُ الطابقِ الثاني قائمًا فوقَ الطابقِ الأولِ المُستنِدِ بقوةٍ على أساساتِ الحواصلِ، أسْقُفُ الدارِ عاليةٌ جدًا كما كانَ مُتَّبعًا في البناءِ القديمِ، ويتوسَّطُها حوشٌ كبيرٌ، كانَ لكلِّ عائلةٍ غرفةٌ واسعةٌ جدًا بحَمَّامِها، ومطبخٌ مشتركٌ.

وكانتِ الدارُ مزدحمةً بأُسَرِ العائلةِ الكبيرةِ بفروعِها الذينَ تعوَّدوا العيشَ معًا لأنَّها وَقْفٌ على العائلةِ، أيْ لا يستطيعُ أحدُ الوَرَثةِ بيْعَها، لهذا استأجرَ لنا أبي الطابقَ الثاني مِن بيتِ الجيرانِ الملاصقِ لدارِ العائلةِ، وعادَ والدي إلى مدينةِ يافا ليبني طوبًا على أبوابِ مَتاجِرِه كما فعلَ أغلبُ تجارِ يافا.

وجدَ فوضى عارمةً وجنودًا مِن الحاميةِ العراقيةِ تخلّوا عن نقاطِ دفاعِهم، وانضمُّوا إلى اللصوصِ الذينَ تزاحموا على يافا مِن كلِّ حدبٍ وصوبٍ، يسرقون مخازنَها ويكسرون متاجرَها وكلَّ ما استطاعوا سرقتَه والوصولَ إليه في "يافا أمّ الغريب".

كانَ مِن الصعبِ الحصولُ على سياراتِ شحنٍ لكَوْنِها مُكلفةً للغايةِ، لولا صديقٌ لأبي لديه شاحناتٌ أجَّرَها له بسعرٍ معقولٍ

ناصحًا إياه أنْ ينقلَ بضائعَه في أسرعِ وقتٍ ممكنٍ، وذلكَ عندَما ذهبَ يستشيرُه إن كانَ يعرفُ مَن يستطيعُ أنْ يبنيَ طابوقًا أمامَ متاجرِه، حتى يعودوا إلى مدينتِهم بعدَ أسبوعين كما وُعِدُوا مِن الحكوماتِ العربيةِ، قالَ لأبي: الأفضلُ لكَ أنْ تشحنَهم إلى مكانٍ آمنٍ.

نجاة أبي

عادَ أبي وحدَه يناضلُ لإيجادِ ناقلاتٍ تنقلُ تعبَ عمرِه، وتمكّنَ مَن نَقْلِ عفشِ بيتِه، وعفشِ ابنِ عمٍّ له تركَه أمانةً في بيتِنا في يافا قبل سقوطِها، وقبلَ أنْ يُحْضِرَ عفشَنا، لأنَّه كما قالَ لنا، أمانةٌ في رقبتِه، نجحَ أبي في نقلِ ستِّ شاحناتٍ، ولكنَّه كانَ مُهدَّدًا بالقتلِ في كلِّ مرةٍ، وفي آخرِ رحلةٍ له جاءَنا خبرُ استشهادِه وهو على الطريقِ.

لنْ أنسى تلكَ الليلةَ التي أظلمتْ فيها حياتي وأنا أرى عينَيْ أمّي مُحمَرَّتينِ مِن البكاءِ ونحيبَها الحارَّ ونشيجَها الصامتَ على أبي وهي تتطلعُ إلى أطفالِها الثمانيةِ ورضيعِها الذي لَمْ يُكمِلِ الشهرينِ مِن عمرِه، تنظرُ إلينا وإليه وتنتحبُ أكثرَ وأكثرَ.

حالةُ أمّي هذه جعلتني أشعرُ بالخوفِ والمسؤوليةِ، كنتُ أحضنُها بشدةٍ وأرجوها ألاَّ تبكي وأقولُ لها دونَ وعيٍ:

- أبي بخيرٍ وسيعودُ لنا سالمًا.

منذُ ذاكَ اليومِ وأنا أقربُ إلى أمّي مِن أيِّ شيءٍ آخرَ، أبكي لبكائِها، وأتعذّبُ لعذابِها.

قالَ لنا أبي بعدَ عودتِه:

- ذهبتُ لأغلقَ المَتاجرَ بالطابوقِ أسوةً ببقيةِ التجّارِ، ولكنني شاهدْتُ الكثيرَ مِن الرعاعِ بمَن فيهم متطوعينَ مِن الجيوشِ العربيةِ جاءوا لينقذوا يافا، تركوا مواقعَهم وقضوا لياليهم في الخماراتِ، وساهموا مع كلِّ مَن هبَّ ودبَّ لسرقةِ مدينةِ يافا، حطَّموا نوافذَ متاجرِها وسرقوا كلَّ ما خفَّ وزنُه وثقلُ ثمنُه.

وفي فجرِ أحدِ الأيامِ، جاءنا منادٍ يخبرُنا بأنَّ أبي وصلَ إلى مشارفِ المدينةِ، خرجْنا كلُّنا ببيجاماتِنا إلى زقاقِ الياسمينةِ، وأمِّي تحملُ رضيعَها لاستقبالِ أبي الذي عادَ فجأةً إلى الحياةِ؛ فعادَتْ لنا الحياةُ، كانتْ فرحةُ أخي الكبيرِ الذي لَمْ يتجاوزْ الثالثةَ عشرَ عارمةً وسبقَنا جميعًا، كلَّما استرجعْتُ كيفَ استطاعَ أبي أنْ يُنقِذَ جُلَّ بضائعِه ويشحنَها خارجَ مدينتِه المحتلةِ يافا إلى مسقطِ رأسِه، مدينةِ نابلسَ يزدادُ فخري بأبي.

دأبْتُ على سؤالِ أمِّي أنْ تحكيَ لي تفاصيلَ هجرتِنا مِن يافا إلى مسقطِ رأسِ أبي، مدينةِ نابلسَ العريقةِ، التي وجدَتْ أمِّي فيها حريةً مِن نوعٍ خاصٍّ رغمَ مجتمعِها المحافظِ.

كان للمرأةِ النابلسيةُ واستقلاليةٌ؛ لأنَّ بناتِها كُنَّ يُسافرْنَ للدراسةِ الجامعيةِ في الدولِ العربيةِ والغربيةِ على حدٍّ سواءٍ، وازدادَ عددُهنَّ مع تطوُرِ التعليمِ الإجباريِّ للبناتِ، أصبحتِ المرأةُ النابلسيةُ تقودُ العملَ الاجتماعيَّ التطوعيَّ غيرَ النفعيِّ، وهو الأقربُ إلى شخصيتِها كامرأةٍ معطاءةٍ ومُحِبَّةٍ لعملِ الخيرِ النابعِ مِن أمومتِها.

وأنشأَتْ جمعياتٍ خيريةٍ ودارًا للعجزةِ ودارًا للأيتامِ، وجمعياتِ المرأةِ والأسرةِ، والعياداتِ الصحيَّةِ، وغيرِها. وأسَّسَ الاتحادُ النسائيُّ أولَ مستشفًى في مدينةِ نابلسَ لعلاجِ الفقراءِ والمحتاجينَ، كما تبوَّأتِ المرأةُ النابلسيةُ أعلى الوظائفِ التعليميةِ في مدينتِها، وفي دولِ الشتاتِ.

ولَمْ تنسَ أمِّي يافا وكانتْ تذْكُرُها باستمرارٍ وكانتْ عاشقةً للبحرِ مثلي، تغنِّي له أغنيةَ ليلى مراد الشهيرةَ: "أحب اتنين سوا الميه والهوا.. يا هناي بحبهم"، لا زالَ فقدانُ يافا يَحُزُّ في نفسي، وما زلتُ أحنُّ إليها، وأفتقدُها.

استقرَّ وضعُنا بعدَ أنْ فتحَ أبي متجرًا للبيعِ بالجُملةِ مِن أجلِ تسويقِ بضائعِه التي وضعَ حياتَه موضعَ الخطرِ مِن أجلِ أنْ يُنقذَها مِن السلبِ مِن مدينتِه المنكوبةِ، لكنَّ الوضعَ العامَّ كانَ سيئًا للغايةِ، واستأجرَ حواصلَ/مخازنَ دارِ القلعةِ، وضعَ فيها القشَّ الذي جلبَه مِن يافا، وعملَ مصنعًا لصناعةِ المكانسِ الخشنةِ ذاتِ الأيدي الخشبيةِ الطويلةِ، التي كانتْ تُستعملُ لقشِّ ساحاتِ الدُّورِ والمستشفياتِ بالماءِ، لكنَّه أغلقَه بسببِ كسادِ سوقِه.

ركَّزَ أبي على محلِّ تجارةِ الجملةِ الكبيرِ الذي وضعَ فيه كلَّ ما استطاعَ إخراجَه مِن متاجِرِه في يافا، لا زلتُ أشعرُ بالدهشةِ والإعجابِ بقدرتِه على فعلِ ذلكَ، لأنَّه لولاه لعِشْنا حياةَ مخيماتِ اللاجئينَ؛ نحملُ كرتَ التموينِ، وننتظرُ كلَّ شهرٍ بالساعاتِ أمامَ أبوابِ مكاتبِ الأونروا، مؤونةَ الشهرِ التي عاشَ غالبيةُ مَن هاجروا مِن القرى الفلسطينيةِ عليها.

أواه يـا شـعبيَ المسـكينَ! كَـمْ عانيْـتَ مِـن جـرَّاءِ ذلـكَ! لا أدري كيـفَ صـدَّقَ أبـي وغيـرُه مِـن التجـارِ بـأنَّ هـذا الرحيـلَ مؤقـتٌ!! وأنَّ الجيوشَ العربيةَ ستُعيدُهم إلى مدينتِهم خلالَ أسبوعيْنِ على الأكثرِ، على الرغمِ مِن تقاعُسِ أغلبِ مَن أتى ليُدافعَ عنها لأنَّه أصبحَ ناهِبًا لها.

الحياة بعد النكبة

بعدَ نزوحِنا أصبحْنا ننتمي إلى وطنٍ جديدٍ، الضفةِ الغربيةِ لنهرِ الأردنِّ التي ضُمَّتْ إليه، كانتِ الفوضى عارمةً بسببِ حجمِ اللاجئينَ، واكتظَّتِ المدارسُ التي لَمْ تستوعبِ العددَ الكبيرَ والمفاجئَ مِن الطلبةِ الجددِ، وبعدَ أشهرٍ طويلةٍ مِن الانتظارِ، انتظمْتُ بمدرسةِ نظامِ فَوْجَيْنِ باليومِ، وعانيْتُ مرارةَ الغربةِ منذُ طفولتي المبكرةِ، وحَيٍّ جديدٍ، وصديقاتٍ جددٍ، ومدرسةٍ مختلفةٍ، ومُدرِّساتٍ حَادَّاتٍ و...

كانَ الجميعُ يعانونَ مِن فقدانِ الوطنِ، والبيتِ والعملِ والحياةِ الطبيعيةِ، سادَ الفقرُ، وتأسستْ وكالةُ غوثِ اللاجئينَ الفلسطينيينَ/الأونروا، التابعةَ للأممِ المتحدةِ، وانتشرَتْ مخيماتُ اللاجئينَ في الدولِ المحيطةِ بفلسطينَ لاستيعابِ مئاتِ الآلافِ.

أصبحتْ غزةُ وقُراها تحتَ الإدارةِ العسكريةِ المصريةِ، وأصبحْنا نحملُ الجنسيةَ الأردنيةَ فكُنَّا أسعدَ حظًّا مِن بقيةِ اللاجئينَ، الذينَ حُرِموا مِن جنسيةِ البلدِ التي لجأوا إليها حتى يومِنا هذا، عانوا مِن ظلمِ العيشِ ومرارةِ الحياةِ، لقدْ كُنَّا أسعدَ حظًّا لأنَّ الجزءَ الباقي مِن الوطنِ ضُمَّ فورًا بقرارٍ أُمميٍّ إلى الأردنِّ، وأصبحَتْ تُلقَّبُ رسميًّا باسْمِ: المملكةِ الأردنيةِ الهاشميةِ بضفَّتَيْها.

كانتْ بلادُ الشامِ وطنًا واحدًا مُستقرًا وآمنًا قبل أنْ تجزِّئهُ معاهدةُ سايكس بيكو إلى قطعٍ صغيرةٍ مِن الشمالِ إلى الجنوبِ ومِن الشرقِ إلى الغربِ، وقبلَ أنْ تُنْكَبَ فلسطينُ بتآمرِ جبروتِ القويِّ على الضعيفِ الطيبِ.

انقلبتْ حياتي رأسًا على عقبٍ، بعدَ أنْ تحطمَتْ الأحلامُ والحُبُ والأمانُ، كانتْ الكارثةُ أكبرَ مِن أنْ يستوعبَها عقلُ طفلةٍ، ولا شكَّ أنَّها تركَتْ آثارًا سيئةً وشعورًا بالخوفِ بل بالرعبِ؛ نكبةُ وطنٍ وأرضٍ وشعبٍ وأُمَّةٍ وهولِ لجوءِ أكثرَ مِن مليونِ فلسطينيٍّ إلى دولِ الجوارِ، كانتْ أكبرَ نكبةٍ إنسانيةٍ عرفَها التاريخُ الحديثُ.

عمَّتِ الفوضى الأرضَ وطرقَ المواصلاتِ، واشتدَّ القنصُ والمذابحُ التي جعلتْ مَن بقيَ يهربُ بجلدِه بسببِ الرعبِ الذي أصابَ قلوبَهم وأفقدَهم التفكيرَ الحكيمَ: وماذا بعدُ؟ لَمْ تستوعبِ المدارسُ ولا المساجدُ ولا بيوتُ الأقاربِ حجمَ اللاجئينَ إلى المدينةِ، كانَ هذا العددُ الكبيرُ والمفاجئُ مِن الطلبةِ الصغارِ في مدنِ الملحِ الجديدةِ التي لجأوا إليها أعجزَ مِن أنْ تستوعبَهم مدارسُها العريقةُ.

أيقنْتُ منذُ الصغرِ أنَّ نَكْبَتَنا كانتْ في خروجِنا مِن ديارِنا، وكنْتُ دائمًا ولا أزالُ أُحَيِّي مِن أعماقِ فؤادي مَن بقيَ صامدًا على أرضِ فلسطينَ، خاصةً بعدَ أنْ تعرَّفْتُ على بعضِهم عن قربٍ، وجدْتُ فيهم ما افتقدتُه خلالَ سنواتِ الشتاتِ، لَمْ يتخلّوا عن فلسطينيتِهم، وعاداتِهم التي بقيَتْ حيَّةً بتراثِها الغنيِّ والأصيلِ.

معاناة النكبة

عانى الفلسطينيونَ مِن وضعٍ اقتصاديٍّ سيءٍ للغايةِ بعدَ النكبةِ، والهجرةِ الأولى، وتَشَتُّتِه أولاً في المدنِ العربيةِ المُحيطةِ بفلسطينَ في مخيماتٍ فقيرةٍ وحزينةٍ تسكنُها آلافُ القصصِ والحكاياتِ لِمَن عانوا وما زالوا يعانونَ مِن اغتصابِ وطنِهم الأمِّ، ويعانون البؤسَ الذي فُرِضَ عليهم كلاجئين، والشقاءِ في الحصولِ على لقمةِ العيشِ خاصةً مِمَّن كانوا يعيشونَ على الزراعةِ في أرضِ أجدادِهم التي سُلِبَتْ مِنهم، وتمَّ حَشْرُهم في خيامٍ لا تحمي ولا تُغني مِن جوعٍ ولا بردٍ ولا مطرٍ وثلجٍ وصقيعٍ وهبَّاتِ الصيفِ الذي تشتعلُ بها الأنفاسُ المكتظةُ داخلَ الخيمِ.

تشتتَتِ العائلةُ الواحدةُ كلٌّ في بلدٍ، وزرعَتِ الأونروا المخيماتِ البائسةَ، وكأنَّها كانتْ مستعدةً لهذا اليومِ وجاهزةً له بعدَ أنْ أعلنَتْ راعيتُها الأممُ المتحدةُ قرارَها الجائرَ بإعلانِ نصفِ فلسطينَ وطنًا لليهودِ.

كانتْ بقرارِها هذا، السببَ في قلعِ الشعبِ الآمنِ والمسالمِ مِن أراضيهم وبيوتِهم، وقامَتِ المنظماتُ الصهيونيةُ بطردِ الفلسطينيينَ من مدنِهم وقراهم، وزرعَتِ الرعبَ في قلوبِهم، قامَتْ تلكَ المنظماتُ الصهيونيةُ بإغراءِ يهودِ العالمِ مِن أصولٍ أجنبيةٍ وعربيةٍ، لدرجةِ أنَّهم افتعلوا حوادثَ مريعةً ضدَّ اليهودِ في أوطانِهم العربيةِ وأوهموهم أنَّها من فعلِ الحكوماتِ العربيةِ، حتى يَهُجُّوا إلى دولةِ الاغتصابِ: إسرائيل، وأغروا يهودَ العالَمِ بالهجرةِ إلى فلسطينَ حتى يزيدوا عددَهم.

تراجعَ الوضعُ الاقتصاديُّ بشكلٍ مَهولٍ للحجمِ غيرِ المتوقعِ مِن اللاجئينَ الفلسطينيينَ، الذي شكَّلَ همًّا كبيرًا للمدينةِ التي هاجرْنا إليها بعدَ أنْ أصبحَتْ مكتظَّةً باللاجئينَ، وتوقَّفَ البيعُ والشراءُ، وشحَّ المالُ بأيدي الناسِ وتوقَّفَ تداوُلُ العُمْلةِ، وتراكمتْ ديونُ أبي على تجارِ المفرَّقِ الذينَ لَمْ يستطيعوا تسديدَ ديونِهم مِن أشوالِ السُّكرِ والأرزِ والطحينِ وتَنَكاتِ السَّمْنِ والزيتِ.

مصنع البلاط

اشترى أبي بِما بقيَ معَه مِن مالٍ، مصنعًا للبلاطِ ظنًّا مِنه أنَّ ورَشِ البناءِ لابُدَّ أنْ تقامَ ولو بعدَ حينٍ للقادرينَ مِمَّن استضافَتْهم مدينتُه مِن اللاجئينَ الذينَ لَمْ تستوعِبْهم البيوتُ القليلةُ المعروضةُ للإيجارِ، ولكنَّ هذا لَمْ يحصلْ لأنَّهم بدأوا البحثَ عن فرصِ عملٍ في الخليجِ بعدَ أنْ ضاقَتْ بهم الحياةُ، خاصةً بعدَ أنْ مُنِعَ الفلسطينيونَ مِن الحصولِ على إذْنِ عملٍ في بعضِ الدولِ المجاورةِ.

ولَمْ يدفعِ المصنعُ أُجرةَ عُمَّالِه، ولَمْ يستطعْ أبي استردادَ فلوسِه مِمَّن استدانوا مِنه فقررَ السفرَ إلى الكويتِ لدراسةِ سُوقِها بدايةً، إثْرَ الطفرةِ غيرِ العاديةِ بعدَ انفجارِ البترولِ الأسودِ مِن باطنِ أرضِها، من قِبَلِ كبرى الشركاتِ الأجنبيةِ الجشعةِ التي هيمنَتْ على التنقيبِ على البترولِ في صحراءِ الكويتِ الواعدةِ.

انفجرَ الذهبُ الأسودُ/البترولُ المطَّاطيُّ الرخوُ ذو الرائحةِ القبيحةِ؛ رائحةَ القارِ الذي لا يمكنُ استخدامُه إلاَّ بعدَ أنْ أنشأوا له مصانعَ تكريرِ البترولِ.

حصلتْ شركاتُ التنقيبِ الأمريكيةِ والأوروبيةِ على حصةِ الأسدِ بعدَ أنْ هيمنوا على شحنِه إلى بلادِهم، حتى تحرَّرتِ الكويتُ مِن هيمنةِ الإنجليزِ على مُقدَّراتِها عامَ 1961، وتغلغلتِ الشركاتُ الأجنبيةُ الكبرى في شركاتٍ عالميةٍ أخرى، حتى تنهبَ البلادَ، وتُسَيِّرَ الحُكَّامَ والعبادَ بما يُملونَه عليهم، ليبقوا تحتَ هيمنتِهم القويةِ.

نجا مِنهم مرةً، الملكُ فيصل ملكُ السعوديةِ – طيَّبَ اللهُ ثراه – الذي أوقفَ فورًا شحنَ البترولِ إلى كلِّ الدولِ التي وقفتْ إلى جانبِ إسرائيلَ باعتدائِها الغاشمِ على كلٍّ مِن الأردنِّ وسوريا ومصرَ عامَ 1967، واحتلَّتِ الضفةُ الغربيةُ والجولانُ وسيناءُ، لكنَّهم لَمْ يتركوه؛ جنَّدوا مَن يقتلُه مِن خلالِ عميلٍ لهم مِن الأسرةِ الحاكمةِ.

مخيم بلاطة

بعدَ الهجرةِ الإجباريةِ القاسيةِ، بهلعِها ومَرَجِها، مَهولاتِها وقسوتِها، بقيَتْ يافا في القلبِ والروحِ، بقيَتْ يافا تُبرِقُ في عتمةِ منامي وأحلامي، وتؤنسُ شوقي لبحرِها وبرتقالِها ونهرِها وياسمينِها.

ويتسرَّبُ في منامي رائحةُ زهورِ ليمونِها، ومضاتُ روحي تناديني، وتشكو لي القتلةَ الغزاةَ الذينَ احتلُّوا بيتِي وأرضي، قلتُ لهمْ: يا أحبَّتي لا تَخافوا، حتى الطفلِ الفلسطينيِّ الذي يُولَدُ كلَّ يومٍ في الشتاتِ، يؤكِّدُ انتماءَه له ولِمُدُنِه وقراه التي لَمْ يُولَدوا فيها: القدسِ، يافا، حيفا، عكا الناصرةِ، صفدَ، طبريا الشجرةِ، كفر قنا والطيبةِ، وكفر قاسم، ودير ياسين، وبقيةِ القرى المُهدَّمةِ.

شَبابُكِ الذينَ يتوالَدونَ في الشتاتِ يفتخرونَ بالانتماءِ إلى مَدنِهم، وقُراهم التي تُولَدُ معَهم أسماؤها، على الرغم مِن أنَّ الصهاينةَ دمَّروها بالبِلدوزر، ومَحَوا أكثرَ مِن 350 قريةً فلسطينيةً، لكنَّها بقيَتْ كلُّها علمًا راسخًا في وجوهِهم، بصَبَّارِها وحَنّونِها وأقحوانِها وزعترِها وميراميَّتِها، وغيرِها مِن الأعشابِ والزهورِ البريَّةِ التي تنمو فوقَ الخرائبِ والدمارِ.

سَلاسِلُها وحجارتُها الضخمةُ، التي كانتْ يومًا بيوتًا عريقةً وجميلةً بأقواسِها وقِبابِها، وحقولِها وبقايا أشجارِ المشمشِ واللوزِ، التي تضيءُ الخرابَ بزهورِها، بأبيضِها المُوشَّحِ بالأصفرِ والبرتقاليِّ في قلبِها، ينشرُ عطرَه فوَّاحًا يؤجِّجُ الحنينَ إليها ويزهرُ خرائبَها بالحياةِ، وتنبتُ مِن جديدٍ أشجارُ التينِ والزيتونِ، لتُثبِتَ للصهاينةِ وللعالمِ أجمعَ أنَّها راسخةٌ وممتدةٌ في جذورِ الأرضِ الخصبةِ، وعمقِ آبارِها العذبةِ.

لنْ أنسى ما حييتُ أولَ تجربةٍ لي لزيارةِ أحدِ مخيماتِ اللاجئينَ الفلسطينيينَ؛ مخيمِ بلاطةَ على أطرافِ مدينةِ نابلسَ، كنتُ في الصفِّ الأولِ الابتدائيِّ، عندَما اصطحَبَتْني معلمَتي معَها في الباصِ إلى مخيمٍ للاجئينَ قريبٍ مِن المدينةِ، لا أدري كيفَ وافقْتُ دونَ أَخْذِ الإذنِ مِن أمِّي، ولكنَّنا في ذاكَ الزمنِ كنَّا نهابُ المعلمَ ولا نرفضُ له طلبًا وتربَّيْنا على طاعتِه دونَ تردُّدٍ لأنَّه واجبٌ مقدسٌ.

هذا ما كانَ يردِّدُه الكبارُ على مسامعِنا منذُ الطفولةِ، منذُ أنْ انتظمْنا في المدرسةِ:

"قُمْ للمُعلِّمِ وفِّهِ التبجيلا... كادَ المُعلِّمُ أنْ يكونَ رسولا"

كانتِ العادةُ في ذلكَ الوقتِ ألاّ تركبَ الشابَّةُ الباصَ وحدَها، وكانَ يتوجَّبُ عليها أنْ تَصطحِبَ معَها أحدًا، حتى ولو كانَ طفلاً أو طفلةً، أخذَتْني معَها حتى لا يراها أحدٌ تركبُ الباصَ وتتجوَّلُ في المخيمِ بمفردِها.

ضخَّمَتْ زيارةُ المخيمِ مأساةَ الشعبِ الفلسطينيِّ الذي لَمْ يستوعبْها عقلُ طفلةٍ، هزَّ كياني عددُ المهاجرينَ الضخمُ في تلكَ الخيامِ المُكدَّسةِ قربَ بعضِها بعضًا، وكانَ لكُلِّ عائلةٍ مهما زادَ عددُ أفرادِها خيمةٌ واحدةٌ فقطْ، مِمَّا زادَ أغلبَ الأحيانِ على 15 فردًا يسكنونَ في خيمةٍ واحدةٍ، ينامونَ لِصْقَ بعضِهم بعضًا، فلا مجالَ للحركةِ أو التنفسِ وسطَ هذهِ الأنفاسِ الساخنةِ قهرًا ولوعةً مِمَّا جرى ويجري لهم.

معرَّضونَ لزعابيرِ أمطارِ الشتاءِ الغزيرةِ، وزعابيرِ صوتِ الرياحِ الحادَّةِ، وبرودةِ الشتاءِ التي تهُبُّ عليهم رياحًا وثلوجًا مِن الجبالِ المحيطةِ بهم على هذهِ البقعةِ شبهِ الصحراويَّةِ، والبعيدةِ عن حياةِ المدينةِ. وفي الصيفِ يُعانونَ الأمَرَّيْنِ: حرارةَ الشمسِ الساطعةِ التي تتسلَّطُ على المخيماتِ، وقلةَ المياهِ، بلْ نُدرَتَها.

كانَ الفقرُ والأوساخُ والذبابُ مُنتشرينَ في كلِّ مكانٍ في هذهِ البقعةِ التي حُفِرَتْ فيها القنواتُ كمجارٍ مفتوحةٍ، اصطحبتْني إليها مُعلِّمتي.

تكدَّسَتِ العائلاتُ النازحةُ في الخيمةِ الواحدةِ، سمعتُها تتحدَّثُ مع إحداها، لا أدري عن ماذا، ولكنَّني عرفتُ عندَما اصطحبَتْ معَها

طفلةً في مثلِ عُمري في طريقِ العودةِ لتَخدِمَها في البيتِ، تعجَّبْتُ كيفَ وافقَ أهلُ الطفلةِ المسكينةِ على بيعِها بهذا المبلغِ الشهريِّ الزهيدِ؛ الذي لَمْ يَزِدْ عن دينارٍ أو دينارٍ ونصفٍ في الشهرِ، وفعلوا الشيء نفسَه معَ بقيةِ بناتِهم، وكذلكَ كلُّ مَن حولَهم مِن النازحينَ البائسينَ.

غمغمْتُ بكلامٍ خرجَ مِن شفتيَّ:

- يا إلهي! هلْ يبيعُ الأهلُ أطفالَهم بهذا المبلغِ؟!
- اسكتي، أليسَ مِن الأفضلِ لها أنْ تعيشَ في بيتٍ نظيفٍ يَعتني بها، بدلاً مِن العيشِ في هذهِ المَزابلِ التي يسمّونَها مخيماتِ اللاجئينَ؟

لَمْ أفهمِ الفقرَ ولَمْ أتعرَّفْ عليه مِن قبلُ، ولكنَّ بؤسَ ما شاهدْتُ جعلَني أشعرُ بقسوةِ حياةِ سكانِ المخيماتِ وعذابِهم وفقرِهم. أقنعَتْ طفولَتي بجبروتِ مَنطِقِها، بأنَّها تعملُ خيرًا بها، وستُعلِّمُها في البيتِ، استغربْتُ موافقةَ أهلِها، وعلِمْتُ فيما بعدُ أنَّهم تخلَّصوا مِن فمٍ يريدُ أنْ يأكلَ، وجسدٍ يريدُ أنْ يُكسَى بملابسَ، لا قدرةَ لهم على توفيرِها لها.

أمَّا الأولادُ، فكانوا يذهبونَ إلى مدارسِ الأونروا لتعليمِ اللاجئينَ في الصباحِ؛ الولدُ يتعلَّمُ والبنتُ تخدمُ في البيوتِ. لاحظْتُ ذلكَ وأنا طفلةٌ، وثُرْتُ على موقفِ هؤلاءِ الأهلِ الجهلةِ، إذْ همُّهم تعليمُ الأولادِ الذكورِ فقطْ، الذينَ كانوا يتسكَّعونَ بعدَ المدرسةِ لبيعِ العلكةِ ومسحوقِ الحمصِ الحلوِ والقضامةِ والحلقومِ، طفولةٌ بائسةٌ وأسلوبُ حياةٍ فُرِضَ

عليهم، ولا ذنبَ لهم فيه لأنَّه نتاجُ تآمرِ وخبثِ أمريكا وإنجلترا والغربِ على الضعيفِ الجاهلِ. انتصرَتِ القوةُ على الضعيفِ، فكانوا السببَ في قَلْعِهم مِن أرضِهم وعِزِّهم ورزقِهم.

الطفلة الخادمة

كنتُ أنظرُ إلى الطفلةِ التي تجلسُ بجانبي مأخوذةً بما جَرى لها، وتمنيْتُ أنْ أعتنيَ بها وأنْ تُقيمَ معي وتصبحَ أختًا لي تذهبُ معي إلى المدرسةِ، ولكنَّني في حضرةِ مُدرِّسَتي معلمةِ الدينِ التي كنتُ أهابُها كثيرًا لقسوتِها وجِدِّيتِها في التعاملِ معنا أبعدْتُ أفكاري فورًا عمَّا تمنيتُ، ولكنَّني طرحْتُها على أمِّي فيما بعدُ.

كانتْ هذهِ الطفلةُ المسكينةُ ضحيةً غارقةً في أفكارِها تُخَمِّسُ وتُسَدِّسُ كيفَ وافقتْ أمُّها على هجرانِها! وماذا جرى وسيجري لها، كلُّ ما أصبحتْ متيقِّنةً مِنه أنَّها فقيرةٌ محتاجةٌ لِلُقْمَةِ العيشِ، وأنَّ أهلَها لا يستطيعون أنْ يوفِّروها لها.

شعرتُ بالحسرةِ على مصيرِها وبُعْدِها عن أمِّها وإخوتِها أقربِ الناسِ إلى قلوبِ الأطفالِ. إنَّ رؤيتي تعاسةَ وفقرَ وقذارةَ أحدِ مخيماتِ اللاجئينَ الفلسطينيينَ بعدَ نَصْبِ خِيَمِها، وأنا ما زلتُ طفلةً في الصفِّ الأولِ الابتدائيِّ حدَّدَتْ اتجاهي ومصيري، في الحياةِ والعملِ؛ أجلْ! عندما شاهدْتُ مُعلِّمتي تتحاورُ معْ أهلِ الطفلةِ شعرتُ بالدمعِ يطفرُ مِن عيني لأنني لَمْ أفهمْ لماذا نحنُ نسكنُ في بيوتٍ والآخرونَ في خيامٍ؟

سألتُ أمِّي التي صُدِمتْ لأنَّني ذهبتُ مع مُعلِّمتي إلى المخيمِ، وقالتْ لي: "كانَ يجبُ عليها أنْ تأخذَ الإذنَ مِنَّا"، وتعجَّبتْ أمِّي مِن جرأةِ مُعلِّمتي وأخذي معَها في الباصِ إلى مكانٍ لا نعرفُ عنه شيئًا دونَ إذنٍ مِن أهلي.

كانتْ أمِّي على حقٍّ لأنَّ القلقَ أخذَها بعيدًا جدًّا وتصوَّرتْ أنَّ مكروهًا ما حصلَ لي، وكانتْ على نارٍ تضمُّ كفَّيْها وتدعو الله أنْ يُرجِعَني سالمةً وبقيَتْ في الشرفةِ الطويلةِ التي يغطِّيها الشيشُ العالي مِن الخشبَ، مباشرةً بعدَ سورِها الحديديِّ مِن جوانِبِها الثلاثِ، بقيَتْ تنتظرُ طلَّتي بحرارةٍ، وتنتظرُ عودةَ إخوتي مِن المدرسةِ أو والدي مِن مَتْجَرِه ليبحثوا عنِّي.

وعندَما وعيتُ وكبرتُ وبدأتُ أعيشُ عاداتٍ وتقاليدَ عفا عليها الزمنُ، وكانتْ تحدُّ مِن طُموحي، ومِن تَوَقُّدِ خيالي وأحلامي، فَثُرْتُ عليها منذُ البدءِ، أجابتْني أمِّي بعدَ أنْ هدأتْ واطمأنَّتْ على وجودي معَها، بأنَّ سكانَ القرى الذينَ هربوا مِن المذابحِ التي تعرَّضوا لها، وهُمْ عادةً يملكونَ قوتَ يومِهم مِن حرثِ وزراعةِ أرضِهم، أو أراضي غيرِهم، ويدفعونَ لصاحبِها نسبةً مِن محاصيلِها الزراعيةِ التي يقتاتونَ مِنها، إنَّ هجرتَهم المُفاجِئةِ جرَّدَتهم مِن قُوتِهم، أمَّا مَن كانَ يملكُ تجارةً أو مالاً واستطاعَ إخراجَه مثلَ أبي، كانَ لديهم المقدرةُ على استئجارِ بيوتٍ نظيفةٍ وواسعةٍ، مثلِ بيتِنا الذي كنَّا نملكُه في مدينةِ يافا.

لَمْ أنسَ تلكَ الزيارةَ التي شرختْ قلبي الصغيرَ، ولَمْ يُبارحْني هذا العراكُ الداخليُّ منذُ أولِ زيارةٍ إلى مخيمِ اللاجئينَ في ضواحي

مدينةِ نـابلسَ؛ أليسَ مِن حقِّ هؤلاءِ الأطفالِ بمثلِ عمري أنْ يذهبوا إلى المدرسةِ مثلي؟ بدلاً مِن الخدمةِ في البيوتِ؟

لاجئ ولاجئة

أصـبحتْ كلمـةُ لاجـئٍ أو لاجئـةٍ هـي صـفةُ أهـلِ المخيمـاتِ، ينعتـونَهم بهـا دونَ رحمـةٍ وكـأنَّهم يعيِّـرونَهم بمكـانتِهم الحقيـرةِ التـي أصـبحوا عليهـا، كـانوا يعرفـونَ بـأنَّهم لاجئـونَ، فللأسـفِ الكـلُّ مِـن حولِهم أشـعَرَهم بـالقرفِ مِـنهم بـدلاً مِـن حمـايتِهم وتقديمِ العونِ لهم، خاصـةً وأنهم أساسًا مِن فقراءِ فلسطينَ وفلاَّحيها البسطاءِ الذين فرّوا مِـن أراضـيهم التـي يعملـونَ فيهـا، ويعيشـونَ مِمَّـا تنتجُـه أراضـيهم، وأصـبحوا ينعتـونَهم بألفـاظٍ جارحـةٍ لأنهـم تركـوا بيـوتَهم، وفَلُّـوا مِـن أرضِـهم.

بقيـتُ لسـنواتٍ أفكِّـرُ لمـاذا يُعامَـلُ اللاجئـون الـذين سـكنوا المخيماتِ معاملـةً سيئةً ووضيعةً، عن اللاجئينَ الذينَ استأجروا أو اشتروا بيوتًا لسُكناهُم؟

كِلا الطرفيْنِ لاجئٌ، كِلا الطرفيْنِ فَقَدَ عِزَّه بفقدِه لوطنِه، ولكننـي فهمتُ فيما بعدُ بأنَّ الفلاحَ بفقدانِه لأرضِه التي يزرعُها ويسقيها بيديْه فَقَدَ معَها رزقَه بالكاملِ لأنَّ الفلاحَ راضٍ بعيشتِه الهنيَّةِ، ولا يركضُ وراءَ المـالِ بـلْ يـركضُ وراءَ زراعـةِ أرضِـه فـي النهـارِ ليتمتَّـعَ بسـهرةٍ رائقـةٍ فـي الليـلِ مـع أصـحابِه يحتسـونَ الشـايَ ويكرعـونَ الأرجيلـةَ ويتحدَّثونَ بالسياسةِ، وهنا لا أجدُ تفسيرًا مقنعًا كيفَ هانَ علـى مَن

يَفلَحُ أرضَه ويُخصِّبُها ويُطلِقُ الحياةَ مِنها أنْ يتركَها ويَفِلَّ، هلْ فكَّرَ لحظةً إلى أينَ؟

هلْ هناكَ مصيرٌ أسوأُ للاجئِ مِن التقتيرِ والعيشِ على فُتاتِ الآخرينَ والقحطِ والذلِّ، بعدَ أنْ فَقَدَ سندَه وأملَه بحياةٍ كريمةٍ حرَّةٍ على أرضِه، وبيوتِ أجدادِه الحجريَّةِ العريقةِ التي تَقيه البردَ والحرَّ وتؤمِّنُ لياليَه مِن الغدرِ، وتوفِّرُ له الأمنَ والأمانَ!

رغمَ طفولتي الغضَّةِ، شعرْتُ بالقهرِ والظلمِ مِمَّا شاهدْتُ، ودَدْتُ أنْ أبكي على هذهِ الطفلةِ البائسةِ، والكثيرِ مِن أطفالِ المخيمِ الذينَ لاقَوْا المصيرَ نفسَه، تعرَّضوا لزياراتٍ يوميةٍ مِن أُسَرِ المدينةِ للبحثِ عن فتياتٍ صغيراتٍ تخدمُ في بيوتِهم، كانوا يفضِّلونَ الأصغرَ سنًّا حتى تُعلِّمُها سيدةُ الدارِ على مزاجِها، وتدرِّبُها على طريقَتِها في التنظيفِ والغسيلِ وجَلْيِ مواعينِ المطبخِ ورعايةِ الأطفالِ.. و.. و..

عبءٌ مفاجئٌ نزلَ كالطامَّةِ على رأسِ أطفالِ المخيمِ، هذا بجانبِ وضعِها الاجتماعيِّ الجديدِ الذي لَمْ تفهمْ له تفسيرًا، بعدَ أنْ أُجبِرتْ على أنْ تناديَ مَخدومَتَها: يا ستِّي! معَ الوقتِ لَمْ يَعُدْ يحتاجُ مَن يريدُ خادمةً أنْ يذهبَ إلى المخيمِ، أصبحَ هناكَ تجَّارٌ يمدُّونَهم بالأوصافِ وعلى أساسِها يتمُّ الاختيارُ.

في البدءِ كانَ عدد كبير من الناس يأتي لإحضارِ خادمةٍ مِن مخيمِ اللاجئين كبيرٌ، والشاطرُ مَن يسبقُ أولاً، هذا بدلاً مِن أنْ يُساهموا في مساعدتِهم وخلقِ مؤسساتٍ تطوعيةٍ للعنايةِ بهؤلاءِ الفتياتِ المنكوباتِ.

أجلْ! بدلاً مِن أنْ يساعدوهم على العيشِ الكريمِ، أصبحوا عِزّةَ مجتمعِهم الجديدِ لأنَّهم لاجئون، وبشكلٍ أوضحَ تمَّ استغلالُهم بصورةٍ بشعةٍ سواءٌ في الأعمالِ الوضيعةِ، أو المعاملةِ الأكثر وضاعةً مِن قِبَلِ بعضِهم، وكأنَّهم ليسوا أبناءَ وطنٍ واحدٍ، كلَّما زدْتُ تفكيرًا بهذا الموضوعِ بدأتُ أشعرُ أنَّ هناكَ علاقةً بينَ المعاملةِ السيئةِ ونَعْتِهم المستمرِّ للمنكوبينَ باللاجئينَ، لأنَّهم غيرُ راضين عن هروبِهم مِن بيوتِهم حيثُ وُلِدوا ويعملونَ ويعيشونَ.

أعتقدُ أنَّ الأونروا هي السببُ الرئيسيُ في خَلْقِ هذا الوضعِ البائسِ للاجئينَ لإنهاكِهم بالبحثِ عن لقمةِ العيشِ، حتى لا يفكروا بالعودةِ إلى وطنِهم، وزادَ مِن تعاستِهم احتقارُ الناسِ لهم، وكأنَّ لسانَ الحالِ: "لا برحمك ولا بخلّي مين يرحمك".

مَدَني وقَروي

كانَ مِن السائدِ قبلَ الهجرةِ، تعالي المجتمعِ الفلسطينيِّ المَدَنيِّ على المجتمعِ القرويِّ، كانتْ حسنةُ الهجرةِ الوحيدةُ – إذا كنَّا نستطيعُ أنْ نُطلِقَ عليها هذا الوصفَ – أنَّها مَحَتْ تلكَ الفوارقَ بينَ المَدَنيِّ والقرويِّ، لأنَّ القرويين خاصةً اللاجئينَ مِنهم، استعاضوا بالتعليمِ العالي الذي تفوّقوا بذكائِهم واجتهادِهم فيه على المدنيين، وأصبحوا مِن أصحابِ الشهاداتِ العُليا، ومِن ثَمَّ أصبحَ لهمْ مكانةٌ اجتماعيةٌ واقتصاديةٌ جيدةٌ أفضلُ مِن بعضِ شبابِ المدنِ الذين اعتمدوا على حَسَبِهم ونَسَبِهم وغِناهم.

لَمْ يَعُدْ أمامَ الشبابِ سوى التفوقِ العلميِّ، وهذا ما ميَّزَ العائلاتِ الفلسطينيةَ منذُ البدءِ، وما ركَّزَ عليه الكثيرُ مِن الشبابِ لحُسنِ الحظِّ، وعرفوا بأنَّ الإنسانَ يُقاسُ بدرجةِ علمِه واجتهادِه، وليسَ بحسبِه ونسبِه.

اتَّجهتِ الفئاتُ الفلسطينيةُ الشابةُ إلى العلمِ بعدَ خسرانِ الوطنِ، كما أصبحَ العلمُ بالنسبةِ لكلِّ أبٍ وأمٍّ فلسطينيةٍ الوطنَ البديلَ، أعني: الحصولَ على الشهادةِ الجامعيةِ العليا أصبحَ ضرورةً لا غِنى عنها للخروجِ أو التخلصِ مِن بؤسِ الفقرِ ومخيماتِ اللاجئينَ التي فُرِضَتْ عليهم.

وقدْ ساعدَ تدفُّقُ البترولِ في دولِ الخليجِ العربيِّ التي استوعبَتْ الجيلَ الأولَ مِن المهاجرينَ، والثاني مِن الخريجينَ الجامعيينَ، وانتهَتْ بذلكَ نَعْرَةُ القرويِّ، وعدمُ تزويجِ بناتِ المدنِ مِن القرويينَ، بلْ أصبحوا يتهافتونَ، ويتفاخرونَ بنسبِهم، بعدَ أنْ حصلوا على الشهاداتِ العلميةِ العليا، وعلى مراكزَ رفيعةٍ في العملِ.

أذكرُ هذهِ القصةَ لأنَّها حصلَتْ لقريبةٍ لي، وعايشْتُها شخصيًّا عندَما تزوجَتْ مِن معلمِ الرياضياتِ القرويِّ بعدَ أنْ تخرَّجَتْ مباشرةً مِن الثانويةِ العامةِ، فَهَاجَتِ العائلةُ ولَمْ تقعدْ، ولكنها كانتْ ذكيةً وشجاعةً، واعتمدَتْ على نفسِها في تحمُّلِ قرارِ مصيرِها، وسارَتْ في الطريقِ الذي اختارَتْه لنفسِها، وكانتْ فخورةً بزوجِها الذكيِّ، الذي أنجبَتْ مِنه أبناءَ أذكياءَ ومجتهدين ومحبِّين للعلمِ، وأصبحَ لهم شأنٌ كبيرٌ كأكاديميين وأطباءَ ومهندسين، أصبحَ جيلُ الهجرةِ الأولى مِن حاملي شهاداتِ الدكتوراه في العلومِ والآدابِ، والبحثِ العلميِّ، وغيرِها مِن أبوابِ المعرفةِ.

العِرض أم الأرض

عندَما كبرتُ، وكبرتْ معي مأساةُ فلسطينَ شعبًا وأرضًا، آمنتُ بأنَّ العِرضَ هو عِرضُ الأرضِ، وليسَ الجسدَ الذي للأسفِ كانَ السببَ في هجرةِ هذا العددِ الهائلِ مِن المدنِ والقرى الفلسطينيةِ، وإخلاءِ أجملِ المدنِ الفلسطينيةِ مثلِ مدينةِ يافا، التي قاربَ عددُ سكانِها المائةُ ألفِ نسمةٍ قبلَ الهجرةِ، لَمْ يبقَ مِنها سوى بضعةُ آلافٍ.

لا أدري كيف لمْ ينتبهوا بأنَّ الأرضَ هي العِرضُ، وركَّزوا فقطْ على التعرُّضِ الجنسيِّ، وعلى تهريبِ الأنثى خوفًا عليها مِن الاغتصابِ، فَفَلُّوا هاربين، وتركوا عِرضَهم الحقيقيَّ يُغتَصَبُ ليلَ نهارَ، أرضُنا هي عِرضُنا وشرفُنا المقدَّسُ.

ولكنْ، عندَما خافَ أهلُ المدنِ، وأغلبُ القرويين الذينَ لَمْ ينالوا قسطًا كافيًا مِن التعليمِ وعاشوا على فلاحةِ أرضِهم وزراعتِها، خافوا على شرفِ بناتِهم ولمْ يفكِّروا بأنَّ شرفَ الأرضِ أهمُّ، لأنَّ مَن لا وطنَ له لا عزةَ ولا كرامةَ له، كما ساهمتْ إشاعاتُ المحتلِّ ومَن تعاونَ معَهم، باندلاعِ هشيمِ قصصِ الشرفِ والاغتصابِ التي تَمَّ تهويلُها، حتى يفرَّ أهلُ المدنِ والقرى مِن بيوتِهم وأراضيهم، وتقعَ لقمةً سائغةً في أفواهِ وأحلامِ المهووسين بالعودةِ إلى أرضِ الميعادِ.

لقدْ خسرْنا عِرضَنا بخُسرانِنا وطنَنا، عِرْضُ فقدانِ شرفِ الجسدِ ليسَ أهمَّ مِن فقدانِ الأرضِ، والوطنِ الذي سُلِبَ وعِيثَ فيه فسادًا وتقطيعًا، عاشَتْ غالبيةُ مَن فرّوا مِن أرضِهم حياةَ الفقرِ والمعاناةِ،

والمعاناةِ بمخيماتِ الأنروا التي اقيمتْ على عجلٍ حيث الصقيعِ في الشتاءِ والحرارةِ في الصيفِ.

عاشَ مَن هربَ بنفسِه وعيالِه وسطَ المَجاري المكشوفةِ وسطَ أزقةِ مخيماتِهم الترابيةِ التي جلبتْ لهم الأمراضَ والأوبئةَ، وأصبحَتْ تلكَ المعاناةُ، معاناةُ اللاجئينَ الفلسطينيينَ فيما بعدُ وقودَ الثورةِ، وشهدائِها الأبرارِ.

كارت التموين

بعدَ النزوحِ، تغيَّرَ كلُّ شيءٍ في حياتي، أصبحتُ أخافُ وأرتعبُ مِن أيِّ صوتٍ، لا أدري إذا كانَ صوتُ الرصاصِ الذي انهمرَ على زجاجِ غرفِ دارِنا المُطلةِ على حديقةِ بيتِنا في يافا هو السببُ، أمْ فقطْ متأثرةٌ برعبِ أمِّي علينا من انهمارِهِ، حيثُ أخذتْنا جميعًا إلى الحَمَّامِ المحشورِ بينَ غرفِ النومِ، وضعتْني وإخوتي في حوضِ الاستحمامِ الكبيرِ، وطلبتْ مِنّا أنْ نَحْنِيَ رؤوسَنا، وخيَّمتْ علينا بجسدِها، وأحاطتْنا بذراعيْها.

فقدتُ بالتدريجِ حياتي الجميلةَ السابقةَ، وعاداتي اليوميةَ المُحبَّبةَ، فقدتُ الأمانَ، وأصبحتُ أشاركُ أمِّي خوفَها ورعبَها مِن مفاجآتِ الحياةِ، خاصةً وأنَّ المدينةَ التي لجأنا إليها كانتْ مكتظةً بالمهاجرين، ومكاتبِ تموينِ الأونروا التي أُقيمتْ لإعاشةِ اللاجئينَ في المخيماتِ التي أقيمتْ على أطرافِ المدينةِ، كانتْ مكاتبُ تسجيلِ النازحينَ منتشرةً على نطاقٍ واسعٍ، أذكرُ مِنها واحدًا كانَ مقابلَ بيتِنا

في فندقِ فلسطينَ، كانَ هناكَ طاولةٌ على رصيفِ الفندقِ الذي نطلُّ عليه مِن شرفةِ بيتِنا، وراءَها كرسيٌّ يجلسُ عليه رجلٌ أصلعُ يسجِّلُ أسماءَ النازحينَ ويصيحُ باستمرارٍ:

– بالدور يا عمِّي، بالدور، خنقتوني! مَن لمْ يصفَّ منكم بالدور فلن أسجله.

كانَ صوتُه يصلُ إلى شرفتِنا، وأمِّي تضحكُ وتبكي في آنٍ واحدٍ، لِمَا وصلَ له حالُ الشعبِ الفلسطينيِّ المعروفِ باعتزازِه بنفسِه وكرامتِه ورجولتِه وحبِّه لوطنِه، والذي تحوَّلَ بقسوةٍ إلى لاجئٍ يقفُ بالدورِ ليحصلَ على تموينِ العيشِ البائسِ مِن بودرةِ البيضِ والحليبِ ودهنِ الشحمِ والدقيقِ الذي انتهتْ صلاحيتُه مِن الأونروا.

قالَ لنا أبي بعدَ أنْ شاهدَ هذا المنظرَ:

– الحمدُ للهِ أنني لَمْ أسجِّلْ نفسي، لأننا إنْ شاءَ اللهُ سنعيشُ بكرامتِنا مِن بضائعي التي أخرجتُها مِن مَتاجري في يافا. اسألُ اللهَ أنْ يبعدَ عنّا ذلَّ كرتِ التموينِ الذي لم أحتجْه وأنا فتًى صغيرٌ بعدَ أنْ استُشهِد أبي وللهِ الحمدُ، ولا تنسَوْا أنَّ هناكَ مَن هم بحاجةٍ إليه أكثرَ مِنّا.

إنَّ اطمئنانَ أبي مبعثُه ثقتُه بنفسِه وبما أخرجَه مِن يافا في آخرِ لحظةٍ تحتَ النارِ، وجرأتُه وشجاعتُه واستقامتُه في تعاملِه مع الناسِ التي اكتسبَها منذُ طفولتِه. لقدْ أخرجَ ما يُمكِّنُه مِن إعالةِ أسرتِه الكبيرةِ مِن مخازنِه ومَتاجرِه مِن مدينةِ يافا المنكوبةِ، كانَ يتألمُ كلَّما شاهدَ

الناسَ مُصطفَّةً أمامَ مكاتبِ تموينِ الأونروا تنتظرُ مؤونتَها الشهريةَ، ويردِّدُ:

- لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ! الله يبعد عنّا ذلَّ الحاجة.

ثلج وبرد

في أولِ شتاءٍ لنا في مدينتِنا الجديدةِ بعدَ نزوحِنا، شاهدْنا ولأولِ مرةٍ نَدْفًا أبيضَ يتساقطُ بغزارةٍ، فَرِحْنا به في البدءِ، لأننا لَمْ نرَ الثلجَ مِن قبلُ، شاهدْنا بلّوراتِ الثلجِ التي كانتْ تضربُ شبابيكَ بيتِنا عندَ سطحِ الدارِ، وكنّا نصعدُ لنجمعَها ونلهو بها، أمَّا منظرُ الثلجِ الذي غمرَ المكانَ مِن الجبالِ إلى الشوارعِ وأعالي البيوتِ والعماراتِ بالأبيضِ.

توقَّفَتِ الحياةُ، ولَمْ يَعُدْ أبي يخرجُ إلى مَتجرِهِ ولا إخوتي أو أنا التي كنتُ قدْ بدأتُ سنةَ أولى ابتدائي، جميعُنا حُبِسْنا في بيوتِنا حتى توقَّفَ الثلجُ، بعدَ أنْ توقفَ الثلجُ اعتدْنا الذهابَ إلى المدرسةِ سيرًا على الأقدامِ، كانتِ المسافةُ تستغرقُ في الأيامِ العاديةِ ربعَ ساعةٍ جريًا على الأقدامِ، ألبَسَتْني أمّي البوطَ الأحمرَ العالي الخاصَّ بالمطرِ، وحملْتُ حقيبتي بيدي لأنَّه لَمْ تكنْ، أيامَ طفولتِنا، حقائبُ مدرسيةٌ تُحْمَلُ على الكتفيْنِ وراءَ الظَّهرِ، أو تُجَرُّ بعصًا مثلَ أيامِنا هذهِ.

سرتُ ببطءٍ لأنَّ الثلجَ الذي وصلَ طولُه مترًا تقريبًا اكتسحَ الشوارعَ والممراتِ، وتوقفتِ السياراتُ في مكانِها لأنَّها كانتْ مغمورةً

بـالثلجِ كشـوارعِ المدينـةِ، وعنـدَما كنـتُ أغذُّ السـيرَ باتجـاهِ مدرسـتي، سمعتُ صوتَ امرأةٍ تصيحُ بي مِن نافذةِ بيتِها:

- الله لا يِجبر أمك! يا ويلها كيف طلَّعتِك بهذا الجو؟ عودي إلى البيت، لا يوجد مدرسة اليوم.

لَـمْ أُعِرْهـا أيَّ اهتمـامٍ، وقلـتُ فـي سِرِّي "بعيـد الشـر عن أمـي" شعرتُ بأنَّها تدعو علـى أمِّي كلغةِ أهلِ نـابلسَ، كانتْ أمِّي مظلومـةً لأنَّ أبي هو مَن أصرَّ أنْ نذهبَ إلـى مدارسِنا، وأمِّي تَرجوه أنْ نبقى فـي دفـءِ البيـتِ فـي يـومٍ لَـمْ تتوقـفْ ليلتُـه عن سـقوطِ الـثلجِ، لهـذا غضبْتُ مِنها وغرزْتُ ساقيَّ في عمقِ الثلجِ، وفي كلِّ غَرزةٍ كنـتُ أسمعُ أصـواتًا غريبـةً: "زيييك"، وكلَّمـا سـحبْتُ بُوطِي بصـعوبةٍ مِن الثلجِ أسمعُ صـوتَ: "زاااك"، حتـى وصلتُ إلى مدرستِي المسترخيةِ علـى كتفِ الجبلِ الشـماليِّ المقابلِ لبيتِنا الذي يقعُ فـي وسـطِ البلدةِ الجديدةِ، خارجَ سورِ البلدةِ القديمةِ.

لَمْ يكنْ في المدرسةِ أحدٌ سوى بعضِ المعلماتِ، وعددٌ أقلُّ مِن أصابعِ اليدِ مِن التلميذاتِ، وبعدَ أنْ تدفَّأْنا قليلاً، خاصـةً أقدامَنا التـي فرَزَها الثلجُ، بمدفأةِ الكازِ، طلبوا مِنّا العودةَ إلى بيوتِنا.

مدفأة الحطب

لَمْ أنَمْ تلكَ الليلةَ مِن شدةِ حرارةِ الجسدِ، أذكرُ كالخيالِ أنَّ أبي فرَشَ لـي فرْشًـا فـي الصـالونِ علـى السجادةِ العجميَّةِ الثقيلـةِ، وضـعَ فرشتي مقابلَ مدفأةِ الحطـبِ التـي تتوسَّطُ الصـالونَ، التـي أصبحَتْ

فرنَ أمِّي بعدَ أنِ التزمْنا جميعًا البيتَ مُلتفِّينَ حولَ المدفأةِ هربًا مِن مثْرِ الثّلجِ الذي غطّى الشوارعَ، وتسرَّبَ صقيعُه مِن مساماتِ جدرانِنا.

أصبحَتِ المدفأةُ فرنَ أمِّي المؤقتَ تخبزُ فيها أرغفةَ الخبزِ/الكْمَاجْ، وتحمِّرُ الجبنةَ النابلسيةَ فيها، وتَشوي البطاطا الحلوةَ وحباتِ الكستناءِ، بعدَ أنْ أُغلقتِ الأفرانُ والمتاجرُ لعدةِ أيامٍ، كانتْ تلكَ الثّلجةُ الشهيرةُ في أولِ فصلِ شتاءٍ قاسٍ لنا بعدَ نزوحِنا مِن يافا، وسُمِّيَ بعامِ الثَّلجةِ.

في تلكَ الليلةِ المُثْلِجةِ، شعرتُ بأنَّ عيوني أصبحتْ جمرًا مِن شدةِ الحرارةِ والنظرِ في المدفأةِ، وجمرِها كالشهبِ الأرجوانيِّ الذي كانَ يطلُّ عليَّ مباشرةً مِن زجاجةِ نافذتِها الصغيرةِ، كنتُ أهذي وأرتجفُ مِن شدةِ الحرارةِ، نام أبي مَعي على الكنبةِ وبقيَ يُغطِّيني طولَ الليلِ بحِرَامٍ مِن الصوفِ، كانَ لونُه أحمرَ قانيًا، ووضعَ الحِرام الصوفَ الأحمرَ الآخرَ تحتي، كنتُ أصحو وأنامُ، وأبي يتفقَّدُني ويُدثِّرُني أكثرَ؛ فهو يريدُ أنْ يُعَرِّقَ جسدي حتى يطردُ حرارتي.

عندَما كبرتُ عرفتُ خطورةَ تدفئةِ الإنسانِ عندَما يسخنُ، وعندَما أصبحتُ أمًّا وسخنَ طفلي استعنتُ بكمَّاداتِ الثلجِ لأُخفِضَ حرارتَه، وفي إحدى المراتِ، وضعتُ قوالبَ الثلجِ في حوضٍ به ماءٌ باردٌ وغمرتُ طفلي به تدريجيًا بعدَ أنْ أصبحَ يُتَهْتِهُ مِن شدةِ الحرارةِ، حملتُه بذراعيَّ وغمرتُهما مع طفلي إلى قاعِ الحوضِ، وأخذتُ أمزِجُهُ بذراعيَّ اللتين تَحتَضِنانه حتى هبطتْ حرارتُه تمامًا، جفّفتُه

وألبستُه ملابسَه حتى لا تصعدَ حرارتُه ثانيةً، وحسَّنَتْ أدويةُ السخونةِ والتهابِ اللوزتيْنِ مِن المضاداتِ الحيويةِ السائلةِ، مِن وَضْعِ طفلي ثانيَ يومٍ مباشرةً.

كانَ الناسَ زمانًا يظنونَ أنَّه لا يطفئُ الحرارةَ إلاَّ حرارةً أعلى منها، حتى ينزَّ الجسدُ بالعَرَقِ مِن الرأسِ إلى أخمصِ القدميْنِ، للأسفِ أدَّى لَفِّي بحْراماتِ الصوفِ الثقيلةِ ووجهي متجهٌ مباشرةً صوبَ المدفأةِ، وجسدِي يخرجُ مِنه الصَّهَدُ، إلى مرضٍ مُزمنٍ لَمْ يكتَشِفوه إلاَّ في حَمْلِي لطفلي الأولِ، وجدوا أنَّ لَدَيَّ آثارَ ضيقٍ روماتزميٍّ بسيطٍ جدًا في صمامِ القلبِ، عَزَوْا سببَه إلى ارتفاعِ درجةِ حرارتي وأنا طفلةٌ، لكنَّه – والحمدُ للهِ – لَمْ يؤثِّرْ على أدائي وحَمْلِي عدةَ مراتٍ، ولَمْ يُعِقْني عن أيِّ نشاطٍ حركيٍّ أو رياضيٍّ، بل بالعكس؛ برزتُ في مجالِ الرياضةِ في مسابقاتِ المدرسةِ دونَ أنْ يظهرَ أيُّ أثرٍ لِمَرَضي، ولولا الحَمْلُ لَما سمعوا ذاكَ الصوتَ في قلبي.

كنتُ ما زلتُ الابنةَ الوحيدةَ (بعدَ فقدانِ أختي)، وفي البيتِ المقابلِ لبيتِنا الجديدِ في حيِّنا الجديدِ، كانَ عندَهم بنتٌ وحيدةٌ أيضًا، فأصبحتْ (حنين) معَ الوقتِ والجِيرةِ، صديقتي القريبةَ إلى قلبي، وكنَّا نقضي أغلبَ وقتِنا معَ بعضٍ.

كنَّا نطلعُ إلى السطحِ سويًّا، نَنُطُّ الحبلَ سويًّا ونلعبُ لعبةَ الخمسةِ أحجارٍ، كانت الأحجارُ مُربَّعةً وصغيرةً في يَدَيْنا، نخضُّهم بيدٍ واحدةٍ، ثمَّ نَفرِدُهم على الأرضِ، ونتناولُ واحدةً نرفعُها إلى أعلى

ونخطفُ الثانيةَ مِن الأرضِ أثناءَ ذلكَ، حتى نجمعَ الخمسةَ أحجارٍ بيدِنا، ثمَّ نقلِّبُهم جميعًا على كفِّنا الذي أصبحَ مُقعَّرًا حتى تصمدَ الخمسةُ أحجارِ المربعةِ الصغيرةِ عليه، لا تخرُّ مِن بينِ أصابعِنا المضمومةِ بشدةٍ أيُّ واحدةٍ مِنها وهنا نكسبُ اللعبةَ، أمَّا إذا سقطَ حجرٌ مِنّا نخسرُ، وتبدأ صديقتي دورَها باللعبِ وتحسِبُ عليَّ نقطةَ خسارةٍ، وهكذا.

أذكرُ بالخيالِ أنَّ أشياءَ معيبةً كانتْ تحصلُ على السطحِ عندَما يلحقُ إخوتي الكبارُ وإخوةُ صديقتي بالعاملاتِ في بيوتِنا إلى السطحِ محاولينَ التنفيسَ عن كَبْتِهم معهنَّ، شاهدتُ هذا المنظرَ وحنينَ ونحنُ نصعدُ لنلهوَ فوقَ سطحِ بيتِ الدرجِ لأنَّه أعلى ويطلُّ على مناظرَ أوسعَ، وإذا بالشبابِ الصغارِ مع الشغَّالاتِ، هُرِعْنا مِن خوفِ ما رأينا، وركضْنا إلى أمِّي نقولُ لها إنَّ فلانًا وفلانًا (بيعملوا عمل العيب مع الصانعة).

الشيخ الحنبلي

بعدَ الاستقرارِ في مدينتِنا الجديدةِ، زارَنا أحدُ المشايخِ مِن أصدقاءِ أبي بصحبتِهِ، فناداني لأسلمَ عليه، سألتُ الشيخَ الذي كانَ في زيارتِنا بعدَ أنْ ناداني أبي كعادتِه عندَما يزورُنا أصدقاؤه لأسلمَ عليهِم، وهنا خطرَ على بالي سؤالٌ، لا أدري ما الذي جعلَني أسألُه! هلْ هيَ العِمَّةُ الكبيرةُ على رأسِه، أمْ معاملةُ التبجيلِ التي يلقاها مِن أبي! كانَ سؤالي بسيطًا جدًّا، لكنَّه هزَّ كيانَ الشيخِ ورجرجَ عِمَّتَه الدائريةَ الكبيرةَ.

سؤالُ طفلةٍ أغضبَ الشيخَ المبجَّلَ، ولَمْ يستطعْ أنْ يخفيَه أو يضبطَ أعصابَه، سؤالٌ بعينِ طفلةٍ وعفويتِها: اللهُ خلقَنا كلَّنا صَح، بَسْ مين خلق الله؟ أخذَ الشيخُ الحنبليُّ يعنِّفُني على سؤالي هذا ويصرخُ في وجهي غاضبًا موجِّهًا الكلامَ لأبي: هذا كفرٌ، هذا سؤالٌ يُغْضِبُ اللهَ! ثمَّ توجَّهَ إليَّ قائلاً: استغفري ربِّك فورًا.

حاولَ أبي تهدئةَ الشيخِ، تيبَّسْتُ في مكاني مِن ردةِ فعلِه، وشعرتُ بحنقٍ شديدٍ حبستُه في صدري، وظلَّ يكررُ "استغفري ربك." انعقدَ لساني لأنني لَمْ أعرفْ لماذا يجبُ أنْ أستغفرَ ربِّي، وشعرتُ بحنقٍ شديدٍ على الشيخِ خاصةً عندَما طلبَ مِن أبي أنْ يُخرِجَني مِن الغرفةِ.

لَمْ أردَّ عليه، وأخذتُ أنظرُ إليه وهو يرتجفُ أمامي مِن الغضبِ، لا أدري إذا ضحكتُ ببلاهةٍ على منظرِه؟ أمْ للتقليلِ مِن حنقي وخوفي وارتباكي.

عندَما أستعيدُ الصورةَ الآنَ بتفاصيلِها الدقيقةِ، تلفُّني الدهشةُ والتعجُّبُ مِن منظرِ الشيخِ بعمَّتِه الكبيرةِ ولحيتِه الطويلةِ، يرتجفُ مِن سؤالٍ بريءٍ مِن طفلةٍ لَمْ تتجاوزِ السادسةَ مِن عمرِها. أخذَني أبي بعيدًا، ووَشْوشَني قائلاً:

- لا تقلقي مِمَّا قالَه الشيخُ لكِ، أنا فخورٌ بكِ لشجاعتِك في طرحِ مثلِ هذا السؤالِ.

لَمْ أرَ هذا الشيخَ الجاهلَ، ولَمْ أسلِّمْ عليه ثانيةً، بل أصبحتُ أتفادى رؤيةَ الشيوخِ والعماماتِ، كانَ منظرُهم يُرعِبُني ويعيدُ لي المشهدَ المحزنَ لرعبِ الشيخِ الحنبليِّ مِن سؤالِ طفلةٍ، عندَما كبرتُ لَمْ يكنْ

يهمُّني الاستماعُ إلى الأحاديثِ الدينيةِ التي كانَ يُلْقُونها لنا، فقدتُ ثقتي بكلِّ ما هو دِينيٌّ، ومِمَّا زادَ الطينَ بِلَّةً أنَّه بعدَ عاميْنِ مِن هذهِ الحادثةِ تحديدًا، بعدَ هجرتِنا القسريةِ مِن محبوبتي يافا، انتظمتُ بالمدرسةِ وكرهتُ معلمةَ الدينِ منذُ البدءِ، لأنَّها كانتْ تُنهِكُنا بالحفظِ الغيبيِّ لسورٍ طويلةٍ مِن القرآنِ ونحنُ في الصفِّ الأولِ الابتدائيِّ، فكانَ علينا أنْ نحفظَ جزءَ عمَّ دونَ شرحِه أو تقريبِ معانيه مِن عقولِنا ونفوسِنا.

أخطأتُ يومًا بالتلاوةِ، فأوقفَتْني معلمتي وضربتْني على يدي بالمسطرةِ، ثمَّ أوقفتْني باتجاهِ الحائطِ، وأمرتْني أنْ أرفعَ يدي عليه، وظهري للفصلِ حتى نهايةِ الحصةِ، وعندَما تراختْ يداي مِن التعبِ وشدِّ الأعصابِ، هزَّتْني بعصاتِها، شعرتُ بالخزيِ والعارِ مِن تلذُّذِ الطالباتِ ولَمَزاتِهنَّ، وكرهتُ معلمتي، وكرهتُ نفسي التي يصعبُ عليها الحفظُ الغيبيُّ، وتنشدُ دائمًا الوضوحَ في كلِّ ما تتعلمُ.

أحمدُ اللهَ أنَّ هاتيْنِ الحادثتيْنِ لَمْ تُفقداني إيماني، ونأيْتُ بنفسي عن المشايخِ والداعياتِ اللواتي انتشرْنَ وأنا في عزِّ شبابي وتفتُّحي للحياةِ وتحقيقِ الذاتِ، ركَّزتُ على كتابِ اللهِ أستعينُ به كلَّما كنتُ في حاجةٍ للمزيدِ مِن المعرفةِ؛ القرآنُ الكريمُ كانَ خيرَ معلِّمِ دينٍ لي.

مديرة المدرسة

بدأ أبي يستعيدُ تجارتَه بما استطاعَ أنْ يُخرجَه مِن متاجرِه في يافا إلى نابلسَ تحتَ الضربِ والرصاصِ والمجازرِ، وكلِّ أنواعِ الخطرِ الجديدِ على الشعبِ الفلسطينيِّ المُسالمِ الآمنِ.

في أولِ فصلٍ دراسيٍّ لي في المدرسةِ، أرسلتْ في طَلبي مديرةُ المدرسةِ، ارتعبْتُ مِن مجردِ أنَّها تريدُ أنْ تراني، وأخذتُ أحسِبُها يمينًا وشمالاً؛ ما الخطأُ الفظيعُ الذي جنيْتُه حتى تطلبَني في مكتبِها، ومِن بينِ بناتِ الفصلِ؟! كانتْ مديرةُ المدرسةِ معروفةً بأنَّها شديدةُ القسوةِ لدرجةِ أنَّ معلماتِ المدرسةِ كُنَّ يَخَفْنَ منها، والآذناتِ وعاملاتِ النظافةِ كُنَّ يرتعبْنَ مِنها ويتحاشَيْنَها، وعندَما أخذتْني الآذنةُ إلى مكتبِها، مِن خوفِي أمسكتُ بيدي وبدأتُ أطرقعُ أصابعي، طرقعةُ الأصابعِ كانتْ عادةً دارجةً بينَ بناتِ صفِّي نتسابقُ فيما بينَنا، مَن يطرقعُ أصابعَه بصوتٍ أعلى.

وبمجردِ أنْ مثَلْتُ أمامَ مديرةِ المدرسةِ، وأنا أنتفضُ مِن رعبِ اللقاءِ، وعنفِ مظهرِها، وتسلُّطِها على كلِّ العاملينَ مَعها، بعد أن مَثَلتُ أمامها، هزَنِي رعبِ نظرتها القاسية، من خوفي وإضطرابي، طرقعت بأصابعي، فصفعتني على وجهي، قبل أن تطلب مني بجفاء أن أطلب من أبي، أن يتبرع للمدرسة بمكانس قش من مصنعه، مما جعلني ألحُ على أبي أن يزيد عدد المكانس التي سيتبرع بها خوفًا مِن عِقابِها.

شَرَّفتِينا وآنَستِينا

كما أصبحَ لي صديقةٌ جديدةٌ تسكنُ في العمارةِ التي خلفَنا، تعرّفتُ عليها مِن خلالِ أمِّها الخياطةِ التي كانتْ تخيطُ ملابسَ أمِّي وملابسي، أصبحْنا نزورُ بعضَنا بعضًا، وكانَ لِخيَّاطةِ أمِّي جارتانِ، لمْ تتزوّجا قطُّ، كانتا في منتهى اللطفِ والكياسةِ؛ واحدةٌ "شَرَّفتِينا"

والثانيةُ "آنَسْتِينا"، كانوا كلَّما سمعوا صوتَ أقدامِنا نصعدُ على الدرجِ، تفتحانِ البابَ وتُرحِبان بنا قائلتين: "أهلا وسهلا اتفضلوا". وتَعزِمانِ أمِّي على فنجانِ قهوةٍ، وتُلِحَّان عليها حتى تَخجلَ وتقبلَ.

كانتا صاحِبتَيْ نكتةٍ، أحبَّتا أمِّي وأحبَّتْهما، ومع الوقتِ أصبحتا صَديقتَيْ أمِّي.

وفي كلِّ زيارةٍ إلى الخيَّاطةِ، كانتْ أمِّي تتوقَّفُ عندَ "شرفتينا وآنستينا"، كانتا تعطياني الحلوياتِ أضعُها في جيبي وأصعدُ بها إلى بيتِ صديقتي "رمزية" أتقاسمُها معَها، ثمَّ تطلُبان مِنّي أنْ أناديَ أمَّ صديقتي، خيَّاطةَ أمِّي لشُربِ القهوةِ معهنَّ، كانتا تملآن جيوبي بمَحْرَمَةٍ فيها مَقروطةُ جوزِ الهندِ المُلوَّنِ؛ ورديٌّ وفستقيٌّ وأبيضَ محشوٌّ بكريمةٍ حلوةٍ بيضاءِ اللونِ لذيذةِ الطعمِ.

ثمَّ تلحَقُ بأمِّي بعدَ قضاءِ وقتٍ ممتعٍ معهنَّ، كنتُ أسمعُ أمِّي تقولُ للخيَّاطةِ بأنهما خفيفتا الظلِّ وبلاطُ بيتِهما مزخرفٌ بنقوشٍ بديعةٍ وتشكيلاتٍ جميلةٍ وألوانٍ زاهيةٍ وكأنَّه لوحةٌ فنيةٌ تلمعُ نظافتُها مثلَ الرخامِ.

المنشور المحظور

وفي يومٍ مِن الأيامِ، طُرِقَ بابَ بيتِنا طرقًا قويًّا ومتلاحقًا، طلبتْ مِنّي أمِّي التي كانتْ تُرضِعُ طفلتَها حديثةَ الولادةِ، التي كانتْ أولَ مَن أنجبَتْ في مدينتِنا الجديدةِ، طلبتْ مِنّي أنْ أفتحَ البابَ، فركضتُ إلى بابِ دارِنا، وإذا بابنةِ الجيرانِ الشابَّةِ، أختِ صديقتي رمزية

ترتجفُ وهي تخبرُ أمّي أنَّ الشرطةَ جاءتْ للقبضِ عليها، فهربتْ ولجأتْ إلينا، وطلبتْ مِن أمّي أنْ تُخبِّئَها.

لَمْ تسألْها أمّي لماذا تبحثُ عنكِ الشرطةُ؟ بلْ أخذتْها فورًا إلى الدَّرَجِ الخشبيِّ الملوَّنِ بلونِ زيتونِنا، والمؤدِّي إلى السَّدَّةِ التي كانتْ مِن كِبرِها مرتعًا لي مع لُعبتي الجديدة ودولابِ ملابسِها، صعدْنا إلى السِّدةِ، وجلسْنا على الدُّوشَكِ الخشبِ المرصوصِ عليه جَنابِيُّ قطنيةٌ للظَّهرِ والجلوسِ.

سألتْها أمّي:

- كيفَ هربتِ مِن البيتِ، والشرطةُ على بابِ الدارِ؟
- قفزتُ مِن ساحةِ دارِنا على سطحِ دارِ جارتِنا أم شفيق، ونزلتُ مِن بابِ الدرجِ إلى الممرِّ المؤدي إلى شارعِكم ودلفتُ بابَ عمارتِكُم على عجلٍ حتى لا يراني أحدٌ حتى وصلتُ هنا.

قالتْ لها أمّي:

- أهلا وسهلا بكِ، البيت بيتك، بُكرا بتفرج إن شاء الله، أكيد في شكوى غلط عليك.

طلبتْ أمّي مِنّي أنْ أبقى معَها حتى أُسلِّيَها، أحضرتُ لها على الدوشكِ العريضِ الذي يصلحُ للنومِ أيضًا لُعبتي لتُسلِّيَها، وفتحتُ لها دولابَ ملابسِ لعبتي لأريَها ملابسَها، فقالتْ لي:

- سِدَّتْكم واسعة جدا، ولها شبابيك تنوِّرها وتهوِّيها.
- لأنَّ مطبخَنا كبيرٌ والسَّدَّةُ فوقَ المطبخِ، أمّي تُخزِّنُ مؤونتَها في السدةِ، وتعجنُ عجينَها هنا.

تعجبَتْ ضيفتُنا مِن العَجْنِ على السّدةِ لأنّه من الصعب نقلُ الطبليةِ على السلمِ، قلتُ لها إنّ أخي الكبيرَ هو الذي كان يصعدُ إلى السدَّةِ بخفةٍ وينزلُ متباهيًا بتوازنِه وثباتِ ظهرِه وهو ينزلُ إلى أرضِ المطبخِ.

قلتُ لها أيضًا إنّ السلمِ سَحَلَ بعمَّتي قبلَ أسبوعٍ أثناء صعودِها، فسقطتْ وشُجَّ رأسُها، وأرعبَني صراخُ عمَّتي فجَرَيْتُ نحوَها ورأيتُ الدمَ يسيلُ مِن جرحٍ في رأسِها، ناديتُ أمِّي صارخةً أنْ يدركوا عمَّتي، جاءتْ أمِّي وإخوتي فأسندُوها وأَجلسُوها على كرسيٍّ، لَمْ تَشْكُ عمَّتي مِن ألمٍ في جسدِها، حملتْ أمِّي فوطةً بيضاءَ ونشَّفتْ بها الدمَ ثم عقَّمَتْهْا بالشاشِ والكحولِ.

لكنَّ الجرحَ الصغيرَ بقيَ ينزفُ، فأخذَتْ حفنةً مِن البُنِّ وضعَتْها على الجرحِ وربطَتْ رأسَها، وعندَما جاءَ أبي نظَّفَ الجرحَ مِن البُنِّ وطهَّرَه وربطَه بالشاشِ، وقالَ أبي إنَّ الجرحَ صغيرٌ ولا يحتاجُ إلى غُرَزٍ. ضحكَتْ حسنيةُ مِن مجرَّدِ تصوُّرِ المنظرِ، وقالتْ لي:

- سأبقى هنا حتى تبعثَ أمِّي في طَلَبي، ولنْ أنزلَ حتى يمسكَ لي أحدُكم السلمَ.

ضحكْتُ مِن خوفِها وقلتُ لها:

- لا تخافي، لقدْ ثبَّتَ أبي السلمَ مِن طرفيْه جيدًا بعدَ حادثةِ عمَّتي.

بقيتْ حسنيةُ عندنا عدةَ أيامٍ، حتى إنَّ أمَّها لَمْ تَزُرْها خوفًا مِن مراقبةِ الشرطةِ لها. المهمُّ أنَّ قضيتَها حفظتْ بتدخُّلٍ مِن وجهاءِ البلدِ

وزعمائِها لدى الحاكمِ، كانتْ تُهمتُها أنَّها وَزَّعتْ في مدرستِها منشورًا لتنظيمٍ سياسيٍّ محظورٍ، قُفِلَ المَحضرُ على أنَّه وِشايةٌ، وعادتْ إلى مدرستِها، وأنهتِ الفصلَ الأخيرَ مِن الثانويةِ العامَّةِ، وفي الصيفِ زارتْ المدينةَ بعثةٌ دراسيةٌ مِن الكويتِ، فتعاقدوا معَها ومعَ ثماني خرِّيجاتٍ أُخرياتٍ للعملِ مُدرِّساتٍ في مدارسِ الكويتِ الابتدائيةِ للبناتِ.

كنتُ في طريقي يومًا مِن المدرسةِ إلى البيتِ، وتوقَّفتُ عندَ منظرٍ غريبٍ، لَمْ أرَه مِن قبلُ، شاهدْتُ أحمدَ، أخا صديقتي رمزية يرتجفُ بشدةٍ وعيونُه مقلوبةٌ مِن شدةِ رجفةِ رموشِه، وارتعاشٍ مستمرٌ في كلِّ جسدِه، اقتربتُ مِنه وإذا بأختِه الكبيرةِ حسنية التي لاحقَها البوليسُ بسببِ المنشورِ المحظورِ، تحضنُه بحنانٍ بذراعيْها مِن تحتِ إبطيْه، وتسندُه عليها حتى لا يقعَ على الأرضِ.

كان أحمدُ ممتلئًا طويلَ القامةِ، لَمْ أستطعِ الوقوفَ طويلاً أمامَ هذا المشهدِ رغمَ أنَّها طَمأنتْني بأنَّه بخيرٍ ولكنَّها حالةُ صرعٍ ستزولُ قريبًا، لَمْ أفهمْ ما هو الصرعُ؟ ركضتُ إلى البيتِ لأخبرَ أمِّي، فوجئْتُ بها تعرفُ بمرضِه، وأخبرتْني أنَّه مرضُ الصرعِ وعلاجُه صعبٌ، وأختُه متعوِّدةٌ عليه، ويحتاجُ دائمًا إلى رفيقٍ يكونُ معَه عندَما يخرجُ مِن البيتِ، لا أحدَ يعرفُ موعدَ الصَّرْعَةِ التي تهزُّ كاملَ جسدِه وتفقدُه وعيَه لدقائقَ تمتدُّ أو تنقصُ حسبَ الحالةِ.

سألت أمي: هل يعرف بعد أن يفيق ماذا حصل له؟

- بالطبعِ لا يتذكَّرُ شيئًا، لأنَّ الصرعَ يضربُ عصبَ الرأسِ، وإذا لَمْ يتلقَّفْهُ أحدٌ عندَما تأتيه الحالةُ فمِنَ الممكنِ أنْ يؤذيَ

نفسَه إذا وقعَ في مكانٍ صلبٍ، دُهشْتُ مِن منظرِ أحمد لأنَّه كانَ فتًى عاديًّا في سلوكِه ولا يظهرُ عليه المرضْ.

من البحر إلى السطح

سطحُ بيتِنا الذي انتقلْنا إليه مِن مدينةِ أحلامي وعشقي السرمديِّ، أصبحَ مَلهانا وفُسحتَنا اليوميةَ، نُقيمُ عليه المشاريعَ ونرسمُ بالطبشورةِ على أرضِ السطحِ الإسمنتيةِ مربعاتِ لعبةِ الإكسْ، ونتفنَّنُ في لعبةِ الكرسيِّ والقفزِ عن ظُهورِ بعضِنا بعضًا، يقفُ مَن يقعُ عليه الخيارُ في الوسطِ، نصطفُّ بالدورِ، ينحني ساندًا كفَّيْه على ركبتَيْه ليثبتَ على الأرضِ، ونبدأُ بالقفزِ فوقَ ظهرِه، وعندَما يأتي دوْري أحني ظهري حسبَ مَن سيقفزُ فوقي.

كانَ السطحُ كبيرًا جدًّا، نصفُه لنا والنصفُ الآخرُ للجيرانِ، كانا مفتوحيْن على بعضِهما بعضًا، وهذا وفَّرَ لنا فرصةَ اللعبِ والجَرْيِ وممارسةِ ألعابٍ شعبيةٍ، مثلِ الإكس والاستغمايَّةِ وغيرِها.

كانَ بيتُ الدرجِ مسقوفًا وكانَ إخوتي وأبناءُ الجيرانِ يستعملونَه كمسرحٍ لتمثيليَّاتِهم لأنَّه أعلى مِن أرضِ السطحِ بعدَ أنْ يتدرَّبوا عليها، يصُفُّونَ الكراسيَّ على أرضِ السطحِ، ويبقى السلمُ لاستعمالِ المُمثلينَ، كانوا يَدعُون أصدقاءَهم والجيرانَ ليُشاهدوا مسرحيَّتَهم.

في يومٍ من الأيامِ، وجدَ أخي في مخزنِ السطحِ خشبةً طويلةً وسميكةً وثقيلةً، رفعَها مع أصدقائِه الموجودينَ على السطحِ مِن أبناءِ

الجيرانِ نصفُها على المسرح، وتركوا النصفَ الآخرَ يتدلّى على أرضِ السطحِ.

أمسَكوا جيدًا بالخشبةِ مِن فوقَ، وطلبوا مِنّي الجلوسَ على طرفِ الأرجوحةِ حتى يرفعوني مِن طرفِ الخشبةِ التي يقبضون عليها بسواعدِهم ثم يُنزِلوني ثانيةً وهكذا، فرِحْتُ وجلستُ على طرفِ الخشبةِ وأمسكتُها بذراعي جيدًا حتى لا أقعَ، وأخذوا يرفعونني إلى أعلى ثمَّ يُمَرْجِحونني يمينًا وشمالاً، كانَ شَعري يتطايرُ وتنّورَتي تتمرجَحُ معي، ينفخُها الهواءُ فتصبحُ وكأنني أرتدي بالونًا كبيرًا، وخلالَ ارتفاعِ الأرجوحةِ الخشبيةِ التي كنتُ أجلسُ على حافّتِها، كنتُ أشاهدُ مِن علوٍّ، الشارعَ والسياراتِ.

كادَ إخوتي يومًا يقذفونني خارجَ سورِ السطحِ على ارتفاعِ ثلاثةِ طوابقَ وكانَ كلُّ طابقٍ مِنها ضِعْفَ ارتفاعِ أسقُفِ المباني الحديثةِ، كيفَ حصلَ ذلكَ؟ لمعاتُ ذلكَ الخوفِ وذاكَ الرعبِ تغلغلا في عمقِ الذاكرةِ، وأفسحا المجالَ لاستعادةِ المشهدِ، لقدْ زادوا مِن طولِ الخشبةِ مِن طرفِهم عن الحدِّ اللازمِ، ليرتفعوا بي عاليًا دونَ أنْ يفطنوا بأنّني أصبحتُ مُعلَّقةً خارجَ سورِ السطحِ المُطلِّ على الشارعِ، ولكنَّ ربَّنا لَطَفَ، وانتبهَ إخوتي في آخرِ لحظةٍ، وجَذبوا الخشبةَ بسرعةٍ وهبطتُ على أرضيةِ السطحِ وأنا أقهقهُ بأعلى صوتي، لا أدري إذا كانَ مبعثُ ذلكَ الفرحِ الذي عشتُه لدقائقَ وأنا طائرةٌ، أمْ الرعبُ الذي شاهدتُه وأنا معلَّقةٌ خارجَ السورِ!

كلَّما عصفتْ بي تلكَ الذكرى أتعجَّبُ؛ كيفَ كانَ لنا كلُّ هذهِ الجرأة في خوضِ مغامراتٍ خطرةٍ، كالتي مارستُها مع إخوتي الذين

أصبحوا يافعينَ، لقدْ كانوا قُدوتي في الجرأةِ والإقدامِ، والقفزِ والجَرْيِ وتقليدِ الطيور والتمثيل، وكنتُ أقلِّدُهم باستمرارٍ.

كانتْ أكثرُ المغامراتِ خطورةً تلكَ التي كنَّا نتسابقُ فيها فيما بينَنا بالسيرِ حُفاةً على حافةِ السورِ مباشرةً، يعني كنَّا نخرجُ مِن فتحاتِ درابزين السورِ الحديديِّ، الذي يبتعدُ عن الحافةِ بحوالي مترٍ ونصفٍ، نرفعُ أذرعَنا إلى أعلى حتى تستقيمَ مع أكتافِنا لتساعدَنا على ضبطِ توازنِنا، كنَّا نسيرُ بخطٍّ مستقيمٍ، ثم نركضُ ونتسابقُ على حافةِ السطحِ المُطلِّ على الوادي، دونَ أيِّ خوفٍ أو تَهَيُّبٍ!

يا سبحان الله! الطفلُ لا يعرفُ الخوفَ، إلاَّ إذا خوَّفناه، ولا يهابُ الصعابَ إلاَّ إذا حذَّرناه مِنها، هكذا خلقَنا اللهُ أنقياءَ، ونكتسبُ صفاتِنا وأخلاقَنا مِن البيئةِ المحيطةِ بنا.

كنَّا في يافا مُقبلين على الحياةِ، نحبُّ الخيرَ لكلِّ مَن حولَنا، كيفَ كنَّا نفعلُ ذلكَ؟ لا أدري! لا أدري كيفَ كانَ الخوفُ بعيدًا جدًّا عن قلوبِنا! لا أذكرُ أنني عشتُ الخوفَ حتى كبرْنا وتعلَّمْناه مِمَّن هُمْ أكبرُ مِنَّا.

كانتْ أمِّي وأمهاتُ أبناءِ الجيرانِ، يَعتَمِدْنَ على إخوتِنا الكبارِ للمحافظةِ علينا نحنُ الصغارَ، كيفَ كُنَّ مطمئناتٍ إلى هذا الحدِّ؟ يتركونَنا نلهو على السطحِ طولَ النهارِ رغمَ خطورةِ المكانِ خاصةً واجهةَ الوادي التي لَمْ يكنْ لها حائطٌ كبقيةِ السورِ، لكنْ كانَ لها درابزين مِن الحديدِ، كانَ رخوًا ومِن السهلِ خلعُ أعمدتِه الحديديةِ

الرفيعةِ، بلْ كانَ الكثيرُ مِنها مخلوعًا مِن مكانِه، فكُنَّا نتسربُ مِن هذهِ الفتحاتِ إلى حافةِ السطحِ.

أصبحَتْ فيما بعدُ مكانًا لإثباتِ جُرأتِنا وشجاعتِنا، عندَما كنَّا نتسابقُ بالسيرِ على نهايةِ هذهِ الحافةِ الخطرةِ التي كانَ طولُها يزيدُ عن عشرين مترًا.

شجرة الصنوبر

كنَّا نتمتعُ بالفُرْجَةِ على شجرةِ الصنوبرِ البريةِ الباسقةِ التي تُسابِقُ سطحَ دارِنا طولاً، كانَ يتدلّى مِنها كِيزانُ/أكوازُ الصنوبرِ البريِّ وكأنَّها فوانيسُ معلَّقةٌ على شجرةِ عيدِ الميلادِ الشامخةِ مِن عَظَمةِ علوِّها الذي يصلُ بها إلى سطحِ عمارتِنا، أيْ إلى الطابقِ الخامسِ مِن جهةِ الوادي، والثالثِ مِن جهةِ الشارعِ، كنتُ أراها مِن نافذةِ غرفةِ نومي، ومِن سطحِ بيتِنا، كنتُ أشاهدُ هذا المنظرَ البديعَ كلَّما صعدتُ مع إخوتي ورفاقِنا مِن أبناءِ الجيرانِ.

أصبحَ السطحُ الكبيرُ، بعدَ هجرتِنا مِن مدينتِي المحبوبةِ يافا، مَلهانا اليوميَّ معَ أولادِ الجيرانِ، كنتُ أرى الشجرةَ تَطلُّ مباشرةً بشكلٍ ساحرٍ علينا بمجرَّدِ الخروجِ مِن بابِ بيتِ الدرجِ إلى السطحِ، وعندَما تتساقطُ أكوازُ الصنوبرِ كنَّا نهبطُ إلى الوادي نَلُمُّه، ونبدأُ بفتحِ قشرةِ الصنوبرِ قشرةً قشرةً لنُخرِجَ مِنها حبَّاتِ الصنوبرِ البريِّ الصغيرةِ، التي كنَّا نتمتَّعُ بقَرْقَشَتِها ومَضغِها حتى تذوبَ قشرتُها الخشنةُ في الفمِ.

كانتْ أمِّي تطلبُ مِن إخوتي الكبارِ أنْ يفتحوا أكوازَ الصنوبرِ البريِّ ويُخرِجوا حبَّاتِه الصغيرةَ بضَرْبِها بقوةٍ، ثُمَّ تُحفَظُ في برطمانٍ مِن الزجاجِ، كانتْ تستخدمُه أمِّي كلَّما أهلَّ العنبُ الخليليُّ الذي يقطرُ مِنه العسلُ بكثرةٍ.

كانتْ أمِّي تعصرُه، ثمَّ تصفِّيه وتغليه على النارِ وتضيفُ عليه السَّميدَ أثناءَ ذلكَ ثُمَّ القْرِيش، لأنَّه يُقَرْقِشُ بالأسنانِ وطعمُه لذيذٌ، أعتقدُ أنَّ أصلَ الكلمةِ قْريشْ، وهو مُستخرجٌ مِن شجرةِ الصنوبرِ البريِّ.

كانتْ أمِّي تضيفُ عليه حبوبَ الينسونِ، والقَزحةَ/حبَّةَ البَرَكَةِ، والصنوبرَ، وتَفْرِدُه رقيقًا على شرشفٍ أبيضَ تحتَ الشمسِ ليجفَّ، ثم تَقطعُه شرائحَ طوليَّةٍ، أو مربعاتٍ، ويُخزَّنُ لفصلِ الشتاءِ لأنَّه مفيدٌ ومغذٍ ويجلبُ الطاقةَ بسببِ سعراتِه الحراريةِ العاليةِ، فيما يُعرفُ بالمَلْبَنِ.

مشهد درامي

كنتُ أصعدُ مع أمِّي إلى السطحِ كلَّما صعدتْ لنشرِ غسيلِها، وكنتُ أناولُها ملاقطَ الغسيلِ، وفي إحدى المراتِ شاهدتُها تتركُ الغسيلَ فجأةً وتضربُ وجهَها بكفَّيْها، وتصيحُ بأخي، سمعتُ طرقعاتِ القبقابِ الخشبيِّ الذي تنتعلُه أمِّي، يطرقعُ أرضَ السطحِ الإسمنتيةِ بقوةٍ، تركتْ قبقابَها وجَرَتْ حافيةً باتجاهِ حافةِ السطحِ.

اتجهتُ بعينيَّ مباشرةً حيثُ تنظرُ أمِّي التي كانتْ تضربُ خدَّيْها وتولولُ، اقشعرَّ بدني لهولِ ما رأيتُ؛ كانَ أخي الصغيرُ الذي لحقَ بأمِّي إلى السطحِ دونَ أنْ تدري، معلَّقًا بذراعيْ أخي الأكبرِ، نصفُه الأسفلُ مُدلًى مِن حافةِ السطحِ إلى الوادي، والنصفُ الأعلى بذراعيْ أخي، تراجعَ على الفورِ، ورفعَ الصغيرَ وعادَ به سليمًا مِن بينِ قضبانِ السورِ الحديديةِ المُطلَّةِ على الوادي.

أشعرُ الآنَ وأنا أستعيدُ المشهدَ بقشعريرةٍ تهزُّ بدني، وغصةً تقبضُ على فؤادي، مِن مجرَّدِ استعادةِ هولِ المشهدِ ورعبِه، أحمَدُ اللهَ أنَّ أخي المهووسَ لَمْ يرتعبْ مِن صراخِ أمِّي، ويُرخي يديْه القابضتيْن على الصغيرِ بقوةٍ مِن تحتِ إبطيْه. وعندَما سألَتْه أمِّي:

- كيفَ تفعلُ ذلكَ بأخيكَ الصغيرِ؟
- لأنَّه لا يسمعُ كلامي، كنتُ أهدِّدُه فقطْ يا أمِّي، هلْ مِن المعقولِ أنْ أرميَ أخي؟!

ثمَّ هزَّتْ أخي بشدةٍ وأخذتْ تلقِّنُه درسَ الشيطانِ الرجيمِ، الذي مِن الممكنِ أنْ يدسَّ أنفَه في كلِّ شيءٍ، ويتركَه يرمي الصغيرَ مِن علوٍّ شاهقٍ، وأضافتْ:

- هذا ليسَ لعبًا، السطحُ مرتفعٌ كثيرًا عن الأرضِ، ولو وقعَ أخوكَ مِن بينِ يديْكَ سيتهشَّمُ رأسُه ويموتُ في الحالِ.

مشهدٌ لَمْ تنْسَه (الست زبيدة)، التي استعادتْ شريطَ اليوتيوب الذي نسخَه عقلُها الباطنُ، وأضاءَ فجأةً تفاصيلَ المشهدِ وكأنَّه حصلَ للتوِّ، رغمَ قِدَمِه وتواترِ السنواتِ عليه، ومضاتُ اليوتيوب

أنارتِ الجزءَ المعتمَ مِن الذاكرةِ، وألحَّتْ عليها أنْ تُخْرِجَ هذا المشهدَ إلى النورِ.

عندَما ذهبتُ لزيارةِ هذا البيتِ بعدَ أكثرَ مِن أربعينَ عامًا، صعدتُ إلى السطحِ، وقفتُ في المكانِ نفسِه الذي كانَ أخي متدليًا مِنه، فشعرتُ بدوخةٍ وغثيانٍ، ولَمْ أستطعِ النظرَ إلى الوادي بعدَ أنْ تجسدَّ المنظرُ مِن جديدٍ، حمِدْتُ اللهَ ثانيةً على نجاةِ أخي، خاصةً عندَما تذكَّرْتُ القطةَ المسكينةَ، التي رماها ابنُ الجيرانِ مِن نفسِ العلوِّ، ودَعَتْ عليه المرأةُ التي تسكنُ الحُوشَ، دعوةً هزَّتْ مسامعَنا، وعندَما سئلَ لماذا فعلَ ذلكَ، قالَ كانتِ القطةُ تعبثُ بالمَلْبَنِ الذي طبخَتْه أمُّه، وفَرَدَتْه على الشرشفِ الأبيضِ النظيفِ على السطحِ حتى يجفَّ تحتَ الشمسِ.

فلوكة السطح

في أولِ شتاءٍ لنا في بيتِ السطحِ الذي انتقلْنا إليه بعدَ نزوحِنا مِن يافا، جلبَتِ السماءُ مطرًا غزيرًا لأيامٍ متلاحقةٍ، وبعدَ أنْ توقفَ المطرُ، وأشرقتِ الشمسُ، وازرقَّتِ السماءُ، وهدأتِ الرياحُ التي هبَّتْ معَ المطرِ، وانتشرَ ضوءُ الشمسِ على سطحِنا، مرتعِنا صيفًا وشتاءً، ألحَحْنا على أمِّي أنْ تسمحَ لنا بالصعودِ إلى السطحِ للتمتُّعِ بالشمسِ، والنسيمِ العليلِ بعدَ أنْ غسلَ المطرُ الغزيرُ الأرضَ والشجرَ، وبمجردِ رؤيتِنا نورَ الشمسِ، انطلقْنا بالفرحِ والبهجةِ نحوَ دفئِها.

كانتِ الشمسُ تُنعِشُني دائمًا، وتُدخِلُ السرورَ إلى قلبي وروحي كلَّما لفَّني دفئُها، خاصةً بعدَ أنْ ضِقْنا بالبيتِ وضاقَ بنا لعدةِ

أيـامٍ، لَـمْ نتعـودْ منـذُ ولـدْنا أنْ نقضـيَ اليـومَ بليلِـه داخـلَ الـدارِ، كانَ البحرُ مَلهانا صيفًا وشتاءً، وحلَّ محلَّه السطحُ بعدَ هِجرتِنا مِن يافا.

صعدْنا نُسابِقُ بعضَنا بعضًا، وكانَ أخي الكبيرُ قدْ وصلَ قبلَنا ليرى وضعَ السطحِ، فوجئَ وفوجئْنا معه أنَّ الجزءَ الغربيَّ مِنه كانَ مغمورًا بماءِ المطرِ فشَكَّلَ بحيرةً صغيرةً بسببِ ميلانِ ذلكَ الجزءِ لدرجةِ أننا تمنَّيْنا العومَ الذي افتقدْناه كثيرًا، كنَّا بملابسِ الشتاءِ الصوفيةِ، وكانَ الجوُّ باردًا، ولكنَّ اللعبَ بالجوِّ الباردِ أهونُ علينا مِن الجلوسِ بدفءِ المدفأةِ بينَ أربعِ حيطانٍ.

فجأةً، شاهدتُ أخي يقلِّبُ غطاءَ الصندوقِ الخشبيِّ الكبيرِ المَركونِ على السطحِ، أجلسَني أنا وإخوتي داخلَه وذهبَ يبحثُ عن عصًا، ولمْ يجدْ سوى مكانسِ القشِّ ذاتِ اليدِ الخشبيةِ الطويلةِ التي تُستَخدمُ لشطفِ السطحِ، أحضرَ اثنتيْنِ، وجلسَ في مقدمةِ الصندوقِ، وأخذَ يجذِّفُ فلوكتَه الجميلةَ التي أخذتْ تتمايلُ مِن حملِها.

وكانَ رذاذُ الماءِ يتطايرُ كلَّما رفعَ مكانسَ القشِّ على الجانبيْنِ، أخذْنا نصيحُ مهلِّلينَ مِن الفرحِ، ونحمِّسُه على سرعةِ التجذيفِ بنا، والرذاذُ يتطايرُ مِن حولِنا، ويبلِّلُ شُعورَنا وملابسَنا، ونحنُ نقهقهُ ونتضاحكُ مِن عمقِ قلوبِنا الصغيرةِ المتفتحةِ على الحياةِ والفرحِ واللهوِ والمرحِ.

الملك الشاب

في يَومٍ صَيفيٍ جَميل، بعد شِتاءٍ قارسٍ، جَاءَنا أخي الكبير مُهلِلا بأنَ المَلِك سَيزورُ مَدينَتَنا، وبما أن أخي عضوٌ نشطٌ في فرقةِ الكشافةِ التابعةِ للبلديةِ، بُلِغَ مِن قائِده بأنَه سَيقودُ فَريق الكَشافةُ في مُقَدمِة المَسيرَةِ حاملا علم المملكة الأردنية الهاشمية أثناء زيارة الملك الشاب إلى مدينة نابلس. كنا نسكن مقابل الفندق اليتيم في المدينةِ، (فُندق فِلسطين) الذي استضَافَ الملك عندما زارها لأول مرة بعدَ أن أصبَح مَلِكاً على الضَفَتَين وهو في الثامنةِ عشرَ من عُمرِه. بعد أن إنضَمَت الضفةَ الغربيةَ إلي الشرقيةِ، أصبَحَت رِئَتُها الثانيةُ وَسُميتْ الأردن.

قالَ لنا أَخي إستَعِدوا لِرؤية (الملك حسين) لأنه سيمر من أمام بيتنا عندما يترجل الى فندق فلسطين المقابل لبلكونَتِنا/شُرفَتِنا، تستطيعوا أن تشاهدوه عن قرب.

كان نِصف الشرفة الأسفل مُسوراً بالحديد، والنصف الأعلى مِسَورٌ بالمشْرَبيات الخشبية المدهونة بالأخضَر الفُستُقي، ولها نوافذ خشبية تفتح عند الحاجة. كانت المشربيات تَحجِبُنا عن الشارع حتى لا يَرانا المُشاةُ أو رواد الفُندق، كانت طويلةٌ جدا بطولِ واجهِة عَمارتِنا المُطلِة مباشرةً على الفُندق، لا يَفصِلنا عنه سوى أمتارُ الشارعِ بَينَنا.

في ذلكَ اليومِ الموعودِ عَجَ بيتُنا منُذ الصَباحِ الباكرِ بمن نَعرف ومَن لا نَعرفُ من الجيرانِ، وسُكان الحي. الكلُ يريدُ أن يَرى الملك

الشاب، وَيُحييه على زِيارتِه الأولى لمَدينتِهم. لم يُغلق باب دارنا الذي استقبَل النساءُ وأطفالِهن، واتجَهنَ مباشرةً إلى البَلكونَة/الشُرفَة التي فَتحَت نوافذها الخشبية على مِصراعَيها، وغطَت النساءُ شعورِهن بإيشارباتِهنَ.

ولما إمتلأت الشرفة، ولم يَعُد هناك مكان، إنطلقت النساء إلى السَطح، تَجمَعن على سورهِ المُطل على الفندق، لم يَكتَفين بذلك وصعد المزيد منهن فوقَ بيتِ الدَجاج العامرُ بالكَثيرِ مِنَ الدَجاج والصيصان الهشة بزغبها الأصفر في صناديق خشبية أرضِيةٍ، داير ما دار بَيت الدجاج والأرانِب، أمَا الصناديقُ المعلقةُ كانَت بيوتاً للحَمامِ.

سادَ الهَرجُ والمَرجُ بقرب وصولِ الملك، شاهَدتُ في مقدمةِ المَوكب أخي حامِلا العَلم، وآخرين من حامِلي الطُبولِ الضخمَة المُعلقةِ على صُدورِهم، وبيدِهم عصي يَطرُقونَ بِها بقوة بتناغم مع شباب جوقة الكشافة الذين يحملونَ المَزامير، يَعزِفون وينشدون النشيد الوطني للبلاد.

كانت الجماهير مبهورة برؤية الملك الشاب، تهتف بحياته منذ أن طلّ عليهم بيفاعته، لم يتركوا بُقعَة على الأرضِ إلا واصطَفوا عَليَها، والباقي خاصةَ النِساءُ والأطفالُ فَقد تَجمعوا على شُرفاتِ العماراتِ وأسطُحِها منذ مَدخل مَدينة نابلس حتى عَمارتِنا المطلةُ على الموكبِ الملكي حتى توقف امام الفندق. ترجل الملك وعلا الهتاف، وبدأت كلمات المسؤولين ووجهاء البلد ترحب بالزائرِ المُبَجَل.

كان (الملك حسين) يرتدي ملابِس الجَيش، ويضع على رأسِه حطةً حمراءً، مَثنيةً من طَرفٍ وراءَ ظَهره والطرفِ الآخرِ ملقياً على كَتفِهِ، وفوقها عقالٌ أسودُ اللون، كان صغيرُ الحَجم قصيرُ القامَةِ، يَجلِسُ في سيارةٍ مكشوفةٍ يَسوقها بنفسه، ويُحيي الجماهيرِ الغفيرةِ التي كانت تتدافع على جانِبي الشوارع من مدخل مدينة نابلس حتى وصُوله إلى مَقرِ إقامَته، عندما شاهدناه بملئ عيون النساء اللواتي حيينه بطريقتهن، بالزغاريد التي انطلقت بحماس، أبطَأ (الملك حسين) السيارةُ إلى الحَدِ الأَدنى حتى توقفت تماما ترجل منها ووقف ليحي الجماهير وقامت الكشافة باستعراضاتِها أمامَ الملك، وفريق النظام منهم حاول منع تَدافُعَ الناسُ إليه، الكل يريد أن يراه بعد أن إستلَمَ العَرشَ عن أبيهِ (الملك طلال) الذي أُعلنَ أنَه مريضٌ وَنُقِل إلى تركيا للعِلاج.

فرقعة أصوات الدجاج

فَجأةً، سَمِعنا صوتَ إرتِطام شديد وصياح، أدخلوا الملك بسرعة إلى الفندق، وهَرعنا جميعا إلى مصدر الصَوت الفَظيع الذي هزَ بَلكونِتنا/شُرفتنا، وإذا بِبَيتِ الدجاج الذي بناه لنا أبي، ورَكِبَتهُ نساءٌ سمينات مع أطفالِهن، قد تَهدَمَ فوقَ رُؤوس الدجَاج والأرانب والحَمام، دُهِسوا بقسوة.

إختَلطَ الحابِل بِالنابِل، الكل يصيح؛ النساءُ الجريحاتُ، وبَقايا مَن بَقيَ حَياً منَ الدواجِن المسكينِة التي أَخَذَتْ تَعرِجُ بعد خروجها

من الشبك الذي لم يتهشم، تُكاكي/تُولول من الألم، ومَن بَقيَ حَياً من الصيصانِ كان يوأوأ أيضا. أدْمَتْ قَلبي مَجزرةِ حَيواناتِنا الأليفَةِ التي كُنتُ أعشقُ وألاعبُ كل يوم.

كُنتُ أُصَبِحُ عَليهِم كلَ صَباح، وأقدمُ للأرانبِ الطَعام من خسٍ وجزرٍ، وأرُشُ حبوبَ القمحِ والشَعيرِ للدواجن بفرحِ وحُبور، وأتمتَعُ بِمنظَرِها تُعارِكُ بَعضَها البعَض للحُصولِ على أكبرِ كَميةٍ من البذورِ بشهية. كما كُنتُ في بعض الأحيان أقدم لهم ما يفيض من الأرز والخبز والبقول من طعامنا، كنا نُسَمِنَهم بأكلٍ مغذٍ وصحي ومفيدٍ، كما عَلَمَني أبي.

هَرَعَ رجالُ الشُرطَةِ (بعد ان أدخلوا الملك بسرعة إلى الفندق) إلى سَطحِ عمارَتِنا لِيعرفوا سَببَ الإنفِجار المفاجئ، وأصوات صراخ النساء الذي ملأ سطح الدار، وانطَلقوا ضاحكينَ عندَما شاهَدوا الهرَجَ والمرَجَ، وصياحِ النِساء والدِيوكِ والدجاجِ والحمامِ والأرانب.

طلبوا الإسعافَ للنساءِ وتَرَحموا على الدواجِنِ، وساعدهم إخوتي وأبناءِ الجيرانِ في لَملمةِ المدهوسِ مِن حيواتنا الأليفة الحبية في سِلالٍ، دَفنوهُمْ فيما بعد بالوادي خَلفَ عَمارَتِنا.

أحبَّ الشعبُ الأردني بِضَفتيه مَليكَه الشاب، الذي كان تحت الوصاية منذ نفي أبيه. حتى أكمل الثامنةَ عشرَ من عمره. تمتع الملك حسين بِكَريزمَة قوية، وقادَ البلاد بِحنكِهِ وشَجاعةَ وبأس. أحَبه شَعب الضَفَتَين، اللتينِ أصبحتا وطناً واحداً حتى حرب عام 1967

(النكسة) التي إستولت فيها إسرائيل على الضفة الغربيةِ، والجولان السوريةِ، وسيناء المصريةِ.

بذرة الخوف

كنتُ ألعبُ مع صديقتي رمزية في ساحةِ دارِهم، وسمعْنا صوتًا غريبًا كالصراخِ المكتومِ، نزلْنا الدرجَ بسرعةٍ، ووجدْنا بعضَ أطفالِ الجيرانِ، على مدخلِ أحدِ البيوتِ، قالوا لنا إنَّ سيدةَ البيتِ ماتَتْ، والجاراتُ مِن حولِها يبكونَها.

كيفَ تموتُ سيدةُ البيتِ وما زال لديْها أطفالٌ صغارٌ؟ أثارَ هذا الخبرُ دهشَتَنا واستغرابَنا، وكانَ البابُ مواربًا، دخلْنا مِنه ويا ليتَنا لَمْ نفعلْ! كانَ هناكَ جسدًا ممددًا على الأرضِ مغطّى بحرامٍ ثقيلٍ في جوٍّ صيفيٍّ، لفتَ نظري أنَّ قدمَها كانتْ مكشوفةً، حزنتُ عليها، أخذتُ أتساءلُ لماذا غطّوا وجهَها بهذا الحرامِ الثقيلِ؟ ألا يكفي أنَّها ماتَتْ ويريدون أنْ يخنُقوها كذلك! وإذا بيدٍ تشدُّني بقسوةٍ، وتسحبُني خارجَ الدارِ، كانتْ يدَ أمِّ صديقتي التي افتقدتْنا وعرفتْ بأننا دخلْنا دارَ الجارةِ الميتةِ.

نزعتْنا أمُّ صديقتي بقسوةٍ، وأخذتْ تعاقِبُنا بكلامٍ شديدِ اللهجةِ، أعتقدُ أنّه كانَ أحدَ الأسبابِ التي اندفنتْ في العقلِ الباطنِ وتركَتْ أثرًا سيئًا في نفسي.

لمْ نكنْ نعرفُ الخوفَ، ولكنَّ أمَّ رمزية اعتبرتْ دخولَنا إلى بيتِ المتوفاةِ سيجلبُ الشؤمَ لأهلِنا، وحذَّرتْنا مِن فعلِ ذلكَ مرةً أخرى

فزرعتْ رعبًا في عَقلي الصَغيرُ، وأصبحْتُ أخافُ أنْ يِصابَ أهلي بسوءٍ، وأخذْتُ ألومُ نفسي وأدعو ربي بقلبٍ خاشعٍ ودموعي تملأُ عينيَّ أنْ يحمي أمّي وأبي وإخوتي وأصحابي.

هذهِ الحادثةُ وتعنيفُ أمِّ صديقتي، زرعتِ الخوفَ في قلبي مِن شيءٍ اسمُه الموتُ، وتعبْتُ كثيرًا حتى أتخلصَ مِن هذا العذابِ، لمْ يرعِبْني منظرُ المرأةِ الميتةِ، ولكنْ هزَّني بقوةِ التوبيخُ والقسوةُ التي عاملَتْنا بها أمُّ رمزيةِ، لدرجةٍ جعلَتْني أكرهُ الموتَ وأخافُه كثيرًا.

ذهبتُ يومًا بعدَ المدرسةِ مباشرةً، لمشاهدةِ فيلمٍ في السينما التي عشقْتُها منذُ أنْ افتتحوا في نابلسَ سينما الحمراء، كانَ مَعي مصروفي شِلِنْ/خمسة قروشٍ، وعندَما خرجتُ مِن السينما كانَ قدْ حلَّ الظلامُ، أخذتُ أجري إلى البيتِ والخوفُ يملأُ قلبي، لأنني سأمرُّ على المقبرةِ التي دُفِنَتْ فيها أختي، ورغمَ السورِ العالي شعرت بأن أختي عائشة التي ماتت رضيعة كانتْ تنادي عليَّ ولا أدري مِن أينَ جاءَني هذا الشعورُ بأنَّها تُنادي عليَّ وتطلبُ مِنّي إخراجَها مِن حفرتِها.

أدرتُ وجهي الذي غمرَتْه الدموعُ وأخذْتُ أشهقُ بالبكاءِ، عندَما وصلتُ البيتَ، كانَ أخي في الشرفةِ خارجًا للبحثِ عنّي، وزادَ بكائي وأنا أقولُ لأمّي وأنا أرتجفُ مِن الخوفِ: سمعتُ أختي تناديني عندَما مررتُ مِن السورِ قربَ قبرِها.

الكساد ولعبة البرجيس[1]

أصبحَ أبي يلعبُ مع أمِّي لعبةَ البَرجِيس وأصلُها فارسي، وذلكَ مباشرةً بعدَ تناوُلِ الغداءِ، وذلكَ بدلاً مِن أنْ يأخذَ قيلولتَه، وهي عادةٌ جديدةٌ اكتسبَها أبي مضطرًا بسببِ قلةِ الزبائنِ، والبيعِ والشراءِ، أنقذَتْ لعبةُ البَرجيسِ أبي مِن همومِه وملأتْ وقتَه الضائعَ والمَملَ، خاصةً وأنَّ أبي كانَ لا يهدأُ، دءوبُ الحركةِ ونشيطُها، ويملكُ طاقةً تعوَّدَ التنفيسَ عنها بالعملِ والتجارةِ وتصديرِ البرتقالِ والسفرِ.

خففتْ لعبةُ البرجيسِ مِن شُعورِ أبي بالكسادِ الاقتصاديِّ الطاحنِ، ووفَّرتْ لهم بعضًا مِن الاسترخاءِ، لمواجهةِ حياتِهم الجديدةِ الصعبةِ، خاصةً بعدَ النكبةِ وضياعِ أكثرَ مِن نصفِ فلسطينَ.

سُدَّتْ سبلُ الرزقِ في وجهِ التجارِ، وقلَّ دوامُ أبي في مَتجرِه الجديدِ، كانَ أبي يهلِّلُ مِن الفرحِ إذا غلبَ أمِّي، ويمتعضُ إذا غلبَتْه، وهو التاجرُ الذي كانَ يتقبلُ الربحَ والخسارةَ بصدرٍ رحبٍ، وبعدَ هجرتِنا أو نزوحِنا مِن مدينةِ يافا لمْ يَعُدْ عندَ أبي صدرٌ رحبٌ؛ فَقَدَ طوَّلَ بالِه وهدوءَ نفسِه، وأصبحَ يثورُ لأتفهِ الأسبابِ، لأنَّ عبئَه زادَ

(1) البرجيس: في اللغة هو كوكب المشترى، أصلها فارسي ويعني الممتلئ شرا. تتكون من الودع/الزهر مكون من 6 ودعات من الصدف البحري الصغير، يهز باليد ويرمى على قطعة قماش سوداء مدروزة بخيط القصب اربع اضلاع كل ضلع فيه ثمانية مربعات بالطول وثلاثة بالعرض (شكل الصليب) بوسطها مربع هو بيت البرجيس الرئيسي الذي تبات فيه الأحجار كلها غذا استطاع أحد اللاعبين تجاوز كل المربعات بودعاته الربعة دون أن يكسرها غريمة. وهي لعبة شعبية شهيرة في بلاد الشام، متداولة اكثر بين النساء، وتدخل عادة في جهاز العروسة الدمشقية.

وأصبحَ برقبتِه عائلةٌ كبيرةٌ، أخذَ يبذلُ قُصارى جهدِه لتوفيرِ العيشِ الكريمِ لنا، دونَ بارقةِ أملٍ في تحسُّنِ أوضاعِ الناسِ الاقتصاديةِ.

تحسَّرَ أبي كثيرًا على يافا والازدهارِ الاقتصاديِّ الذي عاشَه فيها، وشهدتْ عليه تجارتُه فيها، وبسببِ الكسادِ أصبحَ لديه وقتٌ أطولُ يقضيه معَنا، أخذَ أبي يحدِّثُنا مطولاً عن يافا التي استقطبتِ العربَ، مِن الشامِ والعراقِ ومصرَ، فتحوا فيها تجارةً وبَنَوْا فيها مصانعَ، فكانتْ المدينةُ مزدهرةً اقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا، ويعمُّها الرخاءُ في كلِّ جوانبِ حياتِها.

وحدَّثَنا أبي عن صدمتِه بضياعِ يافا، وتفرُّغِه للدفاعِ عنها، حتى جاءَ يومُ تفجيرِ مبنى السرايا الذي بناه العثمانيون مركزًا للحكومةِ، واستولى عليه الإنجليزُ بعدَ أنْ حكموا فلسطينَ ضمنَ تركةِ سايكس بيكو التي شرذمَتْ بلادَنا العربيةَ وقطَّعتْ أوصالَها، وأصيبَ أبي إصاباتٍ طفيفةٍ، ولكنْ راحَ ضحيتَها العشراتُ مِن الأبرياءِ الذينَ كانوا في المبنى أو في محيطِه.

بعدَ تلكَ الحادثةِ، جاءَ شريكُ أبي التاجرُ، وهو يهوديٌّ عربيٌّ، كانَ شريكَه في استيرادِ المُربَّى الرومانيِّ، جاءَ إلى أبي ليطمئنَّ عليه بعدَ حادثِ السرايا، ونصحَه أنْ يغادرَ مع عائلتِه مدينةَ يافا لأنَّها ستسقطُ بينَ لحظةٍ وأخرى بأيدي العصاباتِ الصهيونيةِ.

الغريبُ هنا أنَّ شريكَ أبي اليهوديُّ هذا ذهبَ إلى مدينةِ نابلسَ مباشرةً بعدَ ضياعِ الضفةِ الغربيةِ ونكبةِ فلسطينَ عامَ 1967، ليبحثَ عن أبي، كانَ يعرفُ بأنَّ مدينةَ نابلسَ مسقطُ رأسِ أبي، تخوَّفَ عمِّي

مِنه بعدَ أنْ أصبحَ قائدًا عسكريًّا، سألَ عن أبي فلَمْ يجدْه، ولكنَّه وجدَ عمِّي، وقالَ له:

- أرجو أنْ تبعثَ رسالةً إلى أخيك تطلبُ مِنه العودةَ إلى فلسطينَ، وأنا سأساعدُه في ذلكَ.

لكنَّ عمِّي لَم يخبرْ أبي في حينه، خاصةً وأنَّ أبي انتقلَ بتجارتِه إلى الكويتِ، خافَ عمِّي على أبي مِن أنْ تكونَ مكيدةً مُدبَّرةً مِن شريكِ أبي اليهوديِّ المولودِ في فلسطينَ، خاصةً بعدَ أنْ رآه في بزتِه العسكريةِ، وأنَّه يعرفُ بأنَّ أبي كانَ معَ النجادةِ للدفاعِ عن يافا. كتمَ الموضوعَ عن أبي، ولمْ يعرفْ به إلاَّ بعدَ زمنٍ طويلٍ.

أخبرتْني صديقةُ صِباي بأنَّها عاشتْ في يافا وأحبَّتْها بعدَ أنْ ذهبَ أبوها التاجرُ يبحثُ عن مصدرِ رزقٍ له ولعائلتِه، درسَ وضعَها وعرفَ ما كانتْ تحتاجُه المدينةُ، فوجدَ أنَّها بحاجةٍ إلى المزيدِ مِن مصانعِ الزجاجِ والأحذيةِ وصناعةِ البوظةِ الشاميةِ الشهيرةِ، نفَّذَ ذلكَ ونجحَ نجاحًا باهرًا، أحبَّ أبوها يافا كما أحبَّتْها أمُّها كثيرًا، وكانتْ تستضيفُ أقاربَها مِن دمشقَ وتفسِّحُهم في ربوعِ يافا، تلكَ المدينةُ السعيدةُ بكلِّ ما توفَّرَ لها مِن وعيٍ ومعرفةٍ وثقافةٍ ودُورِ نشرٍ وصحفٍ ومسارحَ ودورِ سينما وبحرٍ ونهرٍ.

قالتْ لي صديقتي إنَّه كانَ لوالدِها شريكٌ يهوديٌّ في تل أبيب، ونصحَه بالمغادرةِ خوفًا عليه وعلى عائلتِه، وقالَ له إنَّه سيحافظُ على شراكتِه معَه وعلى مالِه، ولكنَّ أباها لمْ يتصلْ به بعدَ سقوطِ يافا ونكبةِ فلسطينَ، لأنَّ التواصلَ أصبحَ مقطوعًا تمامًا بينَ مَن غادرَ،

ومَن بقيَ في يافا، خاصةً بعدَ أنْ أُعلِنَ تقسيمُ فلسطينَ مِن قبلِ الأممِ المتحدةِ، وتَأسيسِ دولةِ الصهاينةِ عامَ 1948.

عادَ إلى دمشقَ، ولمْ يكنْ وضعُها الاقتصاديُّ يسمحُ له بالعملِ التجاريِّ الذي برَزَ فيه في يافا، فذهبَ إلى الخليجِ يبحثُ موقعَ قدمٍ للتجارةِ، وبدأَ حياتَه مِن جديدٍ ونجحَ فيها كما نجحَ فيها سابقًا في يافا، معَ العلمِ أنَّه غيَّرَ تجارتَه حسبَ حاجةِ البلدِ واستقرَّ فيها مع عائلتِه بعدَ معاناةِ فراقِ المدينةِ التي أحبَّها كلُّ مَن سكنَها.

فيلا أم حنانينا

انتقلْنا إلى بيتٍ جديدٍ على رأسِ الجبلِ، استأجرَ أبي الطابقَ الأرضيَّ مِن الفيلا التي تحيطُها حديقةٌ كبيرةٌ مزروعةٌ بشجرٍ مثمرٍ ولها شُرفتانِ كبيرتانِ، واحدةٌ رخاميةٌ بأعمدتِها التي تغطِّي سور الشَرفَة الأمامية الشمالية دائريةِ الشكلِ كانت مرفأ الهواء في الصيفِ، والثانية خلفيةٌ جنوبيةٌ واسعة ومستطيلة تَسطعُ فيها الشمسُ بقوةٍ خاصةً في الشتاءِ البارِدِ بحكمِ موقعِها على الجبلِ.

كانتْ هذهِ الشرفةُ المستطيلةُ واسعةً، وأمامَها حديقةٌ جميلةٌ تزرعُ أمّي فيها كلَّ حاجاتِها مِن الخضارِ اليوميةِ التي تستعملُ في الطبخِ، أذكرُ مِنه النعناعَ الذي بسببِ الشمسِ وكثرةِ الماءِ التي تُدْلَقُ عليه كلَّ يومٍ وأغلبُها مِن ماءِ غسيلِ الخضارِ والفواكهِ وماءِ نَقْعِ الأرزِّ.

إلى هذهِ الدرجةِ كانَ الوعيُ بالاقتصادِ والمحافظةِ على البيئةِ رغمَ أنَّ المدينةَ مشهورةٌ بعيونِ الماءِ الكثيرةِ، وشلالِ وادي البادان

الذي لا يبعدُ عنها كثيرًا، لهذا كانَ النعناعُ ينمو بغزارةٍ ويفْرِدُ روحَه في المكانِ وينشرُ عبيرَه المنعشَ، وكانَ يمتدُّ ويمتدُّ في الأرضِ الحمراءِ ويناطحُ إخوتَه مِن البقدونسِ والكزبرةِ اللذيْنِ لا غنى لأمِّي عنهما في وجباتِها اليوميةِ.

كانَ النعناعُ كاسحًا في احتلالِه للأرضِ يَنْبُزُ مِن بينِها رافعًا رأسَه بشموخٍ، قائلاً لأمِّي: أنا هنا في كلِّ مكانٍ، لا يَحلو الشايُ إذا لمْ تَضعِينِي فيه، ولا تَطيبُ المهلَّبِيَّةُ إذا لمْ تطبخِيني مع الحليبِ، حتى مع الماءِ الذي تشربينه أعطِّرُه لكِ فيصبحُ أطيبَ مذاقًا.

وعيتُ على أمِّي تحنُّ على نباتاتِها وزهورِها، كانتْ تُصبِّحُ عليهم وتغنِّي لهمْ طربًا كلَّما شاهدتْ تَفَتُّحَهم وشمَّتْ روائحَهم، وتعلمتُ مِنها هذا وعلَّمتُه لأولادي.

كما كانتْ أمِّي تستخدمُ هذهِ الشرفةَ المشمسةَ في الشتاءِ لأشياءَ كثيرةٍ، مِنها: إعدادُ الموادِّ التموينيةِ مِن تجفيفِ الباميةِ والملوخيةِ وعصيرِ البندورةِ الطازجةِ، وفي يومِ الغسيلِ يفردُ عليها الغسيلُ كلٌّ حسبُ ألوانِه.

وكانتْ تأتي الغسَّالةُ، وهي امرأةٌ مهنتُها غسلُ الملابسِ، أذكرُ أنَّها كانتْ تجلسُ على مَقْرَمةٍ وأمامَها طشتٌ كبيرٌ مِن النحاسِ المُبيَّضِ بالفضةِ، تَدْعَكُ فيه الغسيلَ للمرةِ الثانيةِ ثمَّ تضعُه في طشتِ البَحِّ، ووابورُ الكازِ أثناءَ ذلكَ عليه وعاءٌ مِن الألمنيومِ أسطوانيٌّ الشكلِ تضعُ الغسالةُ فيه الغسيلَ الأبيضَ ليغليَ معْ مبيِّضِ الغسيلِ والصابونِ النابلسيِّ المبشورِ، بعدَ أنْ نشلتْه مِن ماءِ النقعِ وغسلتْه ثمَّ

تركتْه يغلي حتى يشعَّ بياضُه، ثمَّ تدلحُه[1] على طشتِ الغسيلِ حتى يبردَ وتبدأ في دعكِه ومِن ثَمَّ بَحَّه[2] في الماءِ الصافي.

وأخيرًا نشْرُه على امتدادِ الحبالِ التي دأبتِ الشمسُ تسطعُ عليها بقوةٍ لتجففَها وتعقِّمَها.

كانتْ هذهِ السيدةُ "الغسالةُ" مشهورةً في الحيِّ، والكلُّ يتسابقُ على حجزِ يومٍ معَها، وكانتْ دائمًا فخورةً ببياضِ ونظافةِ غسيلِها الذي يشتهيه الناسُ وهو معلَّقٌ على الحبالِ، ويقولُ هذا غسيلُ أمِّ عبدِ الله، ويزدادُ فخرُها بأنَّها أحسنُ "غسَّالةٍ" في المدينةِ.

في آخرِ عيدٍ لنا في فيلا أم حنانينا، وبعدَ عودتِنا مع أبي مِن صلاةِ العيدِ، غيَّرْتُ بدلَتي الرجاليةِ بفستانِ العيدِ البنفسجيِّ الذي ألبسُه لأولِ مرةٍ بعدَ أنْ توقفتُ عنِ اللونِ الزهريِّ/الورديِّ.

خرجتُ مع إخوتي مزهُوِّين بكلِّ ما هو جديدٌ وبهيجٌ لبِسْناه هذا الصباحَ الرائقَ بسمائِه الزرقاءِ الصافيةِ وهوائِه المنعشِ اللذيذِ الذي يهفُّ بفستاني البنفسجيِّ مِن قماشِ التَّافتاه[3] اللامعةِ ذاتِ الملمسِ الناعمِ، الذي كان يهفُّ ويكشفُ عن سيقاني ولباسِي الداخليِّ مع نسماتِ هواءِ صباحِ العيدِ، خرجْنا مزهُوِّين إلى حديقةِ بيتِنا في

---

(1) أي تنشره وتفرده وهي كلمة فصيحة أصلها دلح الشيء أي مشى بحمله بطيئاً لثقله، ولعل الاسم مرتبط بثقل الثياب بالماء.

(2) آخر مرحلة من الغسيل، وهي كلمة فصيحة من بح الصوت إذا كان غير صافياً، ولعل الكلمة مرتبطة بإزالة آخر ما علق في الثياب من صابون، ليصير صافياً ناصع البياض.

(3) أي خامة حريرية ثقيلة ومتماسكة.

انتظارِ فطورِ العيدِ الدسمِ، وهناكَ حصلتْ لنا حادثةٌ لا تُنسى، أشعرُ بها وأرى المشهدَ مِن خلالِ روايتِها مِن جديدٍ.

أخي فسخ الشجرة

خرجتُ مع إخوتي لنلعبَ في حديقةِ منزلِنا الواسعةِ، وحتى نُعَيِّدَ على أصدقائِنا في البيوتِ مِن حولِنا، لبستُ فستاني البنفسجيَّ التَّافتاه الجديدَ والمطرزُ نصفُه الأعلى بعشِّ النحلِ، يلفُّ حزامَه العريضَ والطويلَ وسطي مرتينِ، ليتدلّى بعدَ عَقْدِه بوردتَيْن بنفسجيتين خلفي حتى نهايةِ طولِ الفستانِ، كانَ الجوُّ دافئًا بعدَ ليلةٍ شَعَرْنا ببرودتِها ونحنُ نيامٌ، ذابتْ برودتُها فورَ أنْ طلَّتْ علينا شمسُ الصباحِ المنعشةِ التي غمرتْنا بالسعادةِ والفرحِ، توقَّفْنا عندَ شجرةِ التينِ ورأيتُ حبةَ تينٍ ناضجةٍ في أعلى الشجرةِ الصغيرةِ، تبرعَ أخي بإحضارِها لي حتى دونَ أنْ أسألَه، كانَ يعرفُ محبَّتي لتلكَ الفاكهةِ حينَ أتمتعُ بقرقشةِ حُبيباتِها العسليةِ الصغيرةِ جدًا في فمي.

تسلقَ أخي الشجرةَ بخفةٍ وعندَما حاولَ أنْ يقطفَ الثمرةَ بعدَ أنْ رفعَ يدَه ومدَّ أصابعَه عاليًا ليمسكَ بها، وفجأةً شاهدْنا منظرًا مُروِّعًا وهو يحاولُ الوصولَ إلى ثمرةِ التينِ؛ رأيْنا أخي يهبطُ بنصفِ الشجرةِ حتى فُسِخَتْ إلى نصفينِ، فارتعَبْنا أنا وبقيةُ أخوتي - ليسَ على أخي الذي هبطَ مِن علوٍّ مع الجزءِ المفسوخِ مِن الشجرةِ فقطْ - بلْ مِن مالكةِ البيتِ التي كانتْ تسكنُ في الطابقِ الثاني مِنه، وكانتْ شديدةَ القسوةِ علينا، وتمنعُنا مِن اللعبِ في الحديقةِ.

تلفَّتْنا حولَنا يمينَ شمالَ عسى أنْ نرى شيئًا نربطُ به الشجرةَ الصغيرةَ، ومِنَّا مَن ركضَ باتجاهِ سنابلِ القمحِ في آخرِ الحديقةِ دونَ فائدةٍ، اتجهتِ الأنظارُ كلُّها لي، وفهمتُ بأنَّه عليَّ أنْ أفكَّ حزامَ فستاني الطويلَ، فستانِ العيدِ الجديدِ حتى نربطَ به الشجرةَ المفسوخةَ خوفًا مِن الجارةِ.

نزعتُ حزامِي التَّافتاه الطويلِ بحزنٍ، وسلَّمتُه لإخوتي الذينَ شدّوه بقوةٍ حولَ الشجرةِ بعدَ أنْ قرَّبوا نصفَها المفسوخَ إليها، وأخذتُ ألفُّ حزامي حولَ الشجرةِ، وتكاتَفْنا جميعًا لربطِ الشجرةِ المفسوخةِ، كنتُ أنظرُ بحسرةٍ وألمٍ إلى حزامي مِن قماشِ التَّافتاه يتفسَّخُ أمامي مِن قوةِ الشدِّ، ولمْ يكنْ لديَّ خيارٌ آخرُ لأنَّه كانَ علينا أنْ ننقذَ الموقفَ قبلَ أنْ تنتبهَ صاحبةُ الدارِ إلى ما جرى.

وفي أوجِ انهماكِنا في ربطِ الشجرةِ بقوةٍ، سمعْنا ضحكةً هستيريةً مِن نافذةِ الغرفةِ المُطلةِ على الشجرةِ مباشرةً نشَّفَتْ دماغَنا، وشعرْنا بالخطرِ وأُصِبْنا بالهلعِ، وتصاعدتْ نبضاتُ قلوبِنا وركضْنا اتجاهَ البيتِ مرعوبين واختبأ كلٌّ مِنّا تحتَ سريرِه.

كنَّا نرتجفُ مِن الخوفِ لأنَّنا كنَّا نعرفُ مسبقًا بأنَّ أمَّ حنانينا صاحبةَ البيتِ ستنزلُ لتوبِّخَنا بصوتِها السليطِ كالعادةِ، وخلالَ دقائقَ معدودةٍ سمعْنا ضحكتَها الهستيريةَ تلعلعُ في بيتِنا.

أخذتْ تقصُّ على أمّي قصتَنا وهي تضحكُ قائلةً: إنَّها كانتْ تراقبُنا مِن فوقَ، وإنَّه أغضبَها فسخُ الشجرةِ، ولكنَّ منظرَ أخي وهو يهبطُ مِنها مع هبوطِ الجزءِ الذي يركبُه جعلَها تنفجرُ بالضحكِ الذي

جافاها منذُ سنواتٍ طويلةٍ، وأضافتْ بأنَّ محاولتَنا ربطَ الشجرةِ، ونَزعي لحزامِ فستانِ العيدِ الجديدِ، جعلَها تضحكُ بهستيريا دونَ أنْ تأخذَ نفسًا على منظرِنا وخطَّتِنا الطفوليةِ التي أطلقتْ ماردَ الضحكِ العنيفِ مِن قمقمِ جوفِها مِن الطابقِ الثاني حتى صالةِ بيتِنا.

ونحنُ نسمعُها مِن تحتِ أسِرَّتِنا ونكادُ لا نصدِّقُ ما نسمعُ لأنني ضحَّيْتُ بحزامِ فستانِ العيدِ الطويلِ والجميلِ لربطِ الشجرةِ، مِمَّا جعلَها تنفجرُ بضحكٍ جافاها منذُ أنْ هاجرَ ولدُها الوحيدُ، نسمعُ ولا نصدِّقُ وكأنَّنا فكَكْنا عِقالَ قلبِها وعبوسَ وجهِها الدائمِ، هستيريا الضحكِ سببُها عدمُ ممارستِها له منذُ زمنٍ طويلٍ.

ثمَّ نادتْنا أمِّي قائلةً: تعالوا، لا تخافوا، أمّ حنانينا غيرُ زعلانةٍ مِنكم." ولمْ نتحركْ مِن تحتِ أسِرَّتِنا حتى جاءتْ أمُّ حنانينا بنفسِها وسحبتْنا واحدًا تلوَ الآخرِ وقالتْ لنا: "لا تخافوا." ونحنُ غيرُ مصدِّقين، "أنا مسامحاكم مِن قلبي على فسخ شجرتي المَحبوبةِ، لأنكم أطلقتم عنانَ قلبي للحياة."، ثمَّ وجَّهَتِ الحديثَ إلى أمِّي قائلةً: "لقدْ ضحكتُ اليومَ كما لمْ أضحكْ في حياتي." ومنذُ ذاكَ اليومِ أصبحتْ أمُّ حنانينا ألطفَ بالتعاملِ مَعنا، وأخذَتْ تُناديني بينَ وقتٍ وآخرَ لتقدِّمَ لي الحلوى والشيكولاتة.

كانتْ أمُّ حنانينا امرأةً تعسةً دائمةَ الحزنِ على ولدِها الذي هاجرَ وتركَها، ولا يمرُّ يومٌ دونَ أنْ تُعرِبَ لأمِّي عن حزنِها وتعاستِها لفقدانِ ابنِها الوحيدِ، وكانتْ أمِّي تخفِّفُ عنها مذكِّرةً إيَّاها بأنَّ ابنتَها الرقيقةَ والجميلةَ صابرين ما زالتْ تَعيشُ مَعها، وأنَّها ابنةٌ بارَّةٌ وتحتاجُ

إلـى حُبِّهـا وحنانِهـا، علِمْنـا فيمـا بعـدُ أنَّهـا تزوجـتْ هـي الأخـرى، وغادرتِ المدينةَ ولمْ نَرَها أو نَرى ابنَها بعدَ ذلكَ.

أذكرُ أنَّ أمَّ حنانينا كانتْ قاسيةً جدًّا على ابنتِها الوحيدةِ، وكانَ يُحزِنُنـي جـدًّا أنْ أرى ابنتَهـا المعلمـةَ التـي تحبُّهـا وتحترمُهـا كـلُّ تلميذاتِها تُهانُ أمامَنا مِن أمِّها العجوزِ، وكنتُ أشكو ذلكَ لأمِّي التي دأبَتْ على تأكيدِها لي بأنَّ قلبَ الأمِّ لا يمكنُ له أنْ يكرهَ ضَناه، هي فقطْ امرأةٌ عصبيةٌ ورحيلُ ابنِها أفقدَها صوابَها وأنساها أنَّ ابنتَها الوحيدةَ أيضًا لا تزالُ تعيشُ مَعَها.

كنتُ أكادُ لا أصدِّقُ ما أسمعُ لأنَّني كنتُ أسمعُها مِن شُبَّاكِ غرفتـي وبـأُذُنـيَّ الاثنتـين تصـرخُ علـى صـابرين مِن الطـابقِ الثـاني وتؤنِّبُها لكسلِها في جلبِ الماءِ، كنتُ أراها وأتحاشى رؤيتَها لي وهي تعبئُ الماءَ في السطلِ برفعِ طُلمبَة/مَضَخة يَدويَة فوقَ تحتَ... فوقَ تحتَ، والعرقُ يتصبَّبُ مِن جبينِها ويدُها الرفيعةُ الممسكةُ بطلمبةِ مضخة الماء تعلو وتهبطُ بصعوبةٍ، وبعدَ جهدٍ يمتلئُ السطلُ بماءِ النبعِ النقيِّ ويتموَّجُ الماءُ بألوانِ الكريستالِ اللامعِ كلَّما انعكسَ ضوءُ الشمسِ على السطلِ وهي تحملُه ببطءٍ إلى الطابقِ الثاني، وكنتُ أُخفي وجهي خجلاً مِنها حتى لا تراني أشاهدُ بهدلةَ أمِّها لها.

وثـاني يـومِ العيـدِ، بعـدَ أنْ خـفَّ زوّارُ بيتِنـا مِـن المُهنِّئـينَ والمهنئاتِ والمباركين والمباركات بالعيدِ، اصطحبتْني أمِّي لزيارةِ أمِّ حنانينا وحمَّلتْني صينيةً مملوءةً بكعكِ العيدِ لتشاركَها بعيدِنا وهي مسيحيةُ الديانةِ قائلةً:

- لا تنسيْ يا ابنتي، أنَّ الجارَ قبلَ الدارِ بلْ إنَّ الجارَ هو مِن أهلِ الدارِ.

العَيْبُ

كانتْ عمَّتي توَبِّخُني، كلَّما شاهدتْني مِن الشرفةِ أُسابقُ إخوتي في تسلُّقِ الأشجارِ، كانتْ تصيحُ بي أنْ أهبطَ وألاَّ أتسلقَ الأشجارَ ثانيةً، لأنَّه عَيبٌ على البناتِ فِعْلُ ذلكَ، وتُلِحُّ مضيفةً بأنَّني إذا لمْ أتوقفْ فسوفَ أؤذي نفسِي، وتحلُّ علينا مصيبةٌ.

كنتُ أغضبُ مِن كلامِ عمَّتي الذي لا أفهمُه وزادَني كلامُها عنادًا وإصرارًا على تسلُّقِ الأشجارِ والتسابُقِ مع إخوتي، كنتُ ثائرةً على كلِّ كلماتِ العيْبِ التي تتردَّدُ كثيرًا في مجتمعِي الجديدِ خاصةً ممَّا لا يقتنعُ به عقلي.

كنتُ ما زلتُ في العاشرةِ مِن عمري، وكنتُ أُكْثِرُ مِن الأسئلةِ وأبحثُ عن المعرفةِ لعقلي الذي كانَ يصرُّ أنْ يستوعبَ ما يسمعُ، وإذا لمْ يفهمْ يلحُّ حتى يفهمَ، وإذا لمْ يقتنعْ يرفضُه، أو يسقطُه جانبًا.

سألتُ عمَّتي يومًا ماذا تقصدُ بالمصيبةِ التي ستحلُّ علينا مِن تسلُّقي للأشجارِ؟ فأجابتْ بأنَّه مِن الممكنِ أنْ أفقدَ عذريَّتي، لمْ أفهمْ معنًى لكلامِها، فلجأتُ إلى أمِّي التي كانتْ تخجلُ أصلاً مِن الحديثِ معي في الأمورِ الأُنثويَّةِ، ولكنني أصرَرْتُ فأنا بطبعي لحوحةٌ، وثائرةٌ وأسعى وراءَ الوضوحِ مِن صغري، ولا أتفقُ مع ما هو غيبيٌّ بالنسبةِ لي.

صدمَني هذا التفسيرَ، وأصابني رعبٌ ما داخلَ نفسي ووجداني مِن هذه الأمورِ المجهولةِ، ونسيتُها أو أسقطتُها مِن ذاكرتي مع الوقتِ، وأصبحتُ أتشبَّهُ بالصبيانِ في مَلْبَسي لدرجةِ أنَّ أبي أخذَ يفصِّلُ لي معَ إخوتي بدلاتٍ بجاكيتٍ وصديريٍّ وبنطلونٍ، خاصةً في الأعيادِ فأطلقوا عليَّ لقبَ: "حَسَن صَبي".

لقدْ فرضوا هذا عليَّ، أعني أهلي ومجتمعي الجديدُ، شعرْتُ بأنَّ البراءةَ والبساطةَ والحريةَ التي كنتُ أنعمُ بها في يافا سُحِبوا مِن حياتي شيئًا فشيئًا، وأخذتُ أتساءلُ: ألاَ يكفي نكْبَتي وحِرماني مِن يافا مسرحِ طفولتي؟

حواديت «الست زبيدة»

بـدأتُ أقـرأُ مِـن مكتبـةِ أبـي، ولكنَّهـا كانـتْ ثقيلـةَ الفهـمِ علـيَّ، ولكنني كنتُ أستوعبُها مِن أبي كلَّما توفَّرَ له الوقتُ، بدأتُ أختارُ ما يهواه قلبـي مِـن الروايـاتِ، واتَّجهـتُ بكلِّـي لروايـاتِ الحـبِّ والعشـقِ والآهاتِ، رغمَ خلفيةِ العصرِ العباسيِّ والتراثِ الإسلاميِّ الذي احتلَّ عقلي وفؤادي في البدءِ وقيَّدني به أبي، فإنَّ روحي ثارتْ على كلِّ ما هو تقليديٍّ، وفاضَ بها الكيلُ خاصةً بعدَ أنْ أصبحَ لديَّ مجموعةٌ مِن الرواياتِ اللاهبةِ التي كانَ إخوتي يشترونها أو يستعيرونها مِن مكتبةِ المدرسةِ، كنتُ ألتهمُها بشغفٍ بعدَ أنْ ينتهوا مِنها.

بدأتُ مرحلةَ القراءةِ الجادَّةِ في المرحلةِ الابتدائيةِ للعظماءِ؛ طه حسين والحكيم وغيرِهم، ولكنني بقيتُ أعشقُ رواياتِ الحبِّ والهيامِ، والرواياتِ الاجتماعيةِ خاصةً الدراميةِ مِنها والبوليسيةِ، إلى آخرِ ما تقعُ عليه عيناي في أيِّ مكانٍ: في البيتِ، المدرسةِ، الجيرانِ، أو عندَ زيارةِ الأصدقاءِ.

بعدَ ذلكَ بدأتُ أستعيرُ الكتبَ مِن مكتبةِ المدرسةِ الإعداديةِ، وكلَّ مراحلِها فيما بعدُ، لدرجةِ أنَّ أمينةَ المكتبةِ التي كانتْ تقدِّمُ لي كلَّ عامٍ جائزةَ القراءةِ، أخذتْ تلحُّ عليَّ أنْ ألخِّصَ على

كشكولٍ خاصٌ الكتبَ التي أقرؤها حتى أسهّلَ على الطالباتِ قراءةَ الموجزِ، لكنَّني لا أعرفُ الإيجازَ، لهذا كنتُ ألخِّصُ ما استوعبَه عقلي وروحي دونَ الرجوعِ إلى الكتابِ، كما أكتبُ لكمْ روايةَ (الست زبيدة) التي بدأتُ أنسجُ حكاياتِها، مِمَّا تمَّ نسخُه بدقَّةٍ على نسيجِ دماغي المطواعِ مِن كلِّ ما قرأتُ واستوعبتُ على مدى سنواتٍ طوالٍ.

أجلْ، بدأتُ أكتبُ روايةَ (الست زبيدة) التي أرادَها أبي نسخةً ثانيةً عنه لكنَّها تمرَّدَتْ، وأخذتْ تقرأُ كلَّ ما تتطلَّبُه روحُها الظمأى للحبِّ الذي تعيشُه مع أبطالِ الرواياتِ، والبحثِ عن المعرفةِ بكلِّ ما تقرأُ، تأجَّجَتْ بكلِّ ما فيها مِن غليانٍ، وبدأتْ تبوحُ بوهجِ روحِها تنثرُه على شاشةِ الحاسوبِ البيضاءِ، حروفٌ نسجتْها روحُها العاشقةُ، وقلبُها النابضُ، وعقلُها الرافضُ لكلِّ ما هو سقيمٌ، والمتيَّمُ حبًّا بالصمتِ والتأملِ.

في البدءِ، حيَّرَني فيضانُ روحي، وأربكَني فورانُها، وأجَّجَني اندفاعُها فجرَ كلِّ يومٍ ولأربعِ ساعاتٍ أمامَ الحاسوبِ الذي زادتْ سرعتِي على مفاتيحِه تُسابقُ الزمنَ لتعوِّضَ ما فاتَه، عندَما تقوقعتْ روحُها وأخذتْ تنهلُ المعرفةَ مِن عصرٍ رومانسيٍّ حالمٍ بدأتْه دونَ أنْ تعرفَه، واسمُ مركبٍ سمِّيتْ به على اسمِ ملكةٍ مِن أرقِّ وأذكى وأجملِ ملكاتِ العهدِ القديمِ.

انطلقتْ الحواسُّ والسرُّ الدفينُ مِن بئرِ الزمنِ وفاضَ على صفحاتِ الحاسوبِ، يدفعُ بعضُه بعضًا، وتتدحرجُ كلماتُه وتملأُ

صفحاتِي، أعودُ بها ثانيةً إلى الوراءِ، أقصُّ، وألصقُ، وأقرأُ الحكايةَ مِن جديدٍ، أضيفُ وأمسحُ مرةً ومراتٍ.

فجأةً، تختفي الحكايةُ مِن أمامي وتُمحى دونَ وعيٍ مِنّي، أتوقَّفُ غاضبةً مِن نفسِي، ومِن تكنولوجيا الحاسوبِ، الذي لا نملكُ السيطرةَ عليها، خاصةً عندَما تقتحمُ صفحتي برامجُ التّجديدِ، وتختفي صفحتي المستغرقةَ بفيضِ وعائي، وتندفعُ بأسرعِ مِمَّا تستطعُ، وترتطمُ بخيالي الذي يُصابُ بالبكمِ بتوقُّفِ الحاسوبِ فجأةً دونَ أخذِ الإذنِ مِنّي، وقبلَ أنْ أضغطَ على أمرِ كلمةِ: (لا) التي تظهرُ بجانبِها كلمةُ: (نعم)، تختفي الصفحةُ والنّصوصُ الجديدةُ مِن أمامي قبلَ حفظِها.

أتحلّى بصبرِ أيوبَ، وبعدَ عودةِ الحاسوبِ إلى الحياةِ أكتشفُ أنني فقدْتُ كلَّ ما كتبتُ هذا الصباحِ، أغضبُ على حاسوبي المحمولِ، أصفعُه بضربةٍ على رأسِه، يصمتُ.

أجري هربًا لمِشواري الصباحيِّ قبلَ أنْ ينقشعَ ضوءُ النهارِ حتى أخفِّفَ عن روحي بالمشي السريعِ والإنصاتِ إلى صوتِ الطبيعةِ وألوانِها، ورؤيةِ الندى على أوراقِ الشجرِ، تتساقطُ دموعي على خديَّ فتخففُ مِن بؤسِ ما حصلَ وحَسْرتي على ما ضاعَ مِنّي.

وفي كلِّ فجرٍ، أنسى ما حدثَ وأتعلمُ مِمَّا حدثَ، وأعودُ بشهيةٍ إلى الكتابةِ، أفتحُ الشاشةَ أمامي، وأغطّي بياضَ صفحاتِها باندفاعي وحماسي وتهوُّري، ألهثُ وراءَ كلماتي الثائرةِ لألحقَ بها، وأستغيثُها أنْ تُمهلني قليلاً، لأنني لمْ أكنْ أعرفُ بعدُ: مِن أينَ أنتِ؟ ومِن أينَ أبدأ؟ وكيفَ أبدأ؟

لكنَّ وهجَ الروحِ وتأجُّجَ القلبِ بَهيمَانٍ؛ لمْ أستطعْ كبحَ لهيبِه، أو تهدئةَ أنفاسِه أو تلطيفَ الزبدِ الفائرِ مِن آهاتِ أعماقي باستحضارِها والغوصِ فيها مِن جديدٍ، وتأخذُني الحكايةُ بعيدًا جدًّا، وتغوصُ بي إلى أصلِ الحكايةِ وحكايةِ الوجودِ، إلى أُمِّنا حواءَ منذُ أن انطلقتْ بالمعرفةِ، وأعلنتْها على الملأِ، وعلَّمتْها لآدمَ وأولادِها، وتكوَّنتِ الحياةُ على الأرضِ.

منذُ أنْ فاضَ الوعاءُ بما فيه مِن حكاياتٍ، هائجًا ثائرًا ومندفعًا على حاسوبي المحمولِ تركتُه ينسابُ، لمْ أكتمْ أنفاسَه كعادتي، فقررتُ البدءَ فيه والسيرَ به والسهرَ معه إلى ما شاءَ اللهُ.

أكتبُ لكمْ وأفيضُ بما احتلَّ وجداني وعمري مِن تجاربِ حياةٍ لمْ تَعُدْ ملكًا لي، بلْ أصبحتْ بتقادُمِ الزمنِ والأحداثِ والإنجازاتِ والإخفاقاتِ ملكًا لكمْ وللوطنِ والتاريخِ والمجتمعِ الذي عشتُه، والذي لا أزالُ أعيشُه والفارقُ بينَ الاثنينِ كبيرٌ.. كبيرٌ جدًّا.

المناجاة

كانتْ مناجاةُ روحي تمتدُّ وتمتدُّ، وتأخذُني بعيدًا وأحلِّقُ بها عاليًا، أنسى فيها كلَّ مَن حولي وأصبحُ صمّاءَ عمياءَ عن مُحيطي، ولا أصحو مِنها أغلبَ الأحيانِ، إلاَّ بعدَ أنْ يَهزَّني بشدةٍ أحدٌ مِن إخوتي أو تنالَني صفعةٌ على خدِّي، كنتُ أصحو مَخضوضةً ومرعوبةً، وكنتُ أهتزُّ، وأنهارُ ببكاءٍ مكتومٍ، لأنهم سَحبوني قسرًا مِن حياتي التي كوَّنتُها لنفسي، ومِن مناجاتي لربِّي أنْ يحقِّقَ لي

أحلامـي، التـي كنـتُ أسـتغرقُ فيـها بخيـالاتٍ صـنعتُها بنفسـي غـذاءً لروحي العَطشى، وأحلامِ جسدَتْها الرغبةُ القويةُ في العشقِ والهيامِ مع الحبيبِ، ودفئِه وحنانِه الذي صوَّرَه لي خيالي أمرًا طبيعيًّا.

أصبحتُ أحملُ كِتابي، وأحبسُ نَفسي في غرفتي ودفـءِ لِحافي، أقرأُ دونَ توقُّفٍ، كانَ أبي يطرقُ بابي في المساءِ، ويسحبُ مِنّي عنوةً الروايةَ الضـخمةَ التـي كنـتُ غارقـةً فيها، يحملُ ثقلَها إلى الصـالونِ، ويعرضُها على زوّارِ هذا المساءِ أو ذاكَ، قائلاً:

- تَصوَّروا (الست زبيدة) تُنهي كتابًا كهذا كلَّ ليلةٍ ولا تنامُ!

كانَ يتفقدُني دائمًا كلَّما صحا مِن النومِ لشربِ كوبٍ مِن الماءِ أو زيارةِ الحَمَّامِ، الكلُّ نيامٌ وأنا ما زلتُ أقرأُ، عبَّرَ لي أبي عدةَ مراتٍ عن قلقِه مِن قلةِ نـومي، وكـانَ يـوبِّخُني ويطفـئُ نـورَ حُجرتِي التـي استقلَلْتُ بـها بعدَ أنْ رحلَ إخوتي الكبارُ للدراسةِ الجامعيةِ.

كنـتُ بمجـردِ أنْ أسـمعَ صـوتَ شـخيرِه، أقفزُ بهدوءٍ مِن دفـءِ فراشي لأضـيءَ النورَ مِن زرِّ الحائطِ، لمْ يكنْ قدْ ظهرَ الريموتُ الذي يوضـعَ قـربَ السـريرِ يضـيءُ نـورَ الكهربـاءِ ويشـغِّلُ التلفزيـون، شـعَّ الضوءُ وغطستُ في هوسِ متابعةٍ ما بدأتُ تلكَ الليلةَ.

كنـتُ حقًّـا لا أنـامُ، لأنَّ قـراءةَ روايـاتٍ سـاخنةٍ لإحسـان عبـد القدوس، ويوسـف السباعي ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وغيرهم، اسـتغرقَتْني تمامًـا، وبـدلاً مِـن أنْ تُسـاعدَني القراءةُ علـى النـومِ، كمـا يفعلُ الكثيرُ مِن النـاسِ كانتْ تشدُّني بعيدًا عنـه ولا أزالُ، تعودتُ أنْ أكتفيَ مِن النومِ سويعاتٍ قليلةٍ لا تتجاوزُ الأربعَ ساعاتٍ، بقيتُ هكذا

في نقصٍ مِن النومِ حتى وأنا أكتبُ لكمْ روايتي وحكاياتٍ سمعتُها مِن هنا وهناكَ، التي أصبحَتْ جزءًا لا يتجزأُ مِن شخصيَّتي وكِياني.

كنتُ أعيشُ بكُلِّي مع خيالِ الروائيِّ، أتجسَّدُ بطلاتِ روايتِه اللاتي أشعلْنَني لهيبًا وآهاتٍ، كنتُ أعيشُ البطلةَ بلحمِها ودمِها وذروةِ حبِّها، أمارسُ مشاعرَها وشبقَها الذي تمارسُه مع حبيبِها، كنتُ أضغطُ فخذيَّ ببعضِهما وأشدُّ عليهما بشغفٍ، أحضنُ الكتابَ بذراعي وابتلعُ كلماتِه بنهمٍ، أتحسسُ اللهبَ الصادرَ مِن البطلةِ وأتجسدُه لهبي وآهاتِ روحي، أضغطُ فخذي أكثرَ، وأعانقُ الكتابَ أكثرَ وأكثرَ.

كنتُ أشعرُ بأنَّ دماءَها الفائرةَ هي دمائي، ولهاثَها هو لهاثي، وعشقَها وإشباعَها هو أنا بلحمي ودمي، كنتُ أمارسُ الحبَّ على صفحاتِ الكلماتِ، وأفرحُ لفرحِ البطلِ/البطلةِ، وأذرفُ دموعًا ساخنةً إذا ماتَ أحدُهما وتركَ حبيبَه/حبيبتَه.

خيالاتي وأحلامي المبكرةُ كانتْ تنتهي بهدوءٍ واسترخاءٍ، وتهجعُ نفسي لمناجاةِ ربِّي أنْ ينتشلَني مِمَّا أنا فيه، وأنْ يحفظَ لي عشقي لأمِّي وأبي وإخوتي وأهلي، لمْ أبعدْ يومًا عن محيطِ خيالي أو أحبَّتي، كنتُ أنضجُ يومًا بعدَ يومٍ أكثرَ، وكنتُ أكبرُ كلَّ يومٍ أكثرَ، ولمْ أُظْهِرْ لأحدٍ معاناتي وما تعانيه الفتياتُ في عمري.

كانتْ أمَّهاتُ رفيقاتي يُحدِّثنَ أمِّي بمعاناةِ بناتِهنَّ بما أطلقوا عليه فيما بعدُ معاناةُ فترةِ المراهقةِ، لمْ أسمعَ أحدًا مِن أهلي يقولُ: "بِنْتْنا مْغَلَّبْتنا عَمْ بِتْمُرّ بفترة مراهقة صعبة." كانوا يفتخرونَ بأنني أقضي تلكَ الفترةَ الصعبةَ داخلَ غرفتي هادئةً مع الرواياتِ

والكتبِ الضخمةِ التي أقرأ، لمْ يشعرُ بي أحدٌ، ولمْ يَعرفوا كيفَ كنتُ أُنَفِّسُ عن ذاتي في ذلكَ الهدوءِ داخلَ بابِ غرفتي المُوصدُ بابُها دائمًا.

كما كنتُ أستنفدُ طاقتي الزائدةَ عن حدِّها، بكلِّ ما يتاحُ لي مِن مشاركةٍ في النشاطاتِ المدرسيةِ وإغراقِ نفسي بالقراءةِ وممارسةِ الألعابِ الشعبيةِ، فيما تبقَّى لي مِن وقتٍ مع إخوتي، مثلِ: "طاق طاق طاقيه" و"الاستغماية" و"السبع حجار" و"الإكس" الذي كنَّا نرسمُه خطوطًا مربعةً على الأرضِ، نقفزُ عليها، ويقفزُ معنا الحجرُ الصغيرُ، مِن مربعٍ إلى آخرَ.

أحمدُ اللهَ كثيرًا وأشكرُه أنَّ مَدْرَستي التي كنتُ أقضي فيها جُلَّ نهاري للتدريبِ على كرةِ السلةِ حتى يحينَ موعدُ المبارياتِ أو للتدريبِ على دَوْري في المسرحياتِ التي تُقَامُ آخرَ العامِ الدراسيِّ.

معلماتي كُنَّ يتسابقْنَ في تسجيلي بالأنشطةِ المدرسيةِ الثقافيةِ والفنيةِ والرياضيةِ وذلكَ بعدَ الدوامِ المدرسيِّ، وهذا ساعدَني كثيرًا باستنفادِ طاقتي البدنيةِ نهارًا والاسترخاءِ مع كتابي ليلاً.

مدرستي الابتدائيةُ والإعداديةُ التي كانتْ كلَّ شيءٍ في حياتي، كنتُ أمارسُ شتَّى أنواعِ الرياضةِ، مِن كرةِ سلةٍ إلى كرةِ ريشةٍ، ومِن كرةِ طاولةٍ إلى نطِّ الحبلِ، والقفزِ على خشبةِ الجمبازِ، كنتُ أتشقلبُ على حائطِ بيتِنا رأسي تحتُ، مسنودًا بكفيَّ على الأرضِ، وساقاي مُستندتان على الحائطِ. أستمرُّ على هذا الوضعِ لفترةٍ مِن الوقتِ، وعندَما يغزُّني تعبُ ذراعيَّ وكفيَّ، أتركُ جسدي يهبطُ رويدًا رويدًا،

بشكلٍ مقلوبٍ على الأرضِ، حتى تصلَ قدمي بلاطَ الغرفةِ فأسندَهم بذراعيَّ، وأسيرُ بهما مقلوبةً مثلَ العنكبوتِ بأربعِ أرجلٍ.

أول رسالة إعجاب

عندَما انتقلتُ إلى المرحلةِ الثانويةِ، وصلتْني أولُ رسالةِ إعجابٍ مِن شابٍّ عربيٍّ، سُلِّمتْ لي مفتوحةً ومقروءةً مِن إدارةِ المدرسةِ، رسمَني هذا الشابُّ صورةً بالألوانِ على صفحاتِ رسالتِه طربتْ نفسي لجمالِها ودقةِ التشبيهِ بي، نقلَ صورتي مِن تقريرٍ صحفيٍّ مطوَّلٍ نُشِرَ في صحيفةِ "الجيل الجديد"، عندَما قامتْ صحفيتُها المعروفةُ آنذاكَ زينب السبكي، بزيارةِ البلدِ الذي عشتُ فيه بعضًا مِن طفولتي وصِباي وشبابي، وعملتْ ريبورتاج عن مدرستِنا، فكتبتْ في تقريرِها: "لفتَ نظري شابةٌ تحملُ على عاتقِها مسؤوليةَ الإذاعةِ المدرسيةِ، وتقومُ بتحريرِ ورسمِ مجلةِ الحائطِ الأسبوعيةِ، ولا يخلو ملعبُ كرةِ السلةِ مِنها في كلِّ مباراةٍ.. و.. و.."

أرفِقتِ الكثيرُ مِن صوري في التقريرِ؛ واحدةٌ وأنا بقربِ مجلةِ الحائطِ وثانيةٌ وبيدي سماعةُ الإذاعةِ المدرسيةِ أُذيعُ كلماتٍ كتبتُها عن الأخبارِ الصباحيةِ، وقراءةِ نصوصٍ أدبيةٍ نثريةٍ كُلِّفْتُ بكتابتِها، وثالثةٌ مع رفيقاتِ ملعبِ كرةِ السلةِ.

بعدَ مرورِ أكثرَ مِن ثلاثةِ أسابيعَ على زيارةِ الصحفيةِ المصريةِ، وفَتْ بوعدِها، وأرسلتْ لي نسخةً مِن المجلةِ مع ما أرسلتْه إلى إدارةِ المدرسةِ، فرحتُ بنسختي، تمعَّنتُها وقرأتُها وشعرتُ بالخجلِ يحمرُ له

خدِّي مِن شدةِ مديحي في مقالِها، للأسفِ اختفتِ المجلةُ لا أدري إذا كنتُ لمْ أعتنِ بالمحافظةِ عليها، أو أنَّ أبي الذي أخذَها مِن دُرْجِ مكتبي ليريَها لأصدقائِه فخورًا بابنتِه ولمْ تعدْ إلى مكانِها.

بعدَ عدةِ أيامٍ أرسلتْ وكيلةُ المدرسةِ تطلُبُني لمقابلتِها في مكتبِها، لا أدري لماذا خِفتُ مِن مجهولٍ ما تريدُه مِنّي، وفي طريقي إليها كنتُ أرتجفُ، طرقتُ بابَها حتى أذنَتْ لي، تفحَّصتْني بنظراتٍ غيرِ رحيمةٍ، وسلَّمتْني رسالةً بمظروفٍ أزرقَ، قائلةً:

- قوانينُ المدرسةِ تنصُّ على فتحِ وقراءةِ أيَّةِ رسالةٍ تصلُ إلى الطالباتِ.

صعدَ الدمُ إلى وجهي وشعرتُ وكأنَّني أستلمُ شيئًا مشينًا، لمْ أستطعِ الردَّ عليها، تمتمتُ شاكرةً خبأتُها في جيبي، زادَ ارتجافُها حتى وصلتُ إلى بيتي، اعتزلْتُ بغرفتي وفَرَدْتُ صفحاتِها الخمسَ أمامي، كانَ لونُ الورقِ أزرقَ فاتحًا ملمسُه ناعمٌ مثلُ الحريرِ، وهذا ما أكَّدَ لي أنها مِن شابٍّ، لأنَّ الأزرقَ هو لونُ الأولادِ، كانَ على المظروفِ طوابعُ مصريةٌ، ابتسمتُ لنفسي وكلِّي إعجابٌ مِن تمكُّنِ هذا الشابِّ برسمِ صورتي على كلِّ صفحةٍ، وبأوضاعٍ مختلفةٍ، قرأتُ نبضاتِ قلبِه المهذبةِ، والمتخفيةِ بإعجابٍ شديدٍ بما أقومُ به مِن أنشطةٍ تتلاقى مع اهتماماتِه وما يقومُ به مِن أنشطةٍ مماثلةٍ.

كانت الرسالةُ في منتهى الطيبةِ والطهرِ، لمْ أهدأْ مِن الفرحةِ، قرأتُها عدةَ مراتٍ وأخذتُ أفكِّرُ، هل أردُّ عليها؟ ولِمَ لا؟ كلمتُها الرقيقةُ

عاليةُ التهذيبِ تستحقُ الردَّ، غمرَني فرحٌ خاصٌّ لأولِ رسالةِ طلبِ صداقةٍ مغلفةٍ بإعجابٍ رقيقٍ، وحبٌّ مخفيٌّ بينَ السطورِ.

فتحتُ درجَ مكتبي القديمِ الذي ورثتُه عن أخي عندَما غادَرَنا للدراسةِ الجامعيةِ، وأخرجتُ قلمًا وورقةً بيضاءَ مِن كشكولِ المدرسةِ، وبدأتُ أردُّ على رسالتِه:

"أخي العربيُّ: أشكرُكَ على رسالتِكَ، وأرحِّبُ بكَ صديقًا مِن وطنٍ عربيٍّ عزيزٍ على قلبِ كلِّ إنسانٍ وقلبِ كلِّ عربيٍّ.. و.. و.."

وإذا بأخي يطلُّ عليَّ برأسِه، وكأنَّ الشيطانَ أسرَّ بقلبِه أنني متوحدةٌ مع أولِ رسالةِ إعجابٍ مِن فتًى يانعٍ مثلِه، وعندَما شاهدَ الورقَ الأزرقَ بألوانِ الرسوماتِ البديعةِ اهتزَّ، واختفتِ ابتسامتُه، وصرخَ بي: ماذا تفعلينَ يا مجنونةُ؟

قلتُ له مُحاوِلةً تهدئتَه: أكتبُ ردًّا على رسالةٍ وصلتْني اليومَ على عنوانِ مدرستي.

سحبَ الرسالةَ الزرقاءَ وما بدأتُ أكتبُه على ورقتي مِن تحتِ يدي بقسوةٍ، وخرجَ بعدَ أنْ صفعَ بابَ غرفتي بضربةٍ قويةٍ تدلُّ على انفعالِه الشديدِ، وعلى الرغمِ مِن تظلُّمي لأمِّي وشَرحي لها بأنَّها رسالةُ طلبِ صداقةٍ عاديةٍ وجميلةٍ مِن فنانٍ صغيرٍ رسمَ صورةً جميلةً لابنتِكِ على الرسالةِ، رجوْتُ أخي ألاَّ يمزِّقَ الفنَّ والرقةَ، ووعدتُه بأنني لنْ أردَّ عليه، ولكنني ومنذُ ذاكَ اليومِ لمْ أرَ تلكَ الرسالةَ.

شعرتُ بالاختناقِ، لماذا يقبضُ أخي على حُرِّيَّتي؟ لماذا مَنعَني مِن الردِّ على رسالةٍ شفافةٍ رقيقةٍ مِن شخصٍ يطلبُ صداقتي، بكيتُ ليلتَي قهرًا وحنقًا، والتزمْتُ غرفتي ولمْ يشعرْ بمعاناتي أحدٌ، أمِّي غارقةٌ بمشاغلِ العائلةِ وإنجابِ أطفالٍ جددٍ، وأبي في رحلةِ عملٍ، وإخوتي لاهُونَ في حياتِهم.

استنجدْتُ بالنومِ ولكنَّه جَافاني، وتركَني ألتهبُ مع شعورٍ أخذَ يترسخُ أكثرَ وأكثرَ بالظلمِ الذي أعيشُه لأنني بنتٌ، لو جاءَ لأخي رسالةٌ مِن فتاةٍ تطلبُ صداقتَه، هل سيمنعُه أحدٌ مِن الردِّ عليها؟ لمْ أتناولْ عشائي، وبعدَ أنْ أُنهِكَتْ روحي مِن التفكيرِ بما فعلَه بي أخي رميتُ نفسي على سريري، وبكيتُ حزني وآلامَ روحي بصمتٍ حتى نِمْتُ.

استيقظتُ صباحَ اليومِ التالي عيوني متورمةٌ، غسلتُ وجهي على عجلٍ، وارتديتُ ملابسَ المدرسةِ، وخرجتُ سيرًا إليها، انزويتُ فيها ركنًا أُنهي فيه الروايةَ التي استعرتُها مِن مكتبةِ المدرسةِ حتى يحينَ موعدُ الحصةِ الأولى، كانتِ القراءةُ ولا تزالُ شفائي مِن حالاتي النفسيةِ والمَرَضِيةِ، وكنتُ أتمنَّى المرضَ حتى لا أغادرَ سريري، وأقرأَ أكثرَ ودونَ مللٍ كلَّ ما كانَ في متناولِ يدي، بما فيها الصحفُ اليوميةُ، وأشعرُ بالاكتفاءِ والراحةِ والمتعةِ.

كما كانَ للموسيقى الهادئةِ فِعلُها في نفسي، بقيتِ القراءةُ والكتابةُ فيما بعدُ هُما أغلى ما عندي، يأخذانني في مشوارٍ طويلٍ لا أصحو مِنه حتى أنتهي مِمَّا أنا فيه، مرَّتْ بجانبي أقربُ الصديقاتِ،

ولاحظتْ أنَّ عيوني متورمةٌ، سألتني عمَّا بي، فقصصْتُ عليها ما جرى وبكيتُ.

أخذتْ تخففُ عنِّي بحنانِها وقولِها: كلُّنا في الهمِّ سَوا، هذا هو حظُّنا كبناتٍ، هل نسيتِ ما أعاني مِنه مِن تشدُّدِ أهلي معي، وأمي بالذاتِ التي تراقبُ كلَّ حركاتي وسكناتي؟ هل تعلمين بأنني مِن أجلِ أنْ ألتقي بقريبي الذي يحبُّني وأحبُّه كنتُ أقولُ لأمي إنني ذاهبةٌ لزيارتكِ، فتوافقُ لأنكِ كنتِ الأعقلَ والأنضجَ فينا.

تذكرتُ أنَّ رفيقاتِ المدرسةِ كانوا يلقبونني بالشيخةِ، لأنَّه بحضوري لا تجرؤُ أيٌّ منهنَّ أنْ تتكلمَ عن الجنسِ الذي كانوا يتلمَّظون بالحديثِ عنه فورَ أنْ أغادرَ الغرفةَ، لازمَني قهري وحُزني لأيامٍ دونَ محاولةٍ مِنّي لاستعادةِ الرسالةِ، ومع الوقتِ والأنشطةِ الثقافيةِ والفنيةِ نسيتُها.

ولكنني لمْ أنسَ روحَ الفنانِ فيها حتى اللحظةِ، ومِن جملةِ ما افتقدتُ وتمنيتُ لو أنقذتُ لوحاتِ كتابي الفنيةَ التي رسمتْهم صديقتي الفنانة الفلسطينية المبدعة فاطمه صوان، وريبورتاج مجلةِ الجيلِ الجديدِ، وأولِ لقاءٍ صحفيٍّ أُجريَ معي في حياتي ونُشِرَ في مجلةٍ أُسريةٍ، وتركَ أثرًا كبيرًا وتحوّلاً هامًّا في حياتي، وعندَما تخرجتُ وعملتُ وتزوجتُ، تحررتْ روحي مِن القيودِ التي كبَّلتْني لسنواتٍ، وأصبحتُ ناشطةً وفاعلةً ومتطوعةً في المجالاتِ الإنسانيةِ والوطنيةِ مِن أجلِ تحريرِ الوطنِ المحتل.

صاحبة العيون الثائرة

يا لها مِن كلمةٍ كبيرةٍ في تلكَ الفترةِ الهامةِ مِن حياتي، في قمةِ عطائي وتأجُّجي، أجرتْ معي صحفيَّةٌ مصريةٌ محترفةٌ، لقاءً صحفيًّا جريئًا عن قضيتي، وضعتْ له عنوانًا مثيرًا، جعلني أتعرفُ على نفسي مِن الداخلِ، كتبتْه بخطٍ أحمرَ مِن البنطِ العريضِ: "لقاءٌ مع صاحبةِ العيونِ الثائرةِ"، شعرتُ بأنَّها قرأتْ ثورتي في عيوني فأطلقتْ عليَّ هذا الاسمَ الذي التصقَ بي حتى الآنَ، كنتُ فعلاً ثائرةً وبامتيازٍ على التقاليدِ الباليةِ التي تفرِّقُ بينَ البنتِ والصبيِّ، منذُ أنْ وَعيتُ أنَّ هذهِ التفرقةَ العنصريةَ، تُطبِقُ كَلابيشَها على وعيي، وثائرةً على مَن اغتصبَ وطني وأوقعَ الظلمَ بأبي وأمي وشعبي.

العريس الأمير

عشقتُ الفنونَ مِن رسمٍ وموسيقى وتمثيلٍ، وأصبحتُ ضمنَ فريقِ كورالِ المدرسةِ أعزفُ على الأكورديون الذي أهديتُه فيما بعدُ لأولِ صبيةٍ قابلتُها تعشقُ العزفَ عليه بعدَ أنْ تفرغتُ لأطفالي.

آخرُ مسرحيةٍ مثلْتُها كأنها حصلتْ أمسِ، جسدتُ فيها دورَ الأميرةِ عنقاءَ، المأخوذةُ مِن كتبِ التراثِ الإسلاميِّ، أدَّيتُ دوري بروحي وقلبي ككلِّ عامٍ، ولمْ أكنْ أعرفُ بأنني أتقنُ التمثيلَ، كنتُ هاويةً على خشبةِ المسرحِ المدرسيِّ الذي يُبنى مِن الخشبِ الصلبِ بحرفيةِ نجارينَ مهرةٍ، يزيَّنُ بستارةٍ ضخمةٍ بلونٍ فاقعٍ ولامعٍ تُفتَحُ وتُغلقُ بالحبالِ وبانسيابٍ تامٍّ بعدَ كلِّ مشهدٍ، يقامُ كلُّ عامٍ على ساحةِ

الملعبِ المحاطِ بجوانبِه الأربعِ بالفصولِ المدرسيةِ حتى الطابقِ الثاني، وذلكَ في نهايةِ العامِ الدراسيِّ.

كانتِ السماءُ تُغطّى بالشوادرِ البيضاءِ والخضراءِ، والكراسيُّ تُصفُّ على بعدِ مترٍ مِن المسرحِ، حتى آخرِ الملعبِ، أصبحَ المكانُ مِن الداخلِ يضيءُ بلونٍ لازورديٍّ رومانسيٍّ مُختلِطٍ حسبَ ظلالِ الشمسِ التي عندَما نبدأُ التمثيلَ يكونُ زوالُها قدْ قَرُبَ.

ألبسوني ثوبًا حريريًّا شفافًا بأذرعٍ عريضةٍ ومُزَمَّمَةٍ حتى نهاياتِ الكُمَّيْنِ وسروالاً أندلسيًّا عريضًا، مُرتكزًا على وسَطي بمُغَيِّطَةٍ/مِمحاةٍ رفيعةٍ يَزُمُّ أطرافَ السروالِ العريضِ عند قدمي، عشقتُ دوري وكانتْ آخرُ كلمةٍ خرجتْ بقوةٍ مِن رئتيَّ، وليسَ مِن حَلقي، وذلكَ عندَما أخذَني الأعداءُ جاريةً لهم، صرختُ بأعلى صوتٍ نطقَ به قلبي وروحي: "**وإسلاماه.. وإسلاماه**"..

الملعبُ اهتزَّ، والحضورُ اهتزّوا، واهتزَّتِ الشوادرُ، واهتزَّتْ صدورُ النساءِ السميناتِ المتصدراتِ الصفوفَ الأولى، وعلى رأسِهم الأميراتُ بمَن فيهنَّ زوجةُ الحاكمِ، اهتزّوا جميعًا بالتصفيقِ الحادِّ لأنه أُغمي عليَّ بحقٍ، لأنني لمْ أكنْ أمثِّلُ الدورَ، بلْ كنتُ أعيشُ الأميرةَ عنقاءَ بلحمِها ودمِها، وهي تستغيثُ المسلمينَ لنجدتِها.

دورُ الأميرةِ عنقاءَ في المسرحيةِ المدرسيةِ، جلبَ لي عريسًا وأنا في الرابعةَ عشرَ مِن عمري، أمُّه كانتْ زوجةَ أميرِ البلادِ، التي كانتْ تجلسُ في الصفِّ الأماميِّ، تأثرتْ كثيرًا بأدائي واستغاثتي، ثاني يومٍ للحفلِ المدرسيِّ أرسلتْ وراءَ أبي وأخبرتْه بأنَّها تريدُ أنْ

تخطِبَني لابنِها، ذهلَ أبي مِن وقعِ الخبرِ، فأنا ما زلتُ طفلتَه المدللةَ، ولكنه كانَ سريعَ البديهةِ كالعادةِ، اعتذرَ لها قائلاً إنَّ فاتحتي مقروءةٌ على ابنِ عمِّي منذُ مولدي، ولنْ يستطيعَ التنصُّلَ مِن وعدٍ قطعَه على نفسِه مع أخيه في فلسطينَ.

لمْ أكنْ مخطوبةً لابنِ عمِّي، ولمْ يكنْ هناكَ أيُّ وعدٍ، ولكنه اضطُرَّ لفعلِ ذلكَ، حتى يتخلصَ بأدبٍ مِن رفضِ طلبِ زوجةِ الأميرِ، قالتْ لي أمِّي فيما بعدُ:

- أبوكِ جاءَ ذاكَ اليومَ يرتجفُ مرعوبًا خوفًا مِن أنْ تُجبرَه زوجةُ الأميرِ الحاكمِ على قبولِ طلبِها، كانَ يحلمُ بمستقبلٍ علميٍّ باهرٍ لكِ ويتمنّى أنْ يراكِ طبيبةَ أطفالٍ، وليسَ زوجةً لرجلٍ ثريٍّ وابنِ سلطانِ تلكَ البلادِ لدرجةِ أنَّه طلبَ منِّي أنْ أكونَ جاهزةً لنغادرَ البلدَ بأنفسِنا ونتركَ فيها كلَّ شيءٍ إذا حصلَ إكراهٌ، أو ضغطَ عليه.

أخذَ يؤكِّدُ لي بأنه لن يضحيَ "بالست زبيدة" بتزويجِها مِن أميرٍ، كانَ صيتُ أمراءِ النفطِ في ذلكَ الوقتِ أنَّهم مِزواجون، ولا يكتفون بزوجةٍ واحدةٍ، بلْ بمثنى وثلاثَ ورُباعَ، لقد احترمتْ زوجةُ الأميرِ وعدَ أبيكِ ولمْ تتصلْ به ثانيةً.

أمَّا المضحكُ في هذا الموضوعِ، فهُمْ إخوتي الكبارُ الذين أخذوا يحرِّضونني على أبي، لأنَّه حرمَني أنْ أكونَ أميرةً، وأخذوا يَعرِضون عليَّ صورَ الأميرِ الصغيرِ، الذي صادفَ أنَّه يدرسُ معهم في الثانويةِ العامةِ، وأخذوا يُشيرونَ إلى صورتِه بإصبعِهم لإثارتي:

- انظري إلى صورتِه معنا، كمْ هو جميلٌ ومهذبٌ.

وأخذوا يُمعِنون بإغاظتي بأنَّه مِن أكثرِ الشبابِ خلقًا وطيبةً.

نظرتُ إليهم بحنقٍ وغضبٍ وصحْتُ بهم:

- مَن قالَ لكم إنني أريدُ أنْ أتزوجَ؟! هل نسيتُم أنني سأصبحُ طبيبةَ أطفالٍ عندَما أكبرُ؟

الحب والحرمان

عشتُ حياةً حافلةً، وتنقلْتُ في أماكنَ عديدةٍ، وزرْتُ بلادًا كثيرةً، وأحببتُ مراتٍ كثيرةٍ وعشقتُ مراتٍ ومراتٍ، وعانيتُ كثيرًا مِن الحبِّ والحرمانِ والتقلباتِ العاطفيةِ المريرةِ، وأبحرتُ في عمقِ الروحِ، وتجسدتُ صورًا عشتُها بالخيالِ، عشقتُ عبد الحليم حافظ منذُ طفولتي وكبرَ معي هذا العشقُ حتى تصورتُ نفسي -بالخيالِ طبعًا- أنني معشوقتُه الوحيدةُ، وعشتُ هذا العشقَ سنواتٍ مِن عمري في هَيَمانٍ.

كنتُ أسهرُ معه الليالي وأنامُ في دفءِ أحضانِه، وكانَ يغنّي لي وحدي، وكنتُ أحلّقُ في السّماواتِ السبعِ، وأعيشُ في دنيا خلقتُها لنفسي، وأحلامٍ عشتُها بجوارحي، كنتُ كلَّما ضاقتْ بي نفسي ألجأُ لدنيا أحلامي، أغوصُ فيها، وأنصبُ قصصي عليها، وفي لحظاتٍ كنتُ أنفصلُ عن كلِّ مَن حولي.

كانَ مِن الصعبِ عليَّ أنْ أستيقظَ مِن أحلامي التي كانتْ تتحولُ تدريجيًّا للتعبُّدِ، ومناجاةِ اللهِ أنْ يحفظَ لي حبّي، وأنْ يحفظَ لي أمّي وأبي، وأخوتي وكلَّ مَن اعرفُ او لا أعرفُ.

كانتْ أحلامـي تمتدُّ وتمتدُّ ولا أصحو مِنها أغلب الأحيان إلاّ بعدَ أنْ أنالَ هزةً قويـةً مِن أحدِ إخوتي حتى أفيقَ إلى دنيا الواقـع، كنتُ أهتزُّ وأنهارُ ببكاءٍ حارٍّ ومكتومٍ لأنني سُجِنْتُ قسرًا مِن حياتي التي كوَّنْتُها لنفسي، كنتُ أستغرقُ بخيالاتٍ صنعتُها لنفسي، وأحلامٍ جسَّدَها حبُّ الحياةِ في قلبي، والرغبةُ القويـةُ فـي العشقِ مع الحبيبِ ودفئِه وحنانِه الذي عشتُه في دنيا خيالاتي وأحلامي المُبكِّرةِ، الهائمِ في الحبِّ وملكوتِ اللهِ، وطبيعةِ بلادي الساحرةِ، ودعواتي الدائمةِ منذُ كنتُ طفلةً أنْ يحفظَ لي ربِّي أمِّي وأبي وإخوتي، حمَّلوني مسؤوليةً مبكرةً ولكنَّهم أنضجوني بسرعةٍ.

لمْ أعرفْ ما تُعانيه الفتياتُ في عمري في فترةِ مراهقةٍ صعبةٍ والوقوعِ في علاقاتٍ سريَّةٍ، تجاوزْتُ ذلكَ وأقمْتُ علاقاتي فقطْ بيني وبين نفسي.

كنتُ مؤمنةً بأنَّه مِن حقي أنْ أعيش مُراهقتي مِن صُنعِ خيالي، لأنَّ الحبَّ في الواقعِ كانَ مُحرَّمًا، بلْ كانَ دنسًا ولا يمكنُ التطرُّقُ إليه أو التفكيرُ به أو حتى النظرِ إليه، عشْتُ الرومانسيةَ بكلِّ قواي، ولا أدري إذا استبدلتُ عبد الحليم بفنانٍ آخرَ أمْ أبقيتُ عليه، حتى تكوَّنتْ أولى نبضاتِ قلبي.

بقيتُ أعيشُ داخلَ نفسي، مع كينونتي الخاصةِ التي خلقتُها لنفسي، أعيشُها بكلِّ حواسي حُبًّا وعشقًا وهيامًا ووَلَهًا، وإشباعًا جنسيًّا خياليًّا مفعمًا بالحساسيةِ والرقةِ وخيالاتِ الحبِّ والرومانسيةِ التي خلقَها خيالُ مراهقتي التي عشتُ فيها حبِّي الأولَ لمُطربي

المفضلِ، حتى جاءَ مَن أنقذَني مِن هذهِ الخيالاتِ، وأصبحتُ أعيشُها بالواقعِ وبدأتُ أهبطُ بها تدريجيًا وبسرعةٍ هائلةٍ إلى الواقعِ الجميلِ الذي حلمْتُ به عمري، ومارستُه منذُ طفولتي، وحلمتُ به في صِباي حتى حصلَ.

المراهقة

عشْتُ مراهقتي مِن صُنعِ خيالي، لأنَّ الحبَّ في الواقعِ كانَ محرمًا، بل كانَ دنسًا، في مجتمعِنا في ذلكَ الوقتِ.

تأكدْتُ مِن ذلكَ بعدَ أنْ وصلتْني رسالةٌ مُتخفِّيةٌ بجيبِ أختِ صديقتي الأصغرِ مِنَّا بعدَ أنِ افتقدْتُها وسألتُ عنها أختَها، كتبتْ لي رسالةً تقولُ لي إنَّ أهلَها حبسوها في البيتِ، لأنَّها ذهبتْ في فترةِ الغداءِ، إلى قاعةِ الفندقِ القريبةِ مِن مدرستِنا، لتتنصَّتَ على عزفٍ موسيقيٍّ لفنانٍ أجنبيٍّ عشقَتْ فنَّه، ووصلتْهم همساتٌ، ومنَعوها مِن الخروجِ مِن البيتِ، وأطلقوا عليها حراسةً مشدَّدةً، وعندَما ثارتْ وهاجتْ، شدَّدوا عليها الحراسةَ، وزادوها ألمًا باتهامِهم لها بأنَّها مُومسٌ.

كانتْ صديقتي مرهفةً، نقيةً ورقيقةً، ولكنَّها كانتْ ذاتَ خيالٍ واسعٍ جدًّا، تشطحُ به وبي كثيرًا، كانتْ تُحضِرُ معَها إلى المدرسةِ المجلاتِ الأجنبيةِ، وتشيرُ بأصبعِها إلى الوجوهِ الفاتنةِ مِن الشبابِ والشاباتِ الشقراواتِ، وتقولُ لي هذا ابنُ خالي، وتلكَ ابنةُ خالتي، وُلِدوا جميعًا في أمريكا، وتُشيرُ إلى المزيدِ مِن صورِ الأقاربِ، خالُها وخالتُها و.. و..

لا أدري كيفَ كنتُ أصدِّقُ كلَّ ما كانتْ تقولُه لي، كنتُ أشعرُ بحرارةِ كلماتِها فصدَّقْتُها، وكنتُ أشعرُ ببراءتِها، وصدقِ مشاعرِها.

أذكرُ أننا تعاهدْنا يومًا ألاَّ نتزوجَ أبدًا، بل نعيشُ الحبَّ الأفلاطونيَّ فقطْ، كنَّا نحلمُ أنْ نُرخيَ رأسيْنا على صدرِ الحبيبِ، ونغفو بحنانِ عناقِه وحبِّه.

رسالةُ صديقتي ذاتِ الخمسِ صفحاتٍ هالتْني، ومِن خوفي مِنها وعليها، دخلتُ إلى الحَمَّامِ، أغلقتُه بقوةٍ وبرمتُ المفتاحَ مِن الداخلِ، وبدأتُ أمزِّقُ كلَّ ورقةٍ على حِدَةٍ قِطعًا صغيرةً جدًّا، قذفتُها جميعَها في المرحاضِ، وضغطتُ على مفتاحِ الماءِ، وأخذتُ أراقبُ دورانَ الماءِ يبتلعُ القطعَ الصغيرةَ، أخذْتُ أنظرُ بعمقٍ إلى نتفِ الورقِ تتلوَى، وتدورُ بعنفٍ في الماءِ الجارفِ، كالأفعى التي تحاولُ تخليصَ عنقِها مِن قبضةٍ قويةٍ.

كنتُ ألجمُها بالضغطِ على صنبورِ ماءِ المرحاضِ مرةً أخرى، وثالثةً، وهكذا دواليكَ، حتى أنهيتُ الصفحاتِ الخمسَ، وتأكدتُ بأنَّه لمْ يتبقَّ أثرٌ أبيضُ مِن تلكَ الرسالةِ، أو حبرٍ ساحَ مِنه شيءٌ على جوانبِ المرحاضِ.

ازددْتُ رعبًا بعدَ رسالةِ صديقتي، لمْ أتصورْ نفسي محبوسةً في البيتِ، ظلمًا وبهتانًا كما حصلَ لها، وأخذَتْني الوساوسُ بعيدًا وأبعدْتُ نفسي عن الجنسِ الآخرِ، تصوَّرْتُ أنَّ مجردَ الكلامِ معه، أو لمسِ يدِه بالخطأِ عملٌ دنسٌ، سيفقدُني عذريَّتي، تاجَ رأسي الذي نصبَه أهلي على رأسي منذُ أنْ وعيت.

العادة الشهرية

في ليلةٍ مِن ليالي الصيفِ الحارَّةِ، أصابتْني حَكَّةٌ في منطقةِ الفرجِ، أخذتْ توقِظُني مِن نومي مِن شدةِ الهَرْشِ الذي لا أدري سببًا له، عندَما قمتُ إلى الحَمَّامِ في الصباحِ، وجدتُ دمًا في لِباسي الداخليِّ، خفتُ مِنه ورميتُه فورًا في القمامةِ، لاحظتْه أمِّي فأقبلتْ عليَّ فَرِحَةً تهنِّئُني.

كانتِ الأمهاتُ يهلِّلنَ بخبرٍ كهذا، لأنه إثباتٌ لميلادِ الأنوثةِ عندَ بناتِهنَّ، ولكنَّني بكيتُ بحرقةٍ مِن الخجلِ، وأخذتُ أبرِّرُ لأمِّي أنَّ سببَ نزولِ الدمِ هو هرشي طولَ الليلِ بينَ فخذيَّ، تغيَّرَ لونُ وجهِ أمِّي، وفتحتْ عيونَها على سعتِها، وأخذتْ تستجوبُني مرعوبةً مِمَّا صرحْتُ به، سألتْني:

- أينَ بالضبطِ، انطقي؟

أشرتُ إلى المكانِ باكيةً، وقلتُ:

- بينَ فخذَيَّ، صحوْتُ مِن نومي على شيءٍ يَحكُّني فهرشْتُه كثيرًا لهذا سالَ الدمُ.

حذرتْني أمِّي وهي رافعةٌ أصبعَها مهدِّدةً:

- إياكِ أنْ تفعلي ذلكَ ثانيةً.

سألتُها وأنا أمسحُ دموعي بكُمَّيْ بيجامتي:

- طيِّب، فهميني يا أمي، ما الخطأُ في ذلكَ؟

أجابتْ وهي تنتفضُ وتضربُ يديْها الاثنتيْنِ ببعضٍ:

- لأنه في تلكَ المنطقةِ الحساسةِ بينَ الفخذيْنِ شيءٌ اسمُه الفرجُ، وفيه غشاءُ البكارةِ، وهو غشاءٌ رقيقٌ جدًّا يجبُ أنْ

تحافظي عليه لأنّه إثباتٌ لعذريتِك.

- ماذا تعنين؟ لمْ أفهمْ ما تقولين.

- يجبُ ألاّ تقتربي مِن غشاءِ البكارةِ حتّى لا تتسببي في فضّ بكارتِكِ، وتُسبّبي لنا فضيحةً.

كانتْ أمّي مرتبكةً وخائفةً، وأعتقدُ أنّ خوفي في الحياةِ ورعبي من أيّ شيءٍ يصيبُنا ورثتُه مِنها، زرعتْ أمّي الهلعَ في قلبي مِن حيثُ لا تدري، ولمْ أفهمْ ماذا تعني بالعذريّةِ، وماذا تعني بالفضيحةِ التي يمكنُ أنْ أسبّبَها، عقلي لمْ يقتنعْ بما سمعتُ، وبقيَ تساؤلٌ كبيرٌ في ذاكرتي، لمْ يكنْ عندي أحدٌ أستشيرُه مِن نساءِ العائلةِ، ولو كانَ لما تجرأتُ على ذلكَ. لمْ تَزِدْ أمّي شيئًا غيرَ تحذيرِها، فهي بطبيعتِها خجولةٌ ولا تتحدثُ في قضايا النساءِ.

أعطتْني أمّي قطنًا، وعلمتْني كيفَ أستعملُها، رميتُها في الحوضِ الذي أعدّتْه لي أمّي بالماءِ والصابونِ، وخلالَ يومينِ أجبرتْني أنْ أغسلَهم، أخذتُ أبكي وأنا أتقزّزُ مِن لمسِهم، متوسلةً ودموعي تملأُ وجهي:

- أرجوكِ يا أمّي، لا تُجبريني على غسلِهم، أقرفُ مِن منظرِ الدمِ.

لكنّ أمّي الطيبةَ التي لا ترفضُ لي طلبًا أصرّتْ على طلبِها، ووددتُ لو رميتُهم في كيسِ القمامةِ، ولكنْ لمْ تثنِها دموعي التي زادتْ بسببِ نفوري وتقزّزِ بدني من لمسِ شيءٍ نجسٍ، كانتْ حازمةً لأولِ مرةٍ وهي تقولُ لي:

- علـى البنـتِ أنْ تَغسلَ فـوطَ أولِ عـادةٍ شـهريةٍ، وبعدَ ذلـك غيرُ مهمٍّ.

لمْ أفقَه ماذا تعنـي ولمْ يقنعْنـي كلامُها بتاتًا، ولمْ أقتنـعْ كعادتـي بمـا لا يتقبَّلُـه عقلـي، ويتركُنـي فـي مهـبِّ الـريحِ وتسـاؤلاتي الكثيـرةِ ولهفتـي إلـى المزيدِ مِن المعرفـةِ التـي لمْ تتطرقْ لهـا أمِّـي مَعي يومًا بسـببِ خجلِهـا الشـديدِ، لكنَّهـا وضَّـحَتْ لـي لاحقًا بأنهـا عـادةٌ تراثيـةٌ يجبُ الالتزامُ بها تيمنًا باستمرارِ تدفُّقِ العادةِ الشهريةِ عندَ البنتِ.

حمدْتُ اللهَ أنَّ الفوطَ القطنيةَ ظهرتْ في الأسواقِ مع كيسٍ لكلٍّ مِنها لرمْيِهم في القمامةِ بعدَ الاستعمالِ، وأنهتْ إلى الأبدِ هذهِ الفكرةَ المتوارثةَ التي لا عقلَ فيها ولا منطقَ.

هكذا تخلصتُ بسرعةٍ، وكلُّ رفيقاتي البناتُ مِن غسلِ فوطِ الدمِ السقيمةِ التـي سـببتْ لـي كرهًا لتلكَ العـادةِ الشـهريةِ كلَّمـا هلَّـتْ فـي موعدِها كلَّ شهرٍ، وطلبتُ مِن أمِّي ألاَّ تخبرَ أحدًا بها، وتبقَيَ هذا الموضـوعَ سرًّا بيننـا، ولكنَّ نفورَ الثديَيْنِ، وملامـحَ الأنوثـةِ المبكرةِ، فَضحوا ما حاولتُ تغييبَه مِن حياتي، رغمَ الضغطِ عليْهما بقطعةٍ مِن القماشِ كنتُ أعصرُ بها ثديَيَّ حتى أغطيَ حلمتَيَّ ونفورَ الثديينِ.

لمْ أنسَ حتى الآنَ مشهدَ رعبِ أمِّي مِن احتمالِ فُقداني لعذريَّتي بسببِ الهرشِ، ممَّا سبَّبَ لي عقدةً رافقتْني لسنواتٍ، وشعرتُ بالعارِ لأنَّ هذا الدمَ جعلني غيرَ طاهرةٍ أمامَ نفسي، وأنَّ هذا الغشاءَ الرقيقَ الذي لاحقتْني به عجائزُ العائلةِ شيءٌ مخيفٌ، وذلكَ كلَّما تسلقتُ أشجارَ حديقةِ بيتِنا أو لعبتُ كرةَ القدمِ في الشارعِ مع إخوتي، كرهتُ

خوفَهم، وثُرْتُ عليه وعليهم، وزادَني تحديًا بتسلُّقِ الأشجارِ، ورمي كرةِ القدمِ بقوةٍ لتصلَ إلى نهايةِ الشارعِ، وركوبِ دراجاتِهم الهوائيةِ لأنهم لم يشتروا لي واحدةً لنفسِ السببِ.

النبض الأول

انكفأْتُ على نفسي بعواطفي، وعشتُ الرومانسيةَ الخفيةَ، التي لا يعرفُها أحدٌ غيري، تكونَتْ أولى نبضاتِ قلبي، عندَما أبدى ابنُ الجيرانِ ولعَه ولهفتَه لرؤيتي، ولأنَّ ذلكَ كانَ مِن المحرماتِ، كنتُ أخافُه رغمَ نبضاتِه في القلبِ، أذكرُ مرةً أننا تقابلْنا ليلاً على درجِ عمارتِنا، هو نازلٌ وأنا صاعدةٌ، فارتبكْتُ وأصابَني رعبٌ شديدٌ، فتوقفْتُ، وأدرْتُ خطواتِي باتجاهِ بابِ الدارِ، دُهِشَ مِمَّا أنا فيه مِن ارتباكٍ، فأنا أوحي لمَنْ عرفَني بالثقةِ الكبيرةِ بالنفسِ، وبقوةِ الشخصيةِ، وحتى يُنقذَني مِن الهولِ الذي أنا فيه، عادَ إلى شقتِه، وأغلقَ بابَها، حتى يُمكِّنَني مِن تكملةِ المشوارِ إلى السطحِ، الذي كنتُ وأفرادَ عائلتِي ننامُ فيه في الصيفِ بحثًا عن نسماتِ هواءٍ شحيحةٍ تكونُ لاهبةً فترةَ الظهيرةِ، ثمَّ تسترخي تدريجيًا وتصبحُ رطبةً ومنعشةً في المساءِ.

لهذا كنَّا نَهجُ ليلاً مِن الغرفِ المغلقةِ طولَ النهارِ على مكيِّفاتِ الهواءِ، إلى الهواءِ الطلقِ وأسِرَّتِنا التي تُنصَبُ على السطوحِ في الصيفِ.

كانَ يجلسُ في شرفةِ منزلِهم، تحتَ السطحِ مباشرةً، يستمعُ لأغاني الحبِّ مِن مطربةِ الطربِ الأصيلِ "الست أم كلثوم"، كانَ

يحدثُ ذلكَ كلَّما حانَ موعدُ صعودِي إلى السطحِ، سواءٌ للمذاكرة أو عندَما يحينُ موعدُ النومِ، أصبحتُ أنامُ على أغاني الحبِّ التي كانتْ تؤجِّجُ فؤادي، وأتنهدُ كما يتنهدُ العاشقون طربًا وولهًا على الرغمِ مِن أنَّ هذا النبضَ توقفَ بسرعةٍ بعدَ أن انتقلَ صاحبُه مِن سكنِه.

لكنني بقيتُ أعيشُ مع أحلامِي التي ابتدعَها خيالي الخصبُ، وعواطفي الجياشةُ، وحبِّي للحنانِ والحبِّ الأفلاطونيِّ الذي عاهدتُ صديقةَ طفولتي أنْ نلتزمَ بهِ، لكننا هي وأنا خرقْنا هذا الالتزامَ الطفوليَّ، وتزوجْتُ قبلَها في سنٍّ مبكرٍ.

رسالةٌ وصورةٌ

فاجأني أخي يومًا بصورةٍ لصديقٍ لهُ، كانَ يقرأُ لي أحيانًا الأشعارَ والنكاتِ المتبادلةَ بينَهما، افترقَ الصديقان بعدَ أنْ تخرَّجوا مِن الجامعةِ وعملَ كلٌّ مِنهما في بلدٍ آخرَ، فاجأني أخي بصورةٍ ورسالةِ صديقِه التي أدهشتْني لأنه يطلبُ القربَ مِنّي مِن أخي.
صدمتُ وسألتُه:

- أتريدُني أنْ أتزوجَ مِن خلالِ الصورةِ؟

أخذَ أخي المُقربُ إلى قلبي يخففُ مِن حِدَّتي وحُزني لأنه كانَ مَثَلي الأعلى، فكيفَ يقبلُ بذلكَ!! أجابَني قائلاً:

- أحترمُ قرارَكِ ورأيكِ بمستقبلِكِ، ولكنّه مِن أعزِّ أصدقائي لهذا بعثَ يطلبُكِ مِنّي، فكِّري رويًا بالأمرِ قبلَ أن تُعلِني رأيكِ أيتها الثائرةُ على كلِّ ما هو تقليديٌّ.

أخذْتُ الصـورةَ نظرتُ إليها، وشعرتُ بعمقِ نظراتِه، ولكنْ حزَّ فـي نفسـي طريقـةُ طلبِـه، وقلـتُ لأخـي إنني لنْ أوافقَ علـى صـديقِه حتى أراه شخصيًّا، وحتى لا يطيلَ أخي النقاشَ بعثَ له برغبتَي في التعرُّفِ عليه أولاً، وطلبَ مِنه أنْ يحضرَ لزيارتِنا حتى نتعرفَ على بعضنا، وحتـى يتمَّ ذلكَ عليه أنْ يكتبَ رسالةً إلى أبي أولاً، يطلبُ مِنه يدي.

صباحَ اليومِ التالي، ذهبتُ إلى عملي الذي استلمتُه بعدَ التخرجِ مباشرةً، وأخذتُ مَعي صورةَ العريسِ، وفي فرصةِ الغذاءِ، عرضتُها على زميلاتي قائلةً لهنَّ:

- تصوَّرْن! خَطَبَني صاحبُ هذهِ الصورة!

تخاطفْنَ الصورةَ مِن يدي، وفجأةً سمعتُ شهيقًا وصرخةً مِن إحداهنَّ:

- ما هذا الجمالُ الصارخُ! وَلكْ عيونه بتدبح دبح!

وأخذَتْ تتأوهُ إعجابًا بالصورةِ، أعتقدُ أنها كانتْ لا تزالُ تمرُّ بمرحلةِ مراهقةٍ ممتدةٍ، وافقَها الجميعُ على رأيِها، بهدوءٍ واتزانٍ انسجما مـع شخصـيتي، وعنـدَما استلمَ أبـي الرسـالةَ مِن صـاحبِ الصـورةِ، فاجأني بسؤالِه بعدَ أنْ قرأها على مهلٍ:

- ما رأيكِ؟

- رأيي سأقولُه لكَ بعدَ أنْ أتعرَّفَ عليه أولاً.

باركَني بقولِه:

- طول عمرك عاقلة، يا الست زبيدة.. و.. و..

وعندَما وصلَ العريسُ الضيفُ لنتعرفَ، توفرتْ لي فرصةُ الحديثِ معَه والتعرفِ عليه عن قربٍ، سألَني أبي بعدَ يومين:

- ما رأيكِ بالعريسِ؟

سكتُّ خجلاً في البدءِ ثم هززْتُ رأسي مُوافِقةً، عندَ ذلكَ فوجئتُ تمامًا بردَّةِ فعلِ أبي المحبوسةِ في قلبِه قائلاً لي بحدةٍ:

- إذنْ، أنتِ تحبينَه منذُ زمنٍ، لهذا ترفضين كلَّ مَن يتقدمُ طالبًا القربَ مِني، لماذا خَبَّيتِ عليّ؟ لِمَ لَمْ تقولي لي ذلكَ منذُ البدءِ؟ ولماذا تعلِّلين رفضَكِ برغبتِكِ بالدراسةِ؟

ولماذا؟ ولماذا؟ لا أذكرُ بماذا رددْتُ عليه، لمْ يصدِّقْني لكنني فرحتُ في اعتقادِه رغمَ براءتي مِنه، على الأقلِّ انتصرتُ نفسيًا على ذاتي الحالمةِ، وانتقلتُ بها إلى واقعِ الحالِ، وتعرفتُ على مَن سأرتبطُ به، ووافقتُ عليه مبدئيًا لأنه صديقُ أخي الذي أحترمُ وأحبُّ وأقدِّرُ، خاصةً بعدَ أنْ تزوجَ أخي وخرجَ مِن بيتِنا، وشعرتُ بفراغٍ كبيرٍ لأنه كانَ قد بدأ يأخذُني معه في نزهاتِه وحفلاتِ النادي المنتسبِ إليه.

والسببُ الثاني والثالثُ حتى المائةِ، هو لأنني أردتُ أنْ أكونَ أمًّا مثلَ أمّي، الحقيقةُ أنَّ حبَّه العميقَ في عينيْه شدَّني إليه، رغمَ الاختلافِ في الطباعِ والاهتماماتِ، التي اكتشفتُها أكثرَ مع الوقتِ، وأجملُ ما في الموضوعِ أنَّ الأصدقاءَ كانوا يلقبونَنا "أجملُ زوجيْن"، خوفُنا على بعضِنا بعضًا كانَ كبيرًا جدًّا، وحُبُّنا كانَ بريئًا، أحببتُه بصدقٍ، ولمْ أكنْ أقبلُ أيَّ نقدٍ يوجَّهُ إليه، حتى على سبيلِ المزاحِ مِمَّن اختارَه لي زوجًا.

وضعتُه في القلبِ وأغلقتُه عليه، كيفَ لا؟ إنّه أبُ أغلى الناسِ على قلبي؛ أولادي فرساني وفارساتي الخمسة.

وبعدَ أنْ أعلنْتُ خِطبتي وسمعَ بها أصدقاءُ أخي، أخذوا يُمازحونه قائلين:

- طبْ يا عمّي ما تقولوا إنكم بتوافقوا على عريس فلاح!! لقد أحجمْنا عن التقدُّم منكم لخطبةِ أختِكم لأننا فلاحون، وخِفنا مِن الرفضِ.

النبض الأجمل

جاءَ مَن ينقذُني مِن خيالاتِ الحبِّ والرومانسيةِ التي خلقتْها روحي العطشى له، وبدأتُ أهبطُ بسرعةٍ إلى الواقعِ الجميلِ الذي بدأ ينبضُ في أحشائي، عندَما استيقظتُ على نبضاتِ طفلي الأولِ، عشقتُ هذا النبضَ في أحشائي، لقدْ محا أوهامًا خلقَها خيالي الواسعُ، وجسَّدَ الواقعَ الجديدَ هيامًا لا أجملَ ولا أروعَ مِنه، عشْتُ سحرًا إلهيًا بدأ يتكوَّنُ في أحشائي.

وهكذا أنقذتْني أُمومتي مِن أحلامِ خيالي ومناجاتِه، وعوَّضتْني بخيالٍ واقعيٍّ جميلٍ، أصبحْتُ أعيشُه مع مَن زرعَ نبضَ أُمومتي في رحمي.

يومًا بعدَ يومٍ، أصبحتُ هائمةً فقطْ بنبضِ الحياةِ التي بدأتْ تتكونُ في رَحمي أنقذتْني أُمومتي المبكرةُ مِن خيالاتِ المراهقةِ.

عندَما تزوجتُ في سنٍّ مبكرةٍ، بعدَ أنْ وقعتُ بغرامِ خطيبي الذي سيجعلُني أمًّا، هذا الحلمُ المغروسُ في أعماقي، وأفكاري البائدةُ في ذلكَ الوقتُ بأنَّ الزواجَ للإنجابِ فقطْ، أمَّا هو فكانَ مُتعجِّلاً أنْ أصبحَ زوجتَه، نعيشُ حياتَنا سويًّا قبلَ الإنجابِ، لمْ يكنْ متعجلاً أنْ يصبحَ أبًا بعكسي تمامًا، أخذَ يرسمُ ويخططُ لشهرِ عسلٍ فريدٍ مِن نوعِه، كلُّه عشقٌ وهيامٌ.

لمْ تحدِّثْني أمِّي بِما أنا مقبلةٌ عليه، فعانَيْتُ مِن ليلةِ الدخلةِ، على الرغمِ مِن أنَّ خطيبي اشترى لي كتابًا علميًّا يشرحُ لي فيه الكثيرَ مِمَّا لمْ نتعلمْه لا في المدرسةِ ولا مِن البيتِ، وذلكَ عندَما لاحظَ جهلِي بهذهِ الأمورِ كما لاحظتُ جهلَه أيضًا، كنَّا البراءةَ بكلِّ ما تعني الكلمةُ مِن معنًى، كنَّا بَكارى.

كنتُ أقرأُ هذا الكتابَ الضخمَ في غرفتي، وبمجردِ أنْ يدخلَها أحدٌ، كنتُ أُخفيه طوالَ فترةِ خِطبتِي، أخافتْني التفاصيلُ الدقيقةُ في هذا الكتابِ، وهيَّجتْني في آنٍ واحدٍ، على الرغمِ مِن أنَّه لمْ يكنْ به صورٌ كثيرةٌ توضِّحُ الجنسيةَ، بقيتُ أتصوَّرُها بخيالي، ولكنَّ الشعورَ بالتقززِ مِنها بقيَ صداه غائرًا في روحي، بوصفِه بالعملِ المشينِ و"العيب"، وأنَّ اللهَ حلَّلَه للإنجابِ فقطْ وليسَ للمتعةِ أو ما شابهَ ذلكَ.

إنَّ النقصَ المريعَ في التربيةِ الجنسيةِ في حياتِنا، خاصةً في المواضيعِ العلميةِ التي درسْناها وكأنَّها كانتْ التابو المحرَّمِ معرفتُه. لقدْ حرصتُ على معرفتِها فيما بعدُ، وعلَّمتُها لنفسي بنفسي لأهميتِها.

كما علمتُها لبناتي قبلَ أنْ تجتاحَ أرواحَهنَّ البريئةَ التغيراتُ التي تطرأُ على أجسادِهنَّ في التعبيرِ عن أنوثتِها، وقبلَ أنْ تبدأَ في رسمِ خطوطِ أجسادِهنَّ، وانتفاضةِ صدورِهنَّ، كحبَّتين مِن الكمثرى أولاً، ثم كرُمَّانتيْن بعدَ نزولِ العادةِ الشهريةِ التي تعلنُ بدءَ أنوثتِهنَّ، التي حرصتُ على أنْ يفخرْنَ بها ويُحببْنها، وحمتُهنَّ مِن خزعبلاتِ الزمنِ الذي عشتُه، وكانتِ الحياةُ كلُّها والحمدُ للهِ في زمنِهنَّ قدْ تغيَّرتْ للأفضلِ والأعقلِ، بعدَ محاربةِ الغيبياتِ المتوارثةِ، مِن خلالِ العلمِ والرؤيةِ الجديدةِ للمرأةِ ودورِها الفاعلِ في المساهمةِ بقيادةِ مجتمعِها.

عندَما ذهبتُ مع أخي إلى المطارِ لاستقبالِ مَن جاءَ يخطبُني رسميًّا مِن أبي ولأتعرفَ عليه بيني وبينَ أخي، شعرتُ مِن النظرةِ الأولى بحُبٍّ ينطقُ مِن عينيْه، وعيوني تتجاوبُ مع عيونِه، وروحُه تغازلُ روحي بضمةِ يديْه، وعندَما خَلَوْنا إلى أنفسِنا قبلَ الحديثِ عن الخِطبةِ، سألتُه عن تلكَ النظرةِ التي استقبلَني بها، مِن أينَ له أنْ يعرفَني ويحبَّني ونحنُ لمْ نتقابلْ يوماً؟ وكيفَ تجرأَ على خِطبتي دونَ أنْ يتعرفَ عليَّ شخصيًّا؟ أسئلةٌ مجنونةٌ وصريحةٌ حيَّرتْني وأردتُ جوابًا شافيًا لها، خاصةً بعدَ أنْ عرفتُ مِنه أنَّه وقعَ في حُبِّي، وعاشَ جنونَ الحبِّ ولوعتِه، إنَّها قصةٌ جديرةٌ بالوصفِ، وكأنَّها مِن قصصِ ألفِ ليلةٍ وليلةٍ.

أجابَ قائلاً:

- عرفتُكِ وأحببتُكِ أولاً مِن الصورِ التي كنتِ تبعثينَها لأخيكِ، وأخبارِكِ التي تبثِّينَها له برسائلِكِ والذي كانَ يلمِّحُ لي بها

مِن فرحتِه بكِ مثلاً: قالَ لي إنكِ مِن أوائلِ الفتياتِ اللواتي حصلْنَ على رخصةِ قيادةِ السيارةِ، كنتِ أنيقةً في اختيارِكِ لملابسِكِ، وعقلُكِ كانَ سابقًا لعمرِكِ. كنتُ مبهورًا بكِ قبلَ أنْ أراكِ، وعندَما رأيتُكِ في ليلةِ القدرِ اصطادَني الهوى ووقعتُ أسيرًا له، دعوتُ ربِّي تلكَ الليلةَ حتى مطلعِ الفجرِ أنْ تكوني مِن نصيبي، وصلتُ سكنَ الطلبةِ أفكِّرُ بكِ.

تشوقتُ لمعرفةِ كيف التقيْنا في ليلةِ القدرِ، فأجابَ:

- ذهبتُ لأسلِّمَ عليكُم عندَما سمعْتُ بأنكِ وعائلتَكِ في زيارةٍ لأخيكِ صديقي وزميلي في الجامعةِ، كنَّا في سنتِنا الدراسيةِ الأخيرةِ، دخلتُ إلى الصالونِ ووقعَ نظري على أجملِ ما رأتْه عيناي، ولمْ تنتبهي لي ولمْ تعيريني اهتمامًا عندَما قدَّمَني أخوكِ لكِ قائلاً:

"أعرفُكِ على أعزِّ أصدقائي".

كنتِ أجملَ مِن الصورِ، أنيقةً جدًّا بتنورةٍ بيضاءَ مائلةٍ إلى البيجِ الفاتحِ وبلوزةٍ بنصفِ كمٍّ مِن اللونِ نفسِه، معلَّقٌ عليها عندَ الطرفِ الأيسرِ مِن صدرِكِ في موقعِ القلبِ تمامًا وردةٌ حمراءُ لها غصنٌ أخضرُ أنيقٌ متدلٍ حتى وسطِكِ، بعدَ دقائقَ انتهتِ الحلقةُ التي كنتِ تشاهدينَها باستغراقٍ تامٍّ في التلفزيونِ، استأذنْتِ وغادرتِ كالطيفِ. استحوذْتِ على قلبي وارتبكَتْ مشاعِري فاستأذنْتُ أنا أيضًا وغادرتُ إلى سكنِ الطلبةِ، وجدْتُ الجميعَ يتوضأُ بهمةٍ ونشاطٍ، فسألتُهم وأنا لا زلتُ أعيشُ لقائي الأولَ بكِ: ماذا هناك؟

أجابني أحدُهم: أنسيتَ أنَّ الليلةَ هي ليلةُ القدرِ؟!! نحنُ نستعدُّ للصلاةِ والدعاءِ، توضأتُ والتحقتُ برفاقي في قاعةِ الصلاةِ، استغرقَ الجميعُ بالصلاةِ والدعاءِ، كلٌّ حسبَ أحلامِه وأمانيه.

أخذتُ أصلِّي وأدعو ربِّي أنْ تكوني زوجتي حتى بزغَ نورُ الفجرِ، تضرعْتُ إلى ربي أنْ يقبلَ توسُّلاتي أنْ تكونَ مَن وقَعَ قلبي في حُبِّها تلكَ الليلةَ مِن نصيبي.

أيقظَني بعدَ ساعاتٍ مِن استغراقي وتضرُّعي مَن يجلسُ إلى جانبي بعدَ أنْ شاهدَ دموعي تُغرِقُ وجهي، قالَ لي مواسيًا:

- لقدْ كنتَ خاشعًا تتهجَّدُ وتهجِسُ بدعواتِك إلى ربِّ العالمينَ، سيُحقِّقُ اللهُ مُرادَكَ لأنكَ كنتَ قلبًا وقالبًا مع مَن استجَرْتَه في ليلةِ القدرِ.

صحوتُ مِن حُلُمي وتهجُّدِي وانتبهتُ إلى دموعي، مَسحتُها بكُمِّ بيجامتي، وشعرتُ براحةٍ وسلامٍ لأنني وكَّلتُ ربِّي بحُبِّي الذي انفجرَ في قلبي وهامتْ روحي أدعوه أنْ تكوني زوجتي، حصلَ ذلكَ بعدَ أقلَّ مِن عاميْن.

نظرتُ إليه ولمْ أصدقْ ما أسمعُ، لمْ أتذكَّرْ أنني رأيتُه مِن قبلُ، وكنتُ ككُلِّ البناتِ في يَفاعَتي أُخطَبُ بالطريقةِ التقليديةِ، كنتُ أرفضُ بحجَّةِ أنني سأكمِلُ تعليمي، حتى أصبِحَ طبيبةَ أطفالٍ، كنتُ أنتظرُ نصيبي مِن حيثُ لا أدري، والذي لمْ يصدقْه في البدءِ أحدٌ مِن عائلتي؛ كما جاءَ عمِّي مِن فلسطينَ بعدَ أنْ سمعَ خبرَ خِطبتي، وأولُ كلمةٍ قالها لي في المطارِ عندَما ذهبتُ لاستقبالِه مع خطيبي: "أنا

مِشْ جَايْ عَلَشانِك، أنا جاي أتعرَّف على الشخص الذي رفضتِ كلّ الخُطّاب اللي طلبوكِ مِنّي لما زرتيني الصيف الماضي علشانه، ليش ما قلتي لي أنك مرتبطة عاطفيا؟" يا إلهي! لمْ يصدِّقْني أحدٌ، حتى أبي الذي يحفظُني غيبًا شكَّ بي أيضًا لأنني وافقتُ عليه دونَ تردُّدٍ.

دبلة الخطوبة

تمَّتِ الخِطبةُ وكَتْبُ الكِتابِ، وبدأنا نستعدُّ للاحتفالِ بها ودعوةِ الأهلِ والأصدقاءِ إلى الحفلِ، سادَ الهرجُ والمرجُ في بيتِنا خاصةً بعدَ أنْ اشترى لنا أبي عُلَبَ المُلَبَّسِ، التي تُقَدَّمُ عادةً للضيوفِ المدعُوِّين لحفلِ خِطبتِنا وكَتْبِ كِتابِنا.

تضافرتْ جهودُنا جميعًا على المهمةِ التي نحنُ بصددِها؛ تجمَّعْنا كلُّنا في غرفةِ العائلةِ على سجادةٍ كبيرةٍ، فَرَدَتْ عليها أمِّي ملاءةً بيضاءَ نظيفةً ووضعتْ في وسطِها عُلَبَ الملبَّسِ الفخاريةِ المرسومِ عليها بفنِّيَّةٍ دقيقةٍ زهورَ الياسمينِ، ووضعتْ أكياسَ حباتِ الملبسِ الكبيرةِ بجانبِهم، همَّ الجميعُ للمساعدةِ بِمَن فيهم إخوتي الصغارُ الذين انتهزوها فرصةً لقرقشةِ ملبسِ اللوزِ.

تجمعَتِ العائلةُ نضفِّرُ سويًّا العددَ المطلوبَ مِن حباتِ ملبسِ اللوزِ مِن أكياسِه البلاستيكيةِ، نعملُ مِنها ضمَّةً صغيرةً؛ حبةً مِن كلِّ لونٍ؛ الورديِّ البناتيِّ، والأزرقِ الصبيانيِّ، والأبيضِ الملائكيِّ، والفستقيِّ الزاهي، والذهبيِّ المتوهجِ بلونِ برتقالِ يافا عندَما يسقطُ عليه شعاعُ شمسِها الذهبيِّ.

كُنَّا نُزوِّقُ الضُمَّةَ بحبةِ شيكولاتة كبيرةٍ ملفوفةٍ بالورقِ الذهبيِّ، ثمَّ نُدخِلُ الضُمةَ في فتحةِ العلبةِ الفخاريةِ.

كانتْ هذهِ فكرةُ أبي رجلِ الاقتصادِ الذي أرادَ أنْ يُجنِّبَ خطيبي مصاريفَ لا ضرورةَ لها، وحرصتْ أمِّي على غسلِهم بالماءِ والصابونِ، ووَضْعِهم تحتَ الشمسِ قبلَ أيامٍ مِن استعمالِهم حتى يَجفّوا تمامًا.

كانتْ حفلةً لا تُنسى على سطحِ عمارتِنا التي شهدَتْ أُولى نبضاتِ قلبي قبلَ سنواتٍ، كانَ للسطحِ مَدخلانِ، تَركوا اليمينَ للرجالِ واليسارَ للنساءِ، صَفّوا على السطحيْنِ الكراسيَّ والطاولاتِ الصغيرةِ فوقَهم أوعيةٌ معدنيةٌ تراثيةٌ مليئةٌ بماركاتِ السجائرِ والولاعاتِ، وطاولةٌ دائريةٌ عاليةٌ على يسارِ المَدخَلَيْنِ وَضعوا عليها عُلَبَ الملبسِ حتى تُقَدَّمَ لكلِّ ضيفٍ عندَ خروجِه مِن الجهتينِ.

فَرَدْتُ على سَطحِي أقاصيصَ الورودِ وكلَّ أخضرَ يزهرُ بالأبيضِ حملَها الشبابُ مِن الدارِ أو مِن حانوتِ الزهورِ القريبِ مِن بيتِنا، وزَّعتُها على الأركانِ، ووضعتُ شجرةَ الياسمينِ على اللّوج/صمدة العروس الذي نصبَه لي إخوتي، وغطّوه بسجادةٍ حمراءَ، وَضَعوا عليها كَنَبَتَيْنِ مُتلاصقتيْنِ مِن خشبِ الأبنوسِ، مَحْبُوكًا عليهما مَطارحُ بيضاويةٌ مِن قماشِ الحريرِ المُوَرَّدِ اللامعِ ومُزَيَّنٍ ببريمٍ ملفوفٍ حولَ قماشِ الكنبِ يحملُ أحدَ ألوانِه.

نُشِرتِ الأضواءُ الكهربائيةُ التي شعَّ بريقُها على السجادةِ العجميةِ المَحبوكةِ بدقةٍ بنقوشٍ عجميةٍ بديعةٍ وألوانٍ بُنْدُقِيَّةٍ وفُسْتُقيةٍ على قاعدةٍ متوهجةٍ باللونِ الأحمرِ، علّقوه أعلى الحائطِ ونَصبوا

فوقَها ألوانَ قوسِ قزحٍ بلَمباتٍ كهربائيةٍ صغيرةٍ وزهورٍ بيضاءَ؛ فازدانَ المكانُ بالبهجةِ والنورِ، واكتملَ الضياءُ بفوانيسِ السماءِ التي فرشَتْ ضياءَها على سوادِ الليلِ، فبَانَ بريقُها يتوسطُها بدرُ القمرِ الذي طلَّ علينا بينَ لآلئِ السماءِ، تسترخي أرواحُنا برومانسيةِ الفرحِ الذي لا يزالُ يتجسَّدُ في الوجدانِ.

لبست الأزرق

لبستُ فستاني الأزرقَ بلونِ السماءِ والبحرِ، لوني المفضلَ، وكحَّلتُ عيوني بلونٍ كحليٍّ زادَ مِن بريقِ عيوني، ووضعَتِ الماشطةُ تاجًا صغيرًا مِن ورودِ الياسمينِ فوقَ جبهتي وحرصتْ أنْ تتركَ خصلاتٍ أنيقةٍ مِن شَعري تتناثرُ على جبيني.

تزينْتُ بألوانِ الوردِ الجوريِّ الزهريِّ، وتعطَّرتُ بعطرِ الياسمينِ الذي أهداني إياهُ خطيبي، لا أدري كيفَ عرفَ بأنَّ نسيمَه هو الأقربُ إلى روحي، أمسكَ بيدي وصعدْنا سويًّا إلى السطحِ درجةً درجةً، كُنَّا هو وأنا نعيشُ في محرابٍ قدسيٍّ، وأخي صديقُه يسجِّلُ تلكَ اللحظةَ الجميلةَ التي نسمو بها إلى الفضاءِ بكاميرا السينما التي اشتراها خصيصًا لهذهِ المناسبةِ.

أليستْ تلبيةُ دعوةِ ليلةِ القدرِ صورةً مِن حكاياتِ ألفِ ليلةٍ وليلةٍ؟
عشْتُ مع خطيبي حبًّا جامحًا تعجَّبَ له أخي، وكانَ يصيحُ بنا كلَّما رأى رؤوسَنا المتقاربةَ، ووشوشاتِنا المتواصلةَ:

- مِن أينَ تأتون بكلِّ هذهِ الأحاديثِ؟ ألاَ تشبعونَ مِن الكلامِ؟

بقينا نعيشُ لهيبَ الحبِّ الذي تفوّقَ على حُبِّي الأولِ لمُطربي المُفضلِ، وأخذْنا نخططُ لشهرِ عسلٍ عِشْناه بخيالِنا طوالَ فترةِ الخطبةِ التي امتدّتْ لثمانيةِ أشهرٍ ظهرَ خلالَها اختلافٌ بيِّنٌ في أفكارِنا وطريقةِ تربيتِنا، كنتُ أتغاضى عنهم بالحبِّ الذي عشْناه سويًا، وأعترفُ له هنا بأنَّ حبَّه فاقَ حُبِّي لأنَّ حبًا أعظمَ وأجلَّ احتلَّني فقدْ كانَ هدفي الأولُ مِن الزواجِ "الأمومةُ".

أصبحْتُ أعيشُ أحلامي الخاصةَ، وقعتُ في غرامِ خطيبي الذي سيجعلُني أمًّا، هذا الحلمُ المغروسُ في أعماقي، وأفكاري التقليديةِ البائسةِ في ذلكَ الوقتِ بأنَّ الزواجَ للإنجابِ فقطْ، أمّا هو فكانَ يتطلَّعُ بعدَ أنْ أُصبِحَ زوجتَه إلى أنْ يتمتعَ بها ويَسعَدَ بصحبتِها بعضَ الوقتِ قبلَ أنْ تشغَلَني أُمومتي عنه، وقبلَ أنْ يُصبحَ أبًا، كانَ يرسمُ خططًا خرافيةً لشهرِ عسلٍ فريدٍ مِن نوعِه، كلُّه أحلامٌ وهيامٌ.

ثوب الزفاف

عندَما حانَ موعدُ سفرِنا لشهرِ العسلِ، ضاقَتِ الدنيا بوجهِ أخي الكبيرِ لأنني رفضتُ كلَّ مناقشةٍ حولَ ثوبِ الزفافِ الأبيضِ، قلتُ له إنني لمْ أقتنعْ به يومًا، وإنني اتفقتُ مع خطيبي أنْ نضعَ مصاريفَ ثوبِ الزفافِ وحفلِ الزفافِ في شهرِ العسلِ.

كنتُ شخصيًّا لا أؤمنُ بثوبِ الزفافِ الذي تلبسُه الفتاةُ والجمعُ مِن حولِها يتفرجُ عليها وعلى خطيبِها، لا أدري لماذا شبهتُه مثلَ عروسِ المولدِ، التي تبتسمُ للجميعِ دونَ أنْ تعيَ لماذا يرقصُ الجمعُ

مِن حولِها حيثُ التقاليدُ كانتْ تقيِّدُ العروسَ أنْ تجلسَ على الكرسيِّ، ولا تتزحزحُ عنه. لا أدري، هلْ هي ثورَتي على التقاليدِ منذُ صغرِي؟ أمْ أنَّ شيئًا في ذاتي جعلَني أغضُّ النظرَ عنه، وأركِّزُ على ما هو أهمُّ مِن ثوبِ الزفافِ الذي تحلمُ به كلُّ فتاةٍ ليلةَ زفافِها.

قُبيلَ موعدِ سفرِنا لشهرِ عسلِنا بأيامٍ، كنّا في زيارةِ أخي حبيبي وصديقِ خطيبي، وكانَ في ضيافتِه أيضًا صديقُه في العملِ، وذلكَ احتفالاً بعودتِه وزوجِه مِن شهرِ العسلِ، طبعًا أثارَ أخي قضيةَ ثوبِ الزفافِ الأبيضِ أمامَهم، مُضيفًا لهم بأنَّه يودُّ أنْ يُفرِّحَ أُمَّنا بأنْ تَراني عروسًا فيه، رغمَ أنَّ هذا الموضوعَ كانَ مُنتهيًا تمامًا، وأمِّي وافقَتْني على رأيِي وقالتْ لي إنَّها فرحتْ بي بثوبِ حفلِ خِطبَتِي الأزرقِ، لونِ الطبيعةِ الأقربِ إلى روحي وقلبي.

جذَبَني مِن تفكيري بأمِّي، العروسُ الجميلةُ العائدةُ مِن شهرِ عسلِها تَعرِضُ عليَّ أنْ ألبسَ فستانَ زفافِها، فوجئْتُ بالبدءِ واستغربْتُه ولكنني رحبْتُ به فورًا، كانتْ كريمةً بعرضِها أنْ ألبسَ ثوبَ زفافِها، بكاملِ إكسسواراتِه مِن مجوهراتٍ وحذاءٍ، شكرتُها بحرارةٍ، والتفتُّ إلى أخي قائلةً: "إذا كانَ هذا يحلُّ المشكلةَ فلا مانعَ لديَّ".

أشرقَ وجهُ أخي بالبهجةِ والرضا، وشعرْتُ بسعادةٍ لأنني سأحققُ أمنيةً لشخصٍ عزيزٍ، لأنَّ رضا أخي كانَ مهمًّا بالنسبةِ لي، هذا على الرغمِ مِن عدمِ قناعَتي بثوبِ الزفافِ والصَّمْدَةِ[1] أمامَ الناسِ.

---

(1) مأخوذة من صمد يصمد صموداً، أي ثبت في مكانه، لأن العروس حين تصمد تثبت على الكرسي في حين يحتفل بها الآخرون، ولا تقوم إلا قليلاً.

ارتديْتُ فستانَ العروسِ الجميلَ الذي طابقَ مقاسُها مقاسِي تمامًا، وضعْتُ الطرحةَ، ولبستُ الكفوفَ البيضاءَ والحذاءَ الأبيضَ، وزينْتُ رقبتي بعقدٍ مِن المجوهراتِ فأصبحتُ أشعُّ بلمعانِ الثوبِ المطرزِ بيدِ فنانةٍ ماهرةٍ، وبمنتهى الدقةِ والأناقةِ بالجواهرِ وحباتِ اللؤلؤِ.

تمَّ كلُّ شيءٍ في حفلٍ وداعٍ عائليٍّ بسيطٍ، كانَ هو شَرْطي الوحيدَ بأنْ يضمَّ الأهلَ والمقرَّباتِ مِن الصديقاتِ ورفيقاتِ العملِ، دخلتْ غرفتي إحدى رفيقاتُ العملِ المعروفةِ بأناقةٍ وجمالِ مَكياجِها الدقيقِ، زوّقتْني بالأحمرِ الفاقعِ والأزرقِ الذي غطّى عينيَّ والماسكرا السوداءِ الثقيلةِ، لمْ أجدْ نفسي فيما وضعتْ عليَّ مِن ثقلِ الألوانِ، أزلْتُ المسحوقَ الثقيلَ عن وجهي بعدَ أنْ غادَرَتْني ولبستُ مكياجًا بسيطًا كعادتي.

أطلَّ عليَّ أخي مِن شقِّ البابِ بوجهِه المشرقِ بالفرحِ، تأبطَ ذراعِي ليُسلِّمَني إلى خطيبي الذي كانَ ينتظرُني على بابِ الصالونِ الكبيرِ، الذي فرغَ مِمَّا فيه واصطفَّتْ الكراسيُّ المستأجرةُ مِن حولِه صفَّيْنِ.

صَمَدُوني في صدرِ القاعةِ، وجلستْ بقربي مَن أعارتْني فستانَها، وأخذَتْ تقدِّمُ لي النصحَ وتنبِّهُني مِن آلامِ ليلةِ الدخلةِ، ونصحتْني بشراءِ مرهمٍ خاصٍّ رخوٍ يستعملُ في ليلةِ الدخلةِ، حتى يخفِّفَ مِن ألمِ الإيلاجِ عندَ الإدخالِ بحثًا عن المكانِ، شكرتُها بهزَّةٍ مِن رأسي وأدرْتُ وجهي دهشةً مِن جرأتِها في التصريحِ بأمرٍ لمْ يخطرْ على بالي، ولمْ أفكرْ فيه مطلقًا، وكأنني غيرُ مُقبلةٍ على ليلةِ

الدخلةِ، خجلتُ مِن نفسي، ومِن رهبةِ ما ينتظرُني، وتساءلْتُ: "كيفَ لي أنْ أطلبَ ذلكَ مِن خطيبي!!"

صدحَتِ الموسيقى وأغاني الحبِّ والطربِ ورقصَتْ مَن رقصتْ وغنَّتْ مِن الصديقاتِ مَن لهنَّ صوتٌ جميلٌ، وجاءَ مُصوِّرٌ مشهورٌ قريبٌ لخطيبي، صوَّرَنا بالأبيضِ والأسودِ صورًا في منتهى الروعةِ، وصورًا أخرى بالألوانِ التي بدأتْ أفلامُه تكتسحُ السوقَ كحدثٍ هامٍّ خاصةً أفلامُ الشرائحِ/السلايدات، ولكنني أحببتُ صورَ الأسودِ والأبيضِ، وانسحبَ عشقي هذا إلى أفلامِ الأسودِ والأبيضِ حتى الآنَ.

بعدَ ذلكَ تقدَّمْنا الضيوفَ إلى غرفةِ نومِ أخي التي أُفرِغَتْ بالكاملِ، ونُصِبَ فيها طاولاتٌ على حرفِ (تي/T) بالإنجليزيةِ، حتى يَسْهُلَ على الضيوفِ التجولُ حولَهُما، وتناولوا ما لذَّ وطابَ مِن المأكولاتِ والحلوياتِ التي غطَّتْ أغطيةَ الطاولةِ البيضاءِ فتوهَّجتْ ألوانُها بشهيةِ مذاقِها.

وفي آخرِ السهرةِ خلعْتُ الثوبَ الأبيضَ، وأعدْتُه مع إكسسواراتِه وحذائِه إلى صندوقِه الأبيضِ، ولبستُ ملابسَ سفرِ العروسِ التي ستغادرُ إلى شهرِ عسلِها مع عريسِها إلى المطارِ.

شهر العسل

كنَّا أولَ عروسيْنِ في فندقِ هيلتون النيل، وكانَ افتتاحُه الرسميُّ قبلَ وصولِنا، كانتِ الأنظارُ كلُّها متَّجهةً نحوَنا، تشيرُ إلى العروسِ الشاميةِ الشقراءِ التي تنطقُ السعادةُ مِن عينيْها الواسعتيْن

والخجولتيْن، فرحْتُ بالغرفةِ الخاصةِ بقضاءِ شهرِ العسلِ؛ كانتْ واسعةً ومريحةً وتطلُّ على أجملِ منظرٍ شاهدتْه عيناي مِن علوٍّ؛ منظرِ مَجرى النيلِ الخالدِ مِن الشرفةِ الواسعةِ.

كانتِ الليلةُ الأولى لا تُنسى، تصورْتُ نفسي بطلةً مِن بطلاتِ السينما بعدَ أن استبدلْتُ ثوبَ السفرِ بأجملِ ثوبٍ اخترتُه مِن بينِ ملابسِ السهرةِ التي اشتريتُها، المجموعةُ المتميزةُ لشهرِ العسلِ لمْ تُستعملْ مِن بعدِه، وكلُّ ما وضعتُه مِن وقتٍ وجهدٍ ومالٍ لشراءِ مجموعةِ شهرِ العسلِ هذهِ ذهبتْ في سبيلِ حلمٍ تحقَّقَ بالحملِ والإنجابِ.

ما زالتْ أختي زهرة تذكِّرُني بأنَّ أجملَ جهازِ عروسٍ مِن أطقمٍ وفساتينَ شاهدتْه، كانَ جهازي الذي لَمْ أُكثِرْ فيه بلْ نوَّعْتُ وانتقيْتُ ما يناسبُني مع الحرصِ على أناقةِ البساطةِ والصنعةِ المتقنةِ.

تناولْنا أولَ عشاءٍ لنا، مع عزفٍ حيٍّ على الجيتار، ومِن ثَمَّ البيانو في ركنٍ خاصٍّ بنا كعروسين، كانَ عشاءً فاخرًا، ما زالتْ ذِكراه ورائحةُ الشواءِ تداعبُ خيالي، وذكرى فندقِ النيلِ هيلتون تُناغِشُ روحي وتزرعُ فيها حبَّ نهرِ النيلِ الساحرِ، تذوقْتُ الحَمَامَ المشويَّ والمَحشوَّ بالفريكِ لأولِ مرةٍ في حياتي، كنَّا نأكلُه مشويًّا مع السلطةِ الخضراءِ ظهرًا وفي العشاءِ نطلبُ الحَمامَ المَحشوَّ بالفريكِ والمشويَّ بالفرنِ، بجانبِه أطباقُ الخضارِ المشويَّةِ يسبقُهُما شورباتٌ مِن أشهى ما أكلتُ حتى الآنَ، خاصةً شوربةُ العدسِ الأصفرِ.

خلالَ العشاءِ شاهدْتُ ولأولِ مرةٍ الرقصَ البلديَّ، هزَّ البطنِ، حيًّا لراقصةٍ أصبحَتْ مشهورةً فيما بعدُ، كانَ مُبهرًا بالنسبةِ لي أنْ

أرى الراقصةَ تتلوّى بخفةٍ وتهزُّ وسطَها وحوضَـها بقوةٍ وتتمايلُ بغنجٍ شـديدٍ بحركـاتٍ لولبيـةٍ وكـأنَّ عظامَهـا ذابـتْ فـي لحـمِ جسـدِها اللـينِ المطواعِ، كانتْ سهرةً مثيرةً في أولِ ليلةٍ لنا في هيلتون النيلِ الرائعِ بنظافتِه الشديدةِ وتصميمِه البديعِ، وذوقِ مديريه، ورقةِ وذوقِ العاملين فيه.

صعدْنا نتهادى إلى غرفةِ نومِنا، أخذْنا حمّامًا ساخنًا، ولأولِ مرةٍ أتعرّى أمامَ زوجي، جلسْنا سويًّا في حوضِ الماءِ الذي غطّتْ رغوتُه الصابونيةُ العطرةُ أجسادَنا، وأخذتْ تداعبُ بعضَها، ثم لمسَ جسدِي شيءٌ صلبٌ، ابتعدْتُ عنه بعدَ أنْ أُصِبْتُ بخوفٍ مفاجئٍ، خرجَ قبْلي ثم لحقتُه بعدَ أنْ جففْتُ جسدي الذي تفوحُ مِنه رائحةُ عطرِ الياسمينِ، ولبسـتُ قمـيصَ النـومِ الأبـيضِ المُكَشْـكَشِ والشـفافِ عـاري الصـدرِ والظـهرِ وفوقَه روبٌ فضفاضٌ محتشمٌ.

ليلة الدخلة

كانـتْ ليلـةً صـعبةً، كِلانـا غشـيمٌ بالعمليـةِ الجنسـيةِ، كـانَ بِكـرًا مِثلي تمامًا، ولولا الكتابُ المُعلِّمُ الذي اشتراه لي وقرأتُه بإمعانٍ، كنتُ وقعتُ في أكبرِ حيصَ بيصَ في حياتي، لأنَّ الجهلَ بأمورٍ هامةٍ في حياةِ المرأةِ خاصةً وهي مقبلةٌ على الزواجِ، ليسَ في صالحِ الاثنيْن.

يجـبُ تعليمُ العمليـةِ الجنسـيةِ بكلِّ جوانبِهـا؛ كيـفَ تَتِمُّ وأهميتُهـا للطرفيْن، وأنها ليستْ إشباعَ رغبةِ الرجلِ فقطْ، بل وبالأهميةِ نفسِـها هي إشباعٌ للمرأةِ أيضًا، إذا عرفَ الاثنين كيفَ يُثيرانِ بعضَهما بعضًا.

أكتبُ هذا لأنَّ أموري لم تسِرْ على ما يرام، ففي بداية اتّحادِ الأجسادِ ضلَّ العضوُ طريقَه وأصابَني نزيفٌ، استدْعى زوجي طبيبَ الفندقِ لعلاجِي مِنه، وشفيتُ مِنه سريعًا والحمدُ للهِ.

ما أدهشَني وأضحكَني في آنٍ واحدٍ ما قاله لي زوجي فيما بعدُ: "أوصَتْني أمِّي أنْ أضعَ فرشةَ السريرِ على الأرضِ." أمَّا أبوه فقالَ له: "ماذا تنتَظرُ يا بُنيَّ، النارُ والحَلفا بتدقّ ببعض." كلُّ هذا لأنَّنا قرَّرْنا أنْ نتعرَّفَ على جسديْنا أولاً، وتفهمَ مشاعرَنا اتجاهَ ما نحنُ مُقبلينَ عليه، لمْ نكنْ مُستعجلين، كنَّا نريدُ أنْ نكونَ مِثاليين في كلِّ شيءٍ حتى في ليلةِ الدخلةِ، التي أردْناها أنْ تكونَ مُبهجةً ومشرقةً وتحملُ ذكرى المستقبلِ الواعدِ الذي ينتظرُنا.

الحمدُ للهِ أنَّني لمْ أعرفْ شيئًا مِن تلكَ النصائحِ وإلاَّ لَما استطعْتُ النظرَ إليهما خاصةً وأنَّهما في ضيافتِنا في غرفةٍ قريبةٍ، أعتقدُ أنَّ زوجي أُحرِجَ بالطبعِ لهذا احتفظَ بها لنفسِه، كنتُ سعيدةً جدًّا بتعرُّفي على أمِّه وأبيه، وأصرَرْتُ أنْ ينزلوا معَنا في الفندقِ نفسِه، مع أنَّ ابنَهما يعيشُ في المدينةِ نفسِها، أردْتُهما أنْ يبقيا قريبيْن مِن ابنِهم وأنْ يتمتَّعَ هو بهما أيضًا، كما شعرتُ بالامتنانِ لهما لأنَّهما جاءا مِن سفرٍ بعيدٍ ليَرَيا ابنَهما ويتعرَّفا على عروسِه.

كانَ شهرُ عسلِنا الذي أتمنْناه بالتمامِ والكمالِ، أعني ثلاثينَ يومًا أجملَ وأكثرَ مِمَّا حلمتُ به في حياتي، كانَ عَريسي مُحبًّا ودودًا، كنَّا نختلفُ قليلاً لأنني كنتُ أستغلُّ نومةَ القيلولةِ المعتادَ عليها لأقرأَ، ثمَّ أكملُ قراءةَ ما بدأتُ بعدَ انتهاءِ سهرةِ كلِّ ليلةٍ.

وبعدَ سنواتٍ، أصبحَ العالمُ كلُّه يحتفلُ معَنا بعيدِ زواجِنا، بعدَ أن اختاروا تاريخَ زواجِنا عيدًا للحبِّ، أخذَ أصدقاؤنا يمازحوننا قائلين:

- بالتأكيدِ فإنَّ العالمَ بقصةِ حبِّكُما أرادَ أنْ يخلِّدَكما بطلَيْن لها، لهذا اختاروا عيدَ زواجِكما عيدًا للحبِّ يحتفلُ به العالَمُ معكما.

وهاتْ يا ضحك! ينتقلُ بينَنا وتعلو قهقهاتُنا ونحنُ بِما يتفكَّهون سعداءُ.

أصابتِ الدهشةُ عريسي عندَما شاهدَني في إحدى المكتباتِ مُقبلةً بلهفةٍ شديدةٍ على شراءِ الرواياتِ، وذلكَ فورَ أنْ عثرْتُ على أكبرِ المكتباتِ التي تبيعُ الرواياتِ الخالدةَ لأحبَّائي مِن الكُتَّابِ والروائيين المصريين، التي لَمْ تصِلْنا بعدُ حيثُ أعيشُ، اشتريْتُ مرةً واحدةً عشراتِ الرواياتِ للعظماءِ: نجيب محفوظ، يوسف إدريس، إحسان عبد القدوس.. و.. و..

وسألَني:

- ألَمْ يعجِبْكِ شيءٌ آخرُ؟ انظري إلى واجهاتِ المحلاتِ كمْ مغريةٌ الملابسُ والأحذيةُ والشنطُ، وكلُّها صناعةٌ مصريةٌ 100%، ألاَّ تشتهين شيئًا مِنها؟

قلتُ له: كلاَّ! ثمَّ أضفْتُ: أنسيتَ أنني اشتريتُ ملابسَ كثيرةً لجهازي؟ ولستُ بحاجةٍ لهم فكيفَ أشتري المزيدَ، سأقدِّمُ كلَّ ما لمْ أستعملْه هديةً لخطيبةِ قريبك، حتى أتركَ مكانًا لرواياتي التي اشتريتُها.

ضحكَ ضحكتَه المشهورةَ ملءَ شدقيْه وقالَ: "أنتِ أوعى مِن عمرِك، تريدين ألاَّ نتكلفَ بأجورِ الشحنِ الإضافيِّ، فوجدْتِ حلاً جميلاً لكتبِكِ، حلاً يدلُّ على إنسانيةِ عواطفِكِ ونبلِ خلقِكِ، أرجوكِ لا تهتمّي بتكاليفِ الشحنِ".

- صدِّقْني ليسَ هذا هو السببُ، لقدْ شعرْتُ بأنَّ لديَّ الكثيرَ، ومِن غيرِ اللائقِ أنْ أحتفظَ بهم لنفسي وزوجةُ قريبِك تريدُ أنْ تجهِّزَ نفسَها أيضًا، الحمدُ للهِ أنَّ قياسَها قريبٌ منّي.

اكتشفَ زوجي أنَّ القراءةَ غذاءٌ لا غنًى لي عنه حتى في شهرِ العسلِ، لهذا لمْ ينسَ بأنّني كنتُ أقرأُ كلَّ يومٍ مرَّتيْنِ؛ بعدَ الظهرِ أثناءَ قيلولتِه، وبعدَ أنْ يغرقَ بالنومِ ليلاً، كانتِ القراءةُ تجعلُني يقظَةً ولا أعرفُ النومَ دونَ أنْ أُنهيَ كِتابي، وعندَما جاءَ الأصدقاءُ لتهنئَتِنا، أخذَ يشكوني لهم وللأهلِ بأنّني قضيتُ ساعاتٍ مِن شهرِ العسلِ في القراءةِ، وأضافَ:

- إنّها تحبُّ القراءةَ أكثرَ مِن محبَّتِها لي.

ولمْ يفطنْ أنني تعوّدتُ بل أدمنتُ القراءةَ منذُ يفاعَتي.

بعدَ أشهرٍ بدأَ حماسُ القراءةِ عندَه، واعترفَ لي بأنَّه أصبحَ يغارُ مِنّي، وأرادَ أنْ يسبقَني، عانى في البدءِ لأنَّ القراءةَ كانتْ تدعُوه للنومِ الذي يحبُّ كثيرًا، ولمْ يستطعْ أنْ ينسجمَ بقراءةِ الرواياتِ، لكنَّه مع الوقتِ، أصبحَ يقرأُ الكتبَ السياسيةَ بشراهةٍ أدهشَتْني، وكلَّ ما يتعلقُ بتخصصِه العلميّ.

أصبحَ لدَينا مكتبةً أدبيةً وثقافيةً وعلميةً زادتْ على الألفِ كتابٍ، اشتريْنا مجلداتِ مجلةِ العربيِّ منذُ صدورِها حتى حربِ الخليجِ، فقدْنا فيها مكتبتَنا الغاليةَ، وكلَّ ما امتلكْناه خلالَ سنواتِ عمرِنا وأجملَ ذكرياتِ العمرِ واللوحاتِ الفنيةَ لكتابي الأولِ.. و.. و..

حملْنا معنا مِن شهرِ العسلِ أجملَ ذكرى لأجملِ شهرِ عسلٍ، اشترْينا مجموعةً مِن أسطواناتِ أغنيةِ "أم كلثوم" التي كانتْ تصدحُ بها القاهرةُ أينما اتَّجهْنا؛ أغنيةُ "إنت عمري" في المقاهي والأسواقِ، وفي كلِّ مكانٍ نزورُه، أغنيةٌ خالدةٌ جمعتْ عملاقَيْن في عملٍ مشتركٍ؛ الفنانَ محمد عبد الوهاب والسِّت أمّ كلثوم.

قدَّمناها هدايا للأهلِ والأصدقاءِ، كانتْ أجملَ هديةٍ نحملُها معنا مِن شهرِ عسلِنا في مصرَ أمِّ الدُّنيا.

لا يزالُ لتلكَ الأغنيةِ صداها في قلبي، وفي روحي، أطربُ لها كلَّما سمعتُها، هلْ هذا لأنَّها تُذكِّرُني بأجملِ أيامِ حياتي؟ شهرِ العسلِ.؟ أمْ لأنني شعرتُ صدقًا وكأنَّ الست أم كلثوم غنَّتْها مِن أجْلِنا ومِن أجْلِ حُبِّنا؟ ترحبُ بنا وتطربُنا وترافقُنا أينما اتَّجهنا في المحروسةِ، يا سلام على جموحِ خيالاتِ الكاتبِ عندَما يشطحُ بصاحبتِه/بصاحبه! كانتِ الصدفةُ السعيدةُ والحظُّ الأسعدُ، هو الذي أطلقَ رائعةَ الست أم كلثوم فورَ وصولِنا مدينةَ القاهرةِ لقضاءِ شهرِ العسلِ فيها، وكذلكَ في الأقصرِ وأسوانَ.

أبو الهول والأهرامات

صباحَ اليومِ التالي، ذهبْنا لزيارةِ آثارِ الحضارةِ الفرعونيةِ، وهي مِن أقدمِ الحضاراتِ الإنسانيةِ التي اندثرتْ ولكنَّ آثارَها بقيتْ راسخةً وشامخةً وشاهدةً على هذا العصرِ العظيمِ للتراثِ الإنسانيِّ الخارقِ، أمَّا أبو الهولِ والأهراماتُ فكانتْ زيارتُهما عجيبةً ومدهشةً، إنَّهما يستحقَّان لَقَبًا أكبرَ مِن عجائبِ الدنيا السبعِ، كانتِ الأهراماتُ مكتظَّةً بالسياحِ في مثلِ هذا الوقتِ مِن العامِ بسببِ دفءِ الجوِّ وسحرِ ما نرى ونشاهدُ مِن عجائبِ الدنيا في هذهِ الصحراءِ الجبليةِ الشاسعةِ التي تتألقُ بأضواءٍ وأصواتٍ انسيابيةٍ ساحرةٍ تُرافِقُها موسيقى رومانسيةٌ تحكي كلَّ ليلةٍ قصةً مِن قصصِ تلكَ الحضارةِ الإنسانيةِ الخالدةِ.

حضارةٌ راسخةٌ في عمقِ ووجدانِ شعبِ مصرَ وكلٌّ مَن يهتمُّ بالتراثِ الإنسانيِّ مِن علماءِ الآثارِ وعُشاقِها وفنانيها وتُجَّارِها الجشعينَ الذين وجدوا أنَّها سلعةٌ تدرُّ عليهم الذهبَ؛ فيزدادُ جشعُ تجارِ الآثارِ الأجانبِ ومَن تعاونَ مَعهم، لَمْ يعِ العُمَّالُ الجهلةُ الذين استغلَّهم التجارُ أسوأَ استغلالٍ بإغرائِهم ببعضِ الجنيهاتِ ليبحثوا لهم عنها، ومِن ثَمَّ تُنقَلُ خارجَ الوطنِ وتُباعُ بثمنٍ باهظٍ لعشاقِ الآثارِ الأجانبِ.

لقدْ سمعْتُ أنه وصلَ بهم الحالُ إلى نقلِها بالقوةِ بعدَ سَرِقَتِها، عادَ الكثيرُ مِن الآثارِ المنهوبةِ إلى البلادِ بعدَ أنْ تكاثرَ علماءُ الآثارِ وفكّوا رموزَها التي تنتمي لحضارةٍ أصيلةٍ ونادرةٍ.

كانَ الصعودُ إلى الهرمِ الكبيرِ، والدخولُ في قلْبِه مِن أشدِّ ما هزَّني عجبًا بقدرةِ البشرِ الخارقةِ على بناءِ مثلِ هذا الصرحِ المعماريِّ الخالدِ، أخذْتُ أقيسُ حجمَ الحجرِ الضخمِ وأتصورُ كيفَ نقلوه إلى أعلى، قرأتُ وتعمقتُ وسمعتُ الكثيرَ حتى تمكنتُ مِن الوصولِ إلى المعرفةِ التي أريدُ أنْ أتحلّى بها عندَما أعودُ وأشرحُ لصديقاتي إحدى عجائبِ الدنيا السبعِ، وكيفَ حملوا على عرباتٍ تسيرُ ثقلَ كلِّ حجرٍ مِن القاعدةِ حتى وصلوا إلى قمةِ الهرمِ، وبنوها على شكلِ مثلثٍ مُتساوي الأضلاعِ بقيَ واقفًا شامخًا يزيِّنُ سماءَ القاهرةِ بدقةٍ وإبداعٍ مدهشٍ في التصميمِ والتنفيذِ.

ركبْنا الجَمَلَ أولاً وأخذَ يتسلقُ بنا عاليًا لنصبحَ قربَ رأسِ "أبو الهول"، كانتْ لنا صورًا تذكاريةً لا تُنسى، بعدَ ذلكَ أقنعَني عريسي بركوبِ الحصانِ، قلتُ له: "أخافُ مِنه وله قصةٌ في ذاكرتي"، قالَ لي: "سنطلبُ حصانين هادئين"، وطمأنَني بأنَّ السائسَ سيقودُنا بحبلٍ مربوطٍ بالحصانيْن.

سِرْنا الهوينى والسائسُ ممسكٌ بالحصانين حتى وصلْنا إلى مساحةٍ رمليةٍ واسعةٍ أمامَنا، وفجأةً رأيتُ حصانَ زوجي يطيرُ به بسرعةٍ جنونيةٍ باتجاهِ الصحراءِ حتى اختفى عن عيوني، صُدِمْتُ لوهلةٍ ثُمَّ أخذْتُ أصيحُ بالسائسِ وكلِّ مَن حولي أرجوهم أنْ يلحقَوا به، قلتُ لهم إنَّ الحصانَ جُنَّ وطارَ بزوجي.

أخذَ السائسُ يضحكُ ببرودٍ أعصابٍ فوَّرتْ دَمي، وأخذَ يقولُ لي وأنا غيرُ مصدِّقةٍ:

- زوجكِ ضليعٌ بركوبِ الخيلِ، لا تخافي عليه هو طلبَ مِنّي سرًّا حصانًا سريعًا وقويًا.

هدأتُ قليلاً وعرفتُ بأنه كانَ يضحكُ عليَّ مِن رُعبي وجهلي. "طيّب: عملْتها فيَّ يا عريس!" أعدْتُ النظرَ عندَ نقطةِ الاختفاءِ، وشاهدْتُ غبارًا كثيفًا يتصاعدُ مِن تلكَ النقطةِ وأخذَ يلفُّ حولَها كالزوبعةِ، زادَتْ كلَّما اقتربَ مِنّي، وبدأ الحصانُ يظهرُ بوضوحٍ بفارسِه الخبيرِ.

هذهِ كانتْ أولَ المفاجآتِ، وأولَ عتابٍ بيني وبينَ عريسي في شهرِ العسلِ، إذْ كيفَ يُخفي عنّي بأنَّه فارسٌ متمرسٌ، وتركَ قلبي يرتجفُ خوفًا عليه، لأنَّه بمجردِ أنِ اختفى بسرعةٍ مهولةٍ مِن أمامي، تذكرْتُ حادثةَ ابنِ عمَّتي الذي ماتَ بسببِ فرسٍ جمحَ به، كانَ أولَ رعبٍ قدَّمَه لي عريسي في شهرِ عسلِنا، أينَ العسلُ هنا؟ تمنيْتُ لو أنَّه لمْ يعرِّضْني لمثلِ تلكَ المفاجآتِ السينمائيةِ، رغمَ شُعوري بالفخرِ به، فأنا أعشقُ الحصانَ مِن بينِ كلِّ الحيواناتِ، كنتُ أشاهدُه على شطِّ العجميِّ يغنجُ بقفزاتِ قدميه الرشيقةِ وكأنه يرُاقصُها مع ألحانِ موجِ البحرِ.

الأقصر وأسوان

بعدَ القاهرةِ، اتَّجهْنا إلى الأقصرِ وأسوانَ، شعرتُ بأنَّ هذا الوادي البعيدَ يحضنُ آثارًا فرعونيةً في غايةِ الروعةِ تتجسَّدُ أمامي حيَّةً وأنا أعانقُ تمثالَ الملكةِ نفرتاري/نفرتيتي بارعةِ الجمالِ، زوجةِ الملكِ رمسيس الثاني، كنتُ أشعرُ أنَّ الصخرَ الصلبَ المنحوتَ عليه

الملكةُ تبادلُني العناقَ. نَطَطْنا بينَ العِمدانِ الضخمةِ نلعبُ لعبةَ الاستغمايةِ، وسِرْنا في مزارعِ القصبِ الشهيرِ في تلكَ المنطقةِ مِن العالَمِ، الذي لَمْ أذقْ ألذَّ مِن حلاوتِه التي كانتْ تذوبُ كالشهدِ في حلقِي وأنا أمصُّه بعدَ أنْ قطعَه لي عريسي بمشرطِ حارسِ القصبِ.

دخلْنا أحراشَ القصبِ التي كانتْ أطولَ مِنّا، وعرفتُ فيما بعدُ أنَّ تلكَ الأحراشَ الجميلةَ التي أعطتْ حياةً وهيبةً للأرضِ الزراعيةِ، قد اقتُلِعَتْ بسببِ مهرِّبي الحشيشِ بعدَ أنْ أصبحتْ ملجأً لهم ولِبضاعتِهم المدمِّرةِ.

ركبْنا مركبًا شراعيًّا صغيرًا لنزورَ جزيرةَ النباتاتِ على تلةٍ قريبةٍ مِن المنطقةِ وتقعُ في وسطِ نهرِ النيلِ، أخذَ الموجُ يلعبُ بنا وأصبحْنا في مهبِّ الريحِ نميلُ معه حتى شعرتُ بأننا قابُ قوسين مِن غَرَقِنا بالمركبِ، ولكنَّ ريِّسَ المركبِ الماهرَ كانَ يوجِّهُ الشراعَ ويعدِّلُه ليسافرَ ثانيةً ويبحرَ بنا بفعلِ دفعِ الهواءِ مِن خلفِنا بسرعةِ شراعِ المركبِ المدهشِ دونَ تجديفٍ. وهكذا، كانتْ لي ثاني رحلةِ رعبٍ في شهرِ العسلِ، لا أزالُ أعيشُ سحرَ النيلِ مِن علوِّ شرفةِ فندقِ كاتاراكت، الذي كانَ يتلوّى ويتدحرجُ حسبَ ضيقِ المكانِ ووُسعِه وعمقِه.

السد العالي

كانتْ زيارةُ السدِّ العالي حدثًا مهمًّا بالنسبةِ لزوجي، وبالنسبةِ لي رأيتُ بعيني عظمةَ ما حققَه جمال عبد الناصر، خاصةً بعدَ أنْ تخلّى البنكُ الدوليُّ عن تمويلِه بإيعازٍ مِن الأمريكيين الذينَ لمْ تُعجبْهم

مواقفُه وطموحاتُه ببناءِ بنيةٍ قويةٍ لوطنِه ودفاعِه عن أمتِه العربيةِ. لمْ يكنْ يرضخُ لتهديداتِهم فعاقبوه برفضِ التمويلِ مِن البنكِ الدوليِّ الذي يسيرُ بإمرتِهم، اتَّجه عبد الناصر إلى الروسِ الذينَ لمْ يخيِّبوا أملَه، أبدعوا في تنفيذِ السدِّ العالي الذي أشرفَ عليه المقاولُ المصريُّ المعروفُ عثمان أحمد عثمان، وعمالةٌ مصريةٌ ذاتُ كفاءةٍ عاليةٍ.

قابلْنا بالصدفةِ البحتةِ أحدَ المهندسين مِن دفعةِ زوجي، قالَ لنا إنَّه سمعَ ضحكةَ زوجي المُجلجلةَ والتي اشتُهرَ بها، ونحنُ نُطِلُّ على قلبِ المشروعِ مِن علوِّ الشارعِ؛ فنادى على زوجي بأعلى صوتٍ، ثُمَّ صعدَ حيثُ نقفُ فكانَ عناقًا حارًّا ولقاءً جميلاً بينَهما، تبيَّنَ لنا أنَّه مهندسُ المشروعِ المُقيمُ، وبعدَ أنْ عرَّفَني عليه زوجي قالَ لي: "ضحكةُ زوجِكِ أميِّزُها مِن بينِ كلِّ ضحكاتِ رفاقي، إنها تُرجْرِجُ المكانَ بقوَّتِها"، كانتْ حقًّا ضحكةً مميَّزةً تخرجُ مِن جوفِ زوجي وليسَ مِن فمِه، وتكشفُ مكانَه لمَنْ عايشَه مِن الأهلِ والأصدقاءِ، سمعْتُ هذهِ القصةَ مؤخرًا مِن صديقٍ لزوجي لَمْ يرَه لعشراتِ السنواتِ، سمعَ ضحكتَه فركضَ إليه متحدِّيًا كلَّ مَن حولَه بأنَّه يعرفُ صاحبَها رغمَ أنَّه كانَ بعيدًا عَنه.

أخذَنا صديقُ زوجي المهندسُ إلى قلبِ المشروعِ، وصوَّرْنا التوربيناتِ الضخمةَ، وصوَّرْنا ردمَ المناطقِ السمخةِ بِخَرطومِ ماء ضَخم يخرجُ مِنه بقوةِ الرملِ بدفعٍ قويٍّ مِن الماءِ.

كنَّا حقًّا محظوظين إذْ سجَّلْنا بعدستِنا هذا المنشأَ المهمَّ في حياةِ الشعبِ المصريِّ حيثُ وفَّرَ الكهرباءَ والماءَ لتلكَ المنطقةِ الهامةِ مِن

صعيدِ مصرَ. كنَّا نقرأُ اللافتاتِ التي تتغيَّرُ كلَّ يومٍ: "بقيَ على افتتاحِ السدِّ العالي ثمانونَ يومًا".

كنَّا نشاهدُ كلَّ يومٍ الحدثَ الأبرزَ في شهرِ عسلِنا، وصوَّرْنا اللافتةَ كلَّ يومٍ ولمدةِ أسبوعٍ، وكلُّ يومٍ ينقصُ تاريخُ الافتتاحِ ونهلِّلُ ونصفقُ له.

في فندقِ كاتراكت الجميلِ الذي صمَّمَه أحدُ أساتذةِ العمارة العمالقة في مصر الدكتور علي لبيب جبر، كنتُ أشاهدُ مِن شرفتِه مبنًى مميزًا يلمعُ رخامُه مِن بعيدٍ على رأسِ تلةٍ عاليةٍ، سألتُ عنه فقيلَ لي إنَّه قبرُ آغا خان الذي اختارَ تلكَ المنطقةَ الجافةَ التي حفلتْ بالآثارِ الفرعونيةِ، وجثثِ ملوكِها المُحنَّطةِ التي ساعدَ الجوُّ الجافُّ صيفَ شتاءَ بالمحافظةِ عليها بعدَ أكثرِ مِن ألفِ عامٍ.

أوصى آغا خان، أنْ يُدفَنَ في منطقةِ الأقصرِ لأنَّها تتميزُ بجفافِ هوائِها، اشترى الأرضَ التي بُنِيَ عليها ضريحٌ شامخٌ داخل قاعةٌ فخمةٌ من الحجرِ الجيري الوَردي، بينما بُنِي الضَريح من رُخام كرارا المَرمري الأبيَض مسنودةٌ على أعمدةٍ رخاميةٍ داخليةٍ جميلةٍ، محمولٌ عليها أقواسٌ منقوشةٌ بآياتٍ قرآنيةٍ، لونُ الرخامِ كانَ مِن لونِ طبيعةِ المنطقةِ الخلابةِ، وتحيطُ بها حديقةٌ غنَّاءُ، وعندَ موضعِ الرأسِ في قبرِ آغا خان، كانتْ هناكَ مزهريةٌ صغيرةٌ رفيعةٌ وطويلةٌ مِن الفضةِ تَضَع فيها أم حَبيبة وردةُ حمراء عِرفاناً منها بالحُب والوَلاء، وأوصَت حُراس الضَريح بوضعِ الوردةِ عندما تُسافر كلَّ صباحٍ

حسبَ وصيتِه، أو بطلبِ مِن البيجوم أم حَبيبَة زوجة آغا خان الرابعَةُ، التي بَنَتْ قصرًا قربَ المقبرةِ، تقضي فيه أغلبَ أشهرِ الشتاءِ. وأصبحَت المقبرة مزاراً للعشاقِ، وبَقِيَت أم حبيبة وفيةً للحب الذي جَمَعهُما حتى دُفِنَت معه بعد 43 عاماً، وَجَسَدتْ الوردةُ الحَمراء قِصَةِ حُبُهما، كما يُسمى الآن بِيومِ الحبْ

فورَ عودتِنا، كانَ استقبالُ الأهلِ والأصدقاءِ رائعًا، وكنَّا نستقبلُ كلَّ ليلةٍ المُهنِّئين، وأصبحَ في بيتِنا عرضٌ للشرائحِ المصورةِ (Slides Show)، لصورِ شهرِ عسلِنا، أسعَدَنا انبهارُ الأهلِ والأصدقاءِ بروعةِ الأماكنِ التي زرْناها خاصةً آثارَ مصرَ العظيمةَ مِن هرمِها إلى تماثيلِ معبدِ الكرنكِ الشاهقةِ والخالدةِ إلى المسرحِ وسهراتِ النيلِ، كانتِ المناظرُ الطبيعيةُ الساحرةُ تتعانقُ مع نهرِ النيلِ بوجْدٍ ورفقٍ، وكانَ لدقةِ الصورِ وجمالِها تأثيرٌ كبيرٌ على كلِّ مَن شاهدَها.

أذكرُ أنَّ بعضَ الأصدقاءِ الخُطَّابَ في ذلكَ الوقتِ، أُعجِبوا بسلايدات شهرِ عسلِنا وطبيعةِ مصرَ الخلابةِ، وقرَّروا أنْ يقضوا شهرَ عسلِهم فيها، أصبحَتْ هذهِ الصورُ ذكرى نعتزُّ بها، وعندَما عرضْناهم في رحلةٍ جماعيةٍ مع أولادي لأولِ مرةٍ، شَعرْنا بمدى الإعجابِ والسرورِ الذي دخلَ على قلوبِهم، لأنَّ لها قيمةً تذكاريةً غاليةً جدًّا على الصعيدِ الشخصيِّ، وهامةً جدًّا على صعيدِ تاريخِ مصرَ أمِّ الدنيا في عزِّ جمالِها وبهجتِها أواسطَ الستيناتِ.

طفلي الأول

أخذتُ أراقبُ نبضًا لحياةِ الذي تكوَّنَ في رَحِمِي، وتحوَّلَ بالتدريجِ إلى حركةٍ خفيفةٍ، ثُمَّ قفزاتٍ مفاجئةٍ، ثمَّ رفسَ إذا سهوْتُ عن محاكاتِه، ومناغاتِه.

أصبحْتُ أشاركُه أغاني مُطربي عصرِه، خفيفةَ الظلِّ، التي لا معنى لها، ثمَّ استبدلْتُها بموسوعاتِ حبِّي مِن الموسيقي الكلاسيكيةِ العالميةِ، وأغاني "الست أم كلثوم" الخالدة و"عبد الوهاب" وغيرهِم، كنتُ أبثُّ الطمأنينةَ في قلبِه، وأشحذُ روحَه بالأحاسيسِ الشفافةِ، التي ترتقي بالمشاعرِ الإنسانيةِ إلى قمةِ عطائِها، وتزرعُ أولى نبتاتِ التذوُّقِ الفنِّيِّ، الذي يعلو بالنفسِ البشريةِ في روحِ مَن سكنَ رَحِمي.

كنتُ أبني في عقلِ جنيني الذي بدأَ يتكونُ، حبَّ الحياةِ والأملِ والعلمِ، وفي أعماقِه التي بدأتْ تنبتُ في رَحمي، الطموحَ والجرأةَ والاستقامةَ، وأغرسُ في ذاكرتِه، حبَّ الخيرِ والعطاءِ، وأغذِّي روحَه بحبِّ الفنِّ والموسيقى والعلومِ الإنسانيةِ، كنتُ أُديرُ أسطواناتِ عمالقةِ الملحِّنين العالميين، الذينَ وضعوا السيمفونياتِ العالميةِ وأهمسُ لجنيني، أنْ يُمتِّعَ روحَه بالسلامِ الذي تبثُّه تلكَ الأنغامُ الخالدةُ، وأبثُّ الطمأنينةَ في قلبِه، وأشحذُ روحَه بالأحاسيسِ الفنيةِ الرقيقةِ، وأسمو بروحِه في رحمي، لترتقيَ إلى قمةِ المشاعرِ الإنسانيةِ، احترامِ النفسِ والآخرينَ وحبِّ الخيرِ لنا ولكلِّ مَن حولنا.

كنتُ أبْني في عقلِ النطفةِ التي تكوَّنتْ في أحشائِي، وأصبحتْ روحًا وحياةً، أولى نبضاتِ حبِّ الحياةِ والأملِ، وأغرسُ

في ذاكرتِه حبَّ الخيرِ والعطاءِ، تمامًا كما كانتْ تفعلُ مَن لُقِّبْتُ باسمِها، بعدَ أنْ تجسدَّتْ أعمالُها وحبُّها للبرِّ والتقوى الذينَ لا يصحُّ الفنُّ والشعرُ والعلمُ دونَهم، تجسَّدَتْ روحُها في روحي، وأصبحَتْ جزءًا مِنّي منذُ طفولتي، وملأَتْني بحبٍّ الخيرِ والعطاءِ لكلِّ مَن حولي.

تزوجْتُ لأصبحَ أمًّا، هذا ما لمستُه في عمقِ الفؤادِ، لأنه عندَما فاجأني زوجي بحبوبِ منعِ الحملِ لأنَّه يرغبُ أنْ نعيشَ حياتَنا الزوجيةَ في سنواتِها الأولى دونَ إنجابٍ، رفضتُ الفكرةَ جملةً وتفصيلاً، بلْ لمْ أتركْ مجالاً لمناقشتِها.

كانَ الزواجُ كما تعلمتُه في ذلكَ الوقتِ هو الوسيلةُ الشرعيةُ للإنجابِ، وبما أنَّني أعشقُ الطفولةَ، وألحانَ الطفولةِ، مِن نغنغةٍ وثغاءٍ، ورعايةٍ وحبٍّ، أخذتُ موقفي هذا بقناعةٍ تامةٍ، ولمْ يكنْ أمامَه سوى الموافقةِ، بلْ زادَ إعجابُه بوعيي وعشقي للأمومةِ المبكرةِ، أخذْتُ أراقبُ تكوينَ الأمومةِ في أحشائي بحنانٍ بالغٍ، وأسجلُ كلَّ نبضةٍ، أو حركةٍ جديدةٍ تصدرُ مِنها يومًا بيومٍ، وعندَما جعلَني وليدي أُمًّا، كنتُ أسعدَ أمٍّ في الوجودِ.

معاناة الوحم

رغمَ أوجاعِ الحملِ وتقيُّؤي إذا دخلَ معدتي أيُّ طعامٍ في الأشهرِ الأولى مِن الحملِ فإنني بقيتُ أخففُ على جنيني حتى لا يشعرَ بألمِي بأنَّها فترةٌ قصيرةٌ وستزولُ قريبًا.

كنتُ أضعُ كفّي على بطني وأهمسُ له أحلى الكلامِ، كنتُ مؤمنةً وما زلتُ بأنَّ النطفةَ تحسُّ وتشعرُ وتتجاوبُ، استولى نبضُ الضّنى الجميلِ في أحشائي على كياني، وسَحَرني بطفولةٍ فريدةٍ هزّتني، وتفرغتُ لها مِن عَمَلي.

أحمدُ اللهَ أنَّ زوجي الذي لمْ يكنْ يرغبُ بالإنجابِ المبكرِ، تدفقَتْ عواطفُه الجياشةُ نحوَ طفلِنا البكرِ الذي أصبحَ شغلَنا الشاغلَ، وحديثَنا الدائمَ، أصبحَ متعتَنا التي لا تفي كلماتُ الكونِ لوصفِها منذُ أنْ أصبحَ نطفةً، ونبضةَ حبٍّ في رحمي.

شعرْتُ بأنَّ أمومتي توَّجَتْني ملكةً في قلبِ زوجي وأولادي وعائلتي، الملكةَ التي أرادَها لي أبي، (الست زبيدة) التي تعيشُ أمومَتَها بعمقِ حواسِّها ونبضاتِ قلبِها.

عندَما أعودُ بذاكرتي إلى الوراءِ، أتعجَّبُ مِمّا فعلتْه أمومةُ أمّي في أعماقي، أعتقدُ أنني استنسخْتُ أمومتَها بسببِ الحبِّ الممتدِّ في أعماقِ روحي منذُ كنتُ طفلةً أنْ أبقى دائمًا قربَ أمّي، وأساعدَها في تربيةِ إخوتي الاثنيْن اللذيْن أنجبتْهما بعدَ هِجرتِنا وأنا ما زلتُ طفلةً في الثاني الابتدائيّ.

هلْ عشقي لأطفالي الذي ملكَ روحي منبعُه وَلعي الزائدُ بإخوتي الرُّضَّعِ منذُ طفولتي المبكرةِ عندَما كنتُ أراقبُها بشغفٍ؟ وأنا أصبُّ الماءَ الدافئَ بالإبريقِ الصغيرِ صاحبِ السنسولةِ الرفيعةِ حتى لا أطرطشَ أمّي وهي تحمّمُهم لشطفِ أجسادِهم مِن الصابونِ، أفْرِدُ لأمّي المنشفةَ وتضعُ كُلاًّ مِنهم بينَ يديَّ.

أصبحتُ أَلُمُّهُ إلى صدري برفقٍ، وأضعُه على طاولةِ الغيارِ بأدراجِها لوضعِ ملابسِ ومستلزماتِ حَمّامِه اليوميِّ التي أُعِدَّتْ خصيصًا له، أنشفُه جيدًا، أَفْرِدُ على جسدِه بودرةَ الأطفالِ وأُوَزِّعُها بلطفٍ على جسدِه الدافئِ، وأسْرِعُ بتلبيسهِ غيارِه وحفاضِه حتى لا يبردَ، ثمَّ أُلْبِسُه بيجامتَه البيضاءَ، أبدأُ أولاً بزَقِّ اليديْن في الكُمَّين بعنايةٍ شديدةٍ حتى لا أؤذيَ كتفيْه، ثُمَّ الرِّجْلَين برفقٍ حتى يصبحَ داخلَ بيجامتِه الفروِ البيضاءِ في الشتاءِ، ويصبحَ شكلُه مثلُ الأرنبِ، والبيضاءِ القطنيةِ في الصيفِ، ثم أغلقُ سَحَّابَ البيجامةِ الطويلِ مِن الحفاضِ حتى الرقبةِ ببطءٍ حتى لا أؤذيَه، ثم أعيدُه لها حتى تضعَه في حضنِها وترضعَه.

وإذا غفا قبلَ أنْ يرضعَ الثدييْن، كانتْ أمِّي تداعبُ مِنخارَه وتحسِّسُ على جبينِه برقةٍ حتى يلتقطَ ثانيةً حَلَمَةَ ثدييْها مِن جديدٍ، ويعبَّ الحليبَ بنشاطٍ حتى يرخيَ فمَه مِن الثديِ الثاني، أعرفُ بأنَّه شبعَ وامتلأ، أحملُه على صدري، وأدلِّكُ ظهرَه برفقٍ حتى يخرجَ الهواءُ مِن جوفِه، ثمَّ أضعُه في أرجوحتِه، وأبدأُ بهزِّها بخفةٍ، وأنا أغنِّي له حتى ينامَ:

أوووه أبشروا حبا حبا.. فيك أهل المرحبا.. قدّه طال ونما..
وجهه بدر السما.. يا ربنا احفظه لنا.. رافعا عنا الضنا..

تعلَّمْتُ مِن أمِّي أنَّ الأمومةَ شيءٌ ربانيٌّ مقدسٌ، وأنها فوقَ كلِّ شيءٍ، تعلمْتُ مِنها صبرَها وهدوءَها ومثاليتَها في رعايةِ أطفالِها، وتعلمْتُ مِنها أنْ أبدأَ يومي بالعنايةِ بهم وبنظافتِهم وحَمَّامِهم الصباحيِّ صيفًا وشتاءً، وتعلمتُ مِنها إرضاعَهم مِن الثديين حتى

الثمالةِ، وتعلمتُ مِنها أنْ أناغيَهم، وأغنيَ لهم تهاليلَ النومِ حتى تغفوَ عيونُهم كالملائكةِ في حضني.

يُرخيني دفئُهم وأتمنّى لو أبقيتُهم في حِضني، ولكنَّ واجباتِ البيتِ كانتْ في انتظاري، لهذا كنتُ عندَما أتأكَّدُ تمامًا مِن سباتِهم العميقِ، أنقلُهم مِن حضني الدافئ إلى أَسِرَّتِهم الدافئةِ برفقٍ وأُغطّيهم بحنانٍ، ثمَّ أسدلُ ستائرَ الغرفةِ بهدوءٍ، وأدعو اللهَ أنْ يحفظَهم لي ويرزقَهم محبتَه، أتركُ بابَ غرفتِه مواربًا، لأسمعَ مناغاتِه عندَما يصحو، تمامًا كما كانتْ تفعلُ أمّي.

حبُّ الأمومةِ هو رحيقٌ خاصٌّ يربطُ بينَ الأمِّ وطفلِها، ويشكِّلُ حياتَهما، ومَهما كبرَ الأبناءُ يبقون بنظرِ أمِّهم أطفالاً، حتى عندَما يكبرونَ ويصبحونَ آباءً وأمهاتٍ، يبقَى الحنينُ إلى حضنِ أمِّهم مزروعًا في قلبِهم، يعبِّرون عنه كلَّما سنحتْ لهم الفرصةُ لزيارتِها، يُرخون رأسَهم على حضنِها، ويطلبون مِنها أنْ تمسحَ لهم شَعرَهم كما كانتْ تفعلُ وهمْ أطفالٌ، يشمُّون رائحةَ الأمِّ، ويقولونَ لها اشتقْنا لحضنِكِ يا أمَّاهُ.

يتدرجُ حبُّ الأبناءِ إلى أولادِهم؛ أحفادِها، ولكنَّ الأبناءَ يبقون هم أطفالُها ونبتةُ حياتِها التي قضَتْ عمرَها ترعاها بشوقٍ وحبٍّ وأملٍ، ويصبحُ الأحفادُ امتدادًا لهم.

لا أدري إذا كانَ المثلُ القائلُ: "ما أعزَّ مِن الولد إلا ولد الولد" صحيحٌ أمْ لا، هنا أتساءلُ: أليستِ الأمومةُ ورحيقُها الشافي هي الأقدسُ في العلاقاتِ والمشاعرِ الإنسانيةِ، والوجدانيةِ على الإطلاقِ، تعيشُها الأمُّ كلَّ يومٍ، بلْ كلَّ لحظةٍ بكيانِها، إلى أنْ يُغيِّبَها الفناءُ؟

أمي صديقتي

عندَما كبرْنا تحوَّلتْ علاقتي بأمِّي إلى صداقةٍ قويةٍ، كنتُ مُتنفسَّها في الكلامِ، كما كانتْ مُتنفسِّي عن كلِّ ما تضيقُ به نفسي، وكانتْ دائمًا حكيمةً وذكيةً في نصائِحها أسألُها فتجيبُ، يشعُّ الحنانُ والحبُّ مِن عينيْها الجميلتيْن والمُعبِّرتين دونَ أنْ تنطقَ بهما، لهذا كانتْ أمِّي لا تحتاجُ لأنْ تعبِّرَ عن مشاعرِها وأحاسيسِها بالكلامِ، كانَ يكفي النظرُ إلى وجهِها لترى صفحةً ناصعةَ البياضِ وكلَّ ما بداخلِها يخرجُ مِن عينيْها وتعبيراتِ وجهِها الحبيبِ.

وخلالَ إحدى جلساتِنا الهادئةِ، كانتْ مشاعرُ الحبِّ والشوقِ تتَّقدُ بيننا، ويبدأُ بوحُ أمِّي الجميلُ، سألتُها يومًا: "أمِّي هل أحببتِ أبي؟".

أجابتْني أمِّي وقد شعَّ خداها بحمرةِ خفرٍ: "أجلْ، ومنذُ اليومِ الأولِ."

وسألتُها باندهاشٍ: "هلْ كنتِ تعرفين الحبَّ في هذا العمرِ الطفوليّ؟"

أجابتْني بابتسامةٍ منشرحةٍ: "لقدْ أحببتُه منذُ أنْ رأيتُه في ذاكَ اليومِ الذي جاءَ لزيارتِنا وكنتُ ألعبُ في الحارةِ."

وأخذَتْ أمِّي تشرحُ لي بأنَّ قريبَها الذي قرأتْ فاتحتَّها عليه منذُ يومِ مولدِها، جاءَ ليتعرفَ عليَّ حتى يكملَ نصفَ دينِه.

- هل الدينُ مقسومٌ إلى نصفيْن يا أمِّي؟

ضحكتْ وأجابتْ: "يقالُ إنَّ على الرجلِ المسلمِ أنْ يكملَ نصفَ دينِه، ولنْ يتمَّ ذلكَ إلا بزواجِه على سنةِ اللهِ ورسولِه."

ضحكْنا سويًا لأنَّه مِن الواضحِ أنَّ هذهِ المقولةَ قِيلتْ وأصبحتْ دستورًا لتشجيعِ الشبابِ على الزواجِ.

- هل نظرتِ إلى وجهِه؟ هل تعرفتِ على شكلِ الشخصِ الذي جاءَ فجأةً، ودونَ سابقِ إنذارٍ ليأخذَكِ مِن حضنِ أمِّكِ وأبيكِ وبلدتِكِ ومدرستِكِ ورفيقاتِكِ إلى بلدٍ بعيدٍ عن كلِّ أحبائِكِ؟

مالتْ أمِّي برأسِها وسرحتْ قليلاً وكأنَّها تستعيدُ تلكَ اللحظةَ، نظرتُ أستجدي جوابَها فقالتْ:

- نعمْ، أعجبَنِي منظرُه ومظهرُه منذُ اللحظةِ الأولى، كانَ بهيَّ الطلعةِ، جريئًا، وكنتُ خجولةً جدًّا ولمْ أرفعْ وجهي إليه كما فعلَ هو، ولو فعلتُ لقرأتُ حبًّا في عينيْه عندَما رآني أولَ مرةٍ، وذلكَ عندَما نزَعوني مِن بينِ صديقاتِي، لأراه ويراني لأولِ مرةٍ. لمْ أغضبْ بل كنتُ فرحةً في أعماقي لأننا تربيْنا على انتظارِ هذا اليومِ، ولمْ أكنْ أعرفُ بأنَّ فاتِحَتي قُرِأتْ عليه منذُ مولدي، ولكنَّ كلَّ بنتٍ في حيِّنا كانتْ تنتظرُ هذا اليومَ وتتطلعُ إليه بلهفةٍ، كانَ كلُّ ما يهمُّنا هو

الفساتينُ الجديدةُ والطويلةُ والملابسُ البرَّاقةُ، وأدواتُ الزينةِ وأننا سنُكَوِّنُ عائلةً مثلَ ما كوَّنتْ أمِّي وأبي عائلتَنا. (ثمَّ أضافتْ أمِّي بعدَ أنْ تنهدتْ بعمقٍ) كانَ جميلاً في خُلُقه وخِلْقَتِه، وأحببتُه على التوِّ، وشعرتُ بالفخرِ أمامَ صديقاتي، وأهلِ مدينتي لأنَّه لمْ يتركْنا حتى تمَّ كتبُ كتابي عليه، ومِن فرحتِه بتلكَ الليلةِ أطعمَ أهلَ مدينتِي الصغيرةِ، أشهرَ حلوياتِ مدينتِهم الكبيرةِ "الكنافة النابلسية"؛ أحضرَ معَه موادَّها معَ صانعِ الكنافةِ، يومَ أنْ جاءَ ليراني ويطلبَ يدي رسميًّا، كنتُ محلِّقةً مِن الفرحِ لأنني سأتزوجُ قبلَ صديقاتي، وكُنَّ قدْ حسدْنَني عليه لوسامتِه وخفةِ روحِه.

- هل دامَ الحبُّ في قلبِك يا أمِّي وإلى متى؟
- نعمْ، لقدْ أحببتُه طولَ عمرِي، رغمَ أنَّ مَطالبَه الكثيرةَ ومسؤوليةَ الأطفالِ وبيتي لا تنتهي، خاصةً بعدَ أنْ أصبحَ تاجرًا معروفًا. فرضَ عليَّ ذلكَ أنْ أكونَ جاهزةً دومًا لعزائمِه المفاجئةِ، وتغيُّبِه الدائمِ، لهذا لمْ يتحملْ بُعْدَه عنَّا عندَما انتقلتُ للعيشِ مع إخوتِك الذينَ يدرسون في جامعةِ القاهرةِ حتى يساعدوني في تعليمِ إخوتك، فأنا أمِّيةٌ كما تعرفين، وأبوكِ في انشغالٍ دائمٍ عنهم، وعندَما أخطأ في حقِّي بزواجِه ظننتُ أنَّ حبِّي له توقفَ، شعرْتُ بأنَّ زواجَه خيانةٌ لشريكةِ حياتِه، وأمِّ أولادِه، التي بدأتْها معَه فتاةً صغيرةً، تعلمَتْ كيفَ تديرُ شؤونَ أسرتِها بسرعةٍ لأنَّ راتبَه بالكادِ يغطي مصاريفَنا.

كنتُ أكدُّ وأشقى لرعايتِه ورعايةِ أطفالِه، وقفتُ إلى جانبِه في الضراءِ قبلَ السراءِ، واقتصدْتُ في مصاريفِ البيتِ وأغرقتُكم بحبِّي ورعايتي، ووفرتُ له كلَّ الراحةِ ليصبحَ تاجرًا ناجحًا بعدَ أنْ تركَ وظيفتَه، وعندَما حانَ موعدُ العيشِ برخاءٍ، أخطأَ في حقِّي وحقِّ أولادي، لكنَّني لمْ ألفظْه مِن حياتي، بل بقيتُ على حبِّه، لأنَّه زوجي وأبا أولادي. ولا زلتُ أعيشُ مِن خيرِه حتى بعدَ أنْ رحلَ.

رحمَ اللهُ الاثنيْن، أمِّي وأبي، كانتْ أمِّي أصيلةً، وكريمةً ووفيةً في حبِّها وأخلاقِها، كذلكَ أبي، الذي ندمَ ولكنْ، بعدَ فواتِ الأوانِ، وكأنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى أرادَ أنْ يكونَ لنا إخوةٌ وأخواتٌ عزيزاتٌ مِن أبي، وكانَ يوصِيني عليهم مُردِّدًا:

- همْ الذينَ سينفعونكِ عندَ كبرِكِ.

قراءة الفاتحة

وكأنَّ الحديثَ عن الماضي أثارَ شجنَ أمِّي، وبدأتْ تحدِّثُني قصتَها مع أبي قائلةً: عندَما أصبحَ أبوكِ مستعدًّا للزواجِ أخبرَ أمَّه بذلكَ، فقالتْ له: "لماذا لا تذهبُ لترى قريبتَك التي قرأتَ فاتحتَها عليكَ يومَ مولدِها؟" لمْ ينتظرْ طويلاً جاءَ لزيارتِنا ثاني يومٍ إلى مدينتِي السلطِ، وتمَّ عقدُ قرانِه على أمِّي ثاني يومِ وصولِه، وأقيمتِ الأفراحُ والليالي الملاحُ، ووُزِّعَتْ الكنافةُ النابلسية على سكانِ المدينةِ تيمنًا بهذا الزواجِ السعيدِ.

هل انتظـرتْ جدَّتي لأبـي حتـى يصـبحَ ابنُهـا مسـتعدًّا للـزواجِ؟ وكيفَ تتذكرُ ذلكَ خاصةً وأنَّ زوجَها جدِّي الذي قرأَ فاتحتَها استُشهدَ منذُ أنْ كانَ والدي طفلاً، كمْ هو جميلٌ احترامُ الوعدِ والعهدِ في تقاليدِنا المقدسةِ فـي ذلكَ الوقتِ ولكنَّها ليسـتْ كلُّها جميلـةً أو حتـى مقبولـةً، أعتقدُ أنَّها طرحتْ جانبًا كلَّما زادَ التعليمُ ومِن ثَمَّ الوعيُ المجتمعيُّ.

كانـتْ أمِّـي خبيـرةً وبريئـةً فـي اسـترجاعِ ذلكَ الماضـي البعيـدِ، شـعرتْ بلهفتِـي لمعرفـةِ كلِّ شـيءٍ عن حياتِها فكانـتْ تستجيبُ لـي، أكدَتْ لي بأنها أحبَّتْ أبي رغمَ أنَّها كانتْ طفلةً تلعبُ في الحارةِ ولمْ تكملْ ربيعَها الثالثَ عشرَ وكانتْ تلعبُ في الشارعِ مع بناتِ الجيرانِ عندَما جاءَ ليكتبَ كتابَه عليها.

أخبرتْني أمِّي بأنَّها كانتْ فَرِحَةً في ذلكَ اليومِ عندَما بعثتْ أمُّها فـي طلبِها لتُحَمِّيَها وتُلبِسَها أجملَ ثيابِها لتقابلَ عريسَها، لمْ تدهشْ لأنَّها كانتْ فَرِحَةً بالعريسِ، وطلبتْ مِنها أمُّها أنْ تتوقفَ عن اللعبِ بالشارعِ مـع صـديقاتِها بعدَ اليومِ، لأنـه سيتمُّ كتبُ كتابِها غدًا علـى عريسِها الذي ستصبحُ في كنفِه منذُ الغدِ.

ونبَّهتْها بأنَّـه منـذُ اليـومِ لا مدرسـةَ ولا لعـبَ فـي الشـارعِ حتـى تستعدَّ للزفافِ، وتستعدَّ لمقابلةِ الخياطةِ التي ستخيطُ لها سبعَ بدلاتٍ تتجلّى بهمْ أمامَ عريسِها ليلةَ الزفافِ، وكذلكَ ملابسَ النومِ والأروابِ وملابسَ الشتاءِ والصيفِ.. و..

يـا إلهـي! أدهشَـني فـرحُ أمِّـي الطفلـةِ عنـدَما أخبرتْنـي بأنهـا استجابتْ لأمِّها، وبلَّغتْ صديقاتِها بأنها لنْ تلعبَ معهنَّ بعدَ اليومِ،

وبدأتْ الخروجَ مع أمِّها فقطْ لزيارةِ الخياطةِ المعروفةِ بتجهيزِ العرائسِ، التي خاطتْ لأمِّي أجملَ جهازِ عرسٍ، وليلةَ الجَلْوَةِ[1] أيْ الصَّمْدَةِ تَجَلَّتْ أمِّي أولاً بالثوبِ الطويلِ الأحمرِ، ثم بالأسودِ، وقناعِ البدويةِ وأغنيةِ قهوةِ البدويةِ، ثمَّ الليموني والوردي والفستقي والبرتقالي، وأخيرًا الأبيضَ الذي تَمَخْطَرَتْ به أمِّي بعدَ أنْ ألصقوا عشرَ شمعاتٍ على عشرِ كُشْتَبَاناتٍ على أصابعِ يديْها العشرةِ، دخلتْ على عريسِها تلوحُ بأصابعِها العشرِ وَضَوْءُ الشمعاتِ يلوحُ معها، والجنكياتُ تُرَقِّصُ العروسَ، ويغنّون على أنغامِ الطبلةِ أغنيةَ الدخلةِ، يطفئُ عريسُها نورَ الشمعاتِ، وتسحبُ أمُّها الكتشبانات.

يحضنُ الأبُ ابنتَه ويقبِّلُها ثم يسلمُها إلى عريسِها أمامَ هذا الجمعِ المحتفلِ بهم، يمسكُ العريسُ بيديْ عروسِه ويرقصُ معها، ويرشُّ الأهلُ والأقاربُ عليهما حباتِ الأرزِّ والريحانَ والوردَ وزهورَ المنثورِ والياسمينَ المعطرَ، وهم يزفّونَهم إلى غرفتِهم التي أُعدَّتْ لهم، ويبقى الجمعُ يغنّي ويرقصُ والعريسانِ يمارسانِ الحبَّ ليلةَ الدخلةِ حتى يخرجَ عليهم، ويلوحُ بدمِ عذريتِها على منديلٍ أبيضَ حسبَ العادةِ البشعةِ في ذلكِ الوقتِ.

---

(1) سميت كذلك لأن من عادة أهل فلسطين في الأفراح تغطية وجه العروس بغطاء شفاف منفصل تابع للثوب، في بداية الحفل، وتحمل العروس مصحفاً تدور فيه، مع أغنية دينية خاصة، ثم يجلو (يكشف) العريس الغطاء عن وجهها، وتبدأ بعدها السهرة، وهي عادة قديمة مرتبطة بما كانت عليه النسوة في العصر العثماني من تغطية وجوههن فلا يراهن العريس إلا ليلة الزواج، وما زالت عادة الجلوة في الأفراح منتشرة إلى الآن.

وفي سهرةٍ أخرى امتدَّتْ بنا، قالتْ لي أمِّي إنَّها كانتْ فَرِحَةً بمقابلةِ مَن قُرِأتْ فاتحتُها عليه يومَ مولدِها، كانَ جدِّي لأمِّي يزورُ بيتَ العائلةِ في مدينةِ نابلسَ، وجاءَه خبرُ ولادةِ طفلتِه، فطلبَها جدِّي لأبي زوجةً لابنِه الطفلِ، قرأوا الفاتحةَ سويًا لتأكيدِ ذلكَ الميثاقِ المُتَّبعِ في ذلكَ الوقتِ بينَ أبناءِ العائلةِ الواحدةِ.

ابنُ العمِّ أحقُّ بابنةِ عمِّه مِن أيِّ شخصٍ آخرَ، ويستطيعُ أنْ يوقفَ خطبتَها مِن أيِّ شخصٍ آخرَ إذا أرادها زوجةً له، ولنْ يمنعَه أحدٌ حتى لو أنَّ قلبَها هوى ذاكَ الشخصَ، حتى لو كانتْ مَصمودةً على اللُّوجِ ليلةَ زفافِها يستطيعُ أنْ يوقفَ هذا الزواجَ.

انقرضتْ تلكَ العادةُ التي تمتهنُ كرامةَ المرأةِ والرجلِ بآنٍ واحدٍ، إذْ كيفَ يخطبُ الأبُ مولودًا مِن العائلةِ لابنِه الطفلِ ويقررُ عنهما أنْ يكونا زوجينِ في المستقبلِ، وتُمحى إرادةُ الطرفين منذُ طفولتِهما، ويُكتبُ عليهما مصيرُهما الذي يعتمدُ على الحظِّ بنجاحِه أو عدمِه.

تسردُ أمِّي ذكرياتِها قائلةً:

- عرفتُ فيما بعدُ أنَّ أمَّه غضبتْ مِنه لأنها لمْ تشاركْه تلكَ الفرحةَ، لكنَّ أباكِ كانَ ذكيًّا ويحسنُ التصرفَ، وكانَ همُّه الدائمُ رضاءَ أمِّه عليه، وانحنى على يديْها يقبِّلُهما ويطلبُ المغفرةَ، وشكرَها لأنها وجهَّتْه للسفرِ للتعرُّفِ على قريبتِه التي قُرِئتْ فاتحتُها عليه يومَ مولدِها. قالتْ له جدَّتكِ: "لقدْ أرسلتُكَ للتعرُّفِ عليها، وليسَ لكتبِ كتابِكَ عليها دونَ وجودي معكَ، أنتَ فرحةُ عمري يا ولدي، وكلُّ أمٍّ تريدُ أنْ

تسعدَ بفرحتِها بولدِها، وطوالَ عمري أرضى عليكَ وربنا زادَكَ مِن نعيمِه بسببِ رضاي الدائمِ عليكَ"، ثمَّ أكملتْ جدَّتكِ عتابَها قائلةً: "كيفَ هانَ عليكَ أنْ تعقدَ قِرانَكَ دونَ أنْ أكونَ معَكَ؟".

وبكتْ بحرقةٍ، حضنَها أبوكِ واستسمحَ خاطرَها، وقال لها: "ضيقُ الوقتِ وإجازتي القصيرةُ مِن العملِ، والمواصلاتُ الصعبةُ كما تعرفينَ يا أمِّي، هو الذي خَلاَّني أُنهي الموضوعَ بسرعةٍ، وفوقَ ذلكَ كلِّه أردتُ أنْ أفاجئكِ وأفرِّحَ قلبَكِ بكتبِ كتابِي".

ووعدَها بأنْ يقيمَ فرحًا كبيرًا لمْ تشهدْ مثلَه البلادُ حتى تُغنِّي له أمُّه وتزغردَ وترقصَ كما تشاءُ، ثمَّ جففَ دموعَ أمِّه بقُبُلاتِ مَن يعترفُ بذنبِه، وطلبَ رضاءَها عليه، وعلى عروسِه التي أحبَّها كثيرًا منذُ النظرةِ الأولى، أخذَ يهدِّئُ خاطرَ أمِّه قائلاً لها: "إنها جميلةٌ جدًا يا أمِّي. عاقلةٌ هادئةٌ ومؤدبةٌ، وستكونُ الزوجةَ الصالحةَ لي وأمًّا رائعةً لأولادي".

حضنَتْه وباركتْه ودَعَتِ اللهَ أنْ يرزقَه أبناءً صالحين، وأنْ يمسِكَ الترابَ ويصيرَ ذهبًا بيدِه، وأنْ يكشَّ أحفادَه بالعصا مِن كثرتِهم، وحصلَ ذلكَ بعدَ عمرٍ طويلٍ.

الكنافة النابلسية

سألتُ أمِّي إذا تعلمتْ طريقةَ صناعةِ الكنافةِ التي أطعمتْ أهلَ مدينتِها يومَ عقدِ قِرانِها، أجابتْني ولمعةٌ في عينيْها تبرقُ بفرحِ استحضارِ ذكرياتِها:

- نعمْ، تعلمتُها مِن الكَنَفَنْجي الذي عملَ الكنافةَ في ساحةِ الدارِ، ومِن يومِها تعلمتُ كيفَ أعملُ الكنافةَ لكم ولضيوفِنا، لقدْ أحضرَ والدُكِ معه الحَلَوَنْجي النابلسيَّ، وموادَّ الكنافةِ النابلسيةِ مِن خيوطِها الرفيعةِ الطازجةِ (عَجينةُ الكنافةِ)، يضعُها في صاجٍ كبيرٍ ويقطعُها بيديْه مع السمنِ البلديِّ وهي تنضجُ على فحمٍ هادئٍ. وأحضرَ معَه أيضًا الجبنةَ النابلسيةَ التي حلاَّها بعدَ أنْ قطعَها قطعًا صغيرةً ونقعَها بماءٍ وفيرٍ، كانَ يغيِّرُه مراتٍ ومراتٍ حتى تصبحَ الجبنةُ حلوةً كالشهدِ.

كما أحضرَ الصبغةَ الأرجوانيةَ ومنبتُها زهورٌ صبغيةٌ طبيعيةٌ، تُرَشُّ الصبغةُ في سدرِ/صينيةِ الكنافةِ معَ السمنِ البلديِّ والصنوبرِ، ثمَّ تُرَشُّ عليهم طبقةٌ مِن الكنافةِ الرقيقةِ التي فُرِمتْ ودُعِكتْ على نارٍ هادئةٍ بالسمنِ البلديِّ.

قبلَ ذلكَ شاهدْتُ الحلونجيّ يقبضُ بكفِّه على كميةٍ مِن العجينةِ يضغطُها بشدةٍ ثمَّ يفتحُ قبضتَه؛ إذا انفردَتْ عجينةُ الكنافةِ يعني أنَّها استوَتْ/نضجَتْ، وإذا لمْ تتفتَّحْ معناها أنَّها لمْ تنضجْ بعدُ، تُرَشُّ العجينةُ بالتساوي على الصينيةِ، ثم تَفرِد طَبقَةٌ كثيفةٌ مِن الجُبنِ النابلسيِّ المُحلَّى، ثمَّ طبقةٌ خفيفةٌ مِمَّا تبقَّى مِن عجينةِ الكنافةِ، وتوضعُ الصينيةُ الضخمةُ على فحمٍ هادئِ الحرارةِ، ويُتابعُها الحلونجيّ بعدَ أنْ يضعَ إشارةً حيثُ بدأَ، ويُديرُها قليلاً حتى تتمَّ دورتَها ليصلَ إلى حيثُ بدأَ، وعندَما يحمرُّ دايرُ الصينيةِ وتسيحُ الجبنةُ، ثمَّ يهزُّ الصينيةَ

بيديْه ممسكًا بقطعتيْ قماشٍ مدوَّرتين أو مربَّعتين مبطَّنَتين بالصوفِ حتى تصبحا عازلاً جيدًا للحرارةِ، إذا تحركَتْ الكنافةُ كقطعةٍ واحدةٍ بالصينيةِ، فهذا يعني أنَّها نضجتْ، ويتمُّ قَلْبُها على صينيةٍ أكبرَ، ويُصبُّ عليها القطرُ المصنوعُ مِن السكرِ والماءِ وملعقةٍ كبيرةٍ مِن الليمونِ وأخرى مِن ماءِ الوردِ حسبَ الرغبةِ.

تعجَّبْتُ مِن هذا الإعدادِ الدقيقِ مِن قبلِ أبي، لحفلِ خطوبتِه وكأنَّه كانَ واثقًا بأنَّ الأمورَ ستجري على أحسنِ ما يكونُ خاصةً وأنَّ التقاليدَ ساعدَتْه لأنها تُلزمُ أهلَ العروسِ بإجابةِ طلبِه هذا لأنَّ فاتحتَها ألزمَتْهم، أولاً ولأنَّه ابنُ عمٍّ ثانيًا، رغمَ بُعْدِ المسافاتِ، وعدمِ التواصلِ الشخصيِّ أو البريديِّ، تيقَنْتُ بأنَّ الثقةَ بالنفسِ والإرادةِ هُما أساسُ النجاحِ، مِمَّا زادَ مِن إيماني مع الأيامِ وأصبحْتُ عندَما كبرتُ أوقِّعُ على كلِّ رسائِلِي جملةً آمنتُ بها: "إنَّ للهِ عبادًا، إذا أرادوا أرادَ".

تهاليل أمي

تَعودُ أمِّي بذاكرتِها بعيدًا، وتتركُ فؤادَها يبوحُ دونَ قيودٍ على سجيتِه، كانتْ سعيدةً باسترجاعِ طفولتِنا، والحديثِ عن أجملِ أيامِ حياتِها، فسألتُها:

- كيفَ استطعْتِ العنايةَ بنا وأنتِ صغيرةٌ وبعيدةٌ عن أمِّكِ وأهلِكِ؟
- هي طبيعةُ الخالقِ يا ابنتي، والتربيةُ التي أنشأَتْنا؛ كنتُ أقومُ بواجبِكم واحدًا تلوَ الآخرِ، أغذِّيكم بحليبِ ثديَيَ

الـوفيرين بحليـبِ الأمِّ الـذي لا يعلـوه أيُّ حليـبٍ آخـرَ، ثـمَّ أضـعُكم فـي أسِـرَّتِكم، وأغنّـي لكـم تهاليـلَ النـومِ حتـى يبـدأ النعاسُ في التسللِ إلى عيونِكم، وفورَ أنْ أطمئنَّ عليكم أبدأ نشاطِي اليوميَّ الروتينيَّ مِن تنظيفٍ وغسيلٍ وطبخٍ.. و.. و.. بهمةٍ كبيرةٍ.

آه يا أمّي! كمْ كنتُ أتمنّى أنْ آخذَكِ إلى مدينتِكِ المحبوبةِ يافا، كما حاولتُ أنْ آخذَ خالتي إلى بيتِها في فلسطينَ وانتظرتُها على الحدودِ، ولكنهم رفضوا أنْ يُدخِلُوها، لأنَّ كَارْتَها منتهٍ منذُ سنواتٍ، على الرغمِ مِن أنني سألتُ وأنا أعملُ متطوعةً في فلسطينَ، وقالوا لي إنَّه بإمكانِها أنْ تَدخلُ بِكَارْتِها، وتجدِّدَه فورَ أنْ تصلَ إلى الضفةِ، أردتُ أنْ أُدخِلَ البهجةَ إلى قلبِها لكنها أصيبتْ بخيبةِ أملٍ كبيرةٍ.

طلبتُ مِن أمّي أنْ تذكِّرَني بتهاليلِها التي لا زالتْ تُنعِشُ قلبي كلَّما سمعتُها، وابتسمتْ بارتياحٍ وأجابتْ:

- كنتُ أعشقُ الغِناءَ، ولكنَّ قُدسيَّتَكم في حضني جعلتْني أهمسُ لكم بِما تعلمتُه مِن تهاليلِ أمِّي حتى تَستكينوا وتناموا:

أووو يا رب تنام.. وادبح لك جوزين حمام

يا حمام لا تزعلوا.. بضحك عليه حتى ينام

أووه.. أبشروا حبا حبا.. فيك أهل المرحبا

قده طال نما.. وجهه بدر السما

أبشروا حبا درج.. منه قد بان الفرج

يا ربنا احفظه لنا.. رافعا عنا الضنا.

الصوت الرخيم

لقدْ حبا اللهُ أمِّي بصوتٍ رخيمٍ حنونٍ، وكانتْ تغنِّي وتَنْقُشُ على طبلَتِها ألحانَ ما تغنِّي في جمعاتِنا العائليةِ، ليسَ ذلكَ فقطْ بل أيضًا عندَما يَزُرْنَني صديقاتُ عمري ليسلِّمْنَ عليَّ كلَّما زُرْتُ أمِّي، كانتْ تَسعدُ بهنَّ، لمْ يكنْ يزورُها أحدٌ سوى أولادِها كلَّما سنحَتْ لهم الفرصةُ.

قالتْ لي يومًا: هيَّاني خلَّفت وربِّيت، مين بيزورني مِن أولادي وزوجات أولادي!!

كانتْ أمِّي تشعرُ بالوحدةِ خاصةً بعدَ أنْ فقدَتْ أختَها فجأةً؛ شعرَتْ باليُتْمِ، لهذا كانتْ تفرحُ بزياراتِ غُيَّابِها الذين يَجْلِبون لها زياراتِ أحبابِها المقيمين في المدينةِ نفسِها، كنتُ أعرفُ أنَّهم يزورونَها كلَّ أسبوعٍ، وأحدُهم يزورها أكثرَ مِن مرةٍ في الأسبوعِ، ولكنَّها كانتْ تشعرُ بالوحدةِ، وطولَ النهارِ أمامَ التلفزيونِ، لا تسمعُ ما يقالُ ولكنها تتابعُ الأفلامَ باستمرارٍ.

كانتْ تعرفُ أسماءَ المُمثِّلين وتُسمِّيهم لي، كانتْ تتمتعُ بذاكرةٍ قويةٍ خاصةً فيما يتعلقُ بالماضي، وكلَّ فردٍ مِن عائلتِها الكبيرةِ، كنتُ أهتمُّ بجاراتِ أمِّي وبَنيْتُ معهنَّ علاقةً وطيدةً مِن أجلِ أمِّي، أخذْتُ أطرقُ أبوابهنَّ أرجوهُنَّ أنْ يُطِلّوا على أمِّي بينَ وقتٍ وآخرَ، وكنتُ على تواصلٍ مع صديقاتٍ كنَّ يبعثْنَ لي أخبارَها كلَّما شدَّني الحنينُ إليها، كانتْ أمِّي تحبُّهم وتفرحُ بهم كلَّما اتصلوا بها تلفونيًّا أو زارُوها.

وفي جَمعاتِنا الأسبوعيةِ، كانتْ أمّي تطلبُ مِنّي أنْ أُحضِرَ لها طبْلَتها مِن خزانةِ غرفتِها، وتبدأُ بمناغشَتِها بأصابعِها الرفيعةِ والطويلةِ، وتبدأُ السهرةَ بأغانِيها التقليديةِ الشعبيةِ الساحرةِ، وما يطلبُه المستمِعون مِن العائلةِ، كانتْ تسعَدُ بوجودِهم حولَها، وتتجلّى أمّي، ونَتجلّى معها ترديدًا وتصفيقًا وطربًا، أذكرُ مِنها:

طالعة من دار أبوها رايحة لبيت الجيران
لابسة الأبيض والأحمر والعيون تضرب سلام
قلت لها يا حلوه وريني على شعرك فرجيني
قالت له روح يا مسكين شعري حبال الجمال
طالعة من دار أبوها رايحة لبيت الجيران
لابسة الأبيض والأحمر والعيون تضرب سلام
قلت لها يا حلوه وريني على خدودك فرجيني
قالت له روح يا مسكين أخدودي تفاح الشام
طالعة من دار أبوها رايحة لبيت الجيران
لابسة الأبيض والأحمر والعيون تضرب سلام
قلت لها يا حلوه وريني على جبينك فرجيني
قالت له روح يا مسكين يا جبيني بلاط رخام

ثمّ تتحوّلُ أمّي فورًا إلى أحبِّ أغانِيها إلى قلبِها، أعتقدُ أنَّها قديمةٌ جدًّا ولا أدري أينَ منبتُها، ولكنَّها جميلةٌ ومعبِّرةٌ؛ أغنيةٌ اسمُها "أهواك".

يـــا داخلـــين أرضـــنا   اتمهلـــــوا شــــــويه

لا تقطفـــــوا وردنـــــا   أشــــــواكه قويـــــــة

واشـربت كـاس العـذاب   وجيــت آخــذ بخـــاطري

واللـــي جــرح مهجتـــي   مـــا يجـــرح إيـــداي

أهـــــواك أهـــــواك   أهــواك أهــواك أهــواك

أهـــــواك أهـــــواك   أهـواك أهـواك أهـواك

بعدَها تبدأُ بأغنيةٍ تراثيةٍ مِن مدينةِ نابلسَ تربطُني بها ذكرياتُ طفولةٍ محببةٍ:

على وادي البادان آه واعزمنا

على أكلة صيصان يا لا لا لي

يا لا لا... آه... يا لا لا لي

على أكلة صيصان.... آه واعزمنا....

يا لا لا لالي.... آه يا لا لي

وثُمَّ تتحوَّلُ إلى أغانيها الأقربِ إلى قلبِها:

منين أجيب الورد منين... منين يابا.. منين منين...

تأخذُ أمّي نفسًا عميقًا ثمَّ تنتقلُ بنا إلى أغنيةٍ لها صدًى حنونٌ في صوتِها الرخيمِ، كنتُ أظنُّ أنها تغنّي لأخيها الوحيدِ، وبعدَما كبرتُ عرفتُ بأنَّ أغنيةَ "خالي" هو خالي القلبِ الذي عذَّبَ حبيبتَه، وليسَ خالي أنا، تردِّدُها بحنانٍ، أرى دمعةً تعجُّ في عينَيْها:

خالي يا خالي يا خال القلب.. إنت يا خالي

قلبي عاشق وقلبك خالي.. قلبي وقلبك خالي

ليش يا خالي.. ليش يا خالي.. يا خالي يا خالي

نعيشُ الفرحَ ونشدو بأرواحِنا مع أغاني التراثِ والطربِ الأصيلِ، وتختمُ أمِّي، نجمةُ السهرةِ والعائلةِ وهي تجمعُنا حولَها بحُبِّها وعشقِها لأغاني التراثِ، وتنتعشُ وهي تغني "على دلعونا" التي تعوَّدْنا أنْ نطلبَها مِنها في كلِّ سهرةٍ تجمعُنا بها، كانتْ أمِّي تهتزُّ طربًا وفرحًا ونحنُ نعيشُ هيامَنا بصوتِها الشجيِّ، كانَ جسدُها يهتزُّ طربًا مِن الضحكِ عندَما ترانا نقفُ ونرقصُ ونَدْبُكُ على أغنيتِها القريبةِ مِن قلبِها وذكرياتِها، وتلحِّنُ لنا بنَقَراتٍ على طَبْلَتِها خطواتِ الدبكةِ الفلسطينيةِ.

كانتْ أمِّي تقولُ لنا إنَّ جدَّتَها كانتْ بدويةً رائعةَ الجمالِ، أحبَّها جدُّها التاجرُ وخطفَها على فرسِه وتزوَّجَها، كانتْ تَسمَعُها تدندنُها بصوتِها الساحرِ الذي أورثَتْه لأمِّي، وهي أغنيةٌ شعبيةٌ متداولةٌ في عمومِ فلسطينَ خاصةً في الدبكاتِ والسحجاتِ وفي الأعراسِ الشعبيةِ:

على دلعونا وعلى دلعونا.. راحوا الحبايب ما ودعونا.. و.. و..

بعدَ أنْ نتجمَّعَ حولَها مِن جديدٍ عندَما تصلُ إلى هنا، نطلبُ مِنها جميعًا أنْ تغنيَ لنا مِن التراثِ الشعبيِّ النابلسيِّ التي أصبحَتْ تَصدحُ بكلِّ الأعراسِ الفلسطينيةِ: أغنية "إمُّه يا إمُّه" التي تبدأُ بمدحِ الأمِّ ثمَّ تتحولُ إلى محاولاتِ العروسِ التشنيعِ على حماتِها:

إموو يا إمه يخليله أمـه — سبع كناين تعبر علـى أمـه
جـاب اللـي السـجادة — ومـا لـو بالعـادة
انهـرت السـجادة — مـن دعسـة أمـه
جابـت لـي البصـل — ومـا باكـل بصـل
وعشـهر العسـل — لحقتنـي إمـه
يـا نـاس صـلوا عـالنبي — وكمـان صـلوا عـالنبي
والـورد فـتح — علـى النبـي

ومـعَ التهليـلِ والمـديحِ والتصـفيقِ، يطلـعُ أحفـادُ العائلـةِ علـى الطاولـةِ ليرقصْـنَ بعدَ أنِ انتقلتْ إليهم عدوى الطربِ، وتغنِّـي لهـم أمِّي:

يا ريتني طير لاطير حواليك — مطرح ما تروح عيوني عليك
يـا ريتنـي علكـه وتعلكنـي — مـا بـين سـنانك تزركنـي
وتشـد علـي وتفركنـي — لكـن يـا ريـت
كلمـة يـا ريـت... — عمرها ما كانت... تعمر بيت

يهلّلُ كلُّ مَن يسمعُ أمِّي ويطلبُ مِنها المزيدَ، ولكنَّها تتوقفُ للحظـةِ، وتقـولُ لنـا: "سـأغنّي لكم أغنيـةً أحبُّها كثيـرًا، رغـم أنكـم لا تطلبونـها مِنّي مع أنّ كلماتِها الأقربُ إلى روحي." ظننتُ في البدءِ أنّها أغنيـةُ الخالدةِ الست أم كلثوم، وعندَما بحثتُ عنها وجدتُ أنَّ صاحبتَها مغنيةٌ لبنانيةُ الأصلِ اسمُها لوردكاش.

آمنـــــت بـــــالله... آمنـــــت بـــــالله
نـــور جمالـــك آيـــة.. آيـــــة مـــــن الله
آمنـــــت بـــــالله.. آمنـــــت بـــــالله
نور جمالك.. نـــــور عجيـــــب
نور جمالك نور عظيم.. يطفي في الحب اللهيب
نور جمالك في الظلام.. بـــدر فـــي يـــوم التمـــام
آمنـــــت بـــــالله.. آمنـــــت بـــــالله

وغيرُها الكثيرُ مِن الأغاني الشعبيةِ الفلسطينيةِ التي كانتْ تنتقلُ بالتاريخِ الشفويِّ عبرَ الأجيالِ مثلِ أغاني المواسمِ الشعبيةِ، والمناسباتِ الدينيةِ، والبحرِ وأغاني البحّارةِ، وأهازيجِ عمَّالِ قطفِ البرتقالِ ولَفِّه، وأغاني المدحِ والذمِّ، أجملُها كانتْ مدائحُ الحجاجِ احتفالاً بعودتِهم سالمين مِن أدائِهم فريضةَ الحجِّ.

الغربة

بعدَ أنْ كبرْنا جميعًا وتفرَّقْنا في بلادِ اللهِ الواسعةِ، كنتُ أزورُ أمِّي كلَّ عامٍ وأقضي معها ثلاثةَ أشهرٍ، كانوا أجملَ إجازاتِي، لأنني أقضيها برفقةِ أمِّي، وقُرْبِها، أعتني بها بكلِّ ما أوتيتُ مِن معرفةٍ ومقدرةٍ خاصةٍ عندَما عرفتُ أنها مريضةٌ، وطُلبَ مِنّي أنْ أذهبَ لوداعِها، طارَ صوابي وطِرْتُ معه إليها، عالجتُها في إحدى المستشفياتِ الخاصةِ، لمْ يكنْ شيئًا خطيرًا ولكنَّ عدمَ تشخيصِ الحالةِ

منذُ البدايةِ أدَّى إلى مضاعفاتٍ جسيمةٍ، أنقذُوها مِنها في آخرِ لحظةٍ، تفرغتُ للعنايةِ بها، وأعددْتُ لها نظامًا غذائيًا شَفاها تمامًا والحمدُ للهِ.

أصبحتُ أكثرَ حرصًا على قضاءِ جُلِّ وقتي مع أمِّي في إجازتي السنويةِ المقدسةِ، أمِّي في العادةِ تنامُ مبكرًا، ولكنْ عندَما أزورها في الصيفِ، كانتْ تتأخرُ في النومِ، كنَّا نجلسُ قربَ بعضٍ أحضنُها وأقبِّلُ خدَّيْها ورأسَها ونتحدثُ، كنتُ أشعرُ بسعادتِها وهي تفيضُ لي بمكنوناتِ قلبِها، وكنتُ مستمعةً جيدةً للدُّرَرِ التي تنطقُ بها، وكانتْ تمتدُّ بنا الساعاتُ ولا تُمَلُّ، تسترخي بعدَها وتقولُ لي:

- نعستُ، تصبحي على خير.

أقبِّلُها وأتمنى لها ليلةً سعيدةً، وأستعيدُ حديثَ الذكرياتِ مُحاوِلةً الربطَ بينَها، كنتُ أتركُ أمِّي تفيضُ بما عندَها مِن قصصٍ مشوِّقةٍ، كانتْ في أحيانٍ كثيرةٍ تكررُ ما قالتْه لي، ولكنني كنتُ أحرصُ على سماعِها ثانيةً وثالثةً، بل أصبحْتُ مدمنةً على سماعِ أمِّي التي كانَ يحلو لها سردُ ذكرياتِها الجميلةِ، والمثخنةِ بالجراحِ وهي تصفُ مدينةَ يافا، المدينةَ التي عاشتْ فيها أسعدَ أيامِ حياتِها، كنتُ أحثُّ أمِّي على المزيدِ مِنه، فيمتدُّ بنا الوقتُ دونَ أنْ نشعرَ.

لمْ أكنْ أفارقُ أمِّي طيلةَ الثلاثةِ أشهرٍ، إلاَّ عندَما تأخذُ قيلولتَها بعدَ الغداءِ، شعرْتُ بصعوبةِ البُعدِ عن أمِّي، وشعرْتُ بعمقِ شعورِ أمِّي بالوحدةِ، كانتْ تتلهفُ على أخباري، وتسألُ إخوتي كلَّما جاءتْ

سِيرتي، متى سأزورُها. كنتُ أشاركُها الحديثَ، وأسمعُ ذكرياتِها الساحرةَ التي كانتْ تُعيدُني إلى مرابعِ طفولتِي الغضَّةِ في يافا الحبيبةِ، كنتُ أتمتعُ بمخزونِها الهائلِ وأسجِّلُه في عقلي، وأحيانًا على شريطِ كاسيت. كانتْ زيارتِي الأخيرةُ لها حيثُ توفَّاها اللهُ بعدَها.

أشعرُ بسعادةٍ كلَّما استعدْتُ الأصلَ الذي بقيَ منسوخًا بالذاكرةِ، وعلى الرغمِ مِن أنني سُلِخْتُ قسرًا عن مدينتي الأثيرةِ في قلبي يافا، كَما سُلِخَ عنها أهلُها منذُ النكبةِ الفلسطينيةِ، فإني ما زلتُ أحنُّ إلى بحرِها وسمائِها، وياسمينِها وليمونِها وبرتقالِها وذكرياتي فيها، رغمَ تراكُمِ السنواتِ على ذاكرتِي وعليها، وابتعادي الساحقِ عن مرتعِ طفولتي، وتنقُّلِي الدائمِ بعيدًا عن محيطِها وهوائِها وفضائِها، فإنَّ سَهراتي مع أمِّي عوَّضَتْني عن ذلكَ وكنتُ أختارُ توقيتَ زيارتي لها غيرَ توقيتِ أبنائِها المغتربين، حتى تسنحَ لها الفرصةُ لقضاءِ فترةٍ أطولَ مع كلِّ واحدٍ فينا لأخففَّ عنها شعورَها بالوحدةِ، ولكنه صادفَ أنَّ اثنيْن مِنهما كانوا يزورونَها تقريبًا في التوقيتِ نفسِه، فخسرَتْ أمِّي بذلكَ شهرينِ كانَ ممكنًا أنْ تتمتعَ فيهما مع كلِّ واحدٍ على حدةٍ حسبَ رغبتِها الدفينةِ التي صرَّحَتْ لي بها.

كنتُ أستمعُ لأمِّي بشغفٍ وأعيشُ معها ذكرياتِها الساحرةَ التي كانتْ تُعيدُني إلى مرابعِ طفولتي الغضةِ، في يافا الحبيبةِ، وكانتْ تسهرُ معي أكثرَ عندَما كنتُ أزورُها وحدِي دونَ أبنائِها المغتربين، وكانَ يحلو لها السهرُ والغناءُ وسردُ ذكرياتِها الجميلةِ التي كنتُ أحثُّها على سماعِ المزيدِ مِنها.

لقَدْ ساعدَني حفظُ أغاني أمِّي التراثيةِ، أنْ أسمعَ صوتَها وأنا بعيدةً عنها، خاصةً عندَما ثقلَ سمعُها وأصبحتْ تردُّ عليَّ بكلمتين على التليفون، "أهلين ست زبيدة، أنا منيحة الحمد لله"، وحتى أبقيَها معي فترةً أطولَ قبلَ أنْ ترميَ التليفون لخادمتِها، كنتُ أعاجلُها بأغنيةٍ مِن أغانيها الجميلةِ، تلتقطُها أذنُها وتكملُها، وهكذا استطعتُ أنْ أجدَ طريقةً ذكيةً أسمعُ فيها صوتَ أمي عن بُعْدٍ، وبلَّغتُ إخوتي المغتربين بذلكَ.

عذاب الروح

سأضعُ لكم بعضَ هذهِ الحروفِ، ليسَ مِن أجلِ أنْ تشاركوني حُزني، لأنني تجاوزتُه والحمدُ للهِ، وتجاوزْتُ محنةَ الفقدانِ مِن خلالِ الكتابةِ، أضعُها أمامَكم فقطْ لأنهم كانوا ولا زالوا جزءًا لا يتجزأُ في حياةِ (الست زبيدة)، حتى تقرأوا عمقَ مشاعرِها وحِدَّةَ آلامِها، وتقرِّروا بأنفسِكم؛ هلْ يستحقُّ الموتُ كلَّ تلكَ المعاناةِ؟ أمْ أنْ نتعاملَ مع الموتِ كحقيقةِ الحياةِ نفسِها ونتقبَّلَه كما نتقبلُ الحياةَ، مع الفارقِ بينَ الاثنين، الأولِ بفرحٍ وإقبالٍ، والآخرِ وداعٍ وإيمانٍ.

مرض أختي

بعدَ النكبةِ بعامٍ مباشرةً، أنجبتْ أمّي حُلُمي الذي كنتُ أسعى إليه، وولدَتْ لي أختًا للمرة الأولى أسميناها (عائشة)، أحببتُها مِن صميمِ فؤادي، لا أزالُ أذكرُ تقاطيعَ وجهِها وجمالَ عيونِها الأخاذً وحواجبَها الملتصقةَ بشعرٍ خفيفٍ عندَ التقائِهم وسطَ جبينِها، كانتْ سُمرتُها محببةً وشَعرُها أسودَ ناعمًا، تركْتُ لُعَبي جانبًا وأصبحَتْ هي لُعبتي المفضلةُ أرافقُها وأمّي ترضعُها، أتابعُ نموَّها وحركاتِها وزقزقَةَ ضحكاتِها الرقيقةِ، وكلَّما نمَتْ أكثرَ زادتْ جمالاً.

وفجأةً ودونَ سابقِ إنذارٍ، مرضَتْ وأصبحتْ لا تَرضعُ وأخذَها الهزالُ ولمْ يعرفْ أحدٌ ما بها حتى طبيبِ أطفالِ العائلةِ لمْ يعرفْ ما هو مرضُها، وبعدَ عدةِ أيامٍ وأمّي تغيّرُ حفاضَها وجدتْ دمًا، فهُرعتْ إلى طبيبِها – وكنتُ معها – سيرًا على الأقدامِ لأنَّ عيادتَه قريبةٌ مِن بيتِنا، غذَّتْ أمّي السيرَ وأنا أركضُ خلفَها، أخذَ الطبيبُ يسألُ أسئلةً كثيرةً؛ هل وقعَتْ؟ هل وقعَ عليها شيءٌ؟ وأضافَ بأنَّ كبدَها مصابٌ وهذا ناتجٌ عن حادثةٍ وقعتْ لها، إذنْ هناكَ حادثةٌ وراءَ مرضِ أختي، سمعتُها مِن أمي تخبرُ بها الطبيبَ، صدمْتُ بحادثةِ أختي التي أصبحَتْ سَلواي وحُبّي وحُلُمي الذي تحققَ بعدَ أنْ أصبحَ عندِي أختٌ.

الحقيبة الزرقاء

القصةُ بدأتْ بالحقيبةِ الزرقاءِ، وهي شنْطةُ خالتي الألمونيوم بلونِ السماءِ والبحرِ، هلَّتْ علينا خالَتي التي كنَّا نحبُّها كثيرًا مِن مدينتِها، كانتْ زيارةً مفاجئةٍ مثلِ كلِّ زياراتِها، ومِن فرحِ أختي باستقبالِها، حملَ شنطتَها الألمنيوم الزرقاءَ، ورماها بسرعةٍ على الدوشكِ فوقَ كومِ مِن الغسيلِ الناشفِ الذي لمْ تجدْ أمّي بعدُ وقتًا لطَيّه، وبعدَ أنْ هدأتْ فورةُ الاستقبالِ الحميمِ والتفافِنا حولَ خالتِي، دخلتْ أمّي إلى غرفتِها لتتفقَّدَ أختي فسمعَتْ صوتَ أنينٍ ضعيفٍ، صاحتْ أمّي عندَما شاهدَتِ الشنطةَ الزرقاءَ فوقَ أختي التي كادَتْ تختنقُ مِن البكاءِ وقلةِ الهواءِ.

حملتْها أمِّي، حضنتْها وهي تبكي لبكائِها، وضعتْ حَلَمَتَها في فمِها حتى تهدَّئَها وهي تعتذرُ لها، وخرجتْ إلى الصالةِ تخبرُنا بما حدثَ وتؤنِّبُ أخي الذي رمى الشنطةَ الزرقاءَ الثقيلةَ على الدوشكِ دونَ أنْ يتأكدَ مِن وجودِ أختِه الطفلةِ.

بعدَ أيامٍ مرضتْ أختي، نزفَ كبدُها وتعبتْ أمِّي معَها بأخْذِها مِن طبيبٍ إلى آخرَ، وكنتُ أذهبُ معَها إلى الطبيبِ لمعالجتِها، وأذكرُ أنهم لمْ يعرفوا ما حصلَ لها، قالتْ لي فيما بعدُ وأنا أسألُها عن إخوتي الذين توفَّوا قبلَ ميلادي وعنها هي بالذاتِ لأنَّه أصبحَ كلُّ همِّي وجودِي قربَها.

قالتْ لي أمِّي إنَّ طبيبَ الأطفالِ المتخرِّجَ حديثًا طلبَ مِنها الإذنَ بتشريحِ جثتِها لأنَّها لنْ تعيشَ وهي تنزفُ نزفًا مستمرًّا، لكنَّ أمِّي وأبي رفضا ذلكَ، وعندَما توفَّاها اللهُ أذكرُ تلكَ الليلةَ وكأنَّها حصلتْ أمسِ؛ كانتْ أختي تحتضرُ، عرفتُ ذلكَ فيما بعدُ، والكلُّ ملتفٌّ حولَها، إخوتي وعمَّتي وجيرانُنا، وأمِّي تبكي، عَصَبَتْ عمَّتي رأسَها، ووضعتْ بيديْها وردتين جُوريَّتين، ما زلتُ أتذكرُ لونَهما الأصفرَ الفاقعَ، مِن يومِها أصبحَ هذا اللونُ لونَ الحزنِ، ثمَّ لفَّتْها بقماشٍ أبيضَ مثلِ البَفْتِ، لمْ أفهمْ لماذا؟ ولمْ أكنْ أبكي، ولمْ أكنْ أعرفُ ما هو الموتُ، وكيفَ يكونُ؟ وما معناه؟

افتقدْتُ أخي الكبيرَ، ذهبتُ أبحثُ عنه حتى أسألَه ماذا جرى لأختي ولماذا يلفُّونَها بالأبيضِ، وجدتُه ماسكًا طبشورةً بيضاءَ بيدِه ويكتبُ بخطٍ جميلٍ على بابِ المطبخِ الخشبيِّ الأخضرِ، كلماتٍ كثيرةً ختمَها: (أختي ماتتْ وأنا السببُ) ثمَّ انهارَ بالبكاءِ.

لمْ أفهمْ ما يجري ولماذا يبكي الجميعُ مِن حولي، وأنا وإخوتي الصغارُ لا نبكي، وفي الصباحِ استيقظتُ على هرجٍ ومرجٍ، وإذا بأبي يحملُ أختي بينَ ذراعيْه بعدَ أنْ لفّوها بِبُقْجَةِ المخملِ الكحليةِ والمقصبةِ، وسارِ بها معَ بعضٍ مِن أفرادِ عائلتي، وإخوتي الكبارِ، لمْ أعرفْ إلى أينَ؟ لأنهم لمْ يتَّجِهوا إلى طريقِ طبيبِها بل صعدوا بها إلى طريقِ الجبلِ، إلى أينَ يأخذون أختي!!

كانتْ أمّي تبكي لفراقِ أختي، فلحقتُ بهم، وعندَما وصلوا نهايةَ الشارعِ دخلوا بأختي مِن بابٍ ضخمٍ محاطٍ بسورٍ عالٍ جدًا مِن الحجرِ القديمِ، وفي مَدخلِ هذا المكانِ شاهدْتُ أشكالاً غريبةً مِن الأحجارِ مصفوفةً وراءَ بعضِها، يفرّقُ بينَهم بالعرضِ والطولِ مسافةٌ قصيرةٌ، متناثرين على التلةِ مترامية الأطرافِ، وفي مقدمةِ كلِّ مستطيلٍ، حجرٌ منبسطٌ عالٍ وكبيرٌ، مكتوبٌ عليه بالأسودِ كلماتٌ لمْ أفهمْها.

الحفرة المظلمة

سمعتُ أبي يجودُ بصوتِه الخاشعِ آياتٍ مِن القرآنِ الكريمِ، ثُمَّ تقدَّمَ أكثرَ إلى الأمامِ وأنا مِن ورائِهم، والمحيطون بأبي يسدُّون عليَّ المنظرَ، مِن بينِ أرجلِهم شاهدْتُ أبي يفكُّ عن أختي البُقجةَ الكحليةَ المُقصَّبةَ؛ فبانَتْ ملفوفةً بالبياضِ مِن رأسِها حتى أخمصِ قدميْها ومربوطةً مِن عندِ رأسِها ومِن عندِ قدميْها ولمْ يَعُدْ يظهرُ مِنها شيءٌ، ولمْ يكنْ هناكَ فتحةُ تتنفسُ منها، ثُمَّ شاهدْتُه يضعُ أختي داخلَ الحفرةِ القبيحةِ المظلمةِ،

وجدْتُ نفسي أصيحُ بهم بهلعٍ، "أريدُ أختي، حرام عليكم أنْ ترموها في تلكَ الحفرةِ السوداءِ." فوجِئوا بي وصُدِموا بصراخي الهستيريّ، خاصةً بعدَ أنْ رميْتُ نفسي وراءَ أختي داخلَ الحفرةِ أريدُ انتشالَها من هذا المكانِ المخيفِ، وأنا أنادي عليها بصوتٍ يقطعُ نياطَ القلبِ وهي لا تجيبُ ولا يرفُّ جسدُها المحبوسُ داخلَ الأبيضِ.

نَزعوني بقسوةٍ، وأخذْتُ أرفسُهم جميعًا خاصةً عندَما شاهدْتُهم غطّوا أختي بقطعةٍ كبيرةٍ مِن الحجرِ، ثم بدأوا يغمرونها بالترابِ، صِحْتُ بهم وأنا أضربُهم بكلتا يديَّ صارخةً:

- أريدُ أختي، أرجوكم لا ترموا عليها الترابَ.

ملأَ صراخي المكانَ القبيحَ الساكنَ، والْتَمَّ المارّون مِن حولي وسمعتُهم يترحَّمون على أختي ويردِّدون: "مسكينةٌ هذهِ الطفلةُ." زادَ كلامُهم مِن صراخي، وشعرتُ فعلاً بأنني مسكينةٌ لا حولَ لي ولا قوةَ، وشعرتُ أنَّ أحبَّ الناسِ إلى قلبي انقلبوا ضِدّي وأخذوا مِنّي أختي، حملَني أخي الكبيرُ عنوةً، كنتُ أرفسُه بقوةٍ مُحاوِلةً الانفلاتَ مِنه، صفَعَني بقوةٍ، وصَمَتَ لأنه أُغمي عليَّ مِن عنفِ صفعتِه، ومِن تعبي وانفعالي الهستيريِّ مِن المشهدِ المُفجعِ.

ركضَ بي إلى البيتِ، ودموعُه تتساقطُ على وجهِه، صحوْتُ على نقطِ مياهٍ حارَّةٍ على وجهي، ووعيْتُ بنفسي في حضنِ أمّي.

لا أدري هل كانَ أخي يبكي حزنًا على منظري الذي أوقفَ المارةَ، أمْ لحزنِه الشديدِ والحزينِ والمُبطَّنِ بلومِ نفسِه على أختي!! أمْ للاثنيْن معًا!!

أخذتُ أشهقُ وأبكي بحرقةٍ وأنا على صدرِ أمّي أشكو لها ما فعلوه بأختي، حضنَتْني برفقٍ وحنانٍ، وأخذَتْ تفهّمُني بأنَّ أختي ماتَتْ أيْ أنها لمْ تَعُدْ بيننا، لأنَّ اللهَ أحبَّها واختارَها أنْ تعيشَ معه، قلتُ لأمِّي مِن خلالِ نَهنَهاتِي:

- لماذا يا أمّي؟ لماذا اختارَ اللهُ أختي أنْ تعيشَ معه؟ أنتِ تعرفين بأنني كنتُ أدعوه كلَّما حملْتِ أنْ يرزُقَني بأختٍ، لأنني دائمًا سألْتُكِ، لماذا لا تلدين لي أختًا ألعبُ معها؟

أجابتْني برقةٍ وحنانٍ:

- اللهُ يا حبيبتي هو الرزاقُ، يفعلُ بِنا ما يشاءُ، ونحنُ لا نملكُ ردًّا لقضائِه.

انهرْتُ على صدرِ أمّي أبكي لأنني لمْ أفهمْ لماذا أخذَ أختي مِن بيننا، وسألتُها:

- طَبْ.. لماذا أخذَها بعدَ أنْ رزقَنا بها؟

أخذَتْ أمّي تهدِّئُ مِن روْعي، وتُرَبِّتُ على كتفي وتبكي معي، وتردِّدُ بينَ الفينةِ والأخرى: اللهُ أعطى واللهُ أخذَ، إنَّا للهِ وإنّا إليه راجعون.

بعدَ نُضجي وعيتُ العبءَ النفسيَّ الثقيلَ الذي تحمَّلَه أخي المسكينُ بسببِ الحقيبةِ الزرقاءِ، لمْ يَلُمْه أحدٌ، لكنَّه لامَ نفسَه وحمَّلَها ما لا طاقةَ له به، يا سبحانَ اللهِ! جعلَ لكلِّ موتٍ سببًا.

عانيْتُ مِن موتِ أختي الطفلةِ التي أنجبتْها أمّي بعدَ نزوحِنا إلى مسقطِ رأسِ أبي، جاءتْ إلى النورِ بعدَ سنواتٍ عجافٍ مِن

انتظارِ أختٍ لي، فرحْتُ بها فرحًا عظيمًا لأنني كنتُ أتمنّى أختًا منذُ أنْ وعيتُ أنَّ لصديقاتي وبناتِ الجيرانِ أخواتٍ، وكنتُ الوحيدةَ بينهنَّ دونَ أختٍ، كنتُ كلَّما عدْتُ مِن المدرسةِ أتفرغُ للعنايةِ بها.

وعندَما كبرْتُ، كانتْ أولُ وفاةٍ صدمتْني بِزَوْجُ صديقةِ الطفولةِ، ورفيقَتي في الدراسةِ والعملِ، لدرجةِ أنني لبستُ الحدادَ وطلبتُ مِن زوجي أنْ يتزوَّجَها لنرعَى طفلَها، إلى آخرِ هلعٍ أصابَني بوفاةِ أقربِ الصديقاتِ إلى قلبي بمرضٍ عضالٍ عايشْتُه معَها منذُ أنْ طلبَتْ مِنّي أنْ ألمسَه بأصابعي، وكانَ بحجمِ حبةِ الحمصِ حتى توفاها اللهُ بعدَ سنواتٍ طوالٍ.

كيفَ أنسى صديقةَ عمري منذُ المرحلةِ الابتدائيةِ حتى سنواتِ العملِ معًا، والتي توطدَتِ علاقتُنا أكثرَ مع أسرتَيْنا، حَدَثٌ لن أنساه عندَما كنتُ في زيارةِ أمِّي في عمَّانَ، قضيتُ معها يومًا كاملاً في بيتِها كانتْ تتألمُ مِن جرعةِ كيماويٍّ تجريبيةٍ مُخيفةٍ حذَّرْتُها مِنها، ورجوتُها ألاَّ تأخذَها، حاولتُ أنْ أطعمَها، وبصعوبةٍ تناولتْ بعضَ اللقيماتِ تقيَّأتْهم، وتقيأتْ معهم السمَّ الذي حقنوها به. تركتُها مع ابنتِها الوفيةِ لتُحمِّيَها وتنامَ.

صُدمْتُ في الصباحِ عندَما عرفتُ أنها نُقِلتْ إلى المستشفى، ذهبتُ لزيارتِها وجلستُ قربَها، ومِن شدةِ ألمِي عليها قلتُ لها: "أتمنّى لو أستطيعُ أنْ آخذَ عنكِ بعضَ آلامِكِ حتى أخففَ عنكِ." طلبَ الأطباءُ مِنّا أنْ نتركَ الغرفةَ، وقفتُ مِن بعيدٍ أشاهدُها، مِن البابِ قبلَ أنْ يُغلقَ، ورسختْ صورتُها الأخيرةُ في ذهني وأنا أُودِّعُها بتلويحِ ذراعي لها عدةَ مراتٍ.

كانتْ تنظرُ مِن بعيدٍ وتستجيبُ لي بابتسامةٍ باهتةٍ، وتلوّحُ لي بذراعِها المربوطِ بالمصلِ عدةَ مراتٍ، رغمَ الخطرِ شعرتُ بارتياحٍ لأنَّها استجابتْ لي، يا إلهي! كمْ هي الحقيقةُ مؤلمةٌ!

أمَّا الحالةُ الثالثةُ والصادمةُ جدًّا كانتْ زوجةَ أخي وصديقتي في عزِّ شبابِها بعدَ ولادةٍ قيصريةٍ مباشرةً، كانتْ أولَ مأساةٍ في أسرَتِنا الكبيرةِ، كنتُ في بلدٍ بعيدٍ جدًّا، ولمْ يخبروني بذلكَ لأنَّ الطبيبَ حذَّرَ أبي إخباري بحوادثِ الموتِ الصادمةِ، لأنَّ أولَ معاناةِ صدمةٍ سبَّبتْ لي هبوطًا في القلبِ أحضروا لي على إثْرِها طبيبًا لإنقاذي، وحذَّرَهم بعدَ ذلكَ أنْ أتلقَّى الخبرَ على درجاتٍ، وصلتْني ثلاثُ رسائلَ: الأولى أنَها مرضتْ بعدَ الوضعِ، والثانيةُ أنها مريضةٌ جدًّا، وتعاني مِن آثارِ ولادةٍ صعبةٍ، وحالتُها خطرةٌ، والثالثةُ تخبرني فيها أختي بأنَّه توفَّاها اللهُ.

وصلتْني للأسفِ الشديدِ الأولى ثم الثالثةُ وتأخرتِ الثانيةُ التي تمهِّدُ بخطورةِ الحالةِ، انهرْتُ وأخذتُ أناجي ربّي ضارعةً: لماذا يا ربّي تأخذُ أمًّا لأربعةِ أطفالٍ في عزِّ شبابِها؟! كنتُ أحدِّثُ ربّي كلَّما أنَّتْ روحي وكأنه صديقي، ولا أتوقفُ عن ذلكَ رغمَ الدموعِ والشجنِ حتّى ينهدَّ قلبي وتذوبَ روحي.

الشفاء من رعب الموت

تكررَتْ قصصُ الموتِ في حياتي، وفي كلِّ مرةٍ أُعاني الحزنَ والبكاءَ والصمتَ لأيامٍ لا أتكلمُ، ولا أتناولُ الطعامَ، وكأنني أعيشُ الموتَ مع مَن ماتَ، أصبحَ الموتُ معضلةَ حياتي، ومأساةً حقيقيةً

عشتُها عمري، وأصبحَ عليَّ أنْ أتحرزَ منها، لا أدري هل السببُ ما زرعتْه أمُّ صديقتي في قلبي عندَما كنتُ طفلةً، يومَ رؤيتي مع ابنتها صديقتي رمزية المرأةَ الميتةَ، الغريبُ أنني لمْ أشعرْ يومَها بأيِّ خوفٍ كانتْ مُسجّاةً على فرشتِها وكأنها نائمةٌ، ولكنَّ أمَّ صديقتي خوَّفتْني مِن الموتِ، بقولِها لنا إننا سنجلبُ الشؤمَ لأهلِنا، وزادَ يقيني بكلامِها هذا بعدَ أنْ توفّى اللهُ أختي عائشةَ، وهي في الشهرِ التاسعِ مِن عمرِها البريءِ، حفرَ في ذهني أنني جلبتُ لأختي الشؤمَ وسببتُ لها الموتَ، لهذا هِجْتُ وصرختُ وحاولتُ إخراجَها مِن تلكَ الفتحةِ السوداءِ المرعبةِ التي تركوها فيها وبدأوا يغطّونها بقطعٍ طويلةٍ مِن الأحجارِ، ويُهيلوا عليها الترابَ.

معَ الوقتِ وتمرُّسي بالكتابةِ، وجدتُ أنها أنقذَتْني مِن آلامِ الموتِ ولوعتِه، وعذابِه. أجلْ، لمْ ينقذْني مِن عذاباتي سوى التعبيرِ عنها كتابةً، ومع الوقتِ أصبحْتُ أشعرُ بالراحةِ، رغمَ وجعي إلاّ أنني أصبحتُ أشعرُ بهدوءٍ في النفسِ، وراحةٍ في القلبِ بعدَ أنْ أنتهيَ مِن بثِّ حُزني وأنينِ قلبي بالكتابةِ.

أجلْ، وجدتُ الحلَّ والفَرَجَ، وأصبحَ لديَّ مجموعةٌ مِن المرثياتِ للقادةِ والمناضلين الفلسطينيين، والأهلِ وأقربِ الأصدقاءِ، أصبحَتِ الكتابةُ مُتنفَّسي الحقيقيَّ للخروجِ مِن أزمتي النفسيةِ، رغمَ ذلكَ بقيَتْ آلامُ فقدانِ الأمِّ والأبِ مُرَّةً ولكنَّ الدعاءَ لهما وتذكُّرَ أيامِنا البهيجةِ معهما عوَّضَني عن فقدانِهما.

رغمَ ذلكَ كانَ لفقدانِ أمّي حزنٌ ولوعةٌ، لدرجةِ أنني تمنَّيْتُ أنْ أدفنَ معَها حيَّةً، وهذا أمرٌ غريبٌ وَجَبَ عليَّ معالجتَه، فكانَ موتُ

أمّي هو العلاجُ، لأنَّ الحزنَ اكتملَ بموتِها، ولمْ يَعُدْ مِن بَعدِها أيُّ فقدانٍ يرميني بالفراشِ لأيامٍ.

أصبحَ الحزنُ كتابةً يتوقفُ أثناءَها البكاءُ وأنينُ القلبِ ووجعِه، استطاعَتِ (الست زبيدة) أنْ تتخلَّصَ مِن الرعبِ الذي اختطفَ أقربَ الناسِ إلى قلبِها، سألتُها يومًا: كيفَ تخلصتِ مِن رعبِ الموتِ؟

- العلاجُ كانَ واضحًا في مخيلَتي، ولكنَّ تطبيقَه كانَ صعبًا لأنَّ حالةَ الانهيارِ تستغرقُني أسابيعَ.

إنَّ تجارِبي المُرَّةِ مع الموتِ منذُ طفولتي الغضةِ، منذُ أنْ شاهدْتُ أختي توضعُ في حفرةٍ مخيفةٍ سوداءَ هي التي سبَّبَتْ لي معاناةً غيرَ طبيعيةٍ، العلاجُ وجدْتُه بتفريغِ شحناتٍ مِن ذاكَ الوجعِ في روحي بالكتابةِ.

الكتابةُ والصمتُ والتأملُ، هم العلاجُ الناجعُ الذي أنقذَني مِن رعبي وبحرِ دموعي، ومِن خلالِ ذلكَ تعرَّفْتُ على حقيقةِ الحياةِ والموتِ وأنَّهما الحقيقتانَ الأزليَّتان في هذهِ الدنيا وذلكَ بعدَ آخرِ فاجعةِ فقدانٍ في حياتي، فقدانِ شقيقِ الروحِ والدمِ، قررتُ ألاَّ أنوحَ وأبكيَ، ولكنني لمْ أستطعْ إلاَّ بعدَ أنْ فرغتُ شُجوني وأحزاني على حاسوبي.

شفيتُ تمامًا بعدَ أنْ فرغتُ وجعي أمامَ عيني بحروفٍ مِن لهبٍ، هل تستحقُ هذهِ الحقيقةُ المُرَّةُ، حقيقةُ الموتِ كلَّ ما عانيتُه مِن أجلِ مَن رحلوا؟ أجيبُكم بصدقٍ وبقلبٍ مُجرِّبٍ، وبأمانةٍ: لا وألفُ لا! خاصةً إذا آمنا وزرعْنا في أرواحِنا حقيقةَ أنَّ الموتَ والحياةَ هما

الحقيقتان الوحيدتان في هذا الوجودِ، لماذا نحزنُ على حقيقةِ الخلقِ ونهايتِه؟ إنَّهما نجمان بازغان في حياةِ كلِّ إنسانٍ، وحقيقتان وهبَهما المولى عزَّ وجلَّ لنا لحكمةٍ تتابُعِ الخلقِ على وجهِ الأرضِ، طالما أنَّ هناكَ خلقًا وحياةً، هناكَ موتٌ وفناءٌ يقابلُهما حياةٌ مدى سنواتِ العمرِ.

وداعًا أبي

وفاةُ أبي كانتْ مِن نوعٍ خاصٍّ، لأنني رافقْتُه في الشهرِ الأخيرِ مِن عمرِه الذي قَضاه في المستشفى، عندَما وصلَني نبأُ مرضِه وأنَّ حالتَه خطرةٌ، ويرقدُ في المستشفى اتصلتُ به فورًا، وألححْتُ على أخي أنْ أسمعَ صوتَ أبي، وعلمْتُ بأنَّه لا يستطيعُ ولكنه فورَ أنْ عرفَ مَن على الطرفِ الآخرِ، كلَّمَني بصوتٍ ضبابيٍّ خافتٍ:

- ست زبيدة، أين أنتِ؟ لماذا بعدْتِ عني؟ تعالي بسرعةٍ.

زاغَ بصري وحطمَ صوتُه الواهنُ قلبي، هل هذا معقولٌ؟ أبي الرجلُ الذي عهدتُه قويًا وصلبًا يصبحُ باهتًا هكذا؟ ذهبتُ فورًا إلى شركةِ الطيرانِ لاستلامِ تذكرةِ السفرِ التي أرسلَها لي زوجي، ودونَ وعيٍ منّي انزلقتُ في الطريقِ على الثلجِ الذائبِ بفعلِ المطرِ الذي أخذَ يُذيبُ الجليدَ.

وكأنَّه يُشاركُني دموعي المنهمرةَ على وجهي، وقعتُ على ظهري، عدْتُ إلى بيتي أرقدُ على سريري مِن ألمٍ حادٍّ، وجاءتْ صديقتي لوداعي وعندَما شاهدَتْني على هذهِ الحالةِ، حاولتْ إقناعي

بتأجيلِ سفرِي، لكنَّني رفضتُ فأخذَتْ تدلِّكُ ظهرِي بكريمٍ مسكنٍ، وفي الصباحِ سافرْتُ.

وصلتُ ليلاً، وهالَ زوجي الذي استقبلَني على كرسيٍّ متحركٍ، وأخذَ يشرحُ لي خطورةَ حالةِ أبي، ورغمَ وصولي قبلَ منتصفِ الليلِ بقليلٍ فإنني أصررْتُ على أنْ أذهبَ فورًا مِن المطارِ إلى المستشفى لأرى أبي حتى لو كانَ نائمًا، الطريقُ كانَ طويلاً وكادَ قلبي يقفزُ مِن ضلوعي وأنا أستعجلُ زوجي ونقطعُ الإشاراتِ الضوئيةَ الحمراءَ ويدي ممدودةٌ بمنديلٍ أبيضَ علامةً على أنَّ هناكَ أمرٌ خطيرٌ.

وجدْتُ نفسي أجري إلى جناحِ أبي وكانَ وضعُ أبي الخطيرُ طيَّرَ وجعَ ظهرِي، وأصبحَ كلَّ همِّي أنْ أرى أبي الراقدَ على سريرِ الموتِ، صدمَني مظهرُ أبي المنهارُ للوهلةِ الأولى، وصُدِمْتُ مِن هذا التغيُّرِ الهائلِ خلالَ أقلِّ مِن شهرين، وأصررْتُ على نقلِه إلى مستشفى المدينةِ الجامعيِّ ليحصلَ على رعايةٍ أفضلَ.

كانَ بعضُهم جيرانًا وأصدقاءَ قبلَ أنْ أُهاجرَ، نقلتُه بسيارةِ الإسعافِ مِن تلكَ المدينةِ البعيدةِ إلى مستشفى الجامعةِ الكبيرِ، ووضعوه تحتَ رعايةٍ وعنايةٍ مكثفةٍ، بحكمِ معرفتي الوثيقةِ بأخصائيين لحالةِ أبي فيه.

أخذْتُ أطعمُ أبي بيدي كلَّ يومٍ، كانَ واضحَ الهُزالِ بعدَ أنْ فقدَ شهيتَه للطعامِ، وكنتُ وإخوتي نتبادلُ زيارتَه، وبما أنني المغتربةُ الوحيدةُ بينهم، وللعلاقةِ الحميمةِ بينَه وبينَ (الست زبيدة) التي طلبَ منه هارونُ الرشيدُ أنْ يُسمِّيني باسمِها، والتي جاءَتْه ليلةَ مولدي في

"الحلم"، لهذا وذاكَ كانَ يطلُبُني دائمًا أنْ أكونَ بقربِه وأطعمَه بيدي وأغنّي له كما كنتُ أغنّي لطفلي حتى يأكلَ كاملَ وجبتِه، ولكنَّ أبي كانَ يتناولُ القليلَ منه رغمَ كلِّ حِيَلي مَعه ولَهفتي على شفائِه، طمأنَتْني الممرضةُ بأنّه يعيشُ على الجلوكوز المربوطِ بأوردةِ ذراعِه التي جفَّتْ، وعندَما تمَّ نقلُه إلى المستشفى الجامعيّ اضطرَّتِ الممرضةُ أنْ تغزَّ له إبرةَ المغذّي في وريدِ رقبتِه، شعرْتُ بأنَّ روحَ أبي رُدَّتْ إليه، وأنَّ طبيعةَ أبي المحبِّ للحياةِ والمزاحِ تملَّكَتْه رغمَ وهنِه.

أخذَ يسألُ الممرضةَ الجميلةَ إذا كانتْ متزوجةً؟ أجابتْ بِلا، فقالَ لها هامسًا في أُذُنِها التي أصبحتْ قريبةً مِن فمِه، وهي تَغزُّ الإبرةَ في وريدِ رقبتِه:

- وعدٌ مِنّي سأختارُ لكِ عريسًا يليقُ بكِ وأزوِّجكِ فورَ أنْ أخرجَ مِن المستشفى.

تركتْه بعدَ أنْ جاءَ الممرضُ وأخذَه لعملِ أشعةٍ له قبلَ خروجِه، ذهبْتُ خلالَها إلى بيتِ أمّي القريبِ مِن المستشفى لمحاولةِ إقناعِ أخي بتأجيلِ سفرِه، ولمْ يتحملْ رؤيةَ أبيه القويِّ يتلاشى أمامَه، فغادرَ إلى المطارَ قبلَ أنْ أصلَ إليه.

عدْتُ إلى المستشفى، وجدْتُ عددًا كبيرًا مِن أفرادِ الأُسْرَةِ هناكَ، سألتُهم ماذا حدثَ؟ أجابوا بأنَّ نكسةً أصابَتْ أبي وهو في غرفةِ الأشعةِ، صرخْتُ ماذا يعني ذلكَ! أجابَ أحدُ أخوتي أنَّ أبانا أصيبَ بجلطةٍ دماغيةٍ غيرِ متوقعةٍ، فتحتُ البابَ الذي وقفوا أمامَه ليمنعوني مِن الدخولِ ورؤيةِ أبي في لحظاتِه الأخيرةِ، وعندَما رآني مدَّ يدَه

السليمةَ أمامَه ليمسكَ بي، ويدُه لا زالتْ مرفوعةً تشيرُ إليَّ جذَبَني أحدُ إخوتي بقوةٍ خارجَ الغرفةِ، شعرتُ بأنَّ أبي يستعينُ بي ويريدُ أنْ يكلِّمَني وهو يحتضرُ.

كانَ أبي أولَ إنسانٍ أراه يحتضرُ، ما أقسى قلوبَ الرجالِ حتى في الموتِ هناكَ تفرقةٌ بينَنا، لماذا إخوتي فقطْ مع أبي، وأنا وكلُّ النسوةِ حُرِمْنَ مِن ذلكَ، لماذا حَرَموني مِن الإمساكِ بيدِه التي مدَّها إليَّ مستغيثًا؟ كانَ هلعُهم في حضرةِ الموتِ قاسيًا عليهم فتعاملوا معي بفظاظةٍ، كنتُ أكثرَ هلعًا مِن أخي، ولكنني أكثرُ صلابةً وقتَ الشدةِ، والأقربُ إلى قلبِ أبي.

كنتُ أصرخُ وهمْ يدفعونني بقوةٍ ويقفلون البابَ في وجهِي، لمْ أشعرْ بمأساةِ روحي حتى صباحِ اليومِ الثاني في سريرِي بعدَ حقنةِ المهدِّئِ، التي حَقَنوني بها.

رغمَ فجيعَتي بكَ أبي، إلاَّ أنَّ أولَ شيءٍ خطرَ على بالي فورَ أنْ صحوتُ مِن نومي الثقيلِ والمليءِ بالكوابيسِ، هو أنْ أذهبَ لرؤيةِ مَن أوصَيْتَني عليهم: إخوتي الصغارِ.

تحامَلْتُ على نفسي وحملْتُها بصعوبةٍ إلى بيتِ أبي الذي لمْ يُدفنْ بعدُ، كانَ مِن الصعبِ عليَّ أنْ أدخلَ بيتَ أبي بعدَ أنْ تَلاشى مِنه إلى الأبدِ، ضغطْتُ على نفسي مِن أجلِ إخوتِي الأبرياءِ، كانتِ الصغيرةُ لمْ تتجاوزِ الخمسَ سنواتٍ مِن عمرِها البريءِ، تيتَّمَتْ قبلَ أنْ تتعرَّفَ على أبيها، وتنموَ في حضنِه، ولكنها كبرت وكبر معها إخوتها برعاية أمهم، وإرث أباها ودعم إخوتها.

جمعتُ الكبارَ مِنهم، فرِحْتُ لأنَّهم كانوا هادئينَ على غيرِ ما توقعتُ، لا أحدَ يبكي وكأنَّهم لمْ يفقِدوا أباهم بعدُ، قبَّلْتُهم وحضنتُهم جميعًا وطلبتُ مِنهم الوضوءَ والصلاةَ على روحِ أبي، جمَعْتُهم على شكلِ دائرةٍ صغيرةٍ على الأرضِ، وجلسْتُ أقرأُ لهمْ سورًا مِن القرآنِ الكريمِ، ثم أخذتُ أدعو لأبي، وطلبتُ مِنهم أنْ يردِّدُوا دعَواتي، قلتُ لهم إنَّ هذا هو أقلُّ ما نقدِّمُه لأبينا، أقلُّ ما نفعلُه مِن أجلِه، قلتُ لهم رحلَ أبونا وترَكَ لنا وصيةً "ولدٌ صالحٌ يدعو له"، ونحنُ جميعًا أولادُه.

طبعًا دُفِنَ أبي دونَ أنْ أحضرَ مراسمَ دفنِه لأنه مُحرَّمٌ علينا كنساءٍ أنْ نحضرُ مراسمَ الدفنِ، هذا ظلمُ العاداتِ وليسَ فرضًا فرضَه اللهُ علينا، دُفِنَ أبي في المقبرةِ نفسِها التي دُفنتْ فيها زوجةُ أخي الشابةُ، التي توفيَتْ ولمْ أعلمْ بوفاتِها إلاَّ بعدَ أسابيعَ، وهكذا تتساوى المرأةُ مع الرجلِ فقطْ عندَ الموتِ، المكانُ الوحيدُ الذي يجمعُهم هو الفناءُ، فيه فقطْ يتساوى الرجلُ مع المرأةِ.

في المهجرِ، اتصلتْ بي صديقةٌ تُخبِرُني بموعدِ دفنِ صديقةٍ لها جمعتْنا بها دروسُ لعبةِ البريدج، سألتْني: "أتذهبين مَعي؟" قلتُ لها: "نعم." قُدْتُ سيارتي وسرْتُ إلى بيتِها أخذتُها وذهبْنا إلى المقبرةِ الإسلاميةِ، وشاهدْتُ مراسمَ الدفنِ البسيطةَ وعندَما وُضِعَتْ في الصندوقِ الخشبيِّ المُحكمِ في الحُفرةِ الكبيرةِ التي أُعدَّتْ لها، هالَني منظرُ الفجوةِ التي أعادتْني إلى منظرِ حفرةِ أختي الصغيرةِ، بكيتُ بحرقةٍ رغمَ أنَّ كتابَ اللهِ في يدِي أقرأُ لها بعضَ آياتِه، وأخذَ أولادُها وزوجاتُهم يتساءلون مَن أكونُ؟

وداعًا أمي

آه يا أمّي، ما أمَرَّ رثاءَكِ! رثيتُ أعزَّ الصديقاتِ ورفاقِ دربِي، لكنَّ رثاءَكِ يا أعزَّ الناسِ وأكرمَهم وأقربَهم إلى قلبي بقيَ علقمًا في حلقي يا أمّي؛ فالقلبُ يكادُ لا يصدِّقُ، والوجدانُ متوترٌ، فكيفَ أجمعُ شتاتَ نفسي لأرثيك يا قرةَ عيني ونورَ حياتي.

في صباحِ الجمعةِ الموافقِ 2010/8/13 الثالث مِن شهرِ رمضانَ الكريمِ، فوجئتُ بولدي يفتحُ بابَ بيْتِي دونَ أنْ يطرقَه كما يفعلُ دائمًا، فجعتُ بمنظرِه، عيونُه حُمْرٌ كالجمرِ، بادرتُه بالسؤالِ وهو يبكي:

- هلْ أخوتُكَ بخيرٍ؟
- نعمْ يا أمّي.

عندَها صِحْتُ في وجهِه:

- ماذا حصلَ إذنْ؟ طمِّني يا حبيبي، على مَن تبكي يا ولدِي؟

لمْ يخطرْ ببالي قطُّ أنَّه يبكي عليكِ يا أمّي، لأنني كنتُ أعرفُ أنكِ بخيرٍ، وتنتظرينَ زيارتي كعادتِكِ.

قالَ لي ابني وهو يشهقُ ويحضنُني بقوةٍ:

- تيتا ماتَتْ.. تيتا ماتَتْ.

أصابَني الهلعُ وأخذتُ أهزُّه بهستيريا:

- هذا غيرُ صحيحٍ، مِش ممكن، تيتا بخيرٍ، لقدْ كلمتُها ليلةَ أمسٍ وكانتْ نائمةً، الكلُّ طمأنني عليها يا ولدي.

حاولْتُ الاتصالَ بِكِ لأعَيد عليكِ بحلولِ شهرِ رمضانَ المباركِ، أجلْ يا أمِّي، لكنَّ الجوابَ كانَ يأتِيني دائمًا أنكِ نائمةٌ، وكالعادةِ لمْ أطلبْ مِن يوجا السيريلانكية إيقاظَكِ مِن نومِكِ خوفًا عليكِ، طمأنَتْني أختي عندَما قالتْ لي إنَّ صوتَكِ في اليومِ الأولِ مِن رمضانَ كانَ رائعًا وواضحًا للمرةِ الأولى، كما طمأنَتْني زوجةُ أخي يومَ خابرَتْكِ يا أمِّي لأعيِّدَ عليكِ، حتى يوجا خادمَتِكِ قالتْ لي إنكِ بخيرٍ، وعندَما قلتُ لها إنَّ أمِّي لا تنامُ مبكرًا أجابتْ بأنكِ يا أمِّي تشعرين براحةٍ أكثرَ في سريرِكِ بسببِ ألمٍ في رقبتِكِ.

أمِّي يا حبيبتي، لقدْ غيَّبَكِ الثرى عنِّي إلى الأبدِ دونَ أنْ أكونَ إلى جانبِكِ، وهذا ما كنَّا نخافُه نحنُ الاثنتين، لقدْ وعدْتِني يا أمِّي أنْ تنتَظري عودَتي، لماذا تعجَّلْتِ رحيلَكِ يا أمِّي، ولماذا لمْ تنتظرِيني كالعادةِ؟ لقدْ وعدْتِني أنْ أرتميَ في حضنِكِ وأقبِّلَ يديكِ الطاهرتَين فورَ عودَتي القريبةِ إليكِ.

آه يا أمِّي! هل الموتُ سبقَني إليكِ أمْ أنكِ استعجلْتِ الرحيلَ؟ تمنيْتُ لو دفنْتُ معكِ حيَّةً لأؤنسَ وحدَتَكِ يا أمِّي، ما يعزِّيني يا حبيبتي أنكِ لمْ تتعذَّبي، صعدتْ روحُكِ الشفافةُ إلى بارئها دونَ ألمٍ بهدوءٍ وسكونٍ، ما يعزِّيني يا أمِّي أنَّ اللهَ اختاركِ إلى جوارِه في يومٍ يبشِّرُ عبادَه بالجنةِ، في أولِ يومِ جمعةٍ مِن شهرِ رمضانَ المباركِ لأنكِ يا أمِّي مِن القديسين وأولياءِ اللهِ، ما يعزِّيني يا ملاكِي يا قدِّيستي أنكِ بإذنِ اللهِ تنعُمين بجنةِ الخلدِ، إنَّا للهِ وإنَّا إليه لراجعون.

آه يا أمّي! أشتاقُ إليكِ، خيالُكِ أمامي في صَحْوي ومَنامي، كيفَ تتركينَني دونَ أنْ تودِّعيني؟ كنتِ تَسهرين ليلةَ سَفري حتى بعدَ منتصفِ الليلِ لتَودِّعيني، كيفَ خانَني قلبي ولمْ أشعرْ بأنكِ تستعجلين رحيلَكِ بعدَ أنْ سافرَ آخرُ زوارِ الصيفِ مِن أحبائِكِ؟ لماذا استعجلتِ رحيلَكِ يا أمِّي يا حضنًا أشتاقُ إليه، وأتلهفُ على احتضانِه لأشدَّكِ إلى قلبي، كنتِ تنهرينَني يا أمِّي قائلةً: "بَسْ يا حبيبتي، أنتِ تعصرين عظامي". أمِّي يا ملاكي، يا مَن ضحيتِ بكلِّ شيءٍ مِن أجلِ إسعادِ الآخرين، أمِّي، لمْ يحملْ قلبُكِ الطاهرُ بغضًا لأحدٍ، بل حبًّا للجميعِ حتى لِمَن آذوْكِ يا أمِّي وسامحْتِهم، لقدْ أحبكِ كلُّ مَن عرفَكِ، رحيلُكِ مِن حياتي سيبقى قاسيًا ومُرًّا، بعضٌ مِن الأهلِ قالَ لي:

- احمَدِي ربكِ، أمُّكِ ماتتْ بسلامٍ، لقدْ شبعتْ أمُّكِ مِن الدنيا وشبعْتِ أنتِ مِنها.

فقدانك علقم

آه يا الهي! هل مِن الممكنِ أنْ تشبعَ الابنةُ مِن أمِّها؟ شكرًا يا ربي أنكَ توفَّيتَ أمِّي بسلامٍ، كانَ يَحُزُّ في نفسي يا أمِّي أنَّهم لمْ يفكروا بأولادِكِ المغتربين الذينَ يَودُّون وداعَكِ، لذا يا أمِّي أكادُ لا أصدِّقُ أنَّ عمرَكِ انتهى، هلْ قررْتِ الاَّ تنتظريني يا أحبَّ الناسِ؟ لماذا يا أمِّي؟ ألمْ تسألي زوجةَ أخي عن موعدِ زيارتي في آخرِ ليلةٍ مِن عمرِكِ الجميلِ؟ وأجابتْكِ كما أخبرتْني على الهاتفِ بعدَ رحيلِكِ المفاجئِ، بأنَّكِ لم

تسـأليني، وطمأنتِها بـأنّني سأحضـرُ قريبًـا، لأنّـه حـانَ موعدُ زيـارتي السنويةِ لها أجابَتْكِ: "اللهَ يرضى عليها". رفضتُ أنْ أوقظَكِ مِن نومِكِ يـا أمِّـي. آه يـا أمِّي! ليتَني فعلْتُ، حتـى أسمعَ صوتَكِ وأطمئنَكِ بـأنَّني قادمةٌ إليكِ قريبًا يا أمّي. الله! يا أمي، ما أروعَ رضاكِ عليَّ في آخرِ ليلـةٍ مِـن عمرِكِ قبلَ رحيلِكِ بسـاعاتٍ! أمِّـي يـا قِدّيسـتي، هـل قابلْـتِ أحبّاءَكِ الذين سبقوكِ: أمَّكِ وأباكِ وأخاكِ وزوجكِ ورفيقةَ عمرِكِ أختَكِ التي أحببناها مِن أجلِكِ، رحمَهم اللهُ ورحمَكِ يا أمِّي.

شكرًا لكِ على كلِّ ما علمْتِني وربَّيْتِني، شكرًا على كلِّ ما قدمْتِه لنا مِن حبٍّ وحنانٍ ورضًا يا أعزَّ الناسِ.

وداعًا يا أمِّي، وداعًا يا مَلاكي، إلى جنةِ الخلدِ التي تستحقين يا أمّاه، وداعًا حتى نلتقي ثانيةً ونتعانقَ أرواحُنا في السماءِ، وداعًا يا أغلى الناسِ، ما أروعَ رضـاكِ عليَّ يا أمِّي وأنا التي لا أريدُ مِن الدنيا سوى رضاكِ، لأنني أقدِّسُ رضا الوالدين خاصةً رضاكِ يا أمِّي، وفي آخرِ ليلةٍ مِن عمرِكِ الغالي أهديتِني إيَّاه يا أمِّي، ومنذُ رحيلِكِ وكلَّما انهزْتُ بكاءً عليكِ تذكرتُ سجاياكِ يا قديستي، وتذكرْتُ رضـاكِ علـيَّ فيصيبُني بعضُ السكونِ، وأبدأُ بالدعاءِ عسى أنْ يخفِّفَ دعائي حزني ومصابي.

العودة إلى يافا

هدية إلى أمي

فـي الـذكرى الأولـى لرحيلِكِ يـا أمِّـي كتبتُ لكِ ذكرى مِن يافا، مدينتِكِ الأحبِّ إلى قلبِكِ: خافتْ أمِّـي علـى أطفالِها، عندَما اجتاحَتْ مدينةَ يافا، عصاباتُ الموتِ والهاجانا:

قبل أكثر من خمسين عاما

انـهمر الرصاص داخلِ بيتِنا الكبير

الرحب الجميل

تراكض الأطفال هلعًا

يتسابقون إلى حضن أمهم

كانوا في مرح يلعبون

في حديقة دارهم يتسلقون

أشجار الليمون والبرتقال

تظللهم شجيراتِ الورد

يدغدغهم الياسمين يستنشقون منه عطر الأرض

فجأة.. أرعبهم صوت أزيز الموت

ورصاص العوزي وقنابل الهاون

تركوا لهوهم وفرحهم وتسابقوا إلى حنان أمهم

خبأتهم في الحضن كعش العصافير
أغلقت الباب بالمفتاح
وخيَّمت عليهم بجسدها النحيل
كحمامة تدفئ بيضها وتهدئ من روعهم
وتروي لهم أغاني التراث الأصيل وقصص الجدات
نبضاتها تعلو كلما اهتزت الدار
وَتكسَّر الزجاج..
تحضن صغارها أكثر وأكثر
تحميهم من رعب المكان
الذي كان آمنًا ومليئًا بالدفء..
وأصبح هدفًا للموت.. ومرتعًا للخراب
ثم جاءهم خبر الرحيل
إلى مستنقعات مخيمات اللاجئين
ورغم هذا الزمن الطويل
كبر الأطفال يا يافا
لكنهم ظلوا يرتحلون
من قارة إلى قارة
ومن مدينة إلى مدينة
تكلموا لغات شتى.. وعاشوا غرباء
لكن حبهم الأول
ظل يعشش في حنايا
حكايات الأم لصغارها.

الزجاجة الحمراء

كانتْ (الست زبيدة) في مهمةِ عملٍ في مدينةٍ تقعُ على أحدِ شواطئِ البحرِ الأبيضِ المتوسطِ، اختارَتْ عشَّةً خشبيَّةً ضمنَ عششِ الفندقِ المنتشرةِ على شاطئِ البحرِ مباشرةً، قضَتْ فيها أسبوعًا كاملاً، استعادَتْ خلالَها أحلامَ طفولتِها، وعشقَها للبحرِ وهديرَ أمواجِه، وضوءَ القمرِ الذي اكتملَ نورُه فأخذَتْ أمواجُ البحرِ تتوارى خَجِلَةً مِنه.

وجرفَها الحنينُ إلى يافا وبيتِ الشاطئِ، الذي كانتْ تقفزُ مِن درجِ بيتِها الرخاميِّ ثم يسارًا إلى بضعِ درجاتٍ حجريةٍ، تصبُّ في رحابِ البحرِ، ويشدُّها فضاؤُه ونورُه.

كتبَتْ للبحرِ ولأهلِ يافا الباقين، كلماتٍ ضفَّرَتْها برحيقِ روحِها، وشوقِ قلبِها وحنينِ فؤادِها، تبعثرَتْ حروفُها دموعًا مِن حريرٍ، ونثرتْها قصيدةً طويلةً على ورقِ الفلِّ، وحشرَتْها في زجاجةٍ حمراءَ بلونِ دمِها، وضعتْ فيها نبضاتِ قلبِها، وأحكمَتْ إغلاقَها بفلِّينَتِها داخلَ عنقِها، لوَّحَتْ بها عاليًا بذراعِها عدةَ مراتٍ، ورمتْها بعيدًا، بأقصى ما استطاعَتْ دفعَها إلى بعدٍ سرمديٍّ شقَّ عبابَ البحرِ، وهي تصيحُ بأشواقِ صوتِها:

- باسمِ اللهِ وبركاتِه أدفعُ إليكِ يا يافا شَوْقي في رسالةٍ، حبكَتْها عيوني، ونسجَها قلبي بدموعِ روحي، تتماوجُ مع أمواجِ البحرِ، رسالةٌ مُعطَّرةٌ بحنينِ شوقي ونبضِ فؤادي.

راقبَتْ زجاجتَها التي انطلقتْ كالصاروخِ تغُبُّ الموجَ، مندفعةً بشوقٍ هائجٍ على موجٍ يتلألأُ بزبدِ البحرِ وترعاه رموشُ القمرِ، فجأةً شاهدَتْ أكبرَ طيورِ البحرِ يحتضنُ رسالتَها ويُطبِقُ عليها بجناحيْه، ويطيرُ بها في عُرضِ البحرِ بمحاذاةِ شاطئِ البحرِ الأبيضِ المتوسطِ، تحيطُه كوكبةٌ مِن الطيورِ، تزفُّه في موكبٍ مهيبٍ إلى بحرِ يافا وعروسِه التي تنامُ على ضفافِه الحانيةِ، وتنتظرُ شوقَها بشوقٍ أكبرَ مِنه.

ستبقى يافا على البالِ لأنَّها تعيشُ في قلوبِ اليافاويين، بزَهْوِها وسنائِها ورائحةِ زهورِ ليمونِها وبرتقالِها الشهيرِ، يَنْبشون في عمقِ ذاكرةِ مَن بقيَ مِنهم على قيدِ الحياةِ، يُجسِّدُونَه مِن جديدٍ حيًّا نابضًا متألقًا في أعراسِهم وأمسياتِهم الفنيةِ بما فيها "**يافا عالبال**".

أمسيةٌ لا تُنسى أثارتْ الشجنَ وربطَتِ الأجيالَ برباطِ حبٍّ واحدٍ وفرحٍ دائمٍ.

يُجسِّدُون يافا في أفراحِهم ولقاءاتِهم وحياتِهم اليوميةِ، يتألَّقون بها في مسرحياتِهم ونكاتِهم وأمثالِهم الشعبيةِ، يتوارثون قِصصَها ويُحاكون تاريخَها الشفويَّ، تتوهَّجُ يافا مِن جديدٍ في أفلامَ وكتبٍ وثائقيةٍ، ولوحاتٍ فنيةٍ تؤجِّجُ القلبَ بشوقٍ عارمٍ وحنينٍ دائمٍ، يافا تَجذُّرٌ وامتدادٌ يتوارثه الأحفادُ عن الأجدادِ، ينبشون في عمقِ الذاكرةِ الوطنيةِ ويجسِّدُونه تراثًا ثريًا ببهاءٍ وسناءٍ، أذوبُ في هذا السناءِ وتغرِّدُ روحي في أعالي السماءِ مبتهلةً:

يافا ما زالت تلتحف القمر.. وتزهر بأوراق الشجر..
برتقالها وليمونها.. مندلينها ويوسفها..
وألوانها تغرد بشمس تضيء بياراتها..
وتفرد الأصفر والبرتقالي والأخضر والأحمر والبنفسجي
بضياء سرمدي..
تتعانق الأغصان والألوان فيها..
ترسم ما بين سمائها وبحرها قوس قزح.
صورة تنبثق من عمق الوجدان..
أتلمسها بحنان..
وتغرد شجرة ياسمين بيضاء،
تناغش أختها الغزاوية الصفراء..
من بحر إلى بحر..
ويزغرد فؤادي.. ويتعالى الفرح فيه..
وتهيم روحي بأهداب الحياة.. ويحنين قلبي.. ونبتة عمري.
وأناديها بأعلى ما في حنجرتي من شجن:
يافا... أنت والله... أنت والله عالبال..

زيارة يافا

بعدَ زمنٍ قاربَ الأربعينَ عامًا، زرْتُ مدينةَ يافا القديمةَ: بيوتَها ومتاجرَها ومَصابِنَ/مصانعَ الصابونِ النابلسيِّ، ومساجدَها وحماماتِها التركيةَ الشهيرةَ وكنائسَها بمِعمارِها ورخامِها المميزِ، وشاهدْتُ

قصورَها وبيوتَها التي تحوَّلتْ إلى مزاراتٍ سياحيةٍ، وسكنَها يهودٌ أوروبيون، سَرقوا حَوانيتَها الأنيقةَ، وتراثَها وصناعاتِها اليدويةِ الأصيلةِ والثمينةِ، ونسبُوها لأنفسِهم، وأصبحتْ ملكًا لهم بأرضِها ومبانِيها وأشجارِها وتراثِها وآثارِها الممتدةِ بعمقِ التاريخِ، وحوَّلوا جوامعَها إلى باراتٍ ومقاهٍ.

زرْتُ يافا فورَ حصولي على الجوازِ الأجنبيِّ، وذلكَ عندَما عملْتُ مع المؤسسةِ الكنديةِ لصناعةِ الأفلامِ الوثائقيةِ.

أجلْ، بعدَ سنواتٍ عجافٍ مِن سنينِ القهرِ والغيابِ كنتُ أحقِّقُ حلمَ عمرِي، لمْ أكنْ أصدِّقُ أنني في يافا، وبدأتُ البحثَ مع المخرجِ الكنديِّ عن بيتِ أحلامِي؛ بيتِ الشاطئِ في مدينةِ يافا، قضيتُ خلالَها أيامًا بلياليها مسهَّدةً ومرهَقةً مِن البحثِ الذي طالَ ولمْ أعثرْ عليه، ولأنني مؤمنةٌ بأنَّ للهِ عبادًا إذا أرادوا أرادَ، ولأنني أردتُ بكلِّ ما أملكُ مِن قوةِ الإصرارِ والتصورِ أنْ أجدَه.

وجدْتُ شابًّا يافاويًّا يعملُ في بلديةِ يافا كمسؤولٍ عمَّا يُسمَّى بالترميمِ الاجتماعيِّ، قالَ لي إنَّه يعرفُ المكانَ، لأنَّه أحبَّ أنْ يشتريَه ولكنَّ ثمنَه كانَ فوقَ طاقتِه، ثمَّ اشترَتْه أستاذةٌ في الجامعةِ العبريةِ بربعِ مليونِ دولارٍ، أخذَني سيرًا باتّجاهِ البيتِ، حُمْتُ حولَه لمدةِ ثلاثةِ أيامٍ دونَ أنْ أجدَه! وأخذَ يحدِّثُني، وأنا أحثُّه على السيرِ لنصلَ إلى بيتي:

- تعرفْتُ على موقعِ بيتِكِ مِن وصفِكِ الدقيقِ له، خاصةً دَرَجَه الرخاميِّ.

تأكدْتُ حينَها بأنَّه يعرفُ بيتي، "بيت الشاطئ" الذي بمجرَّدِ أنْ قلتُ له إنَّ بابَه على طرفِ الدارِ، ودرجِه الرخاميِّ الرماديِّ المائلِ للفضيِّ، أجابَني فورًا بأنَّه عَرَفَه لأنَّه الوحيدُ في المنطقةِ الذي له درجٌ مِن الرخامِ.

كانَ يحدِّثُني وأنا أغذُّ السيرَ، جزءٌ صغيرٌ مِنّي مُنصِتٌ، وكُلّي صوبَ الطريقِ التي يوجِّهُني إليها: يمين.. يسار.. دوغري.. حتى وصلْنا فوقَ التلةِ، كنتُ أسيرُ هنا وهناكَ مسلوبةَ الإرادةِ أنفِّذُ ما يقولُه وأفكاري تنهلُ مِنها روحي وتحرِّرُها مِن عمقِ الزمانِ وعَبَقِ الذاكرةِ، أخذْتُ أحدِّثُ نفسي حتى يهدأَ شجنُ روحي مردِّدَةً بصوتٍ مسموعٍ: اهدئِي يا الست زبيدة، صبرْتِ كثيرًا وما بقيَ سوى القليلِ، ركِّزي على المكانِ، أنتِ في حلمِ عمرِكِ الذي تحقَّقَ، لا تلهثي، اهدئِي وغُذِّي السيرَ، سوفَ تستَعيدينَ كلَّ ما فقدْتِه مِن حرمانِ وظلمِ الإنسانِ الذي استباحَ بيتَكِ وبحرَكِ ورملَكِ وشاطئَكِ وأرضَكِ ووطنَكِ.

أخذْتُ أحاولُ جمعَ شتاتِ روحي، أصبُّها في مكمنِ القلبِ حتى تحضرَني الحكاياتُ وحواديتُ جدَّتي وعمَّتي وعمّي وخالتي وأمّي وأبي، زادَ لهيبُ شوقي عندَما أشارَ مُرافِقي إلى المكانِ، دهشْتُ مِن خلوِّه، أينَ الزُّقاقُ؟ أينَ بيوتُ الجيرانِ؟ أينَ المَصاطبُ التي كُنّا نجلسُ عليها؟ أينَ أبوابُ البيوتِ التي كنّا نطرُقُها بأكُفِّنا الصغيرةِ لأنَّنا لا نستطيعُ أنْ نصلَ إلى المطرقةِ الحديديةِ المُعلَّقةِ؟ أينَ أسوارُها التي كانتْ تتدلّى مِنها أقاصيصُ الياسمينِ والفلِّ؟ أينَ غليانُ الحيِّ بأطفالِه ومناداةِ الباعةِ في هذا الزقاقِ؟ أين؟ وأين؟ وأين..

كلُّ ما رأيتُه عن بُعْدٍ كانَ صمتًا وخواءً وخرابًا، بيتي الجميلُ أصبحَ متآكلاً، نوافذُه مغلقةٌ وشرفتُه التي نِمْتُ فيها مع إخوتي لنشاهدَ المسحراتيّ وهو يطرقُ بطَبْلَتِه ويصيحُ بصوتِه الجَهْوَرِيّ: اصحى يا نايم.. وحِّد الدايم.

كيفَ صَغُرَ حجمُ الشرفةِ التي كانتِ تسَعُنا كلَّنا؟ أينَ لونُ بِروازِها الحديديِّ وخشبِها اللامعِ؟ بيتي لَمْ يَعُدِ الحلمَ الذي عشْتُ فيه أجملَ ذكرياتِ طفولتي البريئةِ، الحلمُ الذي لَمْ يتأثَّرْ بالزمانِ ولا بِبُعْدِ المكانِ.

زادَتْ طرقاتُ قلبي، سمِعَها مَن حولي مع لهاثِي وأنا أصعدُ التلةَ، وجسَّدَ خيالي صورًا تتدفَّقُ أمامي وتؤجِّجُ روحي: صورةُ عروسِ البحرِ، وبرتقالِ يافا التي سكنَتْ قلبي حتى الآنَ، ذِكرى خمسِ سنواتٍ مِن عمري عشتُها فيها، وغذَّتْها أمِّي وأبي وإخوتي بذكرياتِهم التي عاشوا فيها أزهى سنواتِ عمرِهم؛ فأصبحَتْ يافا تنامُ معي، وتصحو معي، وتأكلُ معي، راعَني عنفوانُ الطفلةِ التي كُنْتُها وقوةُ تأثيرِ الروحِ على النفسِ وفوْرةِ الذاكرةِ كلَّما اقتربْتُ.

رغمَ غشاءِ عيني التي أعياها ضياءُ الشمسِ، فإنني فورَ أنْ شاهدْتُ البيتَ عن قربٍ، شعرْتُ أنَّ قلبي سيَفِرُّ مِن صدري يسبقُني إليه، جفَّ ريقي واختنقَ صوتي وأخذْتُ أحثُّ قدميَّ المُرتَجِفتَين، وذراعايَ يلُفَّانِّي ويَضُمانِّي لتهدئةِ قلبي الذي أخذَ يهمسُ بصوتٍ مسموعٍ:

- هدِّئي مِن روعِكِ، تكادين تَقطفينَ ثمارَ شوقِ سنواتِ البُعدِ والحرمانِ، وعناءِ ثلاثةِ أيامٍ بلياليها في البحثِ عن حلمٍ عاشَ فيكِ سنواتَ عمرِكِ.

رغمَ المنظرِ المُهترِيء الذي بدأ يزيحُ الغشاوةَ عن عينيَّ، أخذْتُ أجري بكلِّ ما بقيَ لي مِن قوةٍ ورباطةِ جأشٍ، وكأنَّني طفلةٌ في الخامسةِ مِن عمرِها، عادَتْ روحي وعادَ شَبَقي إلى الحياةِ، وتمنَّيْتُ تلكَ اللحظةَ أنْ أعودَ طفلةً مِن جديدٍ وأنْ يعودَ أهلي وأصحابي.

تسارعَ نبضِي أكثرَ وأُصِبْتُ بحالةٍ مِن الجَيشَانِ والتوتُّرِ، شعرْتُ بضيقِ نَفَسِي وإغماءٍ يُراوِدُ روحي ورجفةٍ تهزُّ أطرافِي، سجَّلَها المخرجُ الكنديُّ بعدستِه التي كانتْ بصحبتِه، سجَّلَ انفعالاتِي بعدَ أنْ تأكدْتُ بأنَّني أرى شيئًا مِن بيتي، ومِن طُفولتِي تقترِبُ مِنّي أكثرَ وأكثرَ.

بمجرَّدِ أنْ دفعَ مُرافِقي البابَ، صكَّ أُذُني صوتٌ عتيقٌ ثقيلٌ: (زيييييك)، وشاهدْتُ الدرجَ الرخاميَّ الذي كنتُ أتزحلقُ عليه وأنا طفلةٌ، الركامُ والأوساخُ تُغطِّيه مِن أولِ دَرَجةٍ إلى آخرِ دَرَجةٍ وَصَلناها بصعوبةٍ، ومُرافِقي الشهمُ يزيحُ أكوامَ الحجارةِ ليُفسِحَ لقَدَمي المُرتجفةِ الصعودَ إلى المَصطبةِ، فوجِئْتُ بأنَّ الدرجَ صغيرٌ ومرتفعٌ ومَصطبتَه التي كنتُ أرتمي على رُخامِها البارِدِ وأنا أُنَهْنِهُ بالبكاءِ حتى تُشفِقَ أمِّي عليَّ وتفتحُ لي البابَ لأجري وراءَ إخوتي إلى البحرِ.

رَكِبنـي الحزنُ فجأةً وأنا أحاولُ الصعودَ على الدرجِ؛ الحجارةُ وبواقي دمارٍ حلَّ على البيتِ، اندفعَ قلبي مِن صدرِي بعدَ أنْ جفَّ حلقي، ولمْ أعدْ أستطيعُ النطقَ، دفعْتُ البابَ بجسدِي الذي ارتمى عليه، سحبَني مُرافِقي إلى الوراءِ، وجمدْتُ في مكاني.

بعدَ البابِ بخطوةٍ كانَ هناكَ حفرةٌ كبيرةٌ استقبلَتْ شَوْقي، وكأنَّ قنبلةً أصابَتْ أرضَ مدخلِ الصالةِ وفتحَتْ فيها هوَّةً كبيرةً حرمَتْني

مِن تحقيقِ حُلُمي بالدخولِ إليه واللهفةِ إلى دوشكِ جدَّتي وأقفاصِ صِيصاني وأرنَبي، انهَرْتُ أبكي، هلْ أبكي على حطامِ بيتي؟ أمْ حُلُمي الذي عاشَ في روحي وفؤادي سنواتِ عمرِي، وفجأةً تحطَّمَ على صخرةِ الواقعِ المُرِّ، جريْتُ إلى البحرِ ودموعِي تُغرِقُ وَجهي، ثمَّ عدْتُ ثانيةً على أملِ أنْ أرى ساحةَ البيتِ الذي فررْتُ مِنه هاربةً مِن خلالِ فتحةِ المَصطبةِ.

عندَما وصلتُ أعلى درجاتِ السلمِ الرخاميِّ، نظرْتُ إلى ساحةِ البيتِ مِن فتحةِ المَصطبةِ التي أخذْتُ أرسمُ صورَ الماضي عليها عندَما كانَ سورُ المَصطبةِ مَرصوصًا بأوانٍ خزفيةٍ تُثبِتُ فيهم أمِّي الوردَ والفلَّ والياسمينَ، رفعْتُ رأسي عاليًا وثنيْتُ رقبتي لأشاهدَ ساحةَ سطحِ البيتِ، تصلَّبْتُ في مكانِي عندَما طلَّتْ عليَّ دجنونةٌ حمراءُ منتصبةٌ على سطحِ بيتِنا، تمامًا عندَ سورِ البئرِ على طرفِ ساحةِ الدارِ.

يا إلهي! زهرَتي المفضلةُ؛ شقائقُ النعمانِ/الدحنونةُ الحمراءُ تبتسمُ لي لتؤكِّدَ أنَّها لا تزالُ هنا، سكنَتْ روحي لهذا المنظرِ الذي أطلَّ مِن الخَرابةِ، وشاهدْتُ أيضًا على يمينِ المَصطبةِ ساحةَ بيتِ الجيرانِ الذي كانتْ صاحبتُه الأقربَ إلى أمِّي مِن بقيةِ الجيرانِ بحُكْمِ التصاقِ البيتين، تُنادي عليها أمِّي مِن المكانِ نفسِه الذي أقفُ فيه تَدْعُوها لشربِ فنجانِ قهوتِها الصباحيِّ معها، كانَتْ هذهِ الجارةُ المقربةُ مِن أمِّي، هي المسيحيةُ الوحيدةُ التي تسكنُ حَيَّنا، وكانتْ تربِطُها بأمِّي رابطةُ محبةٍ مِن نوعٍ خاصٍّ.

بيتُ الأحلامِ الذي نَبَتَ مِنه اسمِي المُرَكَّبُ أصبحَ خرابةً تسكنُها القططُ والفئرانُ وباقي الحشراتِ، لمْ يسمَحوا لِمَن سكنَه بعدَنا مِن العربِ أنْ يُرمِّمُوه، وبعدَ أنْ اشترَتْه امرأةٌ يهوديةٌ مِن أملاكِ الغائبِ التي استولَتْ عليهم المؤسسةُ الصهيونيةُ، سَمَحوا لها بالترميمِ

المُهِمُّ أنَّه بقِيَ موجودًا رغمَ أنفِهم، ورغمَ أنفِ الزمانِ والإهمالِ، لقد استطاعوا تغييرَ معالمِ المنطقةِ والمدينةِ بكاملِها، ولكنَّهم لَمْ يستطيعوا اقتلاعَ بيتِ الشاطئِ بالبلدوزر كما فعلوا بأغلبِ بيوتِ الشاطئِ، بقيَ بيتُنا وبيتُ الجيرانِ الذي كانتْ أمِّي تتحدَّثُ مع صاحبتِه مِن بَسْطَةِ الدرجِ التي تطلُّ على ساحةِ بيتِها وشاهدَتِ العُمَّالَ يُرمِّمون البيتَ لليهوديِّ الذي اشتراه، وسألَتْهم عن أصحابِ البيتِ الأصليين، فقالوا: رَحلوا مِن زمان.

كلُّ مَن رأى مشهدًا مِن مشاهدِ الفيلمِ الوثائقيِّ الذي صوَّرَه المخرجُ الكنديُّ، بكى على منظرِي وأنا أبحثُ بلهفةٍ وشوقٍ عن بيتي، ترقرقَتِ الدموعُ في مآقِيهم على صَدْمَتي وانهيارِي لحظةَ رؤيتِي دمارَ البيتِ مِن الداخلِ، وعندَما زرْتُ يافا مع ولَدي لأُرِيَه بيتَ الشاطئِ، حاولَ أنْ يشترِيَه، لكنَّ قوانينَهم المجحفةَ وقفَتْ حائلاً بيننا وبينَ ذلكَ، بَلَّغْنا بأنَّنا لا نملكُ الحقَّ بشرائِه لأننا لسْنا يهودًا، وبالتالي لا يحقُّ لنا العودةُ إلى يافا، شاهدْتُ مع ولدي بيتًا كبيرًا على مرمى البصرِ مِن بيتي رُمِّمَ بطريقةٍ حديثةٍ وجميلةٍ مع الاحتفاظِ بطابعِه التراثيِّ المعماريِّ الفلسطينيِّ تحوَّلَ إلى شُقَقٍ صغيرةٍ، ذهبْنا نستطلعُ الأمرَ وفوجِئْنا بأنَّ سكانَه كنديون يهودُ.

الجنة

وما أدراكَ ما الجنةُ! هي طبيعةُ الخالقِ العذراءِ التي يغمرُها دفءُ الشمسِ، وروعةُ شروقِها وسحرُ غروبِها، في كلِّ الفصولِ، الجنةُ هي تأمُّلٌ عميقٌ بالطبيعةِ المقدَّسةِ بنورِ اللهِ، عِشْتُها بحواسّي في زيارتي لمدينتي الحبيبةِ يافا بعدَ غيابٍ زادَ عن الأربعينَ عامًا، أخذَتْني بعيدًا عن ضجيجِ الحياةِ ورنينِ التليفوناتِ وأخبارِ محطاتِ التلفزيون، ركَّزْتُ على تأمُّلِ الطبيعةِ وسمحْتُ لأصواتِها فقطْ أنْ تنسابَ في حواسِّي برفقٍ، فأخذَتْني بعيدًا إلى نورِ اللهِ وملكوتِه.

سأَصِفُ لكم الجنةَ التي وجدْتُها في سماءِ الكونِ ومِن شعاعِ البحرِ، أجلْ، وجدْتُها في شاطئِ العجميِّ في يافا الذي أجَّجَ مشاعرِي، وأعادَ لي ذكرياتِ طفولتي.

ينفردُ هذا الشاطئُ بسَعَتِه وعمقِ بحرِه، وصفاءِ سمائِه، ودفءِ مائِه ورملِه الذي يُنقِّيه البحرُ عبرَ مساماتِ صخورِه، ويقذفُها الموجُ كلَّ صباحٍ على الشاطئِ، كُنَّا نغرِزُ أصابعَنا الصغيرةَ فيه ونتمتَعُ برخاوته ونغماتِ صوتِه.

وجدْتُ الجنةَ بعدَ عناءِ البحثِ ووجعِ الروحِ، وجدْتُها منفتحةً على الطبيعةِ مِن جميعِ جوانبِها، بعدَ أنْ سُحِقَتْ مِن الوجودِ كلُّ البيوتِ المحيطةُ بشاطئِ العجميِّ إلاَّ بيتَنا الذي أصبحَ خرابةً، اشترَتْه أستاذةٌ جامعيةٌ يهوديةٌ، ستعيشُ فيه لأنَّ موقعَه ساحرٌ، يطلُّ على الجنةِ التي صنعَها خيالي ليعوِّضَ صدمةَ الحلمِ، كانَ شاطئُ

العجميِّ يؤجّجُ مشاعرَ سكانِ الحيِّ بالحبِّ والتوادِّ والرحمةِ ويوهِّجُهم دفءُ الشمسِ وحفيفُ أوراقِ الشجرِ وخريرُ الموجِ عندَما يسترخي وينامُ، كانَ يبثُّهم سكينةً سرمديةً تهيمُ بهم في بحرٍ مِن الأمانِ والحبِّ والسلامِ.

ما هي الجنةُ؟ هلْ شاهدَ أحدُكم الجنةَ؟ لقدْ وجدتُها وأستطيعُ أنْ أُوجِزَها ببضعِ كلماتٍ، الجنةُ هي النعيمُ والسكينةُ وهدوءُ النفسِ وراحةُ البالِ، هي الطبيعةُ البِكْرُ والخشوعُ والصلاةُ والتأملُ، هي شروقٌ يشعُّ نورًا، الجنةُ هي شعورٌ خاصٌّ يفوقُ الوصفَ، يتأوَّهُ في أعماقِ القلبِ والوجدانِ، الجنةُ داخلَ كلِّ إنسانٍ فينا، تستفِزُّنا في تأمُّلِنا طبيعةُ الخالقِ وتنسابُ في أعماقِنا، نعيشُها بقلبٍ مفتوحٍ على مصراعيْه للحياةِ.

يا اللهُ يا صاحبَ النورِ ما أروعَكَ! جعلْتَ البحرَ الهادرَ يرفُلُ بهدوءٍ ساحرٍ ويسمحُ لمراكبِ الصيادين أنْ تتماوجَ مع أنغامِ أغاني البحرِ، فيجعلَ مَن يعيشون في البيوتِ الساكنةِ على شاطئِه يتمتَّعون بالفرحِ وراحةِ النفسِ.

استعدْتُ راحةَ نفسي بعدَ فترةِ تأمُّلٍ واسترخاءٍ تامٍّ، وتعبُّدٍ وخشوعٍ في ملكوتِ اللهِ في انتظارِ غروبِ الشمسِ وشعاعِها الدافئِ على شاطئِ بحرِ يافا الذي يدعو كلَّ مِن يريدُ أنْ يعيشَ مع اللهِ أنْ يمارسَ التأمُّلَ مسترخيًا على رمالِه الدافئةِ مُتنفِّسًا نسيمَه العليلَ فتأخذَه غيبوبةٌ لذيذةٌ، ويعيشُ مع اللهِ.

شبيك لبيك

استلقيْتُ على رملِ الشاطئِ في انتظارِ أنْ تهدأ ضجةُ الصاخبين الذينَ تجمَّعوا مِن كلِّ بقاعِ الأرضِ مِن حولي، يصيحون ثَمِلين بلهجاتٍ غريبةٍ: روسي وبولندي وألماني وإنجليزي، وغيرِها مِن اللغاتِ الأجنبيةِ، التقطْتُ مِنها بعضَ الكلماتِ الفرنسيةِ. كلماتٌ تَعبَثُ ببراءَتِكِ يا محبوبتي يافا التي توجَّكِ أهلُكِ عروسًا على البحرِ الأبيضِ المتوسطِ.

كانَ الغرباءُ يتراشقونَ زجاجاتِ سُكْرِهم يسكُبونها ويعبثونَ ببحرِكِ بسكبِ ما تبقَّى مِنها بعدَما ثَمِلوا وعبُّوا الكثيرَ، تركُوا المكانَ زُرافاتٍ، متأبِّطين بعضَهم بعضًا، بدأتْ غُمَّةُ صخبِهم تزولُ شيئًا فشيئًا، استعدْتُ نفسِي التي تاهتْ في عمقِ البحرِ عندَ التحامِ الأزرقِ بالأزرقِ؛ البحرِ والسماءِ، وقفْتُ وأخذْتُ أُلَمْلِمُ أوساخَهم وزجاجاتِ سُكْرِهم، وقاذوراتِهم أرميها في سلالِ الحديدِ المتناثرةِ على الشاطئِ التي تركوها وراءَهم غيرَ عابئين، وكأنَّه لا رقابةَ على شاطئِ العجميِّ، فأغلبُ سكَّانه: قلةٌ مِن أهلِ يافا، وأغلبُهم مِن القرى المحيطةِ بيافا بعدَ أنْ دُمِّرتْ، ويهودُ روسيا وأوروبا الشرقيةُ وبعضُ اليهودِ مِن أصولٍ عربيةٍ جلبَتْهم إسرائيلُ بكلِّ الوسائلِ.

سكنَ الغرباءُ بيوتَ أهلِ يافا، دورٌ جميلةٌ ورحبةٌ سكَنوها مفروشةً بعدَ أنْ خلَتْ مِن سُكَّانِها، أخذْتُ أمسحُ دموعي بكفِّي غيرَ مصدِّقةٍ ما أشاهدُه، هلْ هذا هو مرتعُ طفولتي الذي عدْتُ إليه بعدَ أكثرَ مِن أربعينَ عامًا؟ هلْ هذا هو ما تبقَّى مِن الشاطئِ العربيِّ مِن

حيِّ العجميِّ أحدِ شواطئِ يافا الواسعةِ والعريضةِ والتي غيَّروا اسمَها إلى يافو؟

نظفْتُ المكانَ، أخذْتُ أستعيدُ بعضًا مِن هدوءِ النفسِ، جئْتُ لأُسعِدَ روحي المشتاقةَ والهائمةَ بحبٍّ يافا، وأُصبْتُ بخيبةِ أملٍ وإعياءِ جسدٍ بعدَ البحثِ الحثيثِ لثلاثةِ أيامٍ عن بيتي في يافا؛ بيتِ الشاطئِ، فَرَدْتُ شالي على بقعةٍ مِن الرملِ تُواجِهُ البحرَ مباشرةً، وسبرْتُ غورَه وذبتُ فيه، تأمَّلْتُ البحرَ والسماءَ وغِبْتُ في ملكوتِ اللهِ وقدرتِه سبحانَه وتعالى على بقاءِ الأشجارِ والنباتاتِ التي تُحيطُنا حيَّةً خضراءَ ويانعةً.

نسيتُ ما آلَ إليه بيتُ أحلامِ الطفولةِ؛ "بيت الشاطئ"، الواقعُ على البحرِ الأبيضِ المتوسطِ في مدينةٍ عريقةٍ ساحرةٍ في فلسطينَ، اسمِها يافا عروسِ طفولتي، وجنةِ اللهِ على الأرضِ، التي أصبحَتْ يافو بعدَ الاستيلاءِ عليها وبعدَ الخرابِ والدمارِ الذي حلَّ بها.

رحتُ في إغفاءةٍ قصيرةٍ أعادَتْ لي جزءًا مِن أحلامي التي سُحِقَتْ، نظرتُ بعيدًا، شاهدْتُ قرصَ الشمسِ يهبطُ رويدًا رويدًا في قاعِ البحرِ، وفجأةً انبثقَ ماردٌ يتلوّى أمامي مِن قلبِ البحرِ، يهدرُ بصوتٍ هزْني مِن الأعماقِ:

- شبيكِ لبيكِ أنا عبدُكِ بينَ يديكِ، مُريني أستجبْ لكِ.
- أريدُ أنْ تُعيدَ لي بيتي وبلدي وأهلي وناسي.

طأطأ رأسَه حزينًا مردِّدًا بصوتٍ غائمٍ:

- هذا مستحيلٌ، لأنَّ أنجاسَ العالمِ جاءوا إليها وحفروا حولَها أسلاكًا مِن الحديدِ المكهربِ تقتلُ كلَّ مَن يقتربُ مِنها، أنا جئتُكِ مِن قاعِ البحرِ لأخففَ مِن حزنِكِ، دموعُكِ حرقتْ قلبي، جئتُ أحملُكِ وآخذُكُ معي إلى قاعِ المحيطِ.
- خُذْني، أنا ملكُ يديْكَ.

ولكنَّه لمْ يأخذْني واختفى في قاعِ البحرِ، بعدَ أنْ أُصبتُ بهزةٍ قويةٍ أفاقَتْني مِن غيبوبتي، سمعَ مَن يُرافقُني مِن سكانِ مدينةِ يافا صُراخي فظنّوا أنَّ كابوسًا صدمَني، ذابَ الماردُ مِن حيثُ أتى، وضاعتْ عليَّ فرصةُ غورٍ في عمقِ البحرِ الذي عَشقْتُ، لملمْتُ أجزائي التي تبعثرَتْ وخلعتُ حذائي وجوْرَبي، وطويْتُ أرجلَ الجينزِ عدةَ طياتٍ، وركضتُ إلى البحرِ أصيحُ بأعلى صوتٍ:

- يا أهلَ يافا، هل تسمعونَني؟
- نعمْ، نسمعُكِ.

سألْتُهُم بأعلى ما تبقّى مِن صوتِ المصدومِ في حُنجرَتي:

- هلْ وصلتْكم رسالتي؟ وضعتُها لكم في زجاجةٍ أغلقتُها بإحكامٍ بفلّينتِها الكبيرةِ، ولوَّحتُ بها بيدي عدةَ مراتٍ ثم رميتُها بقوةٍ إلى أبعدَ ما أستطيعُ مِن شاطئِ تونسَ الخضراءِ، عامَتِ الزجاجةُ بعيدًا وأخذتُ أراقبُها حتّى اختفَتْ.

صِحْتُ ثانيةً:

- هلْ وصلتْكم رسالتي؟

أجابوا بصوتٍ واحدٍ وبأعلى ما عندَهم:

- نعمْ، وصلَتْنا رسالتُكِ، ولكنَّنا لمْ نستطعِ الردَّ عليكِ، نحن محتلّون ومُغتَصَبون، ونعاني مِن الوحدةِ والترمُّلِ.

درْتُ في المكانِ عدةَ دوراتٍ وأنا أغنّي أناشيدَ مدرسَتي وطفولتي وأنتمْ تردِّدون ورائي، فاحَتِ المحبةُ عطرًا وملأتِ المكانَ، ها هي يافا، وهذا هو حيُّ العجميِّ وهؤلاءِ هم أهلي، هم كما تركناهم لمْ يتغيّروا.

كنتُ أدورُ ويتوهَّجُ قلبي بعدَ أنْ عادَ المكانُ الساكنُ في القلبِ بلحمِه ودمِه، واختفى الصوتُ النشازُ، ها أنا أُنشِدُ وأهلي وأحبتي يُنشِدون معي لُغتي، وفجأةً اتَّجهَتْ عيناي باتجاهِ التلةِ العاليةِ المُطلَّةِ على البحرِ في أقصى اليمينِ، وقعَ نظري مباشرةً على منظرٍ مفزعٍ لمْ أرَه مِن قبلُ، قبورِ أهلِ يافا مفتوحةٌ واجهاتُها ويظهرُ مِن كلٍّ واحدةٍ فجوةٌ سوداءُ حالكةُ السوادِ.

تذكَّرْتُ أنَّ المكانَ أصبحَ مكشوفًا وأنَّ سورَ يافا العريقَ لمْ يَعُدْ له وجودٌ، هذا السورُ العالي ماذا فعلوا بحجارتِه؟ ولماذا تركوا المقبرةَ يجرِفُها غضبُ البحرِ وأعاصيرُه. ناديْتُ بأعلى صوتي:

- يا أهلَ القبورِ، يا مَن تسكنُ أرواحُكم الجنةَ هلْ تسمعونَني؟ لقدِ استهانوا بمقابرِكم في يافا، دمَّروها فوقَ عِظامِكم، وبنوا فوقَها الفنادقَ الفخمةَ، كيفَ تسمحون لهم بذلكَ؟

أجابوا بصوتٍ مُنكسرٍ مهزوزٍ:

- لا نملكُ قوةً تردعُهم، فإذا لمْ يستطعِ الأحياءُ فعلَ ذلكَ، هلْ تُطالبين الأمواتَ الذين تناثرتْ عِظامُهم بعدَ أنِ احتلَّتْ

مقابرُهم، لمْ يكتفوا بأرضِنا، ولمْ يرحموا عظامَنا التي بُعثِرَتْ بفعلِ التدميرِ والإهمالِ.

نظرْتُ إلى الشطِّ وشاهدْتُ زجاجةً حمراءَ هُرِعْتُ إليها فتحتُّها وأخرجْتُ مِنها الرسالةَ التي كتبْتُها منذُ سنواتٍ وأرسلتُها لأهلِ يافا مِن شاطئٍ يمتدُّ ليصلَ إلى شاطئِ العجميِّ في يافا، بدأتُ أقرؤها:

أهلي وأحبَّتي إليكمْ رسالةُ حبٍّ وعشقٍ ليافا وبحرِ يافا وأهلي وناسي في يافا

أيها البحر الأبيض المتوسط
تحملني أمواجك الثلجية حينا
والثائرة أحيان.. تناديني تتخبط تغويني
ترفعني وتسقطني في أعماق جوفك
ذراعا موجك.. يقذفان بي هنا وهناك
يعانقاني... ويروياني
بقبلة ساخنة مع كل موجة صاعدة
مع كل موجة عائدة إلى جوف أعماقك
ومع كل هدير.. أسمع همساتك
تضمني ثانية تعبث في وجهي.. وتبعثر شعري
وتقسو علي بقُبُلاتك.. دون أن تعطيني فرصة لأخذ أنفاسي
إليك يا حبيبي.. يا بحري الغالي
إليك رسالة شوق.. أمانة تحملها.. إلى أحبائي
في يافا وفي حيفا وفي عكا

وإلى نخيل غزة الباسم على ثغرك
عندما أرمي جسدي في عالمك الساحر الجميل
ترفرف روحي كالطير الجريح
تنشد شواطئك الفلسطينية البعيدة
وشوقي يسبقني هناك.. إلى مياهك الحانية
تبعث الدفء في جسدِي المقرور.. قهرًا وولعًا
أستيقظ وشوقي هارب إليك
وجسدي يرتعش بردًا وخوفًا مِن المجهول
هلعًا من المحتوم
حبك يؤججني ويسهدني
ليالٍ أنصت لصوتك الهادئ حينًا
والثائر أغلب الأحيان
أحبك في صخبك.. أحبك في هدوئك
أحبك عندما تعلو أمواجك.. ويهدر صوتك الغاضب
أعيش في غيبوبة لذيذة.. يا لها من لحظات
يصعب على فراقك.. بعد أن تعودت عليك
آناء الليل والنهار
وفي كل صباح ومساء
لمستني بهواك.. واحتويتني
وأنت تحمل لي كل يوم
باقة ورد.. وعقدًا من الياسمين

من يافا حيث ولدت قربك
في شهر حِزيراني يكثر فيه الناس من حولك
سأبقى حبيبتك الأبدية
لأن برجي نابع منك
ولأني أحبك... أحبك... أحبك.
أيها البحر الأبيض المتوسط
تأسرني بحنانك.. وترسل لي نفحات حبك
تحمل رائحةَ الفل وأعشاب البحر
وزهور الليمون والبرتقال
أشمك ولا أشبع من شمك
أضمك ولا أشبع من ضمك
أتعرف لماذا؟
لأنك تحمل رائحةَ بلادي
رائحة البحر والأرض والشجرْ
أيها البحر
لا أدري لماذا يخافك بعضهم
كل هذا الدفء.. كل هذا السحر
ويخافك بعضهم..
أنت بكل ما فيك رائع
وأنت سِرُّ المُلهَمين
أتصفح وجهك

وأهرع لنداء قلبك الدافئ

تحمل الخير والنعيم

الله ما أجملك... صنعك فأحسنك

أيها البحر الأبيض المتوسط

لا أريد أن أغويك بلوثة حبي وجنوني

حتى تبقى أنت بهيًّا

أتحاشى النظر إليك

وأغلق أذني عن نداء هديرك الآتي من بعيد

فجأة لا أستطيع صبرًا على قهر روحي وحبي

فأرمي نفسي بين أحضانك.. كجثة هامدة

وداعًا أيها البحر

حزن العالم كله يسكنني.. ويمتص رحيق فؤادي

يأخذني إلى عالم جديد.. عالم يسوده السلام

عالم الأرواح ودنيا النفوس.

وداعًا أيها البحر الأبيض المتوسط

وداعًا أيها المارد الجبار.. وداعًا يا محبوبي

أركع على رمالك الذهبية

أنظر إليك بشغف وولع

أسبر أغوارك اللانهائية

أودعك الوداع الأخير

وأنا أرتجف.. من النشوة والألم.

في تلكَ اللحظةِ، طارَتْ أمامي ورقةٌ قديمةٌ أمسكْتُ بها بسرعةٍ قبلَ أنْ تبتعدَ عن مرمى يديَّ، فتحتُها وأنا ارتجفُ قهرًا، وهنا تذكَّرتُها تمامًا، وُزِّعتْ تلكَ الورقةُ قبلَ شهريْن في مؤتمرِ المهندسينَ المعماريينَ العالميِّ الذي انعقدَتْ ورشاتُ عملِه في مدينةِ مونتريال.

وزعتْ مِن قِبَلِ مُهندسين مِعماريين يهودٍ، شارَكوا في مؤتمرِ المعماريين العالميِّ في مونتريال في مايو 1990، يُطالِبون فيها المجتمعَ الدوليَّ، مجتمعَ المعماريين العالميين وكلَّ مَن يسمعُ نداءَهم بالمحافظةِ على هويةِ يافا العربيةِ مِن الناحيةِ المعماريةِ المتميِّزةِ وتراثِها التاريخيِّ الأصيلِ الذي كانَ يُدمَّرُ مِن قبلِ السلطاتِ الإسرائيليةِ، خاصةً بعدَ أنْ حَرَمَتْ ومَنَعَتْ أهلَ يافا مِن ترميمِها على مدارِ أكثرَ مِن أربعين عامًا، وذلكَ بهدفِ مَحْوِ هويَّتِها العربيةِ، تحدّوا القراراتِ الدوليةَ بما فيها حقَّ العودةِ، ومَنَعونا مِن العودةِ إلى وطنِنا وأرضِنا التي قُلِعْنا مِنها قسرًا وظلمًا.

العودة

عادَ إليها أحدُ أبنائِها المغتربين، وهو الدكتور إبراهيم أبو اللغد الذي تعرفْتُ عليه عن قُرْبٍ منذُ أنِ التقيتُ به عدةَ مراتٍ في المؤتمراتِ الفلسطينيةِ، وبعدَ استقرارِه في مدينةِ رامَ الله بعدَ أوسلو، كانَ آخرَ لقاءٍ معه في بيروتَ بمناسبةِ تكريمِ رفيقِ نضالِه الفلسطينيِّ ودربِه الأكاديميِّ الدكتور إدوارد سعيد بحياتِه، حضرَ التكريمَ شخصياتٌ أكاديميةٌ وسياسيةٌ وإعلاميةٌ متخصصةٌ بالقضيةِ

الفلسطينيةِ، وفي الطائرةِ التي أقلَّتنا إلى عمّانَ، قالَ لي إنَّه سيغادرُ فورًا إلى رام الله، وطلبَ مِنّي أنْ أبعثَ له كلَّ ما يصدرُ عن حفلِ التكريمِ الرائعِ في الصحافةِ المحليَّةِ.

صعّدَ مِن نضالِه الأكاديميِّ والبحثيِّ والتوعَويِّ وأسَّسَ في جامعةِ بيرزيت مركزًا بحثيًا هامًّا، وسكنَ منزلاً جميلاً صغيرًا في مدينةِ رام الله، ملأَ قلبَه الحزينَ وشوقَه الدفينَ في هذا البيتِ الذي عمَّرَه بزهورِ يافا وأقحوانِها وورِدِها الجوريِّ وياسمينِها وفُلِّها، عاشَ في ظلالِه، وزارَ مسقطَ رأسِه عدةَ مراتٍ، ورافقَ كلَّ مَن أحبَّ أنْ يزورَ يافا، أخذَهم إليها في رحلاتٍ جماعيةٍ شاركْتُ في واحدةٍ مِنها.

كانَ تاريخَها العريقَ، وأصبحَ ذاكرةَ الوطنِ، وعندَما عرفْتُ تفاصيلَ وصيةِ عاشقِ يافا، والطريقةَ التي تمَّ بها تحقيقُ هذهِ الوصيةِ، أحسسْتُ بهدوءٍ نفسيٍّ وشعورٍ عميقٍ بالنصرِ طغَى على شعورِ الفقدانِ، وكأنَّ تحقيقَ وصيةِ الميتِ هي نصرٌ كبيرٌ له ولفلسطينَ، وتأكدْتُ بعدمِ وجودِ المستحيلِ على وجهِ الأرضِ، طالما هناكَ حقٌّ وراءَه مُطالِبٌ، وثبتَ لي بأنَّ شِعاري: "**إنَّ للهِ عبادًا إذا أرادوا أرادَ**"، يتحققُ إذا آمنّا به لأنَّ أفكارَنا هي التي تخلقُ مستقبلَنا، شعرْتُ ولأولِ مرةٍ أنَّ الموتَ كانَ رضًا وقوةً بالنسبةِ للدكتورِ "أبو اللغد"، لأنَّه حققَ العودةَ وانتصرَ على الغرباءِ والقتلةِ الفاشيين، وعلى بطشِ المحتلِّ اليوميِّ على شعبي وأرضي، وتحكُّمِه في تفاصيلِ حياتِه، ورفضِه لحقِّ العودةِ للفلسطينيِّ حيًّا أو ميتًا.

الوصيةُ بحدٍّ ذاتِها هي قمةُ التحدي الأكبرِ، وانتصارُ الحبِّ المطلقِ والهدفِ الأسمى، وبراعةُ وشجاعةُ تنفيذِها بدفنِ صاحبِها فوقَ رفاتِ أجدادِه، تمَّ ذلكَ بدقَّةٍ عندَما نقلَه أصدقاؤه مِن أهلِ يافا، أجلسُوه على كرسيِّ السيارةِ الخلفيِّ وأسندُوا رأسَه وكأنَّه في غفوةٍ، وعَبَروا الحواجزَ الإسرائيليةَ حتى خرجَ مِن الضفةِ إلى يافا دونَ أنْ يُلاحِظَه أحدُ جنودِ الحواجزِ.

صَلُّوا عليه في أحدِ جوامِعِها، ودُفِنَ فوقَ رفاتِ أجدادِه، تحقَّقَ له حلمُ العودةِ ميتًا، حروفٌ مِن دفءِ القلبِ مُهداةٌ إلى كلِّ ابنٍ بارٍّ ليافا معشوقتِنا البهيةِ، مدينتِنا ومسقطِ رأسِنا يافا.

يافا أهنئُكِ.. عادَ إليكِ ابنكُ

يرقُدَ في أحضانكْ آمنًا مستقرا

يافا مدينةُ حبيبِ فلسطينْ

تركَ الدنيا وعاد.. عادَ إلى فلسطينْ

سكنَ رام الله.. في بيتٍ هادئٍ

استنشقَ رائِحتكِ.. ورائحةَ بحر يافا..

وأزهارِ ليمونها وبرتقالها

زاركِ أول مرةْ.. بعد غيابٍ طويلْ

وغربةٍ مرةٌ

سبقتهُ ذاكرتُكِ إليهْ

اهتزَ قلبهُ الكبيرَ.. بحب يتدفقْ

وشوق يتوهجْ

يافا لم تعد يافا

أسماؤها تغيرتْ.. شوارعها.. معالمها

أشجارها.. أزهارها

وبياراتِ برُتقالها الذهبي

شفَطوا عيونِ الماء.. عَبثوا ببحركِ..

وجرفوا بيوتكِ

أرادوا أن يسحقوكِ منَ الوجودْ

أرادوا أن يمحوا تاريخَكِ

شردوا أهلك.. رموهُمْ في اليمِ

تقاذَفُهمْ الموجُ والرعبْ

ابن يافا الباز..

خرجَ منها عنوةً.. وعادَ إليها عنوةً

عدتَ إلى مسقطِ رأسِكْ

عدتَ إلى عروسكِ يافا.. وصيتكُ الأخيرة

يا عاشقَ البحرِ والوطنْ

عُدتَ إلي يافا.. محمولاً على الأكتافْ

مصحوبًا بأهازيجِ الفرحِ الحزينْ

وتراتيلِ النبي روبين.

عاد حيث ولد

اضطجع على رفات أجداده ونام

نمْ قريرَ العينِ والروحْ

أنت في موطنك هانئ
وفي منبتِ رأسكَ آمن
نمْ مستريحًا يا صديقي
عدت أخيرًا إلى يافا
هنيئًا لكَ.. لن ترحلَ ثانية.. لن ترحلَ مرة أخرى..

الوصية

فدوى طوقان يا أنشودةَ الفرحِ، بعدَ رحيلِكِ عن عشِّكِ الجميلِ امتنعَتِ العصافيرُ عن التغريدِ، وتوقَّفَ نبعُ البادان عن التدفُّقِ، وشقائقُ النعمانِ عن التفتُّحِ في حديقتِكِ ونباتاتِها البريةِ وزعترِها، وتوقفَتْ ميرميَّتُها المنتشرةُ في شقوقِ سلاسلِ الجبالِ وبينَ الصخورِ عن التبرعُمِ.

كلَّما تصفحْتُ كتابَكِ الأخيرَ "**اللحن الأخير**" آخرُ ما وصلَني منكِ مزيَّنًا بإهداءٍ مِنكِ: "**إلى سيدةِ الشفافيةِ والعمقِ، إلى شقيقةِ الروحِ نوال حلاوة، مع كلِّ الحُبِّ**" كلَّما تصفَّحْتُه تذكَّرْتُ وصيَّتَكِ: "**أنتِ أديبةٌ يا نوال، تفرَّغي للكتابةِ**".

فهل نفَّذْتُ وصيتَكِ؟

بحثْتُ بينَ قصائدِكِ فكانَتْ "**على أبواب يافا يا أحبائي**" التي فجَّرَتْ في قلبي الحنينَ وأحْيَتْ نبضَ القلبِ، ها أنا قدْ نفَّذْتُ وصيتَكِ، ووقفْتُ مع كلماتِكِ على أبوابِ يافا أنتظرُ حلمَ العودةِ مِن جديدٍ.

تمَّتْ

المؤلفة في سطور

نوال حلاوة

مؤلفةٌ وكاتبـةٌ أردنيـة مـن أصـل فِلسـطيني، كتبـت الكثيـر مـن الوجدانيات الشعرية، ونشَرت بعض القراءات النقديةُ لروايات وأعمال مسرحية، عملَتْ صحفيَّةً لفترةٍ طويلةٍ في العديدِ مِن الصحفِ المحليةِ والعالميـةِ، حصلَتْ على العديدِ مِن الجوائزِ خلالَ عملِها، عضـو المعهدِ الدوليِّ للصحفيين، والنقاباتِ الأدبيةِ، والتعاونياتِ النسائيةِ.

كتبتِ القصـةَ القصيرةَ، والنثرَ الشعريَّ، وشاركتْ في مجالاتِ السينما، والمسرحِ، والأدبِ، والسياسـةِ. لها العديـدُ مِـن المقـابلاتِ الصحافيةِ المهمـةِ وعلى الأخصِّ مـع الأسـرى الإسرائيليين الـذين قبض عليهم بعد إجتِيـاح إسرائيل للبنـان، ومـع قِيادات فِلسطينيةٌ وعربيةٌ سياسيةٌ وثقافيةٌ وأدبية. تَعِدُهم للنشر قريبا لأهميتهم التاريخية، مع مجموعتَها للقصة القصيرة.

أعدت ونفذت أوبريت "البيت" لمسرح العرائس عنـدما كانـت رئيسـة اللجنـة الإعلامية لإتحاد المرأة الفلسطينية فرع الكويت. رائدة بالعمـل النسـوى وعضـو مؤسـس فـي إتحـادات المـرأة الفلسـطينية والعربيـة، وحقوق الإنسـان، وقيادة ورش العمل والندوات والمؤتمرات الصحفية.

الستّ زبيدة

تمثل رواية «الست زبيدة»، باكورة الإبداع الروائي، للكاتبة الفلسطينية «نوال حلاوة»؛ وهي رواية طويلة، تجسد ذاكرة الوطن الفلسطيني؛ سياسيًا واجتماعيًا وإنسانيًا، وتطرح نصًا يفجر وعيًا، بمراحل القضية الفلسطينية؛ وجودًا وهوية، بدءًا من وعد بلفور 1917م، مرورًا بإضراب عمال ميناء «يافا» 1936م، ووصولًا إلى تراجيديا الواقع الفلسطيني، طيلة سنوات العقد اللاحق لنكبة 1948م، وأصداءها المرة، التي ألمت بالشعب الفلسطيني، وأنجبت أجيالًا من اللاجئين، الذين تكبدوا مرارة البؤس، والعوز، في واقع المخيمات، بعد أن اقتلعوا من قراهم، وأضحوا في ضياع التشرد، والشتات القسري، بلا وطن ولا هوية، ولا أدنى سبل للعيش الكريم، في ظل اغتصاب للأرض والتاريخ والحلم.

ويأتي السياق الروائي لـ «الست زبيدة»، عبر شعرية سردية، تجسد حالة من النوستالجيا، والحنين إلى الماضي؛ بزمانه ومكانه وشخصياته وأحداثه؛ المشبعة بإنسانية متوهجة.

د. شريف الجيار

نوال حلاوة

مؤلفةٌ وكاتبةٌ أردنية من أصل فلسطيني، كتبت الكثير من الوجدانيات الشعرية، ونشرت بعض القراءات النقدية لروايات وأعمال مسرحية، عملت صحفيةً لفترة طويلة في العديد من الصحف المحلية والعالمية، حصلت على العديد من الجوائز خلال عملها، عضو المعهد الدولي للصحفيين، والنقابات الأدبية، والتعاونيات النسائية. كتبت القصة القصيرة، والنثر الشعريّ، وشاركت في مجالات السينما، والمسرح، والأدب، والسياسة. لها العديد من المقابلات الصحافية المهمة وعلى الأخص مع الأسرى الإسرائيليين الذين قبض عليهم بعد إجتياح إسرائيل لبنان، ومع قيادات فلسطينية وعربية سياسية وثقافية وأدبية. تعدهم للنشر قريبا لأهميتهم التاريخية، مع مجموعتها للقصة القصيرة. أعدت ونفذت أوبريت «البيت» لمسرح العرائس عندما كانت رئيسة اللجنة الإعلامية لإتحاد المرأة الفلسطينية فرع الكويت. رائدة بالعمل النسوى وعضو مؤسس في إتحادات المرأة الفلسطينية والعربية، وحقوق الإنسان، وقيادة ورش العمل والندوات والمؤتمرات الصحفية. عضو المعهد الدولي الصحافيين، إتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين وإتحاد الأدباء العرب. تعاونت مع برنامج الأمم المتحدة الإنمائي واليونسكو وجامعة الدول العربية. أسست بيت تراث العرب في كندا ونسقت، ونفذت المهرجان التراثي والثقافي العربي الأول في كندا لتسعة عشر وطنا عربيا في ليلة أطلقت عليها إسم: «شهرزاد ألف ليلة وليلة» على مسرح Place-Des-Arts «الست زبيدة» روايتها الطويلة الأولى وتعمل حاليا على روايتها الثانية، تعيش في مونتريال منذ 25 عاما. كرست نفسها حصريا للكتابة الأدبية. صدر لها كتابان: «أسرى البقاع»، «كان يا ما كان»، ولها رواية، تحت الكتابة.

جائزة الشيخ زايد للكتاب
الدار العربية للعلوم ناشرون
جائزة النشر والتقنيات الثقافية
2015

ISBN 978-614-01-1691-7
9 786140 116917

توزيع
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

facebook.com/ASPArabic twitter.com/ASPArabic www.aspbooks.com asparabic

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com